الابداع العالمى

تأليف: إيفانجلوس أفيروف

نداء الأرض

(رواية)

ترجمة: د. نعيم عطية

مراجعة: د. لويس عوض



الإبداع العالمى

رواية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

من روائع الأدب اليوناني المعاصر

نداء الأرض

رواية

تأليف

إيفانجلوس أفيروف

ترجمها عن اليونانية

د. نعيم عطية

راجعها

د. لويس عوض

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

« الى زوجتي »

ان كل ما ورد في هذه الرواية بشأن نشاط الاتحاد الروماني ومؤازرة لواء فورلي الايطالي له ، وكذلك نضال المعارضين لهـذه الحركة الانفصالية يتفق تماما مع الحقيقة ،،،

الجزء الأول

طريق الانحطاط

١

كل شيء كان يسير بطريق معكوس ، الآن وقد دخل القطار الى الشرق الأدنى .

هنا ، حتى عربات القطار ذاتها تتأرجح أكثر من أى مكان آخر . وكم من مرة اصطدم يمينا ويسارا فى الممرات التى كان عليه ان يجتازها ليصل الى مقصورته . يا لها من فكرة ألا توضع عربة الطعام بمقربة من عربة النوم .

نظر الى ساعته وهو يغلق الباب خلفه : انها التاسعة . لم يتناول فى حياته افطاره فى وقت مبكر مثل هذا . فى أى مكان بالعالم المتحضر لا يوقظونك لتتناول الافطار ، الا اذا اقترب القطار من نهاية الرحلة .

ولكن لما المبالاة . أهو وقت الحديث عما هو لائق وقد راح القطار يعبر بلاد الصرب ؟

كان عاديا أن يستيقظ من الفجر العاملون بالمطعم ، هم من أهل الصرب ، وان يعتبروا ذلك الوقت جد متأخر .

خلع نيكيتا كوليتيس قفازيه الرماديين ووضعهما ببعض التأفف على الأريكة المخملية الخضراء التى كان يستخدمها بين الفينة والفينة بديلا للسرير . مجرد ذهابه الى عربة الطعام والعودة جعلا قفازيه يتسخان وقد ارتداهما نظيفين هذا الصباح فحسب . ربما لأن فى هذه البلاد ليس ثمة قطارات تسير بالكهرباء ، أو ربما لأن أصحاب القطارات

يستخدمون صنفا رديئا من الفحم ، وقاطرات عتيقة تباع أمثالهـا فى البلاد الغنية كحديد خردة · من يدرى ·· وعلى كل الأحوال ، فمن هذه الجزئيات الصغيرة اضحى مفهوما أن القطار قد دخل البلقان ·

والليلة ، يصل الى اليونان ·

بعد خمس عشرة أو ست عشرة ساعة اذن ، سينزل من القطار ، وتطأ قدماه تراب اليونان ·

عشرون عاما مضت على مغادرته لها ، يا للغرابة كم يمضى الوقت سريعا ، وها هو الآن يعود اليها دون أن يشعر نحوها بأية عاطفة · لأول مرة منذ العديد من السنوات ، سيرى من جديد لاريسا ، ثم من بعدها سيرى أثينا · وما من شىء يهتز بداخله ·· لا فرحة ، ولا فضول ، ولا تأثر بنبل ذكريات قديمة · ولو كان عليه أن يجهد نفسه بحثا فى داخله عن احساس ما ، فلن يكون هذا الاحساس سوى الرفض والانكار ·

انزوى فى ركن من أركان الاريكة المخملية بالقرب من النافذة ، وأحس بالجو الكئيب الذى خيم على شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ ، وفكر ان مشاعره السيئة نحو أرض الوطن كانت أمرا طبيعيا ·

قيل له انه يمتلك ثروات كبيرة فى اليونان · فليكن هذا ، انه شىء طيب ··· منذ وفاة عمه المسكين بانابوتيس ، لم يرسل له أحـد فلسا واحدا ·

كان ذلك على ما يبدو محظورا ·

ولا ضير فى ذلك · اذ أنه بدافع من عدم الاكتراث من ناحية ، وانصياعا لنصائح أقاربه من ناحية أخرى ، لم يشتر فى باريس سوى تلك الشقة التى يسكنها ، أما بقية أملاكه فقد تركها فى بلده التعس ·

وها هو الآن ، يعود الى هناك ، وقد أعلنت تلك الحرب التى لم يكن يعرف أحد متى ستستعر نيرانها حقا ، والى أى مدى وفى أى اتجاه سيمتد لهيبها · وهل سيتصادف ان تبسط تلك الحرب على اليونان ذاتها فى الأيام أو الأسابيع القليلة التى سيقضيها بها ؟

أفزعه هذا الخاطر ·

قال لنفسه « بلد غير متحضر · منذ أن صرت قادرا أن أكـون

لنفسي رأيا ، يسبب لي التفكير في هذا البلد ضيقا وبعض التقزز . ومن ناحية أخرى ، أي ذكريات احتفظ بها منه ؟ » .

مرت بفكره مرورا عابرا مشاهـــد باهتة من سنوات منسية . دروس ، معلمون لكل المواد في البيت ، الجـد المبجل الذي كان يريد أن يراه رجلا ونسرا ضخما بينما لم يكن سوى طفل صغير .. وفي النهاية .. عندما بلغ الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمره ... جاء المشهد المأساوي المضحك : رسميو لاريسا كلهم في فتيليونا ، مدعوون من قبل الجد كي يروا حفيده المبرز يستخدم لأول مرة سلاحا ناريا . ولكن ارتداد البندقية سبب له ألما بالغا في كتفه ، كما سبب له دوى الرصاص الفجائي في أذنيه خوفا شديدا ، فرمى الى الأرض بالبندقيـة « المانليشر » الثقيلة ، وهرع يلقى بنفسه بين أحضان أمه باكيا ... استشاط الجد لذلك غضبا . ومن طرف عينيه رآه يبتعد وسط الصمت الذي خيم على الجميع ، ويغلق على نفسه باب البيت .

كان المشهد بالنسـبة للجميع مضـحكا ، وقاسـيا ، وجائرا . أكان ايذانا بالمأساة الكبيرة ؟ في الغد كان الرحيل الى اثينا . وبعد غد دفن الأب والأم في اليوم ذاته ...

وقالت له الخادمة العجوز :

ــ السكير الجلف قتلها ، ثم انتحر .

كان يهب في الليل من نومه صارخا . وفي النهاية . كلف الجد مستخدما يعمل عنده بالبنك أن يصحبه الى فرنسا حيث الحقه بالقسم الداخلي من مدرسة بالقرب من فرساى .

وكم كانت الحياة باردة . هناك أيضا . وفيما بعد زادت الأمور سوءا عقب الكارثة التي منيت بها اليونان في آسيا الصغرى .

الهزيمة ، الهرب ، جموع المهاجرين ، الاحسان الأجنبي ..

وكم من سخريات بدرت من الفتيان الآخرين .

ومن ثم أخذ يفهم أن كل ما سمعه من جده ومدرسـيه اليونانيين عن سطوة اليونان وعظمتها كان خرافة . خرافة ابتدعهـا اليونانيون ليخفوا بؤسهم الفظيع أو لكي يتعزوا بأوهام . ويا له من اكتشاف هذا ويا لها من خيبة أمل . ذلك أنه بلا شك لم يكن نسرا ولكنه كان يعزي نفسه بأنه ينتمي الى أعظم الشعوب في العالم وأكثرها أمجادا .

سنوات قاتمة ·· قاتمة باردة ·· ذكريات حافلة بالمرارة ·

فكر قائلا « ماذا سوف كنت أضحى ، لو لم تحصل قصائدى الأولى على جائزة ·· كانت هذه الجائزة منقذتى » ·

فى البلد الأجنبى ، يوما بعد يوم اعترف له بمكانة عادت عليه بعلاقات ودعوات وصداقات ، وكل ذلك بلا كبير عناء ···

وجه اليه نقاد عديدون نقدا قاسيا ، قائلين انه انما يسمم النشىء بقصائده · وبلغ بهم الأمر الى حد القاء اللوم على لجنة المحكمين الموقرة التى منحته الجائزة · وتجريح الأبيات التى تصدرت ديوانه ، بمقولة أنها تفضح عقليته المنحلة · كان بامكانهم أن يقولوا ما شاءوا ! فقد كان ثمة آخرون كالوا له المديح ··

« أنا الامبراطورية فى ختام مرحلة الانحطاط » هذا ما يقوله فيرلين فى مقدمة ديوانه · أجل ! هذا حقا ما كان يحس به ويكابده · نبل مصفى فى آخر درجات الانحطاط · لم يعد لكل سوى أن يحسب حساباته وان يختط طريقه · أما هو ، فكان يحلو له نمط الحياة الذى يحياه مستمتعا بالدعة والجمال بلا شواغل ولا عواطف عنيفة ، بصحبة نساء فاتنات · وفى الأيام الخوالى عندما كان أكثر شبابا بكثير ، بل واليوم وقد بلغ الخامسة والثلاثين ، كان يحس بالتعب والاحباط · لم يكن يضايقه ذلك · كل ما يتمناه أن ينتهى العبور الغبى بالحياة على الأرض فى هدوء ··

أثارته هذه الفكرة · هل سيبلغ أهدافه فى لاريسا وأثينا ؟ ماذا سيفعل لو تأخر فى اليونان ، وامتدت الحرب اليها ، ووجد نفسه محتبسا بين أسوارها ؟

يا للعنة ! ما عاد يحس بأى ارتباط بهذا البلد · وما من شىء سوف يكون أكثر ازعاجا وسماجة من أن يجد نفسه قد انغلق هنا دون وسيلة للخروج ·

نظر خارجا ليغير من مجرى أفكاره ، ولكن ما رآه كان تصويرا دقيقا لصدق معتقداته ·

كان القطار يمر الآن امام قرية صربية ذات بيوت صغيرة واطئة ، واطئة الى حد يبعث اليأس · الرجال ذقونهم شعثاء الشعر لم تقربها الموس منذ بضعة أيام ، وملابسهم مهلهلة رفعت مئات المرات ، وانتعلوا

قطعا من جلود الخراف ربطت بسيور الى أقدامهم · وقد اختلط هؤلاء الرجال بقطعان الخنازير مهملين وبلا أكترات · غطت الاوحال أجساد الحيوان والناس على حد سواء · تلك الأوحال التى تلطخ كل شيء ، وتسود بلا ضابط كل الانحاء ، وتعتبر النبرة السائدة فى حياة القرى · بدت البيوت جد خفيضة ، أسقفها الكئيبة ممتدة نحو الأرض تحنى هاماتها أمام الأوحال · ولو وضع فى هذا المشهد محل الخنازير قطعان من الماعز أو الخراف لخيل للرائى أنه فى اليونان ·

فكر قائلا لنفسه « فى مكان ما بكرواتيا ثمة خط ينتهى عنده الغرب · ومن ورائه تبدأ بلاد البلقان ، وكل منها يشبه الآخر · كلها بلاد همجية وملطخة بالأوحال · أفضل أن انتحر على أن أعيش هنا ، هنا ·· أين ؟

وبعد التأمل خلص الى أن ما يجعلك تشعر ببلد من البلاد هو مناظرها الطبيعية والعادات التى يحياها أهلها ، وما يكنونه ويعبرون عنه من أفكار ولكن ما يجسم حقيقة هذا البلد لديك هو ذلك النفر من سكانها ·

ومع من احتفظ بروابط فى اليونان ؟ فى الحقيقة مع لا أحد ··

وعن بعد ، عندما كان يأتى الى باريس بعض الأقارب أو زملاء الدراسة القدامى ، ويطلبون مقابلته ، كان يقضى معهم قليلا من الوقت على مضض ، ويعتبرهم أغرابا لا تربطهم به رابطة · لم يعقد أواصر الصداقة مع أى يونانى ، ولا حتى أواصر الصداقة الباهتة التى ربطت بينه وبين بعض الأجانب · ما من مرة ذهب لقضاء أعياد الميلاد أو أجازات آخر الأسبوع فى بيت زيفى يملكه يونانى · ولم يبادل أحدا من اليونانيين الود · كيف اذن لا يشعر بأنه غريب فى اليونان ، ولا يداخله الاحساس بأنه فى منفى ؟

كلا ، من المستحيل أن يثور الشك فى هذا · وما كان هناك سوى حل واحد : ان يهرب من البلقان ويعود بأسرع وقت الى بلد النور والحضارة والرفاهية ·

دون أن يعلق بكلمة وقع فاسيلي مانوسيس الخطاب الذى أحضر اليه لتوقيعه ، ثم طلب ألا يزعجه أحد ٠

قال بحزم :

ـ يجب أن أكتب الى محافظ البنك ٠ ومهما حدث ، ان لم أدق الجرس ، فلا يدخل أحد ٠

لم يكن فاسيلي مانوسيس بحاجة الى أن يكتب للمركز الرئيسي ولا لأية جهة أخرى ٠ كان فحسب بحاجة الى أن يبقى وحيدا ، ويخلو الى الافكار التى تشغله ، كي يتفحصها باهتمام ٠ انها شلت عقله ، وربما أيضا أدخلت الخوف الى قلبه ٠ ليلة أمس ، قبيل منتصف الليل ، عندما تركت ابنته كيتي وأخوه نيقوس الحفل الذى أقامه للفالاك تعاظم قلقه ٠

وكيف لا تستبد به المخاوف ؟ قيل انهما تعمدا الانسحاب كي يعبرا عن احتقارهما لكل أولئك الذين تواجدوا فى الحفل ٠

استحضر المشهد في ذاكرته ٠ توقفت الاوركسترا عن العزف ، وخلت حلبة الرقص ٠ اجتازاها بخيلاء ، وقد ارتسم على قسماتهما الازدراء ، وخرجا دون أن يقولا له شيئا ودون تحية أحد ٠ كانا على الدوام يتحدثان عن لاريسا بشيء من الاحتقار ، ويستعليان على أهلها ، ولكنهما ليلة البارحة جاوزا كل حد ، رفضا ان يشتركا فى الرقص طوال الحفل ، وأعلنا استنكارهما له ٠ وفى النهاية ، بانصرافهما على هذا النحو الجارح ، فانهما كانا قد صرخا فى وجه الجميع بأنهما يعتبران مشاركتهما فى الحفل شيئا مهينا لهما وغير لائق بمقامهما الى حد لا يطاق ٠

كيف اذن فى هذه الظروف لا يعى هذه المخاوف كلها دفعة واحدة ؟ انه لم يغمض له جفن طوال الليل ٠

كانا المخلوقين الوحيدين اللذين يحبهما شديد الحب ٠ ومن أجلهما تحمل صنوف حرمان كثيرة ، وشيد احلاما عديدة ! أحلام ، بدت منذ أمد قريب قابلة للتحقيق ٠٠٠

عندما كان صبيا صغيرا ، رحل سيرا على الأقدام من سامارنيا قاصدا لاريسا ٠ حيث ساعده العجوز نيكيتا كوليتيس ، ذلك العملاق ، على دخول المدرسة واتمام دراسته بها ثم ألحقه مستخدما بالبنك ٠ ولم يكن يعتقد بطبيعة الحال ، أنه سيرتقى كثيرا ، ومع ذلك فها هو اليوم

في منصب مدير المنشأة ، ويمتلك ثروة صغيرة ، وجعل من أخيه محاميا ، وعلم بنته الوحيدة تعليما طيبا .

أجل ، كل هذا حققه بفضل جهد شاق وتقتير على النفس أكثر مشقة ، بفضل صبره وحكمته وأيضا بفضل نشاط تجارى مستمر ، خارج وظيفته فى البنك .

وفى اللحظة التى يوشك فيها أن يجنى ثمار جهوده كلها ، ها هو يرى أخاه ، وهو لا تنقصه الموهبة ، يأخذ طريق الانعزال ، وابنته ، وكم كانت جميلة ، تأخذ طريق العوانس ، وتصل الى السادسة والعشرين . وأى فتاة بقيت حتى هذه السن بلا زواج ؟

قال لنفسه « الذى أضاعها هو المدرسة الأجنبية بأثينا ، وتلك الصديقات الثريات اللاتى كن يدعونها لقضاء الصيف فى كيفيسيا وغليفادا ، وأيضا سحرها وصوتها الجميل . أما عنه هو ، فالذى أضاعه هو غروره وذكاؤه الوقاد ، والتصاقه فى وقت مضى بالحزب الشيوعى . ولكن مهما كانت الأسباب يجب على أن أتدارك الكارثة » .

نهض وخطا بضع خطوات . ثم قال بصوت مرتفع حتى يتزود ببعض الشجاعة :

« يجب أن أفعل شيئا كبيرا . وفى نهاية الأمر انهما يعتمدان على . يجب أن يطيعانى . يجب أن ظهر لهما صرامة . كفانى نعومة معهما » .

فتح الباب ، وسمع صوتا مألوفا لديه :

ـ لا أنا ولا أنت ، يا عزيزى فاسيلى ، يجب ان نتمادى فى النعومة ، اليوم .

التفت فرأى صديق الدراسة القديم هادزيبيروس ، الذى كان مثل أخيه محاميا بالبنك . انتاب فاسيلى مانوسيس القلق لأنه لم يكن يعرف ما سمعه الآخر على وجه التحديد من أقواله . فقال له انه مستاء جدا من وقاحة أحد العملاء .

أجابه الزائر غير المتوقع :

ـ سوف نحتاج الى الصرامة أزاء عميل من نوع آخر ، يا عزيزى .

ـ لماذا ؟ ماذا يحدث ؟

ـ هذه الليلة ، عند منتصفها ، يصل الحفيد من باريس رأسا .

سأل فاسيلي دهشا :

ـ الشاعر ؟

ـ هو بعينه ، الشاعر الذى يحمل الاسم السحرى لجده · كلمنى المحافظ تليفونيا · ويريد أن نذهب معا لاستقباله بالمحطة ، وان نبذل قصارى جهدنا لافساد خططه ·

شرح له أن الشاب كوليتيس جاء ليبيع كل أملاكه فى اليونان ، ويزمع أن ينقل الى الخارج كل ما سيحصل عليه من مال لقاء أملاكه المباعة ·وانه يجىء على عجلة من أمره وقد انعقد عزمه · وقد استشاط لذلك القرار غضب عمه سبيروس كوليتيس الذى يدير البنك منذ وفاة الجد · وأعلن أنه لن يسمح بشىء من هذا القبيل أن يحدث ·

علق فاسيلي على ذلك باستحياء :

ـ ان فكرة الشاب ليست سيئة تماما ·

ـ هل تمزح ؟

قال مدير الفرع باللهجة المتواضعة ذاتها :

ـ ان الأرض التى يملكها لا تدر عليه سوى القليل اذا ما قورن ذلك الدخل بالقيمة الرأسمالية لتلك الأرض ·

رد عليه الآخر بجفاء :

ـ ليست هذه هى المشكلة · وألفت نظرك أولا الى أن الشاب يتعجل البيع كما يبدو ، ومن ثم سيبيع أملاكه بنصف الثمن · وألفت نظرك ثانيا ، الى أن الحرب قد بدأت ، وفى زمن الحرب ، الأفضل ان تكون لك أموال عقارية من أن تقتنى درخمات عجفاء وأوراقا مالية ، وثالثا ، وهذا هو أهم ما فى الموضوع ، فان كل ما سيحصل عليه من البيع سيجمد هنا ، ومن ثم سيكون غير قابل للاستفادة به خارج اليونان ·

ـ بالنسبة لجزء من أمواله على الأقل ، يمكننا أن نساعده على ارساله الى الخارج ·

ـ اننا لن نسدى العون أبدا فى عملية غير مشروعة مثل هذه ، وزد على ذلك أن محافظ البنك لا يوافق · ثم ، ماذا تريدنى أن أقول ، انه لما يؤلمنى ان أتصور الحفيد قادما كى يعرض فى المزاد كل ما تركه الجد الكبير ·· يا لضيعة الآمال حقا !

عاد فاسيلي مانوسيس يجلس الى مكتبه · كان يتابع الآخر بنظراته في كل وهلة ، ويخفضها الى الأرض ·

قال ببطء :

ـ أنت صلب الرأى · ان كل امرىء يتبع طريقه الخاص · واذا كان الشاب لم يقتف أثر جده الا انه اكتسب بعض الأمجاد فى فرنسا · وهو بذلك يشرف اليونان ··

ـ اليونان التى لم يأت اليها ولا مرة واحدة · ولا يتحدث عنها فى قصائده الا كبلد أجنبى عنه ، ومن التاريخ القديم ! بل انه فى فرنسا ذاتها ، يتهمونه بأنه « شاعر السموم والانحلال » · بقدر ما كنت أعبد نيكيتا كوليتيس الآخر ، أشعور بالنفور من هذا الحفيد· ينقبض قلبى ما ان أفكر فيه !

تأهب للانصراف ، لكنه توقف ، وقد أربكه الجو الذى خيم على محادثه · ما عاد يوجد فى عينيه أثر للضيق الذى رآه مرتسما فيهما منذ برهة · ثمة شيء أدخل السرور عليه · روحه الماكرة تبينت امكانية انتزاع مكسب ما من المسألة · ومع ذلك ، فقد كان الجد الاسطورى الذى صنع من كل منهما ما هو عليه حزيننا الآن ، فثمة مالا يسير على ما يرام فى أسرته · والصداقة لا تموت بموت الانسان ، بل تمضى باقية مع ذكراه ·

أراد المحامى أن ينقل اليه مشاعره الممضه · قال له واقفا عند الباب :

ـ ذهبت مساء أمس الى حفل الفالاك بدافع صداقتى بك ، لكننى اعتبر ، أزاء الدعاية الرومانية وهى دعاية نشيطة وصارخة ، انه لا يجب أن نمنحها من تلقائنا سندا فيما تنادى به من انفصال وفرقة ·

ـ ليس لذلك أهمية ، يا تاكى ·

ـ ولكننا نعطيهم حججا يدعون بها تلك الأهمية ، فينادون بأننا نحن الفالاك نختلف عن سائر اليونانيين · أريد أن أقول لك شيئا آخر أيضا · ذهبت الى الحفل لأن منظميه كلهم أصدقائى · ولكن أكان يليق أن تأتوا الى الحفل حتى بروبوتيكا ؟

ـ انه من عملاء البنك يا تاكى · ومن كبار مربى الماشية ··

اضاف الآخر قائلا :

ـ وشريكك فى صفقاتك المستترة · ولكنه فى نهـاية الأمر ، وعلى أى حال من اللصوص الكبار · وليس بالشخص المناسب لتقديمه فى مجالسنا ·

وبابتسـامة ساخرة أضاف قائلا :

ـ وآمل أن يكون هذا هو السبب الذى جعـــل كيتى وتيقوس يبكران بالانصراف شامخي الأنف ·



توقف ريامو عند طرف الحقل ، اسند محراثه الى الأرض ، وترك الجوادين يرعيان الكلأ ·

جلس عند حافة الأخدود ، ومضى يلف لنفسه سيجارة ·

وبعد أن جال بانظاره فى السماء المكسوة بالسحب ، أحس ببعض الراحة · لم يكن الجو ينذر بأمطار · سوف تتساقط بعض القطرات ، ولكن ســـوف يبقى الجــو كذلك أياما عديدة ، لأن نوفمبر يقترب من نهايته . ولم ينته بعد بذر الحبوب فى الأرض ·

ماذا كان بوسعه ان يفعل أزاء ذلك ؟ كيف ينجز بـــذر الحبوب بأسرع وقت · كانت الجرارات تالفة ، وقد علاها الصدأ ، وما عادت صالحة للاستعمال ، ملقاة فى عنابر فتيليونا · كيف يمكن لأربعة أزواج من الجياد أن تؤدى العمل كله ، كيف تحرث الحقول كلهـا ، وتوارى فى التراب الحبوب التى تبد باليد ، وليس بالبدارات الميكانيكية ؟ سنة بعد سنة يتناقص كمية ما يبدر ، ويسوء البـدار كل مرة عن ســـابقتها · ولا يستعان الا بدواب هزيلة وسيئة التغذية · وكيف ترسل للعمل من الفجر حتى هبوط المساء ؟ انها لن تقوى على الوقوف على ساقيها ··

تأهب للنهوض ، ولكنه عندما رأى الجوادين يلتهمان الاعشـــاب بنهم ، قرر أن يتريث قليلا ·

فكر قائلا « انه لعذاب كبير · ما عدت أطيقه · ألم أبذل قصارى

جهدى كى أعيد الأشياء الى نصابها الصحيح الذى رسمه لهـــا الجد الكبير والدنا جميعا ٠٠ » ٠

الله يعرف كم جاهد ريامو لاقنــــاع العم بانايوتيس كى يشترى جرارا ، ويغذى الأرض بالسماد ، ويستغل الرقعة استغلالا أوفى بزراعة القمح والبازلاء مناوبة لتســتريح الأرض ، ويطعم الدواب جيــدا ، بل ونصحه بأن يفعل شتى الأشياء ونهاه عن شتى أشياء أخرى ٠

وكان المرحوم العم بانايوتيس يرد قائلا :

ـ هذه الرقعة الهزيلة من الأرض التى بقيت لنا بعــد نزع الملكية لا تحتمل كل هذه النفقات الضخمة ٠ لا تفكر بعد اليوم فى عظمة الأيام السالفة ٠ اننا لا نستطيع أن نمضى الا بالاقتصاد الشديد ٠ ثمة مصاريف كثيرة ٠ الحياة باهظة التكاليف فى باريس ٠٠ ويجب أن ارسل نقودا الى الصغير ٠ فى كل لحظة أجدنى مضطرا للمساومة فى بيع قطعـــة أرض ٠٠

فليسامحه الله ذلك المسكين ! كان رجلا طيبا وبارا ٠٠ وهذا ما جعله لا يتركه ٠ كان طيبا ، لكنه لم يكن يشبه آباه ٠٠

جال ريامو ببصره فى أرجاء الوادى الفسيح ، وهناك فى الاغوار حيث كان يتصاعد بخار بدا له كما لو كان يرى الماضى ٠

أراد الجد أن تكون أولى فرق القناصة التى تسافر الى مقدونيا من أبناء بلدته ، ومع ذلك كان قد ترك تلك البلدة صغيرا ٠٠

وصل الى سيراكو رسول من طرفه وكانت هذه البلدة آنذاك تحت الحكم التركى ، على بعد خطوتين من الحدود القديمة ، وفى قلب اقليم ابيروس ٠ طلب ذلك الرسول فى الخفاء متطوعين ٠

يذكر ريامو الشهرين اللذين قضاهما هناك ٠ تطلع بعيدا الى تل أمامه ، هناك ، عند دير القديس ايليا ٠

يذكر التدريبات ، والسير فى جنح الليل ، وتحت المطر ٠٠

يذكر اليوم الذى جاء فيه الجد بنفسه ووزع عليهـــم أمام باب المحراب السلاح والذخيرة ٠ ممشوق القامة مرفوع الرأس قوى البدن ، بنظرته التى تشبه نظرة النسر ولحيته الطويلة البيضاء بدا له مثل ملاك من رؤساء الملائكة ، أو مثل شخص يخاطب الرب اذا شاء ٠

. . ويذكر ريامو النشيد الذى لا ينسى والذى لقنه أياهم تلك الليلة الآب موديستوس ذلك الذى انشدوه بعد ذلك آلاف المرات عندما كانوا يشتبكون فى المعارك مع الأتراك والبلغار على المرتفعات وفى المستنقعات حول تيسالونيك .

أدار عينيه صوب الحدود القديمة التى عبرها مع رفاقه خفية . وترنم باللحن القديم ! بصوت خفيض مفعم بالحسرة والحنين :

« أربعين سنة أحارب

على أرض مقدونيا

فى السنة الثانية والأربعين

سوف أرى الحرية

استيقظ اذن ، يا ابن الشعب

وتعال الآن لترى الحرية » .

ماذا يقول وماذا لا يقول ! لقد أمضى أياما طيبة ، طيبة . حقا . حمدا لله ! فقط فى هذه السنوات الأخيرة . لماذا يرى كل شىء قاتم السواد ؟ ما من شىء فى سالف الأيام ، كان يعرف هذه المعاناة .

ما سبب ذلك ؟ إستعرض عدة أسباب محتملة ، وفكر فى الحزان ابنته . ولكن كلا ! كل هذا الذى دار بخاطره نسى . لم يكن من الجسامة بمكان . ما الخطب ، اذن ؟

فجأة ، كما لو كان قد ومض فى ذهنه شعاع من الضوء ، لو كان قد تذكر شيئا آخر . نهض من مكانه طفرة واحدة . وجال ببصره فى الحقول المهملة والدواب الضامرة .

« يا عجوزى ، عمل شاق تقوم به دون ابتهاج ، يسمم عقلك . ومن ثم ، دون أن تنتبه الى الأمر ، يسرى السم فى كل ما حولك . ولكن لو استمرت الأمور هكذا فلن تقوم لى بعد ذلك قائمة . سأهلك . يصل الحفيد الليلة . واذا لم يصلح كل شىء فى فتيليونا فاننى سأعتزل الزراعة ، وأذهب أبحث عن عمل فى أى مكان . لا مفر من ذلك . والا سأهلك » .

خطا نحو الجوادين خطوتين ، ثم توقف مستغرقا فى التفكير .

« يجب أن أحادث فروسو الليلة فى الأمر ، حتى لا تجزع عندما تأتى اللحظة » .

وبالمقبض المعدنى لسوطه حك مقطع المحراث كى يغوص فى الأرض على نحو أفضل ، بعد أن خلصه من الطين الذى لصق به · ثم وجه الى الجوادين نداءه المألوف ، وانكب على العمل من جديد ، محنى الرأس وقد بدا عليه الاستسلام ·

حاولت فروسو أن تجعله يغير رأيه ، ولكن دون اصرار كثير على أى حال · أشارت له الى أنه لا ينقصهما شيء · وان لهما بيتا صغيرا طيبا . وانه لم يعد فى سنى الشباب ، ولكن كل هذا لم يجد فى اقناعه · كانت تعرف طباع أبيها ، ولا تجهل همومه ، بل وتفهم أمله ، فلم تشأ أن تقف منه موقف المعارضة ·

وفى النهاية ، قالت له :

– هذا حسن يا أبى · أنت على حق ·

خرج رياموكى يرى ما اذا كان العمال يعنون بالـــدواب · وفى مروره بجوار ابنته ، ربت على شعرها ·

أخذت التريكو الذى كانت تشتغله ، ولكنها لم تستطع أن تضيف اليه غرزة · كانت الابرتان تشبكان خيوط الصوف ، كما لو كانت تحركهما أصابع غير مدربة ·

ومن ثم تركت النسيج على ركبتيها · كان من المستحيل ألا تفكر انهما برحيلهما يمضيان نحو المجهول · وما المصير الذى ينتظرهما ؟ هنا ، توافرت لهما بعض سبل الراحة · فقد تعودا الحياة ، والمدينــة ليست بعيدة عنهما ·· بل وعلى مقربة منهما ، بالضفـــة الأخرى من النهر ، المدرسة الزراعية التى وجدت فيها صديقا · كلا ، كان اليكسى أكثر من صديق · كان أخا ·

والآن ، الى أين سيرحلان ؟ اغرورقت عيناها بالدموع · لـماذا ينقض عليها القدر بهذه الضراوة ؟ لماذا ؟

كانت فروسو فى الواقع تعانى من سوء الحظ ·

لم تشعر قط بغياب أمها ، فقد كان أبوها يعزها ويدللها · وكانت سنواتها الأولى التى أمضتها فى فتيليونا مثل حكاية من حكايات الطفولة السارة · وفيما بعد ، لم تعقها مسافة الكيلومترين أو الثلاثة كيلو مترات عن الذهاب الى المدرسة بانتظام · وكانت تلهو كثيرا هناك · ولما كانت فتاة صغيرة طيبة ، مرحة وذكية ، فقد كانت لها صديقات عديدات ،

وراحت تصعد من سنة دراسية الى أخرى كل عام بلا مشقة . وكانت تنوى أن تواصل دراستها كى تصبح محامية ، وبذلك تكون المرأة الأولى فى لاريسا التى تشتغل بالمحاماة . ولم يعارض الأدب مشاريع ابنته ، بل كان على العكس فخورا بها .

كل شيء على مستوى الحياة والاحلام مضى من أفضل الى أفضل حتى وصلت فروسو الى السنة النهائية ، وفجأة ، تحـــول حلم جديد الى حقيقة ، وقلب حياتها رأسا على عقب .

ذات مساء ، كانت عائدة من المدرسة مـــع اثنتين من زميلاتها . كانت البلاد عشية الانتخابات ، وأثناء مرورهن بالميدان رأين فى احـــد المقاهى اجتماعا هاما . توقفن هناك يتسكعن ويمرحن قليلا . ثم تبين أن المتحدث هو نوتيس الذى كان بالسنة النهائية عندما دخلن المدرسة وكانت الفتيات كلهن مغرمات به لما فيه من حرارة ورجولة تميزانه عن الآخرين . وكن جميعهن غيورات من كيتى مانوسيس ، أجمل وأذكى الفتيات ، فقد كانت الوحيدة دون سائر تلميذات الفصل التى يعيرها نوتيس اهتمامه ، وكان على « علاقة خاصة » بها .

التقت فروسو به بين الفينة والفينة فى الشارع مصادفـــة ، ولم يتبادلا فى كل مرة سوى تحية عابرة .

ولكن ذلك اليوم ، فى الاجتماع الانتخابى ، تعلقت قلوب التلميذات الثلاثة بشفتيه ، شأنهن فى ذلك شأن سائر الحاضرين جميعا . الذين كانوا بين لحظـــة وأخـــرى يقاطعون خطـــابه بصـــيحات الاستحســـان والتصفيق ، فقد مضى يلهب بكلماته قلوب المستمعين ، وقد ثبت أنظاره عاليا ، مؤكدا عباراته ببضع ايماءات مكتسحة .

كان يقول :

ــ الى متى ، يا عبيد الروتين ، يا عبيد الروابط الواهية والأحكـــام السلفية غير المبررة ، سنبقى مستكينين للشقاء ؟ الى متى ، بينما نحن نعرف أن شقاء الجماهير ، شقاؤنا جميعا ، يمكن قهره ، فهل نرفض أن نقهره ؟ الى متى سنرضى بأن تبقى الثروات القائمة غير موزعة بالتساوى بيننا ، ما دمنا على هذه الأرض نولد متســـاوين ولا اختلاف بيننا ؟ يا أخوانى ! يا اخوانى المعذبين ، المجردين من السلاح ، ضحايا الظلم ،

انهضوا ! واتبعونا · لقد دقت ساعة الخلاص بالنسبة للأرقاء ، ساعة الثورة ، دقت ساعة العدالة !

قالت واحدة من الفتاتين لفروسو :

– أصبح شيوعيا · لم آكن أعرف ·

وقالت الأخرى :

– هيا تنصرف من هنا · لقد وقعنا فى اجتماع شيوعى · يمكن أن يتحول الأمر الى اشتباك ومشاجرة ·

وابتعدت الفتاتان · أما فروسو ، فلم يكن بامكانها أن تنصرف · كان ثمة ما يجذبها للبقاء · وازدادت اقترابا · خيل لها أن قواهـا تخور ، وان قلبها على وشك أن ينفجر ، وانه قد نبت لها جناحـان وأنها على أهبة الطيران الى الشمس ·· وعندما انتهى نوتيس من خطابه وخرج وسط هتاف الجموع ، أمسكت به من ذراعه وقالت له باعجاب :

– نوتيس ، كنت رائعا ! ··· رائعا ! ···

دهشا ، ولكنه ممتلىء بالفرحة ، توقف وقال لها :

– يا صغيرتى فروسو ، هل أنت منا ؟

أجابت دون تفكير ولكن أيضا دون تردد :

– بالطبع اننى منكم ·

– غدا ، فى السادسة مساء ، سأخطب فى فيليبوبوليس · تعالى · لا أتمسك بذلك كى تسمعينى مرة أخرى ، بل كى أحظى برؤياك ·

كانت ضاحية فيليوبوليس بعيدة ، على الضفة الأخرى من نهـر بينيه ولكنها كانت على استعداد أن تذهب الى ما هو أبعد من ذلك · كانت على استعداد أن تذهب الى آخر المدينة ، بل الى آخر الدنيا · فقد قال لها انه سوف يسعده أن يراها ! ···

ذهبت تسمعه مرة ثالثة ، ورابعة · ثم جاءت القبلة الأولى · وجاء أيضا العناق الأول ، بلا تحفظ وفى غمار الفرحة ، جاءت الاسفار معه الى ثيسالونيك ، والى أثينا ، جنة الله على الأرض ، الجنة الكاملة ·

وفى يوم ، بأثينا · لم يعد نوتيس اليها · تلقت خطابا ألقى به

من تحت الباب ·· كان سيسافر الليلة ذاتها الى الخارج ، لم يكن بامكانه ان يقول أين ، ولكنه يخشى أن يتغيب هناك طويلا · انها أوامر الحزب · والمسألة بالغة الخطورة · وكى يختتم خطابه . سطر لها بضع كلمات حب ، وأمل ضعيف ···

وبذلك بدأ العذاب ، العذاب الكبير : ولادة الطفل . الصراع المأساوى من أجل الحياة ، مراودات الرجال الملحة الشرسة فى الأماكن التى تتواجد فيها ، وفاة الطفل ، اليأس الأسود ، العودة الى فتيليونا ، حيث كان ينتظرها لحسن الحظ حنان أبيها ··

عادت السكينة الآن · والكراهية التى أعقبت الموت . انمحت بدورها ليحل محلها عدم الاكتراث · ما من جنة على الأرض ولكن هناك صفاء البال . وبالامكان ان يقال أيضا ان ثمة سعادة من نوع ما تسود البيت · كما تفد اليها من هناك من الجانب المقابل لفتيليونا حرارة صداقة ما ·

ولكن الآن ؟ ماذا سيحدث ؟ أين سيقودها القدر ؟

تمتمت تقول « الرب سيقرر · حتى أعواد القش التى تذروها الرياح تخضع لارادة الله » ·

انتظرته طويلا · وما أن رأته فهمت ·

دخل ريامو خفيض الرأس · لف سيجارة وراح يدخنها فى صمت ·

ما لبث أن قال متمتما :

ـ يا له من نحس ! انه يشبه الجد · لو كانت له لحية لكان هو الجد بلحمه وعظمه · يا له من قدر ملعون !

ـ ماذا جرى يا أبى ؟

لم يجب ، ولكن نظراته ازدادت انحدارا نحو الأرض ، وبدا وجهه المجعد أكثر قلقا ·

ـ فروسو ، سنرحل · ما ان ننتهى من زراعة المحصول سنرحل · سأذهب يوم الأحد الى المدينة ، وسأبحث عن عمل · من المستحيل أن أفعل شيئا آخر ·

٢

مضى بخطوات حثيثة ، كما لو كان عليه مهمة يؤديها . كما لو كان يتجه الى وجهة محدودة ، منجذبا الى شيء بانتظاره .

لم يكن له أى وجهة يقصدها ، في الواقع ، بل ولم يكن يعرف الى أين هو ذاهب .

قضى ليلة أرق ممضة ، شرب فيها الخمر وتناول المنومات . احتدمت المناقشات طوال بعد الظهر والمساء حول شئونه المالية ، فشعر بنفسه يختنق فى البيت . هذا الاثاث القديم ، وهذه الطنافس الثقيلة ، وهذه الألوان القاتمة ، الماثلة فى كل مكان من حوله ، كل هذا جعل قلبه ينقبض ، وأدخل الخوف الى قلبه فجأة . ودون أن يعرف السبب ، كما لو كان مدفوعا من القدر أو ناداه حافز ملح ، خرج على عجل .

ربما كان محتاجا الى قليل من الضياء ، والخضرة ، والحركـــة ، ليبدد ذلك الطنين الذى ملأ رأسه ، ويخفف من طعم العلقم والطين العالق بفمه ، ويلطف من ذلك التوتر الذى يضغط قلبه .

كان يسير بخطوات سريعة ، متأملا كل ما يقع عليه بصره ، مجتهدا أن يطرد الأفكار التى تلاحق بلا انقطاع ذهنه ، وعلى الاخص تلك التى تتعلق بالحالة المؤسفة المشوشة التى وصلت اليها أموره المالية . فليهرب لحظة من هذه الأفكار ، يا الهى ! منذ أن وضع قدمه على أرض ثيساليا هذه لم تعد تشغل رأسه سوى هذه الأفكار . لم تكف عن الالحاح عـلى فكره وتعذيبه . أحداث كانت خافية الى الآن عليه ، وصعوبات تعـوق بيع ونقل الأموال الى الخارج وهو ما كان يجهله أيضا . ولكن ما الجدوى من التفكير فى كل ذلك ؟ ماذا كان بامكانه ان يفعل ؟ خيل اليه ان كل هذا يقال له بلغة غير تلك التى يتكلمها ويفهمها . وكما لو كان يتعلق بشئون تنتمى الى عالم غير عالمه ، ولا يعرفه .

قال المحامى :

ـ كل ما ستقبضه من فتيليونا أو من مجموعة الحوانيت التى تمتلكها فى السوق سوف يودع فى حساب مجمد . القانون حاسم فى هذا الشأن ، وتطبيقه صارم .

وسأل :

ـ لماذا لا نتستر على الثمن ، ونتقاضى الجزء الأكبر منه خفية ؟ لماذا لا نحاول أن نبيع ليونانى فى الخارج ، يعطينى خارج البلاد أكبر كمية من المال ؟

أجابه المحامى بلهجة صارمة ، ناظرا اليه بلا تعاطف :

ـ حتى لا تفقد كل ثروتك ، وتعرض نفسك للسجن ٠

قال مدير البنك :

ـ هيه ، هيه ، فلندرس هذا الأمر مليا ٠ ربما كان ذلك ممكنا ٠

رد المحامى بلهجة باردة وحاسمة :

ـ ليس ذلك ممكنا ٠ وفضلا عن هذا ، من الذى سيرضى بالدخول فى مثل هذه التحايلات ويعرض شرفه للخطر ؟

عاد يقول باصرار :

ـ وكيف سأعيش فى باريس بعد الآن ؟ ألا يهتم قانونكم الحكيم بذلك ؟

ورد عليه المحامى بلهجة جارحة :

ـ ان القانون اليونانى يهتم فحسب بالطريقة التى سوف يحيا بها اليونانيون بأموال يونانية داخل اليونان الفقيرة ٠

هل يجب أن يعود فيتذكر الآن كل ذلك ؟ كلا ، كلا ! يجب ان يفكر فى أشياء أخرى ٠ لم يكن عليه سوى ان يجيل النظر من حوله ٠ بالنسبة لممتلكاته فى لاريسا سوف يكتب توكيلا لمدير البنك ، وسيسافر فورا الى أثينا ٠ سوف تظهر عقبات أخرى أيضا بالنسبة لممتلكاته فى العاصمة ٠ ولكن هناك على الأقل ، لن يعانى من عفن الأقاليم ، ولا من عقول سكانها الضيقة سوف يجد هناك مجتمعا متحضرا بشكل أو بآخر ٠ كما سيجد بعض الراحة ، والتنويع ، وقليلا من الأمل ، على كل الاحوال ٠ أما هنا ، فلم يكن يفلح فى ان يجد غير الهواء النقى ٠ ولا شىء غيره ٠ ولم يكن عليه اذن الا ان يفيد منه ٠

أسرع الخطى ، كما لو كان من المتعين ان يبتعد عن المكان الذى أحس به عامرا بالاشباح ، ورأى فيه مصدر التعاسة التى تخنقه ٠

آه . هاهى الغابة ، حقل الدردار الكبير الذى يوجد بجوار المنزل ومبانى المزرعة ، على طول النهر • أما الغابة الأخرى ، حقـل الدردار الصغير ، فكانت أبعد من ذلك ، بجوار التل الذى يقوم عليه دير القديس ايليا • كانت هذه الأشجار الجـرمة ، هذه القبة الخضراء الكثيفة فوق رأسه ، مصدر فخار الجد ! •

تذكر الكلام الذى قاله الجد عام ١٨٨١ عندما استرجعت اليونان اقليم تيساليا فاشترى هذه الأملاك وأخذ على عاتقه كواجب أول ان يزرع هاتين الغابتين . هذه والأخرى الأصغر منها ، فى فيافى لاريسا الجرداء • هذا الكلام أعادوه على مسامعه عديدا من المرات ، اذ اعتبر كلاما حكيما وجميـــلا •

« لن أعيش طويلا حتى أراهما يصـبحان غابتين بمعنى الكلمـــة • ولكن عزائى أن أفكر ان أكبر الأعمال شأنا وأكثرها بهاء هى تلك التى تؤدى على علم من صاحبها بأنه لن يراها هو نفسه لكن ستراها الأجيال اللاحقة » •

ارتسمت على وجهه مسحة ساخرة ، وقال لنفسه :

« لعبت بك أشجار الدردار ، يا جدى • نمت سريعا • ورأيتهـا تضـحى غابة ، وهكذا حتى عملك هذا لا ينتمى الى الأعمـال الكبيرة الباهرة ! » •

واستطرد يقول لنفسه بعد قليل « أيها الجد التعس ! كل شيء ضحك عليك • كانوا يقولون انك تمضى الى سن المائة لأن الموت بدوره يخشاك • ولكن يبدو انه هو أيضا كان يضحك منك • تأخر عليك لا لأنه يخشاك بل ليريك ألاعيبه • وهكذا لم تر الغابة التى زرعتها فحسب ، بل ورأيت ابنك يضحى قاتلا ، وحفيدك ، ذلك الذى كنت تريده نسرا ، يصبح مجرد عصفور صغير رزين فى قفص أجنبى ، واليونان سيدة البحار الخمسة كما كنت تسميها ، قد لحقتها الهزيمة والخراب ، وأمست ألعوبة بين أيدى القوى الكبيرة » •

أحس بالراحة بعد ان سخر من جده الكبير ، ومضى بخطوات أكثر خفـة •

كانت هذه الأمسية الخريفية فى الغابة جميلة حقـا • مضى قدما وما عاد يفكر فى متاعبه ، تاركا أنظاره تجول بين الأشجار الضخمة أو على

سطح نهر البينيه الذى كانت مياهه تنساب الى جواره فى استرخاء كسولة بطيئة ٠

ولكنه ما لبث ان توقف

لم يكن الأمر فى أوله سوى مجرد انطباع مبهم ، ولكنه سرعان ما أصبح يقينا ٠ بل انه الآن صار قادرا ان يرى ٠٠ فى فرجة صغيرة بالغابة فتاة شابة تغنى باليونانية مقطعا من أوبرا مدام ترفلاى ٠ لم يكن صوتها مدربا ، ولكنه كان الى حد يفوق التصديق عميقا وغنيا بامكانات غير عادية . كما كان مدهشا بحلاوته وفتنه ٠

شىء غريب ٠٠٠

على مبعدة قريبة ، متكئا الى شجرة ، وقف رجل فى ريعان شبابه ، وقد دس يديه فى جيبه ٠

وجد فى هذا اللقاء تسلية ٠ توقف واختبأ وراء احدى الأشجار ٠

كانت الفتاة طويلة القامة ممتلئة الجسم قليلا ، ترتدى معطفا واقيا من المطر زيتى اللون ومن تحته ثوبا أزرق ٠ كانت تتمتع برشاقة وأناقة ما كان يتوقع ان يجدهما فى ريف ثيساليا ٠ وبدا وجهها جميلا ، وان لم يستطع ان يميز تفاصيله ٠ ولكن بشرتها بدت شقراء ٠ عيناها واسعتان ٠ وفمها عريض ، وشعرها الكستنائى الاشقر غزير متهدل على كتفيها ٠

أما الرجل فكان من نوعية متميزة تماما ٠ متين البنيان ، داكن السمرة ، قسمات متناسقة ، وان كانت بادية الصرامة ، شعره ملقى الى الوراء مشوشا ٠ ويرتدى صدرية من الصوف رمادية اللون ٠ تلتف عاليا حول رقبته ٠ ويبدو الرجل منحدرا رأسا من السكان البدائيين للجبل والوادى ٠

كفت الفتاة عن الغناء ، وتبادلت مع الرجل بضع كلمات ٠ ثم ضمها الى صدره وقبل شفتيها ووجهها وجيدها ٠

استسلمت لقبلاته أول الأمر ، ثم رفعت يدها ببطء ودست أصابعها فى شعره ثم أمسكت بيديها رأسه وطبعت بدورها قبلة على شفتيه ٠٠

راحا الآن يتحادثان ٠ ويبدو انهما كانا يتناقشان فى أمور تهمهما ٠ ولكن فجأة غضبت الفتاة ، وتكلمت بلهجة عنيدة ، بل وأقرب الى القسوة ،

وضربت الأرض بقدمها . لف الرجـــل ذراعه حول خصرها . وأخذمة حزينا هادئا ، ومضيا مبتعدين نحو الجانب الآخر من الغابة .

رفيقان غريبان ! لم يروقا له . ثقتهما بنفسيهما ، والاحســاس بالقوة البادى عليهما ، سببا له ضيقا . كاد بداخله شــعور بالمهانة اذ اقتضاه الأمر أن يختبىء ، وهو سيد هذا المكان ، خلف شجرة وحيدة مترددا بينما راحا هما واثقين من نفسيهما يتعانقان ويغنيان ويتبادلان القبل فى تلك الفرجة المضيئة من الغابة ، وغير مكترثين بأحد كما لو كانا هما مالكى هذه الغابة .

ولكن هذا الانطباع قابله عزاء داخله . لقد تشاجرا أيضا ! لابد انها نفثت بعض سمومها . وهو ، الرجل الخشن المتين ، نظر اليها حزينا ، دون ان يقول شيئا ،.

قال لنفسه مبتسما « فى كل مكان على الدوام أشـجان وضعف . ما البهجة والقوة سوى واجهة » .

تجرأ ومال يتطلع الى الدرب الذى ســارا فيه والذى يقود نحــو المدينة . الا أنه عاد والتصق خلف الشجرة الضخمة ، لأن الرجل بعد أن أوصل الفتاة الى حافة الغابة ، عاد ادراجه .

لم يكن يبدو ســعيدا . ولكن لا أســـاريره ولا خطواته نمت عن ضعف . كان يمضى قدما بخطوات رحيبة . وبين الفينة والفينة يهوى بعصاه على شجيرات الحسك قاصما ظهرها . وعندما وصل الى شط نهر البنية نزل ثلاث أو أربع خطوات . ركب قاربا راسيا هناك ، واجتاز اليم الى الشط المقابل حيث توجد المدرسة الزراعية . رآه يصعد الشط المقابل بخطوات فسيحة مرفوع القامة ثم غاب عن الأنظار .

ودون سبب واضــح ، شرع نيكيتا يجرى فجأة فى الاتجــاه المقابل لذلك الذى جاء منه . تاركا من خلفه البيت ومبانى الضيعة ، ومن ورائها المدينة ــ تاركا أشباح الماضى كلها . اما هناك ، فالغابة رطبــة وعامرة بالظلال ، مما ادخل الخوف الى قلبه بغتة ، وذلك لسبب مجهول . فى الجانب الآخر ، بدا الوادى الفسيح المتحرر من الظلال والكوابيس . فى هذا الاتجاه كان يجرى . كما لو كانت تدفعــه من جـديد يد قدرية أو يجذبه هدف ما .

وعندما خرج من الغابة ، أدرك ان غريزته قادته الى حيث كان يجب ان يذهب .

يا له من منظر ، ذلك الوادى الرحيب المكسو بالحقول الخضراء المحروثة حديثا . لاشيء يصد الأنظار عن ان تمتد الى حيث تشاء ! وهناك، الى اليمين ، فى الاغوار ، وأحد من أجمل المناظر فى الدنيا : جبل الأوليمب، انه واحد من أندر المشاهد التى احتفظت بها اليونان حية فى ذاكرتها ، الأوليمب حيث كانت تقطن قمتها الآلهة القديمة ، رائعة البهاء .

قال لنفسه ساخرا « مرة أخرى ، هذه احدى ابداعات العصور القديمة » .

ولكنه أخذ على حين غرة بالمشهد . القامة الشامخة الانوف للجبل الشهير ، تلك القامة التى تفرض نفسها بشكل منقطع النظير ، وتصعد رأسا من الحقل المنبسط الى أعالى السموات والسحب . ظل بعض الوقت ساكنا ، مسحورا بالجبل المقدس .

ولكن ما هذه الخطوط الصغيرة السوداء هناك ، فى اغوار الوادى، والتى تتجه رأسا نحوه ؟ خيل اليه لوهلة انه ازاء وهم من الأوهام ، أو انطباع ذهنى مرسل من الآلهة للتلاعب بخياله .

ومع ذلك ، لم يكن الأمر وهما .. كانت هذه الخطوط مؤلفة من أشياء ذات وجود ، وتتحرك .. كانت .. كانت .. الآن ، يمكن تبينها، بوضوح ، كانت طيورا مهاجرة تنجز رحلتها الخريفية .

تشكلت أسرابها على هيئة سهم ، وكانت تمضى قدما بمهابة مؤثرة ... كان السهم يتماوج بين الفينة والفينة ، عندما كان يصطدم بريح أقوى منه ، ولكنه كان ما يلبث ان يؤلف من جديد مثلثا مكتملا .

ولماذا الحديث عن ريح أقوى ! ما يشاهده أو بمعنى أصح ما يخمنه لم يكن سوى ملاطفات الريح لهذه الطيور ! من يدرى من أى بلاد بعيدة فى الشمال تأتى ، وكم من جبال ومضايق عبرت ، كم من عواصف وأعاصير اجتازت ! لا شك ، انها كانت تلتقط أنفاسها وتستريح ، ولكنها بعد كل وقفة كانت تصعد عاليا فى السماء . ومن جديد تصارع الرياح والمضايق والقمم الشوامخ ، والعواصف والأعاصير ، ومن جديد تمضى فى الرحلة ، الرحلة التى أخذتها على عاتقها دون تخطيط مسبق ، ولكنها أنجزتها فخورا قوية ، راسخة العزم ! .

-ألم تكن تتعب أبدا ! ألم يكن بينها ضعاف أيضا ؟

كانت الاسهم الاولى التى اقتربت فى هذه الآونة تحمل اليه اجابة - كانت تسمع بوضوح خفقات أجنحتها وصيحاتها الوحشية • صيحات كانت تشق الهواء بدورها ، وتجلب الى ظنونه بهذه الكلمات اجابة •

« كلا ، ليس بيننا ضعاف • يموت الضعاف • وعندما يسقطون ننادى نحن الأقوياء بأقصى ما نستطيع من ضراوة : فليموتوا ! ليس للمهزومين مثوى • أما المنتصرون فليمضوا الى الأمام ! الى الأمام ! وليمت الآخرون ، وليمت الآخرون ! » •

بدت فى السماء سهام أخرى ، الواحد منها تلو الآخر ، فوق هامته تصخب أسراب الطيور وتطلق صيحات الانتصار • ولم تكن تكف عن صيحاتها التى راحت تعلو وتعلو باطراد :

« فليمت الآخرون ! فليمت الآخرون ! فليمت الآخرون !

داخله الانطباع بان ثمة روحا لا أرضية أرسلت هذه الطيور اليه لتفهمه انه بدوره واحد من اولئك الذين ليس لهم الحق فى ملاذ مضمون •

سرت فى جسده رعشة • منذ وصوله الى اليونان ، آلاف التفاصيل ، آلاف الايماءات كانت تقول له ذلك • كانت تقول له : انه واحد من الضعاف ، من المهزومين ، واحد من أولئك الذين يجب أن يموتوا •

لماذا ؟ ••• لماذا ؟ •••

مضى قدما فى الوادى المنبسط ، وانتابه من جديد احساس بالقلق ، مبهم ولكنه شديد الايلام •

طوح برأسه فجأة ، فكر فى الناس العديدين الذين يتحدثون عنه ، ويعجبون به • وتوجه الى حقل كان يجر المحراث فيه ثلاثة أزواج من الخيل • فليذهب ليتابع الحراث • يا للشيطان ! لم يكن سببا مقبولا ان يترك نفسه تنهار لمجرد انه واجه بعض الصعاب فى بلد غير متمدين ، فى حين ان مكانته محفوظة بين دوائر مرهفى الأحاسيس هناك فى مجتمعات الغرب !

فى هذه الآونة الأخيرة ، كان يشرب كثيرا من الكونياك ويتعاطى أدوية منومة • كان عليه ان يجد القوة كى يكف عن ذلك كله ، فقد كان

هذا يشوش أفكاره ·· وحتى في هذه اللحظة لم تكن أفكاره واضحة ·
عندما دخل الحقل توقف · كانت التربة مغطاه كلهـــا بحبوب القمح ·
وتساءل عما اذا كان من حقه ان يطأها · عند قدميه ، عن يمينه ، عن يساره ، على مبعدة قليلة أمامه ، في كل مكان قمح مبدور ، في كل مكان من حقوله هو ، وحقول الآخرين على مبعدة من هنا ، وربما في كل مكان من حقول القرية ، هناك ، بل وربما أيضا في الوادي كله ·

يا الهي ، كم من عناء ، كم من صبر تحتاجه زراعة الأرض كي تنبت قمحا ! الفلاح بمحراثه ، راح ببطء شديد ، يشق الأرض كلها ، أجل ؛ كلها · حتى لا يترك شبرا واحدا غير منزرع ، ثم عاد يشقها للمرة الثانية ، بل وربما للمرة الثالثة · ثم مضى يزرعها ليبذر الحبوب ··
في الأرض شقها مرة أخرى حتى الرمق الأخير ، سائرا بخطوات وئيدة ضاغطا المحراث الى أعمق أحشاء الأرض ·

كان قد نسي هذه المسيرة الشاقة ، أو على الأصـــح ، عندما كان صغيرا لم يبد اهتماما كافيا · كي يفهم العناء والمثابرة اللذين تحتاجهما هذه المهمة وهي غاية في البساطة ·

أزواج الجياد مرات أمامه · تمنى له ريامو وسائر الفلاحين يوما طيبا · ورأى بوضوح كم يتكبـد الرجـــال والدواب من جهد لاداء هذه المهمة الرتيبة · هذه المهمة الشاقة ! · ولم يتمن لنفسه أن يقوم بها ، ساعة ، ولا حتى ربع ساعة ·

شقت المحاريث ثلاثة أخاديد جديدة أمامه وتصاعد اليه أريج الأرض الرطيبة حديثة الحراث ·

كما كانت الرائحة قوية ، رائحة هذه الأرض ! رائحة عربية · كلا ، في الغالب ؛ لم تكن رائحة · كانت أشـبه بشيء حي ينبعث من أحشاء الأرض المزقة · شيء لا يمكن تحديده ، ولكنه يفوح عطره كما لو كانت الحياة تبعث رسالة مبهمة ·

أما كان الأمر كذلك ؟ أم كان هذا خداع عقله المشـوش بفعـل الكحول ومنومات الليلة الماضية ؟

أجل ، لابد ان عقله مضطرب ·· اذ هاهو تلقائيا كما لو كان الأمر طبيعيا للغاية ، يثني ركبتيه ، ويجمع قبضة من هذا التراب الندى قربها من أنفه وراح يتشممها · منذ سـنين لم يستنشق هذه الرائحة المفعمة

بالحياة والغموض ، والتى تكاد تتكلم · رائحة خفيفة رهيفة ولكن فى الوقت ذات جد نفاذه حتى يكاد الجسد كله يتشرب بها ، وتتسرب الى كل خلية من خلاياه · رمى قبضة التراب التى كان يمسك بها ، وتناول أخرى أكثر نداوة بيديه الاثنين · تشممها ، استنشق عبيرها ·· أجل ، تلقى أنفاسها ، نفثاتها ، حياتها ، رسالتها ·

ثم وجد نفسه ، وذلك دون ان يعى كيف حدث ذلك ولا لماذا حدث، منبطحا على بطنه فى الأخدود الأخير · أكثر الأخاديد التى شقها المحراث طراوة ، وقد دس رأسه فى الأرض المفتوحة ، وراح يجيل وجهه هنا وهناك · ويحكه فى أغوار الأخدود المحفور ، ويملأ رئتيه ، بقوة وبسرعة فائقة من رائحته بشراهة ، كى يدخل الى كيانه أكبر قسط يمكن ان يستوعبه من هذه الحياة الدفينة المجهولة ·

كم من الوقت قضاه هكذا ؟ ثوان ؟ دقائق ؟ ساعة بأكملها ؟ لم يتسن له أن يتبين ذلك فى لحظة ، سمع وقع خطوات الى جواره ، فنهض · تعثر ، التقط قلنسوته ، لمح الجياد الواقفة عند الطرف الآخر من الحقل ، ورأى ريامو يقبل نحوه بخطوات سريعة ·

قال نيكيتـــا :

– لم يكن الأمر بذى بال · انى على ما يرام · أشعر انى أفضل حالا الآن ·

لكن ريامو ثبت انظاره فى عينيه ، وكانت أنظاره تلمع ببريق فريد ، بوهج شعلة حافلة بالغموض والحب ·

قال :

– لم يكن الأمر دوارا ، يا سيدى · لقد تحدثت اليك ·

سأل نيكيتا مندهشا :

– من التى تحدثت الى ؟

– الأرض ! الأرض تتحدث ، يا ســـيدى ، ولكنها لا تتحدث الى الجميع · انها تتحدث · ومحظوظ من يستطيع أن يسمعها ! ·

لم يحدث من قبل قط طوال هذه السنوات الأخيرة ان تأخر الفلاحون فى العودة من الحقول الى هذا الحد · لم يحدث قط ان انكبوا على زراعة الأرض الى أن أرخى الليل سدوله السوداء كما حدث فى ذلك اليوم ·

« هل حدث شيء ؟ »

بدأت فروسو تقلق .

ولكنها نسيت قلقها عندما رأت أباها يدخل أكثر مرحا من أى يوم آخر . **قال لها :**

ــ فروسو ، سببت لك عناء بلا طائل . اننا لن نرحل .

ــ لماذا يا أبى ؟ هل تفعل ذلك من أجلى ؟ لقد أهلت نفسى لهذه الفكرة . بل اننى بدأت استفسر كى أجد عملا فى المدرسة الزراعية أو فى أى مكان آخر .

ــ لا أفعل ذلك من أجلك . لقد غيرت رأيى . نحن بخير هنا . هيا ، أعدى لنا الطعام .

٣

دخل نيقوس مانوسيس البنك ، ودون ان يحيى أحدا توجه الى مكتب المدير . دلف الى غرفة أخيه وجلس قبالته ، وقد خيمت عليه الكآبة . **قال له :**

ــ يجب على ان أبلغك اننى أسمع فى كل مكان تعليقات ساخرة عن انتمائنا القديم الى فلاحى رومانيا . وهو الأمر الذى نسيناه جميعا .

نظر الآخر اليه دون ان ينبس بكلمة . فاستطرد نيقوس مانوسيس قائلا:

ــ لم أكن أنوى ان أحضر لمقابلتك . ولكن منذ برهة هنا أمام البنك، وجه الى وكيل النائب العام وخزات لوم بغيضة ، فدخلت أقول لك ، مرة أخرى ، كم كانت فجة وسمجة فكرة اقامة حفل أول أمس .

ــ لم تكن الفكرة فكرتى ، يا نيقوس .

ــ لكنك وافقت عليها ، وأيدتها ، وأصررت ان تحضر الأسرة كلها هذا الحفل .

قال الآخر مبتسما ابتسامة مريرة :

ــ يا عزيزى نيقوس ، الأمر الذى لا تعرفه هو لماذا فعلت ذلك .

انك واحد من أذكى الرجال في لاريسا ، وواحد من ألمع المحامين • ولكن خطوتك القديمة نحو اليسار أيام شبابك عوقتك على الرغم من فوات عديد من السنين ، ان تتقلد المكانة التى تليق بك • وقد فكرت ان نلعب بورقة جديدة ، وان نتملق الفلاحين المنحدرين من أصـل رومانى وهم كثيرون حولنا ، ونشيطون ، وذوو فعالية •

ـ فى عام ١٩٢٥ رشحت نفسى لعضوية المجلس البلدى فى تريكالا، وليس هنا • لأن هناك عددا لا بأس به من هؤلاء الذين تقول عنهم • ومع ذلك ما من أحد منهم أعطانى صوته • لأنهم لم يكونوا ميالين لليسار ، ولم يكن يوجد بينهم أى احساس بالتضامن • ان أغلبهم ما عاد حتى يتكلم لغة أجدادهم • ونحن الذين كانت هذه اللغة لغتنا الأولى ، هل نتحدث بها الآن ؟

ـ انك على حق •• انك على حق ••• ولكنك تسـمع اناسا يقولون لك « اننا ننتمى الى فلاحى رومانيا » اننا « فلاك » وهذا يعنى انهم مدركون لحقيقة انتمائهم • ويجب علينا ان نشدد على هذه الفكرة حتى يلتفون حولنا • اما عن اللغة فربما ما عدنا نتحدث بها ولكن هناك عشرات الألوف ممن لا زالوا يتحدثون بها •

قال نيقوس مانوسيس بايماءة دعابة :

ـ انهم بلهاء ! لم يوجد قط شعور عميق بهذا الانتماء • واذا كان وجد ، فقد تكون قطرة قطرة بفضل الدعم المالى الهائل للدعاية الرومانية ، ولأن بعض الحفاة ارادوا ان يجدوا الوسيلة كى يهاجروا نحو بلاد أكثر ثراء • لا زال هناك من يتحدثون تلك اللغة • ولكنها تظل مجرد لهجة محلية يستعملها سوقيون غير مصقولين فى معاملاتهم البدائية • اما بالنسبة لعلاقاتهم الأكثر تقدما ، بل وبالنسبة لأى نشاط أكثر عمومية ، فان لغة قاصرة مثل هـذه لا يمـكن أن تلعب دورا جـديرا بالاعتبـار • ان الذين يلعبون الدور الأساسى فى أى مجتمع هم أهل الفـكر • وهـؤلاء ، بل وهؤلاء دون غيرهم ، هم القادرون على خلق حـركات ، ومنهـا الحركات القومية • وقد كان أهل الفكر من أولئك المنتمين الى فلاحى رومانيـا يونانيين لغة وأحاسيس •

ثم مضى يقول :

ـ لاتخدع نفسك يا أخى • ان الأمر لا يتعلق سـوى بتطلعات

رومانسية واهية لبضعة أفراد ، هم يونانيون مثل الآخرين كلهم ، ولكن كل ما فى الأمر أنهم ينحدرون عن أسلاف جبليين ورعاة ، يلبسون نعالا من نوع معين ، ويمسكون عصيان الرعاة ويعزفون على آلات موسيقية خاصة بهم • ولكن قل لى ، ألا يفخر هؤلاء الرجال أنفسهم بأنهم يونانيون مثل كوليتيس ولا مبروس وكريستاليس وغيرهم ممن كانوا متعصبين ليونانيتهم ؟

تغيرت أسارير فاسيلى موانوسيس عند سماعه هذه الأسماء • وقال بحماسة :

ـ اردت ان أحدثك فى الواقع عن الشاب كوليتيس •

وهكذا وصل الحوار الى الموضوع الذى شغل فى الآونة الأخيرة بال مدير البنك كثيرا • واستطرد يقول موضحا لأخيه :

ـ ربما كان الشاب كوليتيس قد صنع لنفسه اسما فى عالم الشعر ، ولكنه لا يفهم شيئا فى المسائل الاقتصادية ولا فى القوانين • ولما كان قصده متجها الى نقل أمواله الى الخارج ، فسوف يصل به الأمر الى ان يبيع أملاكه بثلث بل وبربع قيمتها الحقيقية •

واختتم مدير البنك كلامه قائلا :

ـ والأسوأ من ذلك كله ، اننى وعدته بالمساعدة !

سارع أخوه الى سؤاله :

ـ ألا توجد وسيلة لشراء الدكاكين التى فى قلب الحى التجارى • اننا نملك بعض المال • ويمكننا ان نقترض الباقى • وسوف نجد طريقة ندبر بها أمورنا • انها أفضل العقارات فى لاريسا •

ـ أعرف ذلك ، وعلى الرغم من ان الأمر صعب ، الا اننى أعتقد انه سوف يمكننا ان نتصرف • ولكن لا تنس ان محافظ البنك من أقربائه، وهو عنيد صلب الرأس • ولو عرف اننى ساعدته فى بيع أملاكه بسعر منخفض فاننى أعرض نفسى لخطر الفصل من وظيفتى •

رد عليه أخوه قائلا :

ـ الوظائف لا تفقد بهذه السهولة • أقصى ما يمكن ان يفعله هو ان يأمر بنقلك • ولكنك لو أصبحت من ملاك العقارات ، وعقارات مثل هذه ، فان بامكانك ان تقدم استقالتك • ان لك سنوات خدمة كافية لتحصل على معاشك •

ابتسم فاسيلي مانوسيس ابتسامة ماكرة ، وقال :

ـ فكرت في شيء أفضل من ذلك ·

وعرض مشروعه : ان الشاب يبدو تائها مبلبل الفكر· وبكل جلاء ، فان الأشياء والناس تبدو غريبة عليه تماما ، وتثير أعصابه · ماذا اذن لو تعرف بكيتي ؟

ان عودته بلا توان الى فرنسا ، مستحيل ، وذلك بكل بساطة لأنه لا يملك ما يقيم أوده بالخارج · وفي حالة الاحباط والعزلة التي يعاني منها سوف يجد في كيتي عونا له وسندا ، وثمة احتمالات كبيرة ان يقع في غرامها · انه الزواج الذي يناسبه ، والذي كانت تحلم هي نفسها به ·· يجب أن تصل الى أن تستوعب كيتي هذه الفكرة جيدا ، وبعد ذلك ، فان هذه الفتاة الذكية سوف تعرف وحدها كيف تتصرف ·

قال نيقوس :

ـ ياه ! مثلما فعلت بالنسبة لصفقات الزواج الكبيرة التي تطلعت اليها في أثينا ! انك تمني نفسك بالأحلام ، يا أخي العزيز ، وتقيم من رغائبك حقائق · خلال يوم أو اثنين ستجعل الرطوبة التي تزخم جو اقليمنا ، والعزلة التي تبعثها في القلب الحياة في فتيليونا شاعرنا يهرب من لاريسا · ولما كان من المتعذر عليه ان يسافر الى الخارج ، فسوف يذهب الى أثينا وسينشط المجتمع الأجوف والمجدب هناك لاستقباله والترحيب به بكل بهارجه وصخبه ، بنسائه ومباذله ، ولن ينسى الشاب هناك لاريسا وابنتها الجميلة فحسب ، بل وربما نسي باريس ذاتها · وفضلا عن ذلك ، فانني أعتقد ان كيتي تطبخ شيئا مع ذلك المهندس الزراعي الذي يعمل بالمدرسة الزراعية ·

ـ لكن ، لا وجه للمقارنة ·

ـ لا وجه للمقارنة حقا ، ولكنني لمحتها تعبر الجسر في اتجاه غابة فتيليونا · أعرف انها تقابله هناك · كف عن الأحلام ، يا فاسيلي · هل بامكانك ان تضع يدك على الدكاكين ؟ ان الحياة شرسة · وليس بالاحلام يبلغ المرء مرامه · انك لن تنجح الا اذا استطعت أن تروضها ، الحياة أعني ، وانت لن تروضها الا بالقوة أو بالمال · والقوة والمال في متناول من يعرف كيف يستفيد من الفرص · لقد ضاعت منا فيما مضى فرصة البلوغ الى السلطة ، لأن اليونان لم تترك نفسها في ذلك الوقت

تنجرف نحو الشيوعيــة · ولو كانت قد سارت فى هذا الاتجـــاه ، لرأيت ما كنت ساكون عليه اليوم وقد انضمت فى بواكير شبابى الى الحزب · ولكن يجب ألا تشغل الآن بأحلام ضائعة · هل تسمع ما أقوله لك ؟ ان فرصة مثل تلك لن تتكرر فى الوسط الضيق الذى نعيش فيه· لماذا تنظر الى بهذه النظرة التائهة ؟ ألا توافقنى ؟

لم يكن الأمر ان فاسيلى مانوسيس لم يكن موافقا · بل على العكس كان يجد كل ما قاله أخوه معقولا جدا · وكان يضـــع فى اعتباره على الأخص ان ثمة فرصة استثنائية للثراء السريع سانحة أمامهم · واذا كان ينظر اليه نظرات غريبة فذلك لسبب جد مختلف · ان بعض الكلمات التى قالها نيقوس بخصوص كيتى أعادت اليه شكوكه ، وغالبه القلق من جديد ·

قال له :

ـ ليس ذلك لأننى لا أوافك · اننى أفكر فى شىء آخر · قلت انك رأيتهـــا تتوجه الى الغـــابة · هل تعتقد انهـــا تقابل المهندس الزراعى حقا ؟

ـ لدى أسباب تجعلنى متأكدا من ذلك ·

ـ اذن ، عندما رفضت ان تذهب الى أصدقائهـــا فى أثينا هذا الصيف ، هل تعتقد ان ذلك كان السبب ؟ ونزهاتها الطويلة بالدراجة أو مشيا على قدميها ، أكان ذلك فى نظرك من أجل هذا أيضا ؟

ـ انها لم تذهب الى أثينا بسبب حكاية العام الماضى · قالت لنا ذلك وانى أصدقها · ولكن بالنسبة لهذه النزهات الطويلة المنتحلة ، فان لدى أسباب تجعلنى أعتقد انها للقاءات مع اليكسى ستورناريس · ألم تلاحظ أن نزهاتها كانت على الدوام عند نهاية فترة ما بعد الظهيرة ؟

ـ أجل ، لأن الجو حار ·

ـ مضى وقت طويل على انتهاء موجات الحر الشديد · اننا فى شهر نوفمبر ، يا أخى ·

ـ ولكن ، اذن ، ماذا يجرى أثناء هذه النزهات ، يا نيقوس ؟

لم يجب ·

ـهناك شيء آخر ، يا نيقوس . هذه هي المرة الاولى التي اتحدث فيها عن ذلك . وحتى الآن لم أجرؤ ان أقوله حتى لنفسي . أحيانا ، عندما تتكوم كيتي في مقعدها بتلك اللامبالاة الغريبة ، أو عندما تلمح بكلمات مستترة الى الشهوة والجنس ، أو عندما تقرأ لنا بعض القصائد ، أقول لنفسي ... أقول لنفسي ... كلا ، لا أقول لنفسي شيئا . بل أطرد عن ذهني هذه الفكرة ... هل ... هل ...

ـ قلت لنفسي الشيء ذاته ، يا فاسيلي . ان نظراتها وتطلعاتها قد تغيرت .. جسدها ذاته يبدو كما لو كان يتكلم .. يتكلم عن مغامرات في كيبسيلي ، وفاليرو . أثناء الصيف الماضي .

صاح فاسيلي مانوسيس :

ـ ولكن هذا فظيع ! مستحيل !

نهض وصاح من جديد :

ـ وقد يكون هذا ما يحدث في هذه اللحظة أيضا ، في الوقت الذي نتحدث فيه . هناك في الغابة ، رغم كل شيء .

هوى فاسيلي جالسا في مقعده . أسند مرفقيه الى المكتب ، وتناول جبينه بين يديه . **تمتم قائلا :**

ـ يا الهي ، يا الهي ، لماذا تعذبني الى هذا الحد ؟ ماذا يجب ان أفعل؟ ماذا بامكاني أن أفعل ؟

ثم استعاد رباطة جأشه ، وخبط المكتب بكلتي يديه :

ـ كلا ، ليس ذلك ممكنا ! لايمكن ان تفعل بي كيتي ذلك .

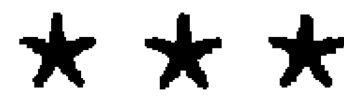
نيقوس . يجب ان نعرف . يجب ان نعرف ماذا يحدث بالضبط كي نرتب خططنا .

ـ أي خطط يمكنك ان ترتب ؟ ماذا تريد ان تفعل ؟ ان تضربها ، أم انك ستسعى لارسال أحدهما الى المنفى ؟

ـ ليس لي رغبة أن أتشاجر ، ولا أن أمزح . لو اكتشفنا ان مخاوفنا قائمة على أساس ، سأفعل كل ما بوسعي كي أجبرها على ان تتزوج ستورناريس في أسرع وقت . يبدو عليه انه متيم بها . لهذا فمن الأهمية

بمكان ان أعرف ماذا يجرى • اسمع ، يا نيقوس • انك تتحدث معها عن مئات الموضوعات • يمكنك ان تجد الفرصة لتتطرق الى هذه المسألة• قابلها وحاول ان تعرف •

ـ سأحاول • سأتحدث اليها اذا اقتضى الأمر بصراحة أكبر •• بل اعتقد ان بامكانى ان استفسر منها بطريقة غير مباشرة • ولكن يجب ان أقول لك شيئا ، يا أخى العزيز • انك تتحدث كأب فى ريف اليونان • وانا أعترف لك ، اننى أفضل أن تكون ظنونى خاطئة • ولكن لو حدث وكانت قائمة على أساس فلا تعتقد انه قد أصابها مكروه كبير • اننا نعيش فى عام ١٩٣٩ • والأشياء تغيرت • وهى لم تتغير بالنسبة لأى جيل من الأجيال قدر ما تغيرت بالنسبة لجيلنا • ما من كثيرون غيرنا لديهم الشكوك ذاتها بالنسبة لبناتهم ، بل ربما كانت لاريسا كلها لديها هذه الشكوك • ومع ذلك ، فانت ترى ان أفضل الخطاب يلتمسون يد كيتى • أننا نعيش عصرا يعاد فيه ترتيب القيم ، وصارت محظورات الماضى فى طريقها الى الاندثار • وأضحى الناس يتحدثون بطريقة ويتصرفون بأخرى ، وذلك على الأخص لأن الأفكار الجديدة لم تستقر بعد • يتظاهر الناس بأنهم يؤمنون بالمسلمات القديمة لكنهم عملا يطبقون المفاهيم الجديدة • وبعبارة أخرى ، فانهم يختارون ما هو مناسب لهم • فلا تقلق من هذه الناحية • بل هل تريدنى أن أقول لك شيئا آخر ؟ لو أن ما تشك فيه من أمر كيتى صحيح ، لكانت فرصها أكبر ان تلف فى شباكها الشاب كوليتيس هذا المزود بكثير من المال والتجارب أيضا •



نهضت تستقبله ، ثم عادت تتكور فى مقعدها • ان طريقة مشيتها ، وطريقة جلستها فى ركبتها مثل قطة شهوانية ، وصمتها بعد كلمات المجاملة الأولى ، كل هذا يجعلها تبدو كما لو كانت تتعمد ان تلفت الانظار اليها • ولكن لم يكن الموقف يحتمل ذلك • فهى لم تحاول قط معه ان تبين عن مفاتنها ولا ان تمارس عليه سحرها • كل ذلك كان طبيعة فيها ، ومن مقومات قوتها •

قال لها وقد رآها تضع كتابها جانبا :

ــ عطلتك عن القراءة · ماذا تقرأين ؟

ــ أوه ، لا شيء ! كتاب غير ذى قيمة · احدى صديقاتى باثينا أرسلته الى · تدعى أنه اكتسح لندن ، وأنه فى طريقة الى ان يغزو أوروبا · ومع ذلك ، فهو مجرد رواية تحكى وقائع تافهة ، دون أى تحليلات متعمقة ، ودون ان يكون لدى المؤلف رسالة يريد ان ينقلها الى قارئة ، ودون أى جمال · ليس فى الرواية سوى حبكة مسلية ·

ابتسم لها بمودة :

ــ تريدين ان تقولى أننا نفهم ذلك فى ريفنا العطن ، بينما لا يفهمونه فى اثينا ، ولا فى لندن ، ولا فى أى مكان آخر ؟

ــ هذا بالضبط ما أريد ان اقوله ، أيها العم نيقوس · ولا اقول ذلك تقريظا لعاصمة تيساليا هذه التى نحيا فيها · وانما أقول ذلك تقديرا لذوقى وذوقك ، وقد اختنقنا ، أنا وانت ، فى هذا الريف الغارق فى سباته ·

نظر الى الامام نظرة شاردة ولكنها صارمة ، وقال :

ــ اننا نختنق · أصبت فى هذا · انى أفهمك ···

ــ ماذا سنفعل ، يا عمى ؟ السنين تولى · لا شك ان الشيخوخة لم تدركنا بعد ، ولكننى ارتعد فرقا اذ أفكر انه محتم علينا ان نقضى حياتنا كلها فى هذا الجو الفظيع · ماذا بوسعنا ان نفعل ؟

ــ لا شيء · تحركنا من مستنقع واطيء ، كى نبلغ القمة · ان الطفرات لا تتأتى الا فى ظروف استثنائية ، وعلى المرء أيضا أن يعرف كيف يستغلها أحسن استغلال فى الوقت المناسب والى أقصى حد · أين وكيف نجد هذه الظروف ؟

ومض فى عينى كيتى بريق غريب ، وقالت :

ــ بدأت الحرب · ومثل كل الحروب ، ستجلب هذه بدورها تغييرات · ما الذى ستجلبه من تغييرات باليونان ، فى نظرك ، وأى تأثير سيكون لها على حياتنا نحن ؟

ـ أنت أكثر شبابا منى • ولست على الاطلاق انسانا عاديا • وربما سنحت لك بعض الفرص • أما بالنسبة لى ، فلا شىء من هذا سيحدث ، بل انى أخشى فضلا عن ذلك انه بسببى ربما انمحت حتى الفرص الصغيرة التى قد تتاح لك •

دهشت ، ونبهته الى انه يتطرق الى أشياء لا تربطها ببعضها أى علاقة •

ـ على العكس • ان أهم الأحداث القريبة نسبيا ، حدث ولم يوله الناس اهتماما كافيا ، انه الاتفاق الألمانى ـ الروسى ، أقصد معاهدة ويبنتروب ـ مولوتوف • اذن ، أحد أمرين : أما ان روسيا على غاية من الضعف ، ولا تستطيع غير ان تتعاهد مع الألمان ، سعيا منها لكسب الوقت ، وأما انها على غاية من القوة ، وأرادت بهذه الكيفية ان تلقى بالألمان فى وجه الانجليز والفرنسيين ، بحيث تستطيع أن تفتتهم جميعا بسهولة عندما يتورطون •

ـ كيف يحدث ذلك ، وقد وقعت معاهدة عدم اعتداء ؟

ـ لا توقع المعاهدات الا كى تخالف ، عندما يكون ذلك ضروريا • سأشرح لك ذلك فى مرة أخرى • ولكننى أعود الى فكرتى • لو كنت قد أحسنت عرض المشكلة ، فاننا بعد بضع سنوات سنجد أنفسنا أمام الخيار الآتى : أما سيسود هتلر لو كانت روسيا هى الضعيفة ، وأما سيسود ستالين لو كانت روسيا هى القوية • أما بالنسبة لنا ، ونحن لسنا سوى نتوء غير ذى أهمية ، سنخضع بطبيعة الحال للقوة التى ستحكم أوروبا • وانى ضائع فى كلتا الحالين ••• فانا بالنسبة لأقصى اليسار لست سوى الخائن الذى تنكر له ، وأما بالنسبة لأقصى اليمين فانا المشتبه فيه الذى كان فيما مضى عضوا بالحزب الشيوعى • كنت أعرف اننى لعبت وخسرت الفرصة الكبيرة • ولم أكن أعرف ان هذه اللعبة يمكن أن يكون لها نتائج مستمرة بل وأكثر خطورة أيضا ، بالنسبة لى وبالنسبة لأعزائى القلائل •

خيم صمت مقبض بعد هذا الكلام ••• ألقيت عليه نظرة تضمر خوفا ، ولوما وتعاطفا •

ـ ومع ذلك ، أيها العم نيقوس ، فأنت جد موهوب • يا للخسارة ! فى كثير من الأحيان ، عندما أفكر فى مصيرك ومصيرى تنتابنى الرغبة أن أصرخ وأحطم كل شىء • لدى الاحساس بأننا كائنان شديدا البأس

بينما وضعت الاغلال الثقال فى أيدينا وأرجلنا جماعة من الأقزام ضعاف وأغبياء ·

ـ لا تكترثى بى ، ولنتكلم عنك · فهذا هو السبب أيضا الذى جعلنى أخبرك بأننى أريد مقابلتك على انفراد · ما هى نواياك ؟

قطبت جبينها ، وقالت :

ـ أى نوايا تريد أن تكون لى ؟

ـ لا يمكنك ان تستمرى هكذا · انى أفهمك ، ولكن هناك أيضا الحقيقة ، أنها ثقيلة الوطأة ولا تقهر · الشباب يولى فماذا ستفعلين ؟

أجابت بصوت أجش لاهث :

ـ ماذا تريدنى ان أفعل ؟ جريت وراء الزواج من ثرى بكل الطرق وفشلت · أردت أن أتعلم الغناء بالخارج أو حتى باثينا لأصبح مغنية أوبرا · كل الناس تنبأت لى بالنجاح الكبير ولكنكم لم تسمحوا لى بذلك ، وقلتم « ممثلة ··· هذه كارثة ! » ·

ـ لم أقل أنا ذلك ·

ـ أنت كنت أقل تطرفا ·· أمى على فراش الموت هددتنى باللعنة لو فعلت ذلك · وأنا الحمقاء نظرا لأننى كنت صغيرة ارتعبت من خرافة بشعة كهذه : لعنة الأم ! وقد كان فى ذلك ضياعى · كان يجب على ان أهرب ··· أن أرحل ·· أعمل وأتعلم ·

توقفت والدموع فى عينيها · وسألته غاضبة :

ـ لماذا توجه الى هذه الأسئلة الآن ؟ ماذا تريد ان تكون نواياى ؟ ماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ انك فى السادسة والعشرين من عمرك · وعليك ان تقررى الزواج ·

اندفعت الى الكلام بحدة :

ـ تريدنى زوجة لمحام فى لاريسا أو لطبيب من أطبائها ؟ تتمنى بدورك ما يتمناه لى أبى ؟ تريد أن ترانى أربى رهطا من الأولاد ، وأن أنشغل طوال اليوم بالطبخ والغسيل ومشترياتى من السوق وخادمات الجيران ، ولا أتحدث الا عن هذه التوافه كل يوم ؟

ـ لا الطبخ ولا غيره ، ولا تربية الأولاد ، أمور لا غنى عنها ٠

ـ بل هي أمور ضرورية ولا غنى عنها ، لأن السيد المطاع رب البيت سيطالب بذلك ، وأيضا اخوته وأخواته وأولاد عمومته بل وأيضا الجيران والأصدقاء ٠ وسيريدني السيد المطاع كذلك حتى عندما يألفني ، ويشبع مني على حسب تعبير الرجال : وبعبارة أخرى ، سأغوص بدوري في عطن الريف ٠ ولكن أنا لن أستطيع ، سأختنق ، لأن هذا العطن لا يتفق على الاطلاق مع مزاجي ! أما الآن ، فعلى الأقل أنا حرة ، أفعل ما يروق لي ، أسافر أحيانا ٠ أشعر بالضيق أغلب الأحيان ، لكنني اختنق على الأقل وحدي ٠ وليس الى جوار شخص لا يطاق ٠ والأفضل ان يختنق المرء وحده من أن ٠٠٠٠

اجتهد ان يهدىء من روعها ، وان يغير من رأيها ، وأيدها في كثير من النقاط ، وقال لها ان الأمور ستزداد صعوبة بمرور السنين ، وانه لا يرى كيف سيمكنها ان تحقق أحلامها ، وفي نهاية الأمر ، يظل الزواج أفضل الحلول ٠ **واختتم حديثه بقوله :**

ـ وما دمنا نتحدث عن الزواج ٠٠٠ هل أخطىء اذ اعتقدت ان ستورناريس يروق لك كثيرا ؟

قالت بلهجة حالمة :

ـ اليكسي ٠٠٠ انه رجل مثير اليكسي هذا ٠ رجل وسيم وقوي ، ومتيم بي ٠ ولكن كزوج لن يطاق ٠ انه على غاية من الفقر ، ولكن هذا لا يضايقه ، بل انه لا يتبين حالة فقره ٠ ويعتبر نفسه أثرى الأثرياء ، لأن الثراء يتألف في نظره من أشياء أخرى غير المال ٠ لديه معتقدات عميقة متأصلة تضرب بجذورها الى عصور سحيقة ٠ كصديق هو أفضل الجميع ، ولكن كزوج سوف يكون أسوأهم ٠

ـ عزيزتي كيتي ، سأطرح عليك سؤالا شديد الخصوصية لا يجرؤ عم قروي ان يوجهه صراحة الى ابنة أخيه ٠

لم يواصل كلامه ٠ لزمت بدورها الصمت ٠ دون ان تبدو منها أدنى حركة ٠ رفعت عينيها فحسب ٠ وكانت قد ظلت أنظارها الى الآن منكسة الى الأرض باصرار ٠ تطلعت اليه بحذر وتوجس ٠

قطع الصمت سائلا :

ـ كيتي الصغيرة ، مع ستورناريس ٠٠٠ ومع الآخرين ٠٠ في اثينا ٠٠٠ الى أى مدى وصلت ؟

ـ هذا سؤال لا يجدر بعم قروى ، بل وبعم عصرى . أن يوجهه الى ابنة أخيه ٠

وبعد برهة صمت قصيرة أضافت بلهجة عدوانية قليلا :

ـ وما من شيء يخولك السلطة ان توجه هذا السؤال ٠ ليس لك الحق ان تستجوب فتاة شابة عن أمر على هذا القدر من الخصوصية ٠

ـ هل يعنى ذلك انك ترفضين الاجابة ؟

ـ أجل ٠

ـ تعرفين ان رفضك يسمح لى بتفسير على غاية من السهولة ٠

ـ انك ترتكب خطأ جسيما ، أيها العم نيقوس ٠ انه لما يضايقنى لن أراك متأكدا من ان تفسيرك السهل صحيح ، بقدر ما يضايقنى أيضا ان تعرف ان أحدا لم يمسسنى ٠ كل هذا من أمورى الشخصية ، وليس من أمور أحد غيرى على الاطلاق ٠

ـ أن أباك ٠٠٠

ـ ان أبى معى ومعك مثل الدجاجة التى رقدت على بيض نسر ، تفقد عقلها وهى ترى البيض يفقس نسورا صغيرة ٠ لا شك ان النسور تحس بالاشفاق عليه ، لأنها انما خرجت الى الحياة بفضل ما أعطاها من دفء ، ولكنها لا تستطيع ان تحيل نفسها الى فراريج ٠ لو كان قد سألك ، فقل له ما يحلو لك ، ولكن لا تزج بنفسك فى الأمر أكثر من ذلك ٠

نهضت ثائرة ، واختتمت كلامها بعنف قائلة :

ـ هل سألتك أنا قط عن علاقاتك بفولا ؟ البلدة كلها تتحدث عن ذلك ، يجب أن تعرف ٠

هم ان يغضب بدوره ، ولكن احساسا بالاعجاب تغلب على حنقه ٠ وأكثر من أى وقت مضى ، بدت له ابنة أخيه اليوم كما لو كانت قطعة من لحمه ودمه ٠ تصورها ابنته هو وليست ابنة فاسيلى المسكين ٠

قال لهـا :

ـ لو ان القدر ساعدنا ، ما أكبر ما كنا سنحققه معا ! هيـا . اجلسى · لم أحضر كى أسبب لك ألما · كما ان لدى شيئا آخر أقوله لك·

جلست فى صمت ، ونظرت اليه ، وهى على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسها دائما · ولكن منذ الكلمات الأولى التى نطق بها عمها تغيرت هيئتها ، ودبت الحيوية فى قسماتها ·

ـ يجب ان أخبرك ان ثمة فرصة استثنائية قد تكون سنحت لك بلا سابق انتظار ·

ـ لن تكون ما أعتقده فيك لو لم تحدثنى عن هذه الفرصة ·

ـ وأنت لن تكونى ابنة أخى لو لم تكونى قد خمنت هذه الفرصة · أول الأمر ، كنت اعتبرها غير مناسبة على الاطلاق ، لكننى فكرت فيها كثيرا ، وأعتقد انها فرصة جديرة بالاعتبار حقا ·

ـ سمعتهم على أى حال يقولون انه يتعجل العودة الى باريس ·

ـ ربما كان يريد ذلك ، ولكنه لن يسافر · فى اثينا ، محافظ البنك يجمد باصرار كل ايراداته · وهو ما يحدث هنا أيضا بالنسبة لايجاراته · ان فتيليونا لا تدر عليه شيئا · واذا باع أملاكه فلا أرى كيف سيمكنه ان يخرج أمواله · واذا توصل الى ذلك فلن يمكنه ان يحمل معه سوى القليل جدا من هذا الأموال · بأى شىء سيعيش اذن فى باريس ؟ ثم ان باريس ستبدأ ان عاجلا أو آجلا تتلقى قنابل الأعداء · أما هنا ، فعلى العكس ، لديه أموال يستطيع أن يصرفها كما يشاء فسيظل تداول الأموال فى اليونان حرا · أما بالنسبة للحرب ، فالأغلب أننـا سنقف فيها موقف المتفرج ، وفى خاتمة المطاف وبهدوء ، بعد أن نكون بطبيعة الحال قد تشدقنا بكثير من كلمات البطولة سنستسلم للمنتصر · ولذلك فالمنطق السليم يقول ان هذا الشاب سينغلق فى اليونان طوال مدة الحرب ، أى لسنتين أو ثلاثة أو ربما لمدة أطول ·

صمت ، ورآها تبتسم ابتسامة رضاء وامتنان ·

مضى نيقوس مانوسيس يقول :

ـ ولكن الخطر يكمن فى انه لن يستطيع البقاء هنا · سوف يذهب الى أثينا · وسـينشط الأثينيون لاسـتقباله والعناية به · وربما أقام هناك الى الأبد · وهناك لن تستطيعى ان تطوليه ·

وكما لو كانا يتناقشان فى أمر عادى للغاية ، **أجابت ببساطة قائلة :**

ـ انت على حق • هناك يكمن الخطر • وسوف يكون ذلك خسارة لى ، لأن أحلامى يمكن ان تتحقق بهذا الرجل •

ـ ليس كلها ، لأنه ليس وبداخلك الفتاة الشابة القلقة التى لا يهدأ لها قرار فحسب ، بل انت مفرطة الانوثة أيضا • ولكن على أى حال ، سوف يعود عليك هذا الرجل بأكثر مما يعود به عليك أطباء لاريسا ومحاموها ومهندسوها الزراعيون • فكرى ماذا يمكنك ان تفعلى • جهزى خططك ، واذا استطعت ان أقدم لك عونا ، ابلغينى •

وانصرف نيقوس مانوسيس ، تاركا ابنة أخيه غارقة فى تأملات عميقة •

غاصت كيتى فى مقعدها الوثير ، وظلت هناك بلا حراك لحظة طويلة • كاد وجهها يخلو من كل انطباع • ومن الصعب أن نقول ما اذا كان يعبر عن المرارة أو عن الفرحة ، التشاؤم أو الأمل • الشىء الوحيد الذى نم عنه ان عقلها كان ينشط ، يتحير ، يبحث عن وسائل للعمل •

وفجأة ، نهضت وتوجهت الى غرفتها بخطوات من استقر على أمر •

جلست أمام مرآتها ، وبحركات سريعة ، غيرت تسريحة شعرها • أكثر من مرة • وكلما غيرتها تغيرت هيأتها وصارت امرأة أخرى •

تركت خصلات من شعرها تتدلى على أذنيها ، وعلى جبينها . ورفعت بقية شعرها فى جديلة واحدة غنية ، رفعتها ملتفة فى مؤخرة رأسها ، ولمحت فى المرآة واحدة من تلك النسوة المتواضعات الراضيات اللاتى كانت تلتقى بهن فى الكتب الرومانسية القديمة •

ربطت شعرها كله الى الوراء محررة جبينها وأذنيها وجيدها من كل خصلة ، ورأت فى المرآة الشابة العصرية الممتلئة حيوية التى أبانت لها عنها الروايات الفرنسية الجريئة •

وبعد ان لاحظت التغيرات المختلفة التى طرأت على شخصيتها ، تركت غدائر شعرها الحريرية تسقط بطلاقة على كتفيها ، وعادت الى ما هى عليه كل يوم •

ولكن هذه المرة ، لم تكن المرآة تبتسم •

كانت الصورة الجميلة التى تعكسها تنم عن الضجر والقلق ، وربما أيضا الكراهية •

وأثناء نهوضها وقع نظرها على ايقونة العذراء القديمة التى كان قد أهداها لها اليكسى · كان ذلك فى اليوم ··· الذى عرض عليها فيه الزواج ··· الح كثيرا ···

كم ضمها اليه ! يمكن ان نتصور ان تعبير «عظامها تتحطم » انما صيغ خصيصا ليصف اللحظة التى أخذها فيها هذا الرجل ذو الجسم الفولاذى بين ذراعيه وراح يضمها الى صدره ·

لكنها تمتمت تقول :

ـ لكنه جد فقير ، ووحيد ، ولا يهوى الحياة الاجتماعية ! ·

ظلت لحظة فى تردد ، ثم مضت قدما ، فى عناد ، وأغلقت فى حركة سريعة باب غرفتها بالمفتاح وراحت تذرع الغرفة وتخبط كل قطع الأثاث التى تجدها أمامها ·

وكى تفرغ ما فى قلبها ، أرادت ان تبكى · ولكنها فهمت ان ما من دمعة ستبلل عينيها ، فألقت بنفسها على سريرها وشرعت تمزق وتعض الوسائد بهياج ·

٤

عند أخريات الأصيل فى المدرسة الزراعية ، أخذ اليكسى ستورناريس على غير عادته يرتب أوراقه · انجز أعماله ، ومضى الى حظيرة الجياد ·

يهبط الليل مبكرا فى نوفمبر ·

لو كان يريد ان يتسنى له الوقت لكى يمضى فى نزهة فى الوادى ، وان يذهب الى فتيليونا ليلتقى بفروسو التى قالت انها بحاجة الى رؤيته ، ويؤدى زيارة لحفيد صاحب الأفضال عليه ، الذى وفد حديثا ، كان يجب ان يسرع ·

دخل الحظيرة ، وما ان رأته الجياد حتى راحت تضرب الأرض المرصوفة بحوافرها وتصهل ·

لم يكن ذلك اشارة ودية من جانبها بالترحيب فحسب · كان

اليكسى يعرف جيدا ماذا كان يعنى ذلك · فهمت الجياد انه سوف يخرج فى نزهة طويلة ، وأراد كل منها ان يقع عليه الاختيار ·

قليل من الناس يجرؤ على الاقتراب من مرابط هذه الجياد الفتية الجموح التى أحسن تغذيتها ، وقل من يغامر بامتطائها ·

كيف اذن لا يطلب كل من هذه الجياد أن تكون النزهة ن نصيبه وهى تعرف انه الوحيد الذى يمتطى الجياد بانتظام ويطلق لها العنان لساعات طوال ؟

صـاح فيهـا :

ـ هيا ! الزمى الحكمة ! كل سيأتى دوره · اليوم آخذ بيجاسوس·

ورفع صوته ونـادى :

ـ بيجاس ! تعال ! هنا ! ·

رد عليه مطلقا صيحة ثاقبة جواد رمادى ممشوق ، وهو يحرك جسمه العصبى بهوس ·

ما ان كان اليكسى ستورناريس ينجز الدروس أو الأعمال الأخرى فى المدرسة حتى يهرع الى الحظيرة ، ينتقى جوادا وينطلق به فى الوادى · كان الحيوان يحس به راسخا على ظهره · مقداما أمام الصعاب ، قائدا واثقا وغير متردد عند مواطن الزلل ، فكان يوسع من خطوه ، يستجمع قواه ويمط جسمه ، ويجرى بأسرع ما فى امكانه وحتى النفس الأخير ·

لم يكن اليكسى يتعب من هذه النزهات · فقد كانت عنده الفروسية عشقا ، وكانت تسكره ·

دورة سريعـة ، قفزة جريئة ، ركض مـديد أو جامح ··· كان باستمرار يحس بين ركبتيه أنفاس الجـواد قوية ، تصدر من رئتيه العريضتين وهو يشهق ويزفر ، وكان يلاحظ كل ارتجافـه تبدر من الحيوان الذى يمتطيه ، ويقوده بحركات مؤكدة · كانت تخطر له أفكار خرافية وهو على صهوة جواده · أفكار عن انصاف آلهة ، عن أسود عام ١٨٢١ ، عن أحزان الوطن وآماله ··· تنتابه نشـوة غريبة ، لم تكن تبعثها فيه سوى الفروسية ···

فى بعض الأحيان ، حسب أقواله ذاتها ، « كان يداخله الاحساس بأنه حيوان أسطورى نصفه جواد ونصفه انسان » ·

في تلك الأيام كان يرتدي سروالا قديما ويمتطي الجواد بلا سرج ٠ يلتصق بجسده ويطلب منه أقصى ما بمقدوره من سرعـة ، ودورات سريعة لا يصدقها عقل ، وانحرافات حادة ٠ وقفزات جريئة ، وجماح جسور ، ووقفات مزهوة ٠

في تلك الأيام لم تكن تخطر بباله رؤى ما ، ولم يكن يريدها ٠

في اللحظات التي كان يشعر فيها انه ذلك المخلوق الاسطوري كان يريد ذهنه صافيا تماما ، كي يصبح انسانا بدائيا ، الى الحيوان أقرب ، لا تحكمه سوى الغريزة ، غريزة الانطلاق بأقصى سرعة مجنونة . يقيس نفسه بالوادي الرحيب ، ويتبارى مع الطبيعة ٠ وكان صفاء ذهنه التام هذا ، والعودة بلا تحفظ الى الغريزة البدائية بمثابة ولادة جديدة ٠ وبعد ان كان يحس بهذا الخلاص ٠ كان يجد نفسه قادرا على مواجهة كل شيء بقوة متزايدة ، وهدوء أكبر ٠

في تلك الأيام التي كان يتجول فيها مخلوقا أسطوريا ، كان يتوجه عادة الى دير القديس ايليا ، كي يتحدث مع الأب موديستوس في تاريخ اليونان ٠

كان اليكسي ستورناريس يحب هذه الحياة حبا لا حدود له ٠

وكان عمله في الفصول والمعامل أو في الحقول يمنحه رضاء كبيرا ٠ حياة وادعة ، ولكنها مليئة بالمعنى والجمال ، ما دام أن مهمته كانت ان يعلم الشباب كيف يستصلح الأرض ٠ ولما كان يعمل دون أن يتلقى أوامر من أحد ، ويتمتع بحرية اختيار ما يريد ، فقد كان ينكب على عمله دون ان يعرف التعب ٠٠٠

وبالليل ، في غرفته بالمدرسة ، كانت الكتب تقوده نحو عوالم وأزمات مجهولة ، والى آفاق فكرية غنية بالتساؤلات ٠

ألم يكن في ذلك الكفاية ؟ ولكن أكثر من ذلك كان عنـده في المدرسة من أجل ساعات فراغه ، واشباعا لهوايته التي يعشقها ، وجياد لا يكاد يملك في اليونان أحد مثلها ، بل وفي أوربا كلها لا يقتني مثلها الا قلة من المحظوظين ٠٠٠

كانت لديه الصحة والبهجة ٠ وكان لديه هدف ، وحياة حافلة وجميلة ٠ وباختصار ، ما الذي لم يكن لديه ؟ ما الذي كان يتمنى أكثر من ذلك ؟

ولكن في الآونة الأخيرة ، أحيط كل شيء بهالة من نور جديد ، قوي ووضاء تارة ، وجد مضطرب تارة أخرى ، حتى ان الأشياء بدت مختلفة وغدت تأخذ معنى آخر . قيم راسخة ومستقرة راحت تختلط بلا نظام وتتكدس مثل كتلة مشوهة ، أمام وجه يسيطر على كل شيء .

لم تدخل النساء الاضطراب في حياته قط . وكن مجرد فرصة « لمغامرات جسدية » تافهة وعابرة ..

ولكن منذ زمن قصير ... كانت هنـاك امرأة ... واضطربت حياته التي كانت محكومة بالنظام وحافلة بالمعنى ... ما القوة القادرة اذن على اثارة هذا التغيير ؟

أهي آفة من آفات البدن ، أم علة تصيب الروح . أم لعلها جاذبية النجوم ، أو ارادة الرب ؟ أو لابد انها شيء ملموس ..

لو كانوا يقولون عنها انها شيء ليس له تفسير ، أو لو أعطاها السذج تفسيرا يبسط من شأنها ، فلا يعني ذلك أبدا انه لا وجود لها . انها موجودة ، وكان يراها ، بل ويحياها .

ما نوع تلك الآفة ، أو تلك الجاذبية ، ما تلك القوة التي تقلب المراكز رأسا على عقب ، وتبعث السقم في الأبدان ، وتعتم الأرواح ؟ ما الذي جعل الاضطراب يدب في حياته ؟ والى أين سيقوده ؟

★ ★ ★

صعد نيكيتا كوليتيس الى الشرفة العالية في البيت الكبير . كانت حجرة صغيرة بأعلى السطح محاطة كلها بالزجاج من كل جانب . كان الجد قد شيدها كي ينعم بمشاهدة سهل الاوليمب منها ، أي يبسط أنظاره على فيتليونا بأسرها ، والمدرسة الزراعية والمدينة . كان نيكيتا يصعد هو نفسـه الى هناك عندما كان طفلا ، ويريد أن يختفي عن الآخرين . لم يكن يقصـد بذلك أن يسـتمتع بتأمل الجبال العالية والسهول الرحيبة بقدر ما كان يقصد أن يخلو الى أحلامه الخاصة في هذه العزلة المخيمة . وفي ذلك اليوم ، وقد اكتسحه الضجر والخواء والتعب جاء الطفل العجوز بلا هدف يلهو في ملاذه القديم .

كان الوقت بعد الظهيرة . لمح أول ما لمح في أغوار الأفق السهام الكبيرة المألوفة التي تشكلها أسراب الطيور المهاجرة . سحب بيضاء

كثيفة على هيئة أشكال مختلفة نازلة من الاوليمب ومن كيسافو راحت تمشى فى السـماء الهوينا • ومن ثناياها ، كانت تبرز الزاوية الحادة المؤلفة من الطيور الماضية فى طيرانها ، تلتهم أكبر ما يمكنها من المسافات قبل هبوط الليـل • ولكن اليوم ، ثمـة شىء غريب كان يجرى أثناء مرورها • كانت سهام الطيور المهاجرة تصاحبها على الأرض سحابة من التراب تسبقها نقطة سوداء •

تناول أضخم المناظير المكبرة التى وجدها فى الشرفة الزجاجية • مسـح عدسـتيها وتطلع الى هناك باهتمام • وكان ما شـاهدته عينـاه مذهلا : على الأرض ، راح فارس يتسـابق مع أسراب الطير بأقصى سرعة •

تمكن الفارس أن يسبق السهم الذى كان يتعقبه ••• وفجأة توقف الحصان فى مكانه • شب على ساقيه الخلفيتين مرتين أو ثلاث مرات حرك ساقيه الأماميتين هنا وهناك • تقافز قليـلا كمـا لو كان يؤدى رقصة • ثم انطلق يركض فى ثقة من جديد ، كى يسبق سربا يمضى فى اتجاه آخر بسرعة أكبر •

انحنى الفارس على رقبة حصانه المطوطة الى أقصى حد • وراحت حوافره تقترب من جسمه وتبتعد • توحد الرجل ودابته ومضيا يتعقبان هدفا واحدا ، تاركين وراءهما خطا ممتدا من الغبار •••

وما لبثا أن تمكنا من أن يسبقا من جديد السهم الذى يعلوهما ••• ومرة أخرى توقف الحصان ، وشب على ساقيه الخلفيتين وهلة قصيرة مطوحا رأسـه عاليا ••• ثم عاد يواصـل عدوه السريع فى اتجاه آخر •••

لماذا كان هذا الرجل يتعقب الطيور المتوحشة هكذا ؟ لم يكن يقصد أن يطلق النار عليها ••• فلم يكن يحمل سلاحا • اذن ، ماذا كانت تعنى هذه الملاحقة الضارية ؟

لا بد انه رجل مجنون ، أو لعله شخص يلعب لعبة ما •

كلا ، لم يكن الأمر لعبا ولا جنونا • أدرك نيكيتا ماذا يفعل هذا الرجل • بالحدس فهم ذلك • انها اجابة أقوياء الأرض توجه الى أقوياء السماء •

هو نفسه ، أحس أمس بالضيق للمشهد الباهر ، وأحنى رأسه ، فقد لمس في نفسه شيئا مثل شعور بالخزى والمذلة ٠

أما ذلك الفارس هناك ، فانه بدلا من أن يحس بأى مذلة ، راح يتحدى قاهرى العواصف والجبال ، ونجح فى الانتصار عليهم ٠ وكان ما رآه من تحدى وانتصار هذا الفارس المجهول مدعاة لاحساس جديد بالخزى ، أكبر من احساسه السابق به ٠

دهش ٠ كان حزنه وتشاؤمه ، واحساسه المستمر بخيبة الأمل ، وبعبارة موجزة ، كل ضعفه هذا تقبله من قبل كوضع طبيعى ونهائى ، ما كان ذلك يضايقه فى شيء ٠ ولكن فى هذه اللحظة أشعره هذا الوضع بالمهانة ، وأدرك انه منذ مجيئه الى اليونان داخله الشـــعور بأنه يزداد ضآلة ٠ وما عاد هذا الشعور يفارقه برهة ٠

شيء غريب ! ٠٠٠ انه كما لو كان يحتفظ فى أغوار روحه السحيقة ودون أن يدرى بالطموح الى القوة ! والا فلماذا هذا الاحساس البغيض بالتضاؤل ؟ ٠٠٠ كان هذا الاحساس شيئا متناقضا ومثيرا للضحك !

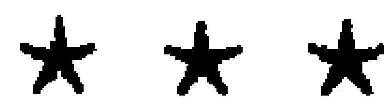
خفض المنظار من على عينيه وراح يتابع الفارس حتى اللحظة التى رآه فيها يتخذ بعزم الطريق الى فتيليونا ٠٠ استعان من جـديد بالمنظار وأعجب بمشية الحصـــان المختالة المتزنة ، وأدرك بغتة من كان ذلك الفارس ٠ انه الشاب الخشن الذى رآه البارحة فى الغابة مع الشابة الجميلة ٠

كان رد الفعل الذى استشعره طبيعيا ، لكنه كان عنيفا ووحشيا : اجتاحه احساس بالنقمة على هذا الرجل ٠ ومع ذلك لم يكن لاحساسه هذا أى مبرر ٠ أو بالحرى ، حتى لو كان لديه سبب فسوف يكون من الأسباب التى يأبه بها رجال من صنف آخر ، لا أمثـاله من المهـذبين الضجرين بالحياة ، الذين يرون فى ضعفهم ملجأ طبيعيـا ومسـتحبا ، مادامت أسباب الراحة مكفولة لهم ٠

ما الذى كان يحدث ؟ أهو رد فعل للمصـاعب المـادية التى لقيها مؤخرا ؟ أهو رد فعل لمسلك شخص ظهر بمظهر سوقى للغاية ، بينما كان متعودا على الأدب المصفى ؟ أيرجع ذلك الى أنها المرة الأولى التى يحتك فيها احتكاكا مباشرا بكائنات قوية وبدائية ؟ أو ربما يعزى ذلك ــ طبقا لنظريات جديدة مبهمة ــ الى التواجد فى حضرة جبال ابيروس وسهول

ثيساليا اللصيقة به ، والتى تثير خلايا جسده ، لأنها نبت العديد من الأجيال التى ولدت وعاشت فى هذه الأماكن ؟

يا للشقاء ، لو كان هذا هو السبب ! فهذا سوف يعنى أن خلاياه تنتمى الى جده ، وانها كانت تمر بانفعالات يونانية • وهذه الانفعالات لا وجدانه ولا عقله يريدها • بل على العـــكس ، كانت تبعث فيـه الاشمئزاز والنفور • انه لا ينتمى الى هذه البلاد التعسة • كلا ، انه لا ينتمى اليها على الاطلاق •



قاد اليكسى ستورناريس الجواد الى الحظيرة ، وأوصى أن يدلك جيدا ، وأن يعلف ولكن ألا يعطى ماء كى يشرب الا بعد قليل • ثم توجه الى بيت ريامو •

قال لفروسو :

ـ لست بحاله تسمح لى بالدخول لأجلس ، ولا أن أذهب بعد ذلك كى أرى كوليتيس • أعطنى فرشاة • وقولى لى أين أستطيع أن أغسل وجهى •

قالت ضاحكة :

ـ ها أنت ، قد غطاك السهل بترابه من قمة رأسك الى أخمص قدميك • أى حصان كنت تمتطى ؟

ـ بيجاس •

ـ حيوان رائع ! تعال بالخارج كى أنظف بالفرشاة ملابسك •

ـ أجل ، بالخارج ، والا انتشر الغبار هنا ، وغطى كل شىء • لكننى سأنظف ملابسى بنفسى •

ـ لا تحـاول • انها من أعمـال النسـاء • وتعرف أن ذلك سوف يسعدنى •

بعد ذلك ، جلسا الى المائدة يحتسيان قدحين من القهوة •

قال لها :

ـ تلقيت رسالتك . وقد جئت اليك .

ـ لسوء الحظ لم يكن لدى الوقت كي أبعث اليك برسالة ثانية اخبرك فيها ان الأمر الهام ما عاد له وجود .

وأخبرته بموقف والدها . وتناقشا فى أمره برهة . وتحدثا من جديد عن سيد فتيليونا الذى لم يترك لدى فروسو انطباعا حسنا .

وقالت له فجأة :

ـ ها أنت قد جئت من أجل لا شيء .

ـ ألا تخجلين لقول مثل هذا ؟ ما دمنا هنا نحتسى قهوتنا معا ، فهل كنت بحاجة الى مبرر آخر كي أحضر ؟

قالت مداعبة :

ـ تعلمت المجاملات ...

قال ضاحكا :

ـ أجل ، المجاملات هى تخصصى . لكن أنت لا أجاملك أبدا ، يا فروسو العزيزة . أحس لو كان لى أخت ، كنت سأحبها قدر ما أحبك. يجب أن تعرفى ان همومك تؤلمنى ، ربما أكثر مما تؤلم العجوز ريامو نفسه .

ـ أعرف ذلك ، وأشكرك . ان صداقتنا عزاء كبير لى . ولكن لماذا أتحدث عن العزاء ؟

كل شيء يسير على مايرام الآن . أستطيع أن أقول لك اننى سعيدة . أحيا حياة هادئة ، أحب أبى العجوز كثيرا ، وبفضل القليل الذى أعلمه من اللغة الانجليزية لبعض تلميذات المدرسة ، واشغال التريكو ، أحقق لنفسى دخلا صغيرا أشترى به كتبا ، بل اننى استطعت أن أقتنى مذياعا أيضا . ما الذى أريده أكثر من ذلك ؟

ـ توقفت طموحاتك عند هذا الحد !

ابتسمت :

ـ ليس لى طموحات . ان الهدوء وراحة البال ، هما كل ما أطلب. هل لديك مذياع جيد ، أنت ؟ كم من الناس لديهم مذياع ، فى اليونان ؟

وبلهجة تزايدت جديتها اختتمت كلامها قائلة :

ـ وعلى الأخص ، كم يعرفون هدوء البال حقا ؟

قال بجدية هو أيضا :

ـ فروسو ، أما انك تريدين مخادعتي وأما انك تقولين أشياء حمقاء • انك لازلت في ميعة الشباب ، مكتملة النضج ، ولابد أن يكون في بالك شيء • هذه الأمور التي تتشدقين بها لا تكفي لملء حياتك• اننا لم نتحدث عن ذلك الا مرة واحدة من قبل ، ولكن يجب أن نعود الى الحديث عنها يوما • سأقول لك رأيي بشكل جازم • كان نوتيس شابا حبيبا الى القلب وله مزايا جمة • وكان يحبك • الشيء المحزن انه اختار الطريق الخاطيء • ما دام لم يظهر له وجود بين الأحياء ، وما دام لم يعد لك أدنى أمل في أن تعثري عليه ، فمما لا غناء عنه أن تبحثي عن رجل آخر لتكوني معه أسرة • انها وسيلتك الوحيدة لملء حياتك •

أدارت وجهها نحو النافذة ، وتابعت بعينيها السحب التي تعبر اديم السماء • كم هي فتاة طيبة وجذابة ومتزنة !! كانت قوية البنيان • متناسقة الأعضاء ، تتفجر الصحة من وجنتيها ، شفتاها مكتنزتان وتنفرجان عندما تضحك عن صفين من الأسنان البيضاء السليمة ، وكانت عيناها الواسعتان الداكنتان وجدائلها الكستنائية المعقودة على هيئة اكليل فوق جبينها شواهد طبيعية تضاف الى دلائل جمالها •

ما لبثت أن كسرت الصمت ، وقالت له :

ـ لا تتحدث عن نوتيس ، يا اليكسي • انك تعرفه مثلما أعرفه ، وتعرف أنه لا يستطيع أن يتغير ولا شك • ان رجلا يسمح بأن تعلو أوامر الحزب على حب زوجته وعاطفة الأبوة ، بل وعلى كل الأشياء الأخرى ، ليس بالرجل الذي أستطيع أن أعقد معه علاقاتي من جديد ، حتى لو توسل الى أن أفعل ذلك • اذا كنت تقبل أن يقرر عنك غيرك أجمل أشياء حياتك ، فان ذلك يعني انك مريض الى حد جسيم ولا برء لك من مرضك • وهذا المرض ، يا اليكسي ، رأيته وعشته عن كثب • ومن ثم لا تحدثني بعد الآن عن نوتيس • أما أن أتزوج رجلا آخر بطريقة حسابية باردة ، فليس لدى الشعور بأنني سأقدم على ذلك أبدا • أن تنام امرأة مع رجل ، وتقاسمه كل شيء ، حتى النسمة التي يتنسمها ، أن تحيا على الدوام وبلا توقف الى جواره ، وأن تجلب الى الدنيا منه

أولادا ، أمر على غاية قصوى من الأهمية • وهذا لا يتقرر بالمنطق البارد ، بل بالكيان كله ، أو ربما بفعل القدر •

ـ بفعل القدر ، هل قلت حقا بفعل القدر ؟ هل سمعت جيدا ؟

ـ أجل ، سمعت جدا ؟

ـ ها هو القدر من جديد • ما الذى حدث لك اليوم ؟

ـ لم يحدث لى شيء • ولا يعود ذلك الى اليوم فحسب •

ـ لست في حالتك الطبيعية حقا • هل سنقبل الآن ان ثمة قوة مجهولة تقرر نيابة عنا ؟

كلا • انما نحن الذين نحكم مصائرنا بأنفسنا • ونحن الذين نقرر ما نأتيه من أفعال •

أجابته بهدوء ، وقد انعكس فى عينيها تعبير حالم :

ـ كثير من الأفعال نحن نقررها ، ولكن ليس الأفعال كلها • فكر فى الأمر مليا • خذ الغريزة مثلا ، الا تبد لك محكومة بالقدر ؟ وبداخلنا غوامض أخرى كثيرة ، ماذا تريدنى أن أقول • كلما تقـــدم بى السن وخطوت فى هذه الحياة خطوات ، وكلما تأملت الأمور وفكرت كلما زاد اعتقادى بأننا لا نتحكم في تلك الأشياء المبهمة التى بداخلنا • وعندما تمسك هذه الأشياء بالزمام ، فانك تمضى فى الطريق الذى تقودك فيه ، وليس فى الطريق الذى كنت ستختاره عادة •

لم يعارضها ، لأن فكره ارتد الى المسائل التى يثيرها فيه اضطرابه الخاص ، والعلة التى يعانى منها هو •

وكما لو كانت فروسو حدست الأمر ، غيرت لهجتها كى تقول له مؤكدة :

ـ لم تكن تعرف حتى اليوم ذلك • ولكنك عرفته الآن بدورك ، يا اليكسى • وانى خائفة عليك •

تحاشى نظرتها ، وبعد برهة ، سألها بلهجة شكسة :

ـ لماذا تخافين على ؟

ـ انها على غاية من الذكاء ، والجمـــال ، ولكنها مخلوقة غريبة الأطوار • لم يكن نوتيس يريد أن يفصح عن حقيقة الأمر ، ولكننى أظن أنه بســـببها ، وكرد فعل لعقليتها البورجوازية المفرطة بحث عن الخلاص فى الاتجاه المعارض •

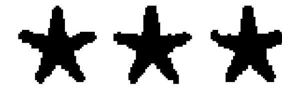
نظر اليها مذهولا ، وسألها باهتمام :

ـ هل كانت تعرف نوتيس ؟ هل كان ثمة شيء بينهما ؟ كيف لم تخبرني من قبل بشيءمن هذا ؟

ـ لم يحدث أن تحدثنا عنها · كانا متيمين ببعضـــهما منذ أيام المدرسة · لم أعرف قط تفاصيل كثيرة عن علاقتهما · أعرف فحسب ان هذه الحكاية امتدت سنتين أو ثلاث سنوات · وانقطعت علاقاتهما لأنها لم تكن تريد أن يتزوجا · ومن ثم ما عاد نوتيس ، وانت تعرف طباعه العنيدة ، يريد أن يراها · وبعد ذلك جئت أنا ، حبه الكبير الثانى ، ثم ما عاد يرانى بدورى ، ولكن ذلك لأسباب مغايرة ·

خيم صمت ثقيل · ثم نهض اليكسى · كان غارقا فى التفكير ، ولكنه استرد حيويته وقال :

ـ فى يوم آخر ، يجب أن نعاود الحديث فى كل هذا بقلب مفتوح ، يا عزيزتى فروسو · عندما يكون لدينا متسع من الوقت · أما الآن ، فقد حضرت لمقابلة كوليتيس · هل يمكنك ابلاغه بمجيئى ؟



دهش اليكسى عندما رد عليه انه سينزل لمقابلته فى الحديقة · كان يتوقع أن يجرى بينهما حديث طويل ودى · ولكن ما عاد الآن يشك فى أن استقباله بالحديقة سيكون فاترا للغاية ·

أقبل عليه نيكيتا كوليتيس ، فى ملابس بســـيطة أقرب الى الاهمال ، أشبه بملابس رســـام غريب الأطوار ، وبلهجة باردة وغير مكترثة سأله ما اذا كان قد طلب مقابلته ·

لم يكن الرجل دميما · كان طويل القامة ، عريض المنكبين، ممطوط الوجه ، وبارز الجبهة · عينان سوداوان واســعتان · وجنتان بارزتان وذقن قوية ، وشفتان أميل الى الاكتناز · ولكن قسماته يبدو عليها التعب ومنكبيه محنيان ، ووجهه يكاد يكون شاحبا مليئا بالتجاعيد · عيناه محاطتان بهالتين داكنتين ، وفمه الواســع متهــدل الفكين يعبر عن المرارة ·

بدا له مريضا ، ضجرا ، مستفزا · لم يرد عليه اليكسى توا · ولسبب غامض هم فى لحظة أن يستدير بغتة وينصرف · كيف يمكن

للأسر الكريمة أن تتدهور فى طريق الانحطاط الى هذا الحد ! لا يمكن أن يكون هذا التافه سليل الرجل الذى ألهب روح الأمة اليونانية طوال خمسين عاما ، سليل ذلك العجوز المهيب ذو القامة العالية الذى يذكره اليكسى مثل طيف بلحيته البيضاء ، ونظرته التى تشبه نظرة النسر وصوته الرصين الدافىء ٠

كان الغروب يعتم تحت ستار الأشجار ، وتساقطت رطوبة الخريف بثقل أشد على كل الأشياء ٠

بذل اليكسى جهدا وتماسك ٠ قدم نفسه ، وقال :

ـ جدك ساعد أسرتى كثيرا ٠ اهتم بى منذ طفولتى ، وعنى بأن يسجل فى وصيته أن ينفق من ماله على دراستى الزراعية ٠ البلاد تدين له بالكثير ، بالكثير حقا ٠ وقد جئت أقول لك انك اذا رأيت ان بامكانى أن أساعدك فى نهضة فتيليونا فأنا فى خدمتك ٠

اجاب نيكيتا كوليتيس قائلا :

ـ يحتاج جدى فى قبره الى الصلوات كى تنعم روحه بالسكينة ٠ والى القاء المحاضرات للتشدق بمآثره كى تستمر ذكراه فى الوجود ٠ لقد عشت سنوات عديدة بين أناس لم يكن يعرفونه قط ، وتعودت أن لا تكون الصداقة التى يقدمونها لى صلاة تذكارية من أجل جدى ٠

أحس اليكسى بهذه الاجابة كأنها ضربة مسددة الى بطنه ٠ وليس ذلك لأنها كانت مليئة بالغطرسة ، فلم يول اليكسى هذا الأمر أدنى اهتمامه ، ولكن لأنها ذكرته بشىء ما ٠

البارحة فى الغابة ٠٠٠ بعد الغنـــــاء ٠٠٠ وبعد القبلة الأخيرة المتأججة بالعاطفة ٠٠٠ أبلغته كيتى بوصول الشاب كوليتيس ٠ فقال لها بلهجة متحمسة ، بأنه لما كان الجميع مدينين له ، فعليهم أن يسارعوا بعرض خدماتهم عليه ٠ وعندئذ دقت الفتاة الأرض بقدمها فى غضب ، وصاحت :

ـ لو كنا مدينين بشىء ، اذن فلنقم من أجل العجوز الصـــــلوات والندوات الأدبية ٠

الكلمات ذاتها ، والغضبة ذاتها ٠ رد الفعل ذاته بدر أيضا من هذا المنحل ، شاعر الأخلاق المتفسخة ٠٠٠ ومع ذلك لم يكن ذلك يستدعى سوى الرثاء والعطف عليه ٠٠٠

أحس بالخوف أن يكون دون قصد منه قد بدر منه تقصير فى آداب الحديث وهو يشرح أسباب زيارته ، وان الآخر بكل حسن النية لم ير فى كلامه سوى اهانة موجهة اليه • ولذلك فقد بذل محاولة جديدة وقال :

ـ جئت بمنتهى النوايا الطيبة كى أساعدك •

قال الآخر باللهجة العدوانية ذاتها :

ـ افترض ذلك • ولكن بالنسبة لأحوال فتيليونا ليس ثمة معونة ترجى • اننى على الدوام بالخارج ، ومع أعمال الاحتيال التى تسود اليونان من المستحيل أن تقوم ادارة صالحة فى فتيليونا •

ارتسم الغضب على قسمات اليكسى • بدا له أن الآخر يريد أن يجرحه بأى ثمن •

انطفأت ذكرى الجد فجأة ، ذلك أن الذى يقف أمامه ليس له من صفات العجوز شىء •

صاح اليكسى :

ـ لم تأت الى اليونان منذ أمد طويل ، حتى تعرف ماذا يسود هنا • آسف اننى ضيعت وقتى • طابت ليلتك •

٥

كان دير القديس ايليا شعلة تبعث الدفء فى ثيساليا أثناء الشتاء القارس البرد ، وقطرات ندى طلية تلطف من هجيرها بالصيف • كان هذا الدير ، ولا فخر ، روحا أكثر منه مادة •

وعلى مدى وجوده الطويل ـ أو بعبارة أوضح على مر العديد من الأجيال ـ حدث أن انطفأت الشعلة فى بعض الأحيان وجفت قطرات الندى • ولكن حتى عندما كان لا يضحى القديس ايليا سوى أنقاض ، ظل هناك كما لو كان شيئا سيبين عن نفسه ، شيئا يبسط الحماية ، ولا يمكن أن يدركه الموت • وعلى ذلك ، لم يكن هذا الدير يموت أبدا • كانت السنين تمر فينتصب شامخا من جديد على قمة التل ، كعزاء حيوى •

كان البعض يقولون انه انما يبعث بفضل معجزة من المعجزات · ويقول آخرون ان حب المؤمنين المخلصين يبعث فيه الحياة ، وهو حب ظل ملموسا · ولكن دون أن يكون بامكان أحد أن يحدد متى أنشىء الدير ، ولا كم من المرات بعث حيا · عديد من الباحثين كرسوا جهودهم لالقاء الضوء على هذا التاريخ · ولكن أسقفية لاريسا والمجمع المسكونى فى القسطنطينية شبت النيران فيهما أكثر من مرة ، ومن ثم انعدمت السجلات التى تمكن من التأكد من صحة ما أوردته بعض الكتب التى تصدت لتحديد عمر هذا الدير ومعالم تاريخه الباكر ·

كان المعروف فحسب انه هناك منذ أمد بعيد · وكل جيل يقول للجيل اللاحق أن الدير قديم جدا · ويرجع الى العهد الذى كانت فيه بيزنطة تحكم البلاد ، بل وفى قول يعود هذا الدير الى العصور السحيقة ما دام كان فى هذا المكان من قبل معبد وثنى ، بأعمدة من الرخام ، ومخابىء تحت الأرض ذات منعطفات عديدة ، ولم يكن الناس وحدهم يقولون هذا ، بل كانت الحجارة تقوله أيضا ، ذلك أنه فى الحوائط كتل من الرخام المزخرف بنقوش على هيئة خطوط ودوائر ، وطيور وحيوانات غريبة ·

وترجع آخر مرة أعيد ترميم الدير فيها الى أعقاب حرب عام ١٨٩٧ اللعينة ·

خرب ومهجور ، وتلوذ به عنزات الجيرة · هكذا وجده العجوز نيكيتا كوليتيس عندما زاره أول مرة · كان الفناء الخارجى مليئا بالعوسج والشوك والأعشاب الشيطانية والأنقاض · وكان السواد يغطى الكنيسة كلها ، وحوائطها متصدعة وحافلة بالشقوق الغائرة · وحتى القبة المشعجوجة علاها السناج الأسود الكثيف الذى يعزى الى دخان مصابيح الزيت والشموع والنيران التى أشعلها فى أزمان مشئومة رعاة الماعز ، ولاجئون ، بل وأيضا جند من فرق المقاومة أو قطاع طرق ···

حك كوليتيس بسكينه الطبقة الكثيفة من السناج فبدا له لون أحمر ، فجلب صناعا مشهورين قاموا بتنظيف المكان وتبين بعد ذلك أن الكنيسة المخربة كانت مغطاة بأسرها بلوحات حائطية من الفريسك ، فعمد الى ترميمها وتدعيمها · وأعاد تشييد الكنيسة على النحو الذى افترض أنها كانت عليه فى أوج عظمتها ·

معجزة سددت خطاه ، هذا ما كان يقوله المؤمنون وهم ينحنون مجتازين الباب الواطىء المفضى الى فناء الدير تحت برج الاجراس المصنوع من الخشب ٠

معجزة ، هذا ما كانوا يقولونه وهم يدخلون الممشى الضيق الطويل المغطى بالبلاط ، والمحاط من الجهتين بحوائط عالية ومبان ذات سراديب ونوافذ صغيرة مقوسة ، وواجهات لمقاومة الريح ٠

معجزة ، هذا ما كان يقولونه ، وهم يرسمون علامة الصليب فى ذلك الجو من الهدوء والعزلة ، ويستعيدون أزمان القداسة والصلاة الغابرة ٠

معجزة ، هذا ما كان يقولونه وهم يصعدون التل الذى اكتسى الآن بالخضرة ويرون أشجار البلوط المعمرة التى تحتاج كل من سيقانها الى سبعة رجال كى يحوطوها بأذرعتهم لفرط ضخامتها ، والتى تشبه بأغصانها المورقة جبالا خضراء ، فاذا ما تعرت من أوراقها ، بدت مثل عمالقة مغروسة حتى العنق فى الأرض ومادة الى السماء أذرعها الضخمة المتلوية ٠

ولكن البعث الكامل للقديس ايليا لم يتحقق الا عندما استتب هناك المقام بالراهب الجديد ، « الأب موديستوس » ، وقد كان بدوره من أبناء القرية التى ينتمى اليها كوليتيس ٠ أتم تعليمة بالمدرسة بفضل عونه ، ولكن بعد أن قيد اسمه بجامعة أثينا مدة عام اختفى ٠ ماذا حدث له ؟ ما من أحد عرف ٠ قيل انه رؤى فى مارسيليا ، وباريس ، وبوخارست ٠ وفجأة ، بعد قرابة عشر سنوات ، مثل أمام الجد ، وقد ارتدى مسوح الرهان ٠ وطلب منه فى تواضع أن يغفر له أخطاء شبابه ، وأخبره انه أكمل دراسته بمدرسة خالكيس القريبة من القسطنطينية ، وان البطريرك أراد أن يحتفظ به الى جواره كرئيس لشمامسة العرش المسكونى ، لكنه فضل أن يذهب الى دير من الأديرة ٠

وهكذا عثر دير القديس ايليا بعد أن اكتمل له الكيان المادى على روح تنبض فيه بفضل الراهب الجديد ٠

كان الآب موديستوس يكن حبا شديدا لاليكسى ستورناريس ٠

وكان اليكسى يذهب كثيرا لزيارته ، ويقضى هناك أيام الآحاد ، مقدما خدماته لتحسين المكان ٠ ولكن ذلك لم يكن الا شيئا ثانويا ، أما انشغالهما الأصلى فكان يتمثل فى المناقشة ساعات طوال ، وفى بعض الأحيان كان الوقت يوغل بهما الى الليل ، يتبادلان الأحاديث حول كل المواضيع ، ويتنقلان من أكثرها بساطة الى أكثرها رحابة وعمقا ٠

وفى ذات اليوم من أيام الآحاد ، فتح اليكسى قلبه للآب موديستوس ٠ أشركه فى تفضيل كل ما رآه بنفسه أو نما الى علمه بشأن زائر فتيليونا الجديد ٠ كما حدثه عن كيتى ٠

ـ يا أبتى ، ماذا يحدث لى ؟ أشعر اننى أنجرف بعيدا عن حالتى الطبيعية ، ولكننى الآن وقد تزايدت الشكوك فى قلبى من كل نوع ٠ ماعدت أعرف على الاطلاق أين أنا ٠ حتى الآن كنت أحضر من أجل صحبتك ، ولكننى اليوم احتاج الى عونك ٠ يا أبتى ، أعنى ٠

ـ كيف أساعدك ، يا بنى ؟ كيف ؟ قبل كل شىء ، ان تجارب الغير ليست بذات أثر علينا ٠ انها شىء قيم لكنه لا يعار ولا يعطى ٠ هذا فضلا عن أن خبرتى قديمة ، بل قد طمرها النسيان ، وقد حل محلها شىء أكثر عمقا وضخامة ٠ ثم انك من هذه الناحية عبد للعاطفة ، ولن تكون وسائلى الروحية سوى قطرة ماء تنزل فى سهل شديد العطش ٠

ـ لا بأس ٠ هذه القطرة أعطها لى ٠ ربما هدتنى الى نبع يروينى ٠

ـ كلا ، يا بنى ٠ لو كنت واحدا من أولئك النكرات الذين يحضرون الى هنا للاعتراف لوجهت اليه نصائح صارمة ٠ سوف كنت أحدثك عن الخطيئة ٠ ولكن معك أنت ليس الأمر سيان ٠ لقد صنعت الكنيسة قوالب تناسب أوامر الرب ، ولكن هذه القوالب صنعت من أجل أولئك الذين يستطيعون بشكل أو بآخر أن يدخلوا هذه القوالب ، ومن أجل من كان منا ، نحن مفسرى ارادته التافهين ، ليس لديه الوقت أو الامكانية ان يفهم بنفسه ، أما الرجل الذى شغل بالتفكير كثيرا ، وأحس الأمور بعمق ، ويتمتع بحيويته الخالصة ، فلا يكفى الدين للتغلب على مابه ، مهما كان ما يقوله الدين وما يفعله ٠ ومهما كانت الوصفات التى يعطيها ٠

وبصوت مفعم بالحرارة والعاطفة مضى يقول :

ـ لا انتصار لمثل هذا الرجل الا باكتشافه الايمان الأ[illegible] ٠

ايمان أعمى بارادة الله صاحب السيادة • أما بالنسبة لك ، فسوف استخدم أقوى الوسائل التى فى متناولى • سوف أصلى من أجلك فى خشوع تام وبكل ما أوتيت روحى من قوة •

كانت تتأجج جذوة نار فى كلمات الرجل العجوز ، **ولكن الشاب اتى حركة تنم عن الدهشة وقال :**

ـ وهل تعتقد حقا ان صلاتك يمكن أن تغير من قدرى ؟ هل بلغ بك الحد الى هذا ؟

ـ اسكت • لا تجدف • أن تكون متدينا على طريقتك ، هذا أمر أقبله ، أما أن تجدف فلا أقبله •

ـ انى لا أجدف • ولكن هذا الذى تقوله لا يندرج تحت قوانين المنطق •

فكر الراهب قليلا ، ثم قال :

ـ أقام الانسان قواعد منطقية بمقياس عقليته الصغيرة ، وما لا يجد له مكانا هناك ، يدعى انه لا ينجح فى اداركه •

ـ يا أبتى ، أنت تعرف اننى أومن بدورى • ولكن هناك الحقائق العلمية • هناك الأشياء التى لا تقبل الجدل ، هناك القوانين الرياضية ، التى تؤكدها حركة النجوم ذاتها • لا يمكننا أن نترك تفكيرنا يسير فى طريق يضاد هذه المسلمات •

ابتسم الراهب بمودة ويقين ، كما لو كان يتعامل مع طفل لا يحسن التفكير ، وقال :

ـ الى حد ما أنت على حق • ولكننى أمضى الى ما هو أبعد • فى كل لحظة يكتشف العلماء خطأ حقيقة علمية أزاء ظهور حقيقة علمية جديدة ، ليس من المستبعد ان يبين خطأها أيضا فيما بعد • ومن ثم فان بعض الحقائق المطروحة لا قيمة لها ، بل وتقودك الى الخطأ • كلما تقدم العلم واكتشف آفاقا جديدة ، وغالبا ما تكون أشد رحابة مما كان يدور بخلد العلماء من قبل ، يتوهمون أنهم قد خطوا خطوة الى الامام فى مجاهل الكون الذى خلقه الله • وقد قلت بنفسك ذلك وأنت تتكلم عن القوانين الرياضية المتعلقة بالنجوم • وتلك القلة من القوانين التى اكتشفت اثبتت ان ثمة قوانين أخرى كثيرة ، وعلى غاية من الدقة تحكم حركة

الكون كله . لا الكواكب الخمســة التى نعرفها فحسب بل وذلك الكم الهائل من النجوم التى تشبه النمل فى كثرتها ـ أعنى المجرة ... وتلك هى القوانين التى يبحثون عنها منذ اجيال ، ولكنهم لا يجدونها . لقد قالوا شيئا عن الوجود ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا ما هو . بل ولا يستطيعون أن يقولوا ما هذه الكينونة غير المدركة الممتدة فى كــل اتجاه ، ولا نهاية لها فى أى مكان أو زمان . أتسمعنى ؟ كيف تريد اذن أن أقارن العلم حتى بكل امتداداته بالكينونة التى تتجاوز الادراك ، وهى الخليقة الالهية ، وبحار الاسرار التى تخبئها ؟ ولكن لماذا أقول كل هذا ، يا بنى ؟ ما الجدوى من الحديث عن النحو الذى يضىء الصومعة القنديــل أو الشــمعة ، بينما انت ترى الضــوء اللانهائى الذى ينير العالم ، هل تسمعنى ؟ العالم الذى ليس له فى أى زمان أو مكان نهاية ... عندما ترى هذا النور ، تيقن ان بامكان صلاتك ان يكون لها نفوذ على كل شىء مادامت تتصل بالقوى التى تحكم العالم .

توقف مليا ، تأمله ، ثم مضى يقول :

ـ لا تدهش . ســواء تحقق هــذا الاتصال بفضــل الموجات التى يدرسها منذ زمن قريب هؤلاء العلماء الذين يحظون بتقديرك ، أو تحقق بواسطة الملائكة أو بالأرواح الأخرى الهائمة فى الأثير ، فهذا لا يهم كثيرا ولا أعرف عنه شيئا ... أعرف فحسب ان هذا الاتصال يتحقق . واذا نجحت فى البلوغ الى هذا الاتصال ، واستثرت اهتمام تلك القوى . فعندئذ كل شىء ممكن ، حتى أبعد المعجزات عن التصديق .

صمت برهة ، وثبت على اليكسى نظرة غريبة ، دافئة وضاءة ، ثم تناول يده :

ـ تحدثنا مرارا عن الصلاة ، ولكن هناك شيئا لم أقله لك قط . وسوف أقوله لك الليلة بمناسبة هذا النقاش . من وقت لآخر ، عندما أعانى من ألم كبير ، أغلق على نفسى بالمفتاح باب الكنيسة ، انبطح أرضا وأصلى ملصقا صدرى ووجهى بالارض امام باب المذبح . فى بعض الايام لا يحدث شىء ، ولكن فى بعض الأيام الأخرى أحس ببلاط الأرضية يرتعد تحت جسمى ، فانكب على الصلاة باستغراق أشد ، واضطر ان أتشبث بالبلاط أطلق الصراخ والزفرات والتوسلات من أعمق أعماق كيانى الى سيد العالم . وأجزم لك ، اننى أعجز عن الامساك بزمام البلاط ، وكلما ازددت تشبثا به ازداد اهتزازا تحتى . وفى هذه الحالات أسمع اضطراب

الأرض التى تصفع وجهى وصدرى وتحدثنى ، وعندئذ أعرف ان توسلاتى وصلت اليه أو الى ما هو قريب منه ٠

صمت ، لهث قليلا ، التفت الى الشاب وقال له :

ـ هكذا سأصلى من أجلك ٠

نظر اليه اليكسى ستورنايس بانبهار ، وسأله :

ـ سوف تصـلى من أجلى هكذا لأنك تحبنى كأبنك ، يا أبتى ، أم لأنك تعتقد ان حالتى على غاية من الجسامة ؟

تأمل العجوز قوله ، وألقى عليه نظرة مفعمة بالحب ، وتمتم :

ـ للسببين اللذين ذكرتهما ، يابنى ٠

اجاب اليكس بلهجة حازمة ، وأميل الى العناد

ـ أشكرك يا أبتى ، لكننى لا اعتقد ان الرب ينشغل بحياة الانسان ٠

ظل الراهب غارقا فى تأملاته ، ثم قال بعد هنيهة :

ـ اليكسى ، عندما يغامر عقل الانسان خارج الحدود التى خلق من اجلها ، فانه يلتقى حتما بكثير من الاشياء التى لا يستطيع ان يفهمها ٠ واذا أصر على فهمهما ومحاولة تفسيرها ، فان ذلك يعنى انه يبسطها الى الحد الذى يجعل هذه الأشياء الكبيرة والمعقدة صـغيرة الشـأن وضئيلة القيمـة ٠ يـوم الأحـد المـاضى شرحت لى كيـف يلتقط الـراديو فى الهواء موجات غير مرئية ويحيلها الى كلام وموسـيقى ٠ ومرة اخرى ، قلت لى كيف يكبر الميكرسكوب آلاف المرات أشـياء غير مرئية ويجعلها مرئية ٠ وأكـاد اكون قد فهمت ذلك ٠ ولكن أى رجل بدائى تقول له ذلك لن يفهم ٠ وانما اذا علمته رويدا رويدا أشياء كثيرة ، فسوف يمكنه يوما ان يكون فكرة عن الأمر ٠ وعلى العكس لو أخذت أى حيوان ، وحاولت معه شتى الطرق المحاولات فانه لن يلتفت الى شىء من ذلك على الاطلاق ، لأن عقله لم يصنع كى يوغل بعيدا الى هذا الحد ٠ ويصدق هذا ، بالنسبة للانسان ، سوف يريد ويفعل الكثير ولن يفهم شيئا من هذه الاسرار التى لم يصنع عقله كى يدركها ٠ تقول لى : الرب لا ينشغل بحياة الانسان ٠ كيف يمكنك ان تتكلم عن هذا ؟ مادمنا لا نستطيع حتى ان نقول ما الرب ، وبأى الوسائل وعلى أى نحو يتصرف ، ليس على الارض فحسب بل وفى الوجود كله ؟ فى ملايين النجوم ٠٠٠ فى هذه السماء ، هذه السماء التى يقول العلماء عنها انها بلا حدود فى الفضاء والزمان ؟ أما عن تدخله فى

حياة الانسان ، فانني أود آن أدلى اليك بافتراض ، أو أن شئت الدقة ، أريد أن أشركك فيما أومن به ، هكذا ، مغمض العينين ، دون أن أكون قد أجريت أبحاثا كبيرة ، ودون أن أكون قد تقصيت كالعلماء عن الأسباب خلصت الى الاعتقاد بأن الرب لا يتدخل في كل الأحوال ، والا لكانت أسوأ الشرور من فعله • ومع ذلك ، فاني أعتقد ، انه يحدث أحيانا أن يهتم بأمور شخصية صغيرة ••• لا تسألني كيف أو لماذا ••• فانى لا أدرى ••• ربما كان ذلك بسبب الصلاة ، التى هى حماسة نابعة من الشعلة التى تحرك الانسان ولا يمكن الامساك بها ، ذلك الانسان الذى هو المخلوق المفضل لدى الخالق •

قاطعه اليكسى قائلا :

ـ ولماذا يكون الانسان مخلوقه المفضل ؟

ـ لأسباب كثيرة ، ولكننى لن أذكر لك الآن سوى سبب واحد له علاقة بما نناقشه • انى أعتقد أنه بطريقة ما ، لا أستطيع بطبيعة الحال أن أعرفها أو حتى أن أخمنها ، يتدخل الرب في وجود البشر ، مخلوقاته المفضلة • بل وفى هذه الآونة الأخيرة ، ربما كان تدخله بعزم أكبـر أيضا • ربما يسعى للحصول بسرعة على شيء ضخم ، على شيء هائل • فى كل الكون المقدس الذى نعرفه يعتبر الانسان المخلوق الوحيد الذى أصبح روحا فى نسبة كبيرة منه • ولكن فى هذه السنوات الخمسين أو الثمانين الأخيرة حـدثت بعض التغيرات ذات مظاهر متعـددة ترقى الى مرتبة الطفرات ، لم ير مثلها طوال الخمسة آلاف سنة السابقة • فكر فى الطريقة التى انتصر بها الانسان فجأة هـذه السـنوات الأخيرة على المادة • ذلل المسافات ، اكتشف الميـكروبات وأسـباب الأمراض وكبح جماحها ، بل والى حد ما تغلب على الموت • وعرف كيف ينتصر على البرودة والحرارة وتوصل الى عديد من الأشياء التى تفوق التصديق ••

« يوسع الفكر آفاقه من ناحية ، ويزداد تغلغـلا الى الأعمـاق من ناحية أخرى ، وذلك يوما بعد يوم •• فى خمسين أو مائة عام حقق الانسان ما لم يستطع أن يحققه فى خمسة آلاف عام ! •• لماذا ؟ ••• ولماذا الآن بالذات ؟ لماذا كانت حصيلته من قبل ضئيلة والآن كبيرة ، وبضربة واحدة ؟ لماذا هذا التراكم ؟ •• أعرف ان ذلك بسبب تدخل الرب ! وأعتقد أن هذا التطور يتجه الى هدف ، وانه فى يوم ربما لم يعد جد بعيد سيصبح المجتمع الانسـانى بحق مملكة الخير والعـدل • من يدرى ! •• هذا ممكن ••

أصغى اليه اليكسى باهتمام • وما أن سكت الراهب حتى ابتدره قائلا :

ــ منذ اللحظة التى يكتشف عنصر أساسى ، مثل الكهرباء ، فمن الطبيعى أن يهتدى فكر الانسان الى الباقى وحده •

ــ هذا ممكن • ولا أقول العكس • ولكن الأمر لم يقتصر على اكتشاف عنصر واحد بل عناصر كثيرة ومتعددة الأنواع • ثم لماذا لم تكتشف هذه العناصر طوال آلاف السنين ، أو حتى لو كان لهذه العناصر، مثل الكهرباء وجود منذ القدم لماذا لم تكن البشرية تحقق تقدما ؟ ولكننا سنتحدث عن هذه الأمور جميعا مرة أخرى • أما الآن ، فقل لى ، ماذا يجرى فى العالم• بين فترات متباعدة ألقى نظرة على بعض الصحف• هل ستنزل ببلادنا نازلة الحرب ، وهى أكبر حماقات البشر ؟ ما قولك فى هذا ؟

تغيرت أسارير اليكسى • اختفى من وجهه ذلك الألم الممض ، تلك العاطفة المريضة ليحل محلها انشغال عميق ، وقال :

ــ لا أحد يتبين بوضوح ما يجرى فى الجبهات التى فتحتها ألمانيا• يبدو أن العمالقة يراقبون ويوازنون ويعدون قواتهم •

ثم مضى يقول :

ــ أما عنا ، فقد تحدثت مع بعض أصدقائى الطيبين ، من ضباط القوات المسلحة • ويرون انه سوف يكون من المستحيل علينا ألا ندخل الى حلبة الرقص • ان اليونان على الدوام ملتقى البحار والقارات • وتتوقع القوات المسلحة اعتداء مزدوجا : اعتداء ايطاليا من جهة البانيا واعتداء بلغاريا أو بلغاريا وألمانيا من جهة بلغاريا •

ــ وما النتائج التى تتوقعها ؟

اجاب اليكسى بلهجة حازمة :

ــ اننا سنقاوم ولن يمروا •

ــ وكيف سنتوصل الى ذلك ؟

أعطاه اليكسى تفسيرا أقرب الى العاطفة منه الى المنطق • ولكن العجوز لم يتفق معه فيما يقول •• سوف تكون حربا لا تشبه ما سبقتها من حروب •• سوف نتلقى هجوم طليعة قوات الطيران فى العالم ••• ثمانية ملايين حربة ••

كما لو كانت هذه الكلمات تضايقه ، قال اليكسي بحماس :

ـ عندما يصمم الرجال في الجبال والخنادق على ألا يدعوا قدما تطأ أرضنا ، لن يكون بامكان الطائرات ولا المدافع ولا أي وسيلة أخرى أن تشق الطريق لغاصب ٠

استغرق العجوز في تأملات عميقة ٠ ثم قال :

ـ لا أعتقد ان الأمور ستكون هكذا ، واني أرتعد يا بني ٠ ارتعد لأن هذه المرة تواجه أمتنا خطرا كبيرا ٠ فلو انتصر الألمان وكان البلغار حلفاؤهم ـ وهو ما سيكون ـ فان بلادنا سيحكمها من كانوا منذ أجيال يكرهون اليونان ٠ انهم سيبذرون الخراب في البلاد ، وسيهدمونها تماما ٠ والمأساة ، يا بني ، اننا وحدنا ، ليس لنا أخوة أو أقارب ٠ يمكنك أن تأخذ أي شعب آخر وستجد انه مرتبط بآخرين ، بشكل أو بآخر ، ويكون مع هؤلاء أسرة واحدة ٠ ان الانجلوساكسون والسلاف والسكندنافيين ، والعرب أسرا كبيرة متفاهمة الى حد كبير أو صغير ، وما أن يصاب أحد أعضاء هذه الأسرة فان الأسرة كلها تتحد وتهب للوقوف بجانبه ٠ أما الهلينية فليس لها أسرة ٠ انها بمفردها ٠ والأسوأ من ذلك ان الاغصان الضخمة التي نشرتها طوال أجيال في البلقان كله ، وآسيا الصغرى ، بل وحتى على ضفاف البحر الاسود ، هذه الاغصان للمرة الأولى يبست واندثرت ٠ أين مونا ستير ، وستينيماخوس ، وفيليبوبوليس ، بل أين القسطنطينية وأزمير ! ان وجه الأمة في أيامنا هذه قد تغير بشكل مفاجيء وغير متوقع ٠ انتهى انتشار أمتنا في الأرض وتوسعها ! وها نحن قد انحصرنا الى الأبد على صخورنا الفقيرة ٠٠ واذا انكب السلاف على نهب الأرض الوحيدة التي نملكها ، فما الذي سيبقى من هذه الرؤية الوضيئة للهلينية ؟ انني لم أخف قط قدر ما أخاف اليوم ، يا بني ٠

انفجر اليكسي في ضحكة واضح افتعالها وقال :

ـ ما من سبب يجعلك تخاف ، يا أبتي ٠ ان الشبيبة اليونانية لن تجعل مخاوفك تتحقق واذا جاءت الساعة فسوف ترى أن ما من قوة بشرية ستجعلها تنحني ٠

ـ عرفت شبابا يونانيا آخر حارب عشر سنوات مثل الاسود ، من الاوليمب الى أوديسا وأنقرة ٠ كان يحارب وينتزع النصر ٠ طوال عشر

سنوات من ١٩١٢ الى ١٩٢٢ .. ولكنك رأيت بنفسك الكارثة التى حلت بنا ..

ـ رأيتها ، لكن الآن الأمور تغيرت . ما عدنا نجرى حفاة الأقدام وراء أحلاما ضخاما ، سندافع كي ننقذ ديارنا ومقدسات وطننا . هل تعرف كيف سنحارب ؟

ورسم له الشعلة التى تتضمن الشبيبة اليونانية .

لمعت نظرة الأب موديستوس بومضة جديدة . **وأجابه قائلا :**

ـ آمل أن أرى كل هذا ، يا اليكسى . الآن وأنا أرى حماسك أعتقد اننا لو صمدنا قليلا وقمنا بأعمال بطولية وقدمنا تضحيات مجيدة ، فان الأمة ستتماسك من جديد . ولكن الى متى سنصمد ؟ رأيت كيف سقطت بولندة ! كم من الحديد والنار سيصبون هنا ؟ كم من الجند سينقض علينا ؟

أجابه اليكسى هذه المرة أيضا بلا تردد :

ـ هوجمت بولندة من كل جانب . لم تكن سوى سهل منبسط وقد اكتسحتها آلاف الدبابات . أما هنا ، فمن حولنا البحر الذى تسوده انجلترا ، وقد تكون الجبهة طويلة ، ولكنها مغطاة بالجبال والمغارات .

وأنجز كلامه ضاحكا :

ـ اذا صمدنا عشر سنوات ، فهل يكفيك هذا ؟

ولكن الأب موديستوس لم يفكر فى الضحك ، **وقال :**

ـ لو انقض علينا هؤلاء البلغار الشرسون ، وعلى الأخص لو هوجمنا بثمانية ملايين حربة ، ومليونين من الطائرات ، فاننى سأقنع بعشرة أيام كى يكتب لليونان المجد والمستقبل .

قطع حديثهما راهب شاب . انحنى واضعا يده اليمنى على صدره ، قائلا :

ـ يا أبتى . ثمة عربة تصعد السفح . هل من أوامر تعطيها لنا ؟ أطلوا من النوافذ ونظروا ناحية السهل .

قال موديستوس مصدقا :

ـ انها قادمة الى هنا .

ـ انها عربة فتيليونا • هل تعتقد ان الشاب كوليتيس قادم لزيارة الدير ؟ ليس لدى أدنى رغبة فى أن أقابله من جديد •

ـ أتمنى أن يكون هو • يهمنى أن أراه • ولكن أيا من كان القادم فلنذهب لنرحب به •

ذهب اليكسى ، بفتور ، الى الباب ، تاركا رئيس الرهبان يخرج الى الفناء وحده •

ولم يخطئا فيما توقعاه •

وقف موديستوس أمام سليل الجد ، ونظر اليه بعاطفة ، رفع ذراعه ببطء ورسم عليه علامة الصليب ضاما أصابعه كى يباركه • **وبصوت رصين داخلته رعشة خفيفة قال له :**

ـ مبارك الآتى • مرحبا بك يا بنى على أرض أجدادك التى انتظرتك طويلا •

لكن نيكيتا كوليتيس لم يكن الزائر الوحيد ذلك اليوم •

عندما توقفت العربة التى يجرها جوادان متعبان استشعر اليكسى احساسا مبهما ، وتراجع دون وعى منه خطوة الى الوراء • وبلا سبب مبرر ضغطت على قلبه منذ الوهلة الأولى قبضة صلبة ، وأدرك بسرعة ان ما حدسه لم يخب • وذلك لا لأنه لمح كيتى تنزل من العربة بصحبة أبيها وعمها ، ولكن بسبب بعض التفاصيل •• بعض الوقائع الصغيرة التى لا تبدو ذات معنى •• ولم تستلفت نظر غيره ولكن كيف يمكنه هو ألا يلاحظها ، مادامت تتعلق بما يعتبره أكبر وأجمل شىء بالنسبة له ؟

بعض التفاصيل •• ان نغمتين خاطئتين ليستا سوى جزئية فى سياق أغنية ، ولكنهما يفسدانها •• راحت هذه الوقائع الصغيرة التى رآها تصرخ وتحيل أغنيتهما كلها نشازا •

نزل كوليتيس من العربة ـ أكثر تحررا وبهجة هذه المرة ـ ومد يده ليساعد من ستنزل بعده • تناولت كيتى اليد الممدودة ، وشكرته بابتسامة عذبة وجميلة الى الحد الذى لم ير مثلها قط • ظلت الى جواره ، وعادت تبتسم له الابتسامة ذاتها ، وتنظر اليه برقة والحاح ، الحاح كبير • تحدث الأب والعم مع رئيس الرهبان برهة ، بينما جال الشاعر ببصره فى منظر السهل الرحيب • ذهبت كيتى الى جواره ، مبدية اهتماما كبيرا يرقى الى مرتبة الانفعال ، وهو ما لم يره فيها اليكس من قبل • اشارات لكوليتيس الى شىء بعيد ، وأمسكت به من مرفقه ،

وجعلته يستدير نحو النافورة المحاطة بأشجار البلوط الضخمة . وبايماءة رحيبة من ذراعها أشارت الى الدير في مجموعة .

وعندئذ لمحته .

لمحته ، ونم وجهها عن الدهشة البالغة ، المختلطة بشيء من الضيق .

ماذا كان عليها أن تفعل بضيقها ؟ كيف تهون عليه ؟

لا شك ، أن كيتى لم تقع فى حب هذا الشخص الوافد عديم الحيوية ! لا شك انها لم تنس حبهما وارتباطهما ! ان كل ما يراه لم يكن حقيقيا . كان مجرد تصنع ! لكنها كانت تهب نفسها للعبة ، بينما كانت وشائج الحب قائمة بينهما ، ومنذ بضعة أيام فحسب أفصحت له عن مبلغ ما تشعر به من تقزز نحو آل كوليتيس .

كان قلبه منقبضا . شعر بألم . شعر بهذا الألم فحسب ، دون أن يقوى على التفكير فى الأمر ولا محاولة ايجاد تعليل له .

فجأة ، تقدمت وحدها ، واقتربت منه . **ثم قالت له :**

ـ أخذت بنصيحتك . قمنا بزيارته مساء أمس ، أنا وأبى .

نظر اليها مرتبكا . ازداد ألمه . فى عينيها الزرقاوين رأى الفردوس ، لأول مرة ، واليوم كانت كلماتها ذات رنين خاطىء فى أعماقه . تذكر ما أخبرته به فروسو ، وردد للمرة المائة أن كيتى لم تحدثه عن نوتيس قط .

دون أن يزن كلامه ويختار ما هو أكثر نفعا فى هذه اللحظة قنع بأن يقول بهدوء :

ـ لماذا هذه الاكاذيب ؟ وعلى أى حال ، أنك تفعلين ما تريدين وما فيه نفعك ...

لمعت ومضة فى عينى الفتاة الشابة ، **وقالت :**

ـ انك اقدر على ان تعرف أننى عندما أفعل ماأريد أفعله . دون سعى الى النفع .

ـ عندما يحب المرء لا ينشغل بأن يعرف ما اذا كان ما يفعله فيه نفعه أو لا .

ومضت عيناها من جديد ، لكنها انخرطت فى الضحك ، وبلهجة مرحة قالت له :

ـ انى اضحك كى لا يفهم الأخرون معنى ما أقول : أنك قاس وفظ ٠

ادرك انها على وشك ان تفقد هدوءها :

ـ يا لك من ممثلة مضحكة ! لم أكن أعرف فيك هذه المقدرة ٠ انه لمن حسن الحظ ان أرى ذلك بوضـــوح هذه اللحظـــة ، حتى اســتطيع ان أتعزى ٠

رأى الغضب ينمحى من عينيها ٠ وقالت بلهجة أكثر طبيعية :

ـ ولكن ما الذى لم يرق لك ، يا اليكسى ؟ لماذا تبدو قاسيا على الى هذه الحد ؟ انك لم تر منى شيئا سيئا !

ـ اننى لا أبدو قاسيا ٠ بل أبدو صادقا ٠ وانك تخطئين : رأيت شيئا فظيعا ، رأيت الكذب ، وكى أراه تكفى بضعة أشياء صغيرة تتحدث بوضوح ٠ وما بدر منك كان حديثه على غاية من الوضوح ٠

عمدت تقول بصوت عذب يكاد يتوسل اليه :

ـ اليـــكسى ، دعك من التفلسف ٠ تعرف جيـــدا اننى أحبك ٠ تعرف ٠٠

لم تواصل ٠ فقد كانوا ينادونها كى تذهب لمشاهدة التصـــاوير الحائطية بالكنيسة ، ونسيت العاطفة التى بدأت تعبير له عنها ٠ بخفة ورشاقة ومرح جرت تنضم الى الآخرين ، وظل وحيدا بصحبة ألمه ٠

فكر قائلا لنفسه « عندما كنت أقرأ حكايات من هذا القبيل فى الروايات كانت تبعث فى الضحك ٠ نظرتان ، وابتســـامتان ، وبضع كلمات مريرة ، وها هو رجل يلقى الى نيران الجحيم ٠ كنت أجد ذلك غير قابل للتصديق ، أو على الأقل مثيرا للسخرية ، ومع ذلك فهـــذا ما يحدث لى بالضبط ٠ لكن ما نوع هذا المرض اذن ؟ على أى نحو يسرى مفعوله حتى يصل الى شل التفكير والارادة والعزيمة ، وكل شىء ؟ » ٠

راهم جميعا أمام باب الكنيسة ٠ استدارت كيتى نحوه قبـــل أن تدخل وألقت اليه نظرة أخيرة كلها توسل ٠ تلقاها بلهفة ، وأحس بأن ثمة ما يجذبه الى أن يذهب مع الآخرين ، خطا دون وعى منـــه خطـــوة نحوهم ، ثم نكص على أعقابه فجـــأة ، وخـــرج مهـــرولا ٠ فك ربـــاط « الصاعقة » جواده الاسود ، وقفز على ظهره دفعة واحدة واطلق له العنان ٠

لكز الجواد دون حتى ان يضع قدميه فى الركاب ٠٠ جذب اللجام مرتين أو ثلاث مرات بعنف واطلق صرخة متوحشة ونزل المنحدر على ظهر

الجواد بقفزات سريعة • ملتصقا بجسد الجواد ، وقد ثبت عينيه امامه مباشرة ، وراح يلتهم المسافات التهاما ، قافزا بجنون خارج الدرب الممهد الى قلب الحقول ، متخطيا كل العوائق والاخاديد التى وضعتها المصادفة فى طريقه الى المدرسة • ومرة واحدة فحسب ، عندما اقترب من نهـر البينه ، قاد الجواد الذى سال العرق على جسده لفرط لهاثه نحو منحدر المجرى وعبر النهر بذات الايقاع السريع •

حمحمت الجياد عندما دخل الحظيرة • ودق بيجاسوس جواده المفضل الارض المرصوفة بحافره • أما « الصاعقة » فقد أظهر غضبه وحتى عندما مسح اليكسى العرق الناجم عن احتكاك السرج بجسد الجواد رفض أن يلزم هدؤه • كان يحرك جسده كله ويطوح رأسه كل لحظة ، وينفث من منخاريه لهبا • وبعد ان انتهى اليكسى من تدليكه أحاط رقبته العريضة بذراعيه ، وكما لو كان الحيوان يفهم كلامه ، قال بصوت احتوى من الألم قدر ما احتوى من الحب :

ـ لا تغضب منى ، يا أخى • لقد نسينا نفسينا أنا وانت كى نجتاز الصعاب التى وجدت أمامنا • ولكن الآن لم تعـد لك متاعب • انظـر ، مزودك ملىء • انظر ، فراشك وثير • وتظل على الدوام عاريا أمام الله • أما أنا فلا • لا تغضب منى ، يا أخى •

هدأ الجواد الجميل ، وحك رأسه فى قوة بالرجل • دق الارض مطلقا حمحمات مختنقة متقطعة •

عندما خـرج اليكسى من الحظيرة ، دقت الجيـاد جميعا الأرض بحوافرها وحمحمت بخفوت حزينة • كما لو كانت تريد ارضاءه ، وان تفهمه انها تدرك ما به ، وانها تحبه •

٦

مثـــل مكاتب محاميى الاقاليم ، جميعهم تقريبا ، كان المكان الذى يشغله دكانا ، بدلا من ان يصبح محلا للبقالة أو للحلاقة أو للجزارة ، صار مكتبا • لافتة على الباب • منضندة ، بضعة كراسى ، خزانة كتب مصنوعة من خشب داكن تحتوى مجموعات الأحكام وبضـعة كتب تكاد تبلغ الخمسين • وها هو ذا الدكان قد تحول الى مكتب • فى هذا الاطار البـارد الذى كان بامكان أى مار ان يتفحصه على مهـــل عبر الواجهـــة

الزجاجية العريضة التى تفصله عن الطريق ، كان عليه ان يركز ويؤهل عمله كرجل من رجال القانون • يدرس قضاياه ويكتب •

أين مكتبه هذا من مكاتب بعض المحامين بأثينا ، ومن مكاتب كبار المحامين الأوروبيين ، تلك التى يعرفها على الاقل من خـــلال الســـينما والروايات ! أما هو ، فكانت اداة ترفه الوحيدة ستارا يغلقها أحيانا كى يمكنه ان يخلد الى نفسه ويفكر فى القدر القاسى الذى حكم عليه بألا يكون سوى محام متواضع بالارياف ، فقير ، غير راض ، بلا فرحة ولا نفوذ • وذلك على الرغم من أنه كان موهوبا ومؤهلا للثراء والسلطة •••

قال لنفسه « سأعكف على صـــياغة المذكرة المتعلقة بهـذا النزل المتهاوى ، واترك الاحلام جانبا • ان الحيثيات التى سأكتبها ستجلب لى على الأقل بعض الدرخمات ، بينما ستغرقنى الأحلام فى المرارة » •

ألقى نظرة الى الملف ، ولمـا كانت القضية معروفة لديه فقد جـرى قلمه على الورق دون زلة واحدة • ولكن قبيل نهاية الصفحة الأولى نهض فجأة • فقد دخلت فولا مكتبه مثل ريح عاصفة ، مضطربة كما لو كان ثمة من يتعقبها •

قال لهـــا :

ـ لا شك انك فقدت صوابك !

أغلق الستار ، واقفل الباب بالمفتاح •

سألهـــــا :

ـ ماذا حدث ، كى لا تنتظرى حتى هبوط الليل ؟ تلوك الالسنة عنا الكثيرة هذه الآونة الأخيرة ، وما كان يجدر بك أن تأتى بأى حال • ما الذى يجرى ؟

ألقت بنفسهـــا على كرسى فى أكثر أركان الغرفة عتامة ، مسحت وجهها بيدها ، وظلت لحظة صامتـــة •

واقفا أماما عاد يسأل بخشونة :

ـ ما الذى يجرى ؟

ـ لا أدرى ، يا نيقوس ، ربما اكون قد فقدت صوابى ، ولكن كان يجب ان أراك ، كان يجب ان اقول لك شيئا ••• كنت أعرف جيدا ماذا جئت اقوله لك ، ولكن الآن ، بعد هذا المشوار ، وهذا الدخول خلسة الى هنا ، وأنت تقف أمامى غاضبا ••• ما عدت أعرف تماما اين أنا •••

جلس الى جوارها ، قلقا حانقا ، **ولكنه سيطر على نفسه واجتهد للتهدئة من روعها :**

قالت لـه :

ــ تلقيت أمس كلمة من كيتي تدعونى فيها للحضور مساء بعد غـد مع كوستا للعشاء عندهم • سوف يكون هنـــاك الشـــاعر كوليتيس • لا استطيع ان استجمع هدوئى منذ تلقيت هــذه الدعـــوة • لا أريد أن أحضر •

ــ لمـــاذا ؟

نظرت اليه بعينين تفيضان حبا وبأسا •

ــ مضى وقت طويل لم أرك فيه ، يا نيقوس ! وأنا لحبك • أشتاق اليك ، لا أفكر الا فيك كل ساعة ، كل لحظة من ساعات النهار ولحظـات الليل • انت تعرف ذلك ، وتراه ، واكتبه اليك •

ــ أجل ، ولكن من جانبك ، تعرفين الصعاب •

ــ لو كنت تريد أنت أيضـــا كما أريد أنا ما كانت ستكون هناك صعاب • حسنا ، تلوك الالسنة عنا الكثير ويجب ان نلزم الحذر • ولكن لا تفرض على ، بالأقل ، أن أحضر عنـــدك ، وان أراك أمـام آخرين • لا تذل كوستا الى هذا الحد • ربما كان ••• ولكنه على أى حال ••• ماذا تريد ، أنى أحبك ، ولكننى اشفق عليه • اننا نعذبه بمـا فيـه الكفاية • فلنمتنع عن ان نفرض عليه ان يتظاهر ، أمام الناس جميعا ، أنه يخالطك بل ويعرض عليك خدماته •

حاول ان يهدىء من اضطرابها ، وان يجعلهـــا تغير رأيهـا • انهم يدعوانهما لعشاء عائلى ، وسوف يبدو ذلك دليلا على أنه ليس ثمة شىء بينهما • لا بالنسبة لزوجها ، ولا بالنسبة للناس • فليس فى الأمر أى مأخذ • سوف يكون هناك أيضا صديقه الحميم الوحيد الدكتور رابتيس بصحبة زوجته • أما بالنسبة له ، فانه يفضل ان يراها فى حضرة آخرين من ألا يراها على الاطلاق •

ــ الآن ونحن وحدنا ، انت لم تقبلنى بعد •

أخذها بين ذراعيه وقبلها • خيل لها ان كل شىء يختفى من حولها • وتمتمت قائلة :

– نيقوس ، فلنذهب الى اثينا ، فلنذهب الى ثيسالونيك ، ارجوك فلنذهب الى أى مكان لا يعرفنا أحد فيه ٠

قال لهـــا :

– تعرفين كم أريد ذلك ٠ تعرفين انك عزائى الوحيـــد فى حـالة اليأس الذى يأخذ بخناقى ٠ ولكن لو تغيبنا معا عن لاريسا ٠ فســـوف تجد الالسنة السليطة ما ترشقنا به ، وستصيبنا نحن وذوينا بأشــد صنوف الازعاج ٠

– اتوسل اليك ، يا نيقوس ٠ سوف نكون على الأقل سعداء لبضعة أيام ، ثم سنتعزى بعد ذلك بذكرى هذه السعادة ٠ اتخذ قرارك ٠

أصر على موقفه قدر ما أصرت ٠ وذكرها بأنهـــا منذ هنيهة قالت أنه لا يجب تعريض زوجها للسخرية ٠ ووعدها وعدا مبهما مرجـــأ الى الصيف ، عندما يسافر كثيرون الى مدن المياه المعدنية أو الى المصايف ٠ أما عن السفر فورا ، فقد رفض فكرته رفضا قاطعا ٠

– أثرت اعتراضات عديدة على مجيئى هنـــا حتى بالليـــل ، رغم آلاف الاحتياطات التى اتخذها ٠ وازاء شروطك هذه أفضل ألا أراك على الاطلاق وأن انتظر حتى أراك فى مكان آخـــر ٠ أهون على ان احتمـل فراقنا ٠ ولن أحضر بعد غد أيضا ٠ ادع شخصا غيرى ٠

– من ؟ على الاقل رابتيس وزوجك درسا بالخارج ، ويتحدثان لغـة أخرى ٠ ويمكن ان تصبح المناقشة مثيرة للاهتمام ٠ كما اننى لا أريد ان تكون ثمة ثرثرات ٠٠٠

توقف قليلا متضايقا وأردفت هى تقول :

– انك لا تريد أيضا أن ينشر الآخرون شائعات عما قررتموه بشأن كيتى والشاعر ٠

قال بلهجة عنيفة :

– ليس هناك شيء من هذا القبيل ٠ ما الذى تريدين ان تتخيليه ؟

– اننى لا أتخيل شيئا ٠ بدأت الالسنة تلوك هذا الموضوع كثيرا ٠

صاح غاضبا :

– يا للمدينـــة الملعونة ! أى شيء يحدث تجعـــل منه حكاية مليئة بالأذى وسوء النية ٠

– لا أريد كلمة عن موضوع العشاء ٠

وهل تعتقد ان ما من أحد على الاطلاق سيرى كوليتيس داخلا عندكم ؟ فلنيره واحد فحسب وهذا يكفى لتنتشر الأقاويل .

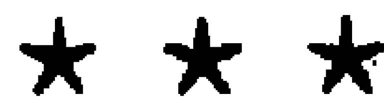
ـ أنت ، على أى حال ، لا تقولى شيئا ، ان هذا أيضا من صالحك ، للاسباب التى تذكرينها .

ـ ولكن نحن أيضا سيروننا ، يا نيقوس . ولهذا لا أريد الحضور . لا يجب ان نأتى .

أخذها بين ذراعيه .

لم يعترف لها بأن مجيئهم كان لازما لانه لم يكن بالامكان ان يظلموا ثلاثتهم وحدهم مع كوليتيس ، وأنه كان مستحيلا عليه تقريبا ان يدعو آخرين . فأولئك الذين سيدعوهم أيا كانوا سوف يطلقون ألسنتهم ويحكون تفاصيل السهرة كلها ، ويحيطونها بالتهاويل المتبعة فى قص الفضائح وذم الناس . قال لها اشياء أخرى أيضا ، لاطفها ، وقبلها ، كلمها عن الحب واللقاءات المقبلة ، حتى يضمن نجاح ذلك العشاء .

وانصرفت المرأة الشابة ، بعد ان وعدته بحضور العشاء ، وبذل كل الجهد لجعل الامسية تروق للشاعر الشاب .



منذ يوم اللقاء فى الدير ، لم يعد يهدأ لها قرار . لم يعد متابعة المشروع الكبير واحتمال فقدها لاليكسى يتركان لها لحظة هدوء .

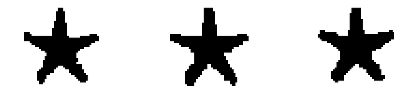
لو تحقق المشروع سوف تفقد الكثير بضياع اليكسى منها ولا شك . ولكنها على الاقل ستحصل على تعويض ضخم . أما اذا فشلت فى مشروعها وفقدت أيضا هذا الرجل الذى كان يروق لها كثيرا ...

ذلك ان اليكسى كان على الاقل وسيما وقويا ! عندما كان يضمها الى صدره كانت تجتهد ان تنطوى بين ذراعيه وتتضاءل كى يزداد احساسها بجوهر الرجل . بين ذراعيه كانت تحس بساقيه بل وجسده كله مفتول العضل ، وقادرا على ان يصارع وحشا . وحتى أفكاره التى تبدو بدورها غريبة فى نظر العصر كانت تحتوى على سخاء روحى يجذبها . كان له جسد وعقل حيوان وحشى يمكن ان يستأنس دون ان يفقد شيئا من قوته ولا طبيعته البدائيتين .

كلا ، لم تكن تريد ان تفقده • كان هدفها ، هدفهـــا الغير قـابل للتحقيق بلا شك ، هو ان تحصل على ما تطمح اليـــه مع الاستمرار فى الاحتفاظ باليكسى •

ولكنها فى هـــذه اللحظة كانت جد بعيـــدة عن هذه الاحلام • كان اليكسى غاضبا ، وبلا سبب تقريبا • أما اذا علم بأنهما ألتقيا من جديد ، وان الشاعر سوف يأتى للعشاء عندهم هذا المساء •••

فكرت لحظة • ثم أخذت دراجتها وتوجهت الى شارع ايبيرو • وفى هذه الساعة وحتى الظهيرة ، كان لابد ان يكون اليكسى بالمدرسة • أما فى الفصول أو فى حقل قريب • يجب ان تراه ، وان تتحـــدث اليه • وأن تقنعـــه •



أبلغوه بأن « ابنة مانوسيس » تسأل عنه وتنتظره أمـــام البـاب الرئيسى للمدرسة تحت شجر البلوط •

انتابته الدهشة والاستياء • من ناحية ، على الرغم من ان هـــذه كانت المرة الأولى وما كان بالامكان ان تؤول تأويلا سيئا ، الا أن ذلك لم يكن من المناسب وفيه قدوة سيئة لتلامذته الذين ما عادوا اطفالا • ومن ناحية أخرى ، كان فى حالة معنوية سيئة • وكان يفضل ـ حتى لو كان فى ذلك ما يؤلمه ـ ألا يراها فترة من الوقت • ومع ذلك سارع بالذهاب للقائها حتى لا تمتد وقفتها غير اللائقة عند مدخل المدرسة وقتا أطول •

ـ أحس بأنى أصبحت مجنونة • كنت قاسيا جدا معى • لا استطيع ان احتمل •

نظر اليهـــا دون ان ينبس بكلمة ، وتساءل عن حقيقة احســـاسه نحوها • أهو الحب أم البغض ؟ الرغبة والاعجاب بجمالهـــا أو الخـوف والاشمئزاز مما كان يخشاه منها ؟ الفرحة بأنه ربما عاملها معاملة جائرة أم الألم لأنها على حق ؟

جذبته من ذراعه ، وابتعدت به قليلا :

ـ اليكسي ، لماذا لا تكلمني ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟ وفي النهاية ،

ماذا حدث جسيما الى هذا الحد ؛ انت نفسك ، وأبى ، وعمى نيقوس ، كلكم قلتم لى اننا ملتزمون قبلـه ، وأنه وحيـــد ، ويجب ان نعنى به • ما الخطأ الذى ارتكبته اذ اطعتكم ؟

توقف • أمســك بكتفيها وثبت انظاره فى عينيها • **وقال :**

ـ كيتى ، انى أتعذب كثيرا • أحبك كمجنون • أتوق ان تقولى لى الحقيقة •

ـ لو لم تكن هذه هى الحقيقة ، هل كنت أحضر اليك فى وضـــح الظهيرة ، هنا ، أمام الناس كلهـــا ، كى أراك فحســـب ، وأزيح عنك غضبك ؟

أراد ان يضمها اليه ، ويقبلها ، وان يقول لها آلاف كلمات الحب ، لكن المرارة والشكوك التى عانى منها الايام الاخيرة منعته من ذلك •

سألها بهـــدوء :

ـ لماذا بدوت جد رقيقة نحوه ؟

ـ بدوت عادية ، وعاملته كما اعامل كل الناس •

عادت الشكوك تسود • لم تبد « عادية » كما تقول • انها تعامـل كل الناس ، أو اغلبهم على أى حال بعدم اكتراث ، بنوع من التجاهـــل والاستعلاء • كانت تكذب •

ـ كنت تنظرين اليه نظرات معسولة • وتبتسمين له ابتسامة مغرية، وبالحـــاح •

اجابته بحمية :

ـ انك ترى بعينى الغيرة ، التى تشوه الحقائق • كنت انظر اليـــه وابتسم على نحو عادى للغاية • لماذا اتقرب الى هذا التافه بينما لى رجل ، رجل حقيقى ، هو أنت ؟

كانت الاكذوبة مستمرة • كان من المؤكد انها تستثير كوليتيس • وقبل ان يتاح له الوقت كى يقول لهـــا ذلك • التصقت به ، **وأسندت رأسها الى كتفه متمتمة :**

ـ اليكسى ، انت مجنون • انى احبك • ألا ترى ذلك ؟ احبك !

يا الهى ، كم كان جميلا ان يحس بها هكذا ملتصقة به ، ويسمعها تقول له هذه الكلمات بكل هذه العاطفة • أكان مجنونا حقا ؟

عادت تقول لـه :

ـ انى أحبك . لم أحس قط بمثل هذا الاحساس من قبل . لا أريد شيئا الا معك . لا أريد شيئا الا من أجلك .

ومن جديد ، تضاءلت الشكوك بداخله ، ولكن حينما سمعها تؤكـد أنه كان الرجل الأول والوحيد فى حياتها ، انبثق اسم رجل آخر بأعماقه . واختفت فجأة البهجة التى كانت قد بدأت تحل عليه . وماذا عن نوتيس ؟ حسنا ، ان حكاية العام السابق بأثينا ، أوضحتها له ، وصدقها ، لكنها لم تحدثه قط عن نوتيس ، عن ذلك الارتباط الذى دام سنتين أو ثلاث سنوات ، ودفعت الى اليأس شخصية قوية مثله . والآن ، تؤكد انهـا لم تحب قط أحدا قبله . وكانت تتحدث بوله . كلامها ، نبرة صوتها ، جسمها ، كل شيء فيها يدل على أنها صادقة . ومع ذلك ، كان يحس ، بل يكاد يوقن ، انها تكذب . يا له من متاهة هذا الكائن الانسانى . ! كيف يتبين الصواب من الباطل ؟ كيف يضحى بسعادته ، لو كان على خطأ ؟ أبعدها عنه وأمسك بكتفيها .

ـ اسمعى ، يا كيتى ، عديد من الامور تخطر برأسى وأود ان اخبرك بها ، واتفحصها ، كى اسمع بعد ذلك وجهة نظرك . لا جدوى من القول بأنك امرأة معقدة ، أو انك يعوزك الصدق ، وانى اسعى لاكتشاف ما اذا كنت مختل العقل حقا بفعل الغيرة ... انت تعرفين اننى احبك بوله . وانت تقولين انك تحبيننى . فلنتزوج .

أرادت ان تهرب من نظراته ، ولكنها فهمت أنه لا يجب ان تفعـل ذلك . فنظرت اليه ، جاهدة ان تكتسى مظهرا يخفى ضيقها .

كرر قوله لها :

ـ فلنتزوج . حالا ، أو على الأقصى غدا ، اذا شئت .

كانت مضطرة ان تقول شيئا . وكان اليكسى ينتظر ردا .

ـ انى لك ، واحبك . يمكننا ان نتقابل كثيرا لو أردنا . فلماذا نتزوج ؟

اجابها قائلا :

ـ لأننى أريدك على الدوام الى جانبى . أريدك عارية بين ذراعى . أريد أن أنجب منك أولادا . لدى بعض المدخرات . يمكننا أن نبنى منزلا صغيرا . فلنتزوج غدا .

خيم الصمت ٠

ضغط بشدة على كتفيها ، وقال لها بلهجة حازمة :

ـ غدا ٠ أو خلال أسبوع ، على الاكثر ٠ انى جاهز ٠

صوب نظرة صارمة الى عينيها :

ـ تكلمى ٠ أجيبى !

كانت ملتصقة بالحائط ، ولم يكن بامكانها ان تجد لنفسها عذرا ٠

همهمت بصوت منطفىء :

ـ أنا ، ليست جاهزة لقرار بهذه الاهمية ٠

ـ وتدعين أنك تحبيننى كثيرا ؟

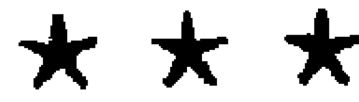
استعادت صوتها المفعم بالدفء ، وأجابته فورا :

ـ أعبدك ! أعبدك !

دفعها بعيدا عنه ٠

ـ كاذبة ! كاذبة ! لو كنت تحبيننى لتزوجنا الليلة ٠

ومضى منصرفا ٠٠٠



اتكأت الى شجرة صنوبر وأحست باليأس يجتاحها ٠ داخلها الاحساس بانها لن تجده بعد اليوم كما كان ، متيما بها ، متعطشا اليها ، مكرسا لها ٠ للمرة الثانية ، تفقد الحب ٠ وتفقده هذه المرة أيضا بالطريقة ذاتها : « فلنتزوج ! أنت كاذبة ! كاذبة ! » ٠

ومع ذلك لم يكن هذا صحيحا ٠ كانت مخلصة فيما قالته ، لكن الأمور بالنسبة لها لم تكن بالبساطة التى كانت عليها بالنسبة للآخرين ٠

ما الذى ستفعله الآن ؟ نوتيس واليكسى ، ولا أحد غيرهما عرفا كيف يجعلانها ترتجف روحا وجسدا ٠ بل واليكسى أكثر من الآخر ، لأنه وقد مضت براءة الصبا الأول ، كان كل شىء يفعل الآن عن ادراك ووعى ٠ ما الذى ستفعله اذن ؟

اتجهت صوب دراجتها خفيضة النظرات · قائلة لنفسها « من هذا الجانب أخشى ألا أستطيع أن أفعل شيئا · يظل الجانب الآخر · لو نجحت مع الشاعر الغنى الليلة ، لو حالفنى الحظ ·· » ·

ابتسمت ، ورفعت رأسها · امتطت دراجتها برشاقة ومضت نحو المدينة ·



بخطوات واسعة ، سار الى ابنية المدرسة · كان فريسة لاضطراب كبير وفضل أن ينشغل فورا بشيء يغرق فيه فكره · فيما بعد ، ربما هذا المساء ، وحيدا فى هدوء سيفحص أحداث هـذا اليوم ، والأيام السابقة ، وسيستخلص منها النتائج النهائية ·

لمح ريامو جالسا وحده عنده عتبة باب ·

وقال له هذا الأخير :

ـ احتاج الى نصيحة · قرأت لى فروسو احدى الصحف · وتقول انهم يزرعون القمح شتلات فى احدى البلاد الأجنبيـة · وبذلـك يأتى المحصول وفيرا عند الحصاد · وقد أعددت بعض أرضى لأزرع القمح فيها بهذه الطريقة · ولكن أليس هذا الأمر غريبا · ما رأيك أنت ؟

أجابه قائلا :

ـ سأجرب بدورى هـذه الطريقة هـذا العام · لابد أنهـا طريقة طيبة بالنسبة لبلد مثل بلدنا ، حيث يكثر الفلاحون وتقل الأرض · ولكن الأمر يقتضى مزيدا من الأيدى العاملة · هل تتصور أى جهد يقتضيه أن تزرع القمح بالآلاف ساقا ساقا · ليس ذلك ممكنا الا لو عملت الأسر كلها فى الحقل ·

ولما رأى ان الآخر لم يكن يبدو عليه الاقتناع ، أضاف قائلا :

ـ هذه الأعمال ، ما كنا نقوم بها فى فتيليونا القديمة ، فتيليونا الجد الأكبر · أما اليوم مع وجود هذا الباريسى ·

خفض ريامو عينيه لحظة ، ثم ثبت انظاره على وجه محدثه :

ـ ان الأرض كلمته ، يا اليكسى •

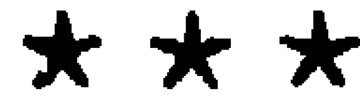
ـ ان الأرض تكلم الجميع ، يا ريامو ، ولكن قلة يعرفون ذلك وقلة أقل يمكنهم أن يسمعوها •

ـ هو سمعها ، يا اليكسى • ربما لم يفهم جيدا ، ربما لم يصدق ، ولكنه سمعها ، وقد هزت كيانه • أعرف ما أقول •

ـ أنت تحلم ، يا ريامو • تحلم بأزمان ولت •

ـ الأحلام غنية لمن يفترشون أسرة فقيرة ، يا فتاى •

وتحدثا عن شتل القمح ، وهى الطريقة التى اراد ريامو ان يجربها مهما كلفه ذلك •



عندما أغلق الباب فى وقت متأخر من تلك الأمسية وراء آخر المدعوين ، ظل قاطنو البيت الصغير الثلاثة ساكنين لحظة وتبادلا النظرات •

ربما لم يكونوا متأكدين بعد انهم بقوا وحدهم ، وانتظروا ان يبتعد الضيف الأخير ، أو ربما أحسوا بالحاجة الى برهة من الراحة بعد اللحظة الصعبة التى اجتازوها ، أو ربما فكروا ماذا سيكون أول ما يقولونه بعد هذا العشاء غير العادى الذى قدموه • وعلى أى حال فقد ظلوا برهة صامتين وتبادلا النظرات • ولكن صمتهم كان يقول الكثير • كانت عيونهم تلمع ، وعلى شفاههم انطبعت ابتسامات الغبطة •

دعك فاسيلى مانوسيس يديه قائلا :

ـ رائع ! جرت الأمسية على أروع ما يكون ! صدقينى ، يا كيتى العزيزة لم أعد أعرف البيت • زهور ، أدوات مائدة ، وجبات ، محادثات ، لم أكن أصدق لا اذنى ولا عينى • لا بد اننا تركنا فيه انطباعا ممتازا •

وعلى الرغم من الانشراح الواضح الذى بدا على اخيه ، قال مازحا :

ـ لا بد انه ظن نفسه فى باريس ! بل وربما فى قصر من القصور !

ـ لم اتحدث عن باريس ، ولا عن قصور ، يانيقوس • ولكن اذا كنت تريد أن تعرف انطباعى ، فانني أقول لكما انكما بحديثكما الشيق تجاوزتما حتى باريس ذاتها •

تخلى نيقوس عن لهجته الساخرة ، جلس فى مقعد وثير ، وقال بلا غرور :

ـ أجل • كان الحديث ممتعا • ولعل هذا الحديث هو أكثر ما أعطاه الانطباع بأنه ليس فى اقليم بالريف اليونانى • كان الحديث على مستوى جيد •

ـ ولكن يجب أن يقال حقا ان ذلك كان بفضلكما ، انت وكيتى •

ـ كلا ، كلا ، والآخرون أيضا كانوا مجيدين • الذى ادهشنى هو الدكتور فائيديس • بدا ضعيفا ومنطفئا • والكلمات القليلة التى نطق بها كانت سمجة المعنى • ولكن كم كان على الأخص وجلا ومنفرا !

تدخلت ابنة أخيه قائلة :

ـ فى النهاية ، يا عمى ، دعه فى حـاله ! اسمح له على الأقل ان يبدو قبيحا حتى لا ينافسك ! هذا فضلا عن أن الذى يهمنا هو حكمك على الغريب • كيف بدا لك ؟

لاحظ النظرة ذات المغزى الذى كان يصوبها اليه فاسيلى وأجاب :

ـ سوف أقول لك • أنه شاب وسيم ، ورجل جذاب ، وطباعـه ممتازة •

قاطعته بلهجة مغتاظة بعض الشىء :

ـ هذا النوع من التقدير سطحى ، ويمكنك ان تدلى بما هو أفضل منه • ألم يدهشك استفساره عما اذا كان بامكانه ان يجد سيارة تنقله الى اثينا ، لأن الانفاق والكبارى التى يعبرها القطار تثير فيه الخوف ؟

نظرة فاسيلى الى أخيه بقلق ، وقال نيقوس مبتسما :

ـ أجل ، ربما • لكنك سمعت التفسير الذى أدلى به وقـد رأى دهشتنا • بقايا انطباعات ومخاوف من أيام الطفولة •

ـ وما حكمك عليه كرجل ، كعقل مفكر ، كأسلوب نقاش ؟

سارع أبوها الى القول :

ـ ممتاز ، يا طفلتى ، ممتاز • انك لم تتابعيه • لكنه ملم بكل شىء • كان يناقش فى كل الأمور •

لم تخف أن هذا الحكم لم يكن يقنعها ، وتوجهت من جديد الى عمها :

ـ قل الحقيقة ، ايها العم نيقوس ، كيف بدا لك ؟

ـ حسنا ، كل ذلك الذى قاله عن حصانة خط ماجينو ، هو من قبيل ما ألفه الفرنسيون قوله على الدوام « ولماذا نهزم ؟ » وهو أمر عادى عند شعب متحضر ، ولن يحول ذلك دون أن يدخلوا الحرب مثلما فى عام ١٩١٤ . أما ما قاله عن أن لفرنسا الغلبة فى أوربا وسائر ذلك الكلام فهى أقوال تليق بقارىء مداوم على الصحف الفرنسية . ولكن ما قاله عن عالم الثقافة ، والأدب ، والشعر ، يدل على رسوخ الفكر ، وما للمثقف من رهافة الحس وسعة الاطلاع .

عاد فاسيلى يقول بحماسة :

ـ كان نقدكما لقصائده مذهلا . انتابتنى الدهشة الشديدة . من أين لكما كل هذه المعرفة ؟ أين قرأتما ذلك النقد ؟

ـ هل بلازم أن نكون قرأنا ذلك ؟ ألا يكفى أن نكون قرأنا قصائده ؟

لم يدرك السخرية التى فى كلام أخيه ، ومضى يقول :

ـ وهذه الترجمة التى طلعت بها علينا كيتى . كم كان تمهيدك لها موفقا ، يا نيقوس . أنت رائع . ولكن الترجمة بدورها باهرة . لم تقولا لى شيئا عن ذلك من قبل . لم يتمالك نفسه من السرور !! قامت به كيتى من ترجمة أعماله . أرأيت ، قال ان الترجمة ربما كانت أفضل من النص الأصلى ! حتى بالنسبة الى ، وأنا لا أفهم فى هذه الأمور شيئا ، راقت لى . ما من شك فى هذا . راقت لى كثيرا . القى تلك القصيدة مرة أخرى ، يا نيقوس .

ـ ليس من شك انه كان مجاملا فيما قال ، ولكن ما من شك أيضا ان الترجمة جيدة .

ومضى يتلو القصيدة :

« أريد أن أجوب بلا هدف القمم المتصدعة
التى تصفعها الرياح
أريد أن أهيم متسكعا فى الدروب غير الممهدة
التى لا تقود الى مكان
بحثا عن غروب لا يعقبه شروق .
ولكن اذا اقتضى القدر أن تفضى بى مسيرتى غير المجديه

الى مكان ما

أريد أن تجد خطاى فى واد يسوده على الدوام

صمت الاغوار

خاتمة المطاف لجهدى العقيم » ٠

انفجر نيقوس ضاحكا ، وقال :

ـ للأسف ، من مقاطع هذه القصيدة العشرين ، لم نترجـــم الا مقطعين ٠ لو كان قد طلب منا بقية الترجمة ٠٠

نهضت كيتى ضجرة :

ـ هل تعتقد أن من المهم أن نكرر كل ما قلناه ، وان ندلى بتعليقات غبية كى تخفى أفكارنا الحقيقية ؟ ومع ذلك ، بامكاننا أن نقول ما هــو جدير بالاعتبار ٠

راقبها أبوها باهتمام ٠ كانت واثقة من نفسها ، متسلطة ، وطيدة العزم ، لم تكن تبدو ابنته حقا ٠ ثم هذا الجسم المشـــوق المكتمل ، ذو الردفين المائلين الى الامتلاء ، والصدر الناهد الركين ٠٠ وهذه المشية ٠٠ ليس هذا كله جسد صبية ٠٠

نهض ، دعك يديه ، **وأجال النظر فيما حوله حزينا ، وقال :**

ـ هذا حسن ، يا كيتى العزيزة ٠ **انك على حق ٠ فلنتوقف ٠ كما** يجب علينا أن نأوى الى الفراش ٠ فعلينا فى الغد عمل كثير ٠

هم بالانسحاب ، ولكنه عاد ادراجه ، **وقال بلهجة يشوبها الخجل :**

ـ سمعته يقول لك أن تذهبى الى فتيليونا للتحدث فى الأدب ٠٠ وبالنظر الى ٠٠ بالنظر الى ألسنة السوء ، وبالأخص أيضا للانطباع الذى سيتركه فيه ذلك ، **اعتقد انه يجب ألا تذهبى وحدك ٠ أو** ٠٠ سـيكون من الأفضل أن يرافقك نيقوس ٠

ـ أجل ، يا فاسيلى ، سنذهب سويا ٠ كن مطمئنا ٠

وما ان ظلا وحدهما ، **قالت له متشككة :**

ـ لا أعتقد انك كنت جادا فى وعدك هذا ؟

ـ بكل تأكيد لم أكن جادا ٠ ولكن ٠٠٠٠

قاطعته بايماءة وجلست ٠ انطبع فى عينيها الزرقـاوين انعكاس جليدى ، وقالت :

ـ أود أن نتحدث عن « ولكن » هذه . أيهما أفضل ؟ ان أكون فتاة قروية مثقفة ، جميلة ، طاهرة ، مفتونة ، أم أكون فتاة لها بعض الخبرة بالحياة ، مفتونة بدورها ولكن غير قادرة على مقاومة الاغراء امام رجل وسيم ؟

لم يستشعر نيقوس مانوسيس حرجا أن يرى ابنة أخيه تتحدث اليه بما لا تتحدث به أى فتاة يونانية الى عمها .

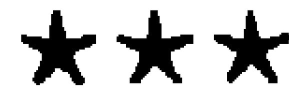
قال لها رأيه بصراحة :

ـ الطريق الوسط . ورويدا رويدا يكون اضرام النار .

واختتم كلامه قائلا :

ـ ولكن لا تطفئى النار قبل ان يضع الخاتم فى أصبعك .

ـ كنت أتوقع ذلك . انه المنهج الوحيد . انى لا أخشى سوى شىء واحد . قلت « رويدا رويدا » هذا صحيح . هل سيكون لدى متسع من الوقت ؟ لو أسرعت الأوقات السيئة بالمجىء ، وذهب الى أثينا ، ماذا سيكون بوسعي أن أفعل قبل ذلك ؟ هذا هو السؤال .



عندما كانت أمطار الشتاء الأولى تبدأ فى الهطول على السهل ، كانت تستمر بلا انقطاع اسبوعين أو ثلاثة أسابيع بل وأكثر من ذلك أيضا . ليل نهار ، تارة تنهمر ثقيلة وفجائية ، وتارة فى قطرات صغيرة وخفيفة ، ولكنها كانت تسقط دون أن تتوقف أبدا .

رمادية ، مثقلة ، كانت السماء تطبق على الارض . كانت تنزل أحيانا الى هامات الشجر ، وأسقف البيوت . لا يعود يبين الاوليمب فى الشمال ولا كيسافو فى الشرق ولا قمم كوزاكا فى الغرب ، ولا أدنى تل فى أى مكان ، ولا تلوح من السهل أى معالم . نقاب معتم رمادى ، بل الى السواد أقرب ، يغطى الأرض من أقصاها الى أدناها .

فى لحظات مثل هذه ، عندما كان الجليد يتحول الى سيول . كان الناس ينكمشون تحت الاغطية ويبسطونها على رؤوسهم حتى لا يسمعوا شيئا ، اذ كان الخوف يأخذ بمجامع القلوب . كان المرء يتساءل رغما عنه ، عما اذا كانت النبوءات القديمة كلها سوف تتحقق ، وما اذا كانت

كل هذه السيول لن تنتهي بكارثة من الكوارث ـ طوفان ، زلزال يزحزح الجبال من مواضعها ، انخساف السهل ، أو من يدرى أى كارثة أخرى غير معروفة وليس لها مثيل ·

وكانت الأرض التى تضحى رطبـة منذ رذاذ الخريف تلفظ بعد بضعة أيام المياه التى لا تمتصها حتى أعماق جوفها · وكانت مجـارى المياه تتضخم ، والسيول تحتدم وتصخب ، ويصير سطح الأرض مستنقعا موحلا بلا نهاية · ويا لشـقاء من وجب عليـه ان يجتاز مكانا لا ينبت فيه نبت ، أو يختط طريقا غير مرصوف بالاحجار وغـير مطروق من قبل · كانت الأرض فى الجزء الأكبر من السهل زلقة إلى الحد الذى كانت الاحذية معه تغوص بعد بضع خطوات تحت كتل من الوحل ويضحى من المتعذر رفع الأقدام المثقلة بما غاصت فيه · وكانت هذه الأوحال اللزجة عقبة كؤودا أمام الدواب ، لو لم يكن ثمة موضع وطيد ترتكن اليه سيقانها فى مكان قريب ، ولذلك كانت تغلق عليها أبواب الحظائر · أما بالنسبة للبشر فما كانوا يخرجون الا لضرورة ملحة ، ومتى وجدوا ممرا يطرقونه ·

فى كل مكان ، على رأسك غلالة معتمة رمادية · وفى كل مكان تحت قدميك الوحل السميك ، إلى ما لا نهاية · والى جوار مشاق اليوم كان يضاف القلق من الغد · لو تأخرت المياه فى الانقشاع ، ألن يدب العطش فى البذور المبدورة فى الأرض ؟ وسيقان القمح التى نبتت وشقت التربة الن تتكسر ويعلوها الذبول ؟

كل شيء كان باردا وغير مريح بالنسبة للجسد ، وبالنسبة للروح كان كل شيء كئيبا وباعثا على القلق ··

كل امرىء يحيا منزويا فى داره ·

وأولئك الذين يعيشون فى ضياعهم أو فى القرى ويمتلكون بيوتا فى لاريسا ، كانوا ينتقلون مع أسرهم الى تلك المدينة ، أما القلة المقتدرة فكانت تسارع بالنزوح الى أثينا ·



وكان نيكيتا كوليتيس من هذه القلة النادرة ، فنزح الى أثينـــا مطرودا من المطر المستمر والرطوبة والوحل الذى لا يجف ·

الجزء الثانى

وقفة فى مسيرتنا

الخامس عشر من أغسطس ١٩٤٠

عندما يهبط الليل ، يحدث شيء غريب في سهل ثيساليا الملتهب ٠ يخيل اليك ان الحرارة التي تسربت منذ الفجر الى كل مكان وراحت تفرض استبدادها على كل الأشياء ، تخرج في هذه الساعة من كل مكامنها وتبذل محاولة أخيرة للابقاء على اليوم تحت سيطرتها ، كي تواصل تعذيبها قدر الامكان ٠ ومن ثم ، عندما كان يلوح الأمل في انقضاء عذاب النهار فانه سرعان ما يبين ان الأمر لم يكن سوى سراب ، وكان يجب على الدوام مجابهة ساعات أخرى من السخونة الحارقة ٠

وهكذا ، فان ذلك النهار الخانق من أغسطس ، الذي لا يختلف عن سائر أيامه الأخرى ، ما كان يبدو انه سينقضي ٠

أغلقت خصاص النوافذ في حجرته ، ورشت الأرض بالمياه مرتين أو ثلاث مرات ، ولكن ما من جدوى ٠ ما كان بامكان أحد أن يغير شيئا ٠ فهذا العناء ، الذي هو من صنع الطبيعة ، لم يكن بمقدور الانسان ان يداويه ٠ ان الطبيعة وحدها ، بفضل الليل أو نسمات الشمال ، تطرد الانفاس الحارقة التي تتبسط على السهل ٠ أما الآن ، مثلما هو الحال منذ مشرق الشمس كل يوم والى ان يأتي الغروب ويوغل ، كانت الحرارة الفظيعة ، التي لا ترحم ، ولا تكترث بعذاب البشر ، تصيب كل شيء بالجفاف والشلل ٠

على أن البشر لم يكن وحدهم الذين يكابدون هذا الجحيم ٠ بل كانت

المعاناة مفروضة أيضا على الحيوان ، الذى كان يظل بلا حراك لاهثا ، وقد تدلت ألسنته ، قابعا فى ركن ظليل · ولم يكن الحال أفضل من ذلك بالنسبة للشجر الذى تجعدت أوراقه من شدة الجفاف واكتسى لونا رماديا بسبب التراب المتراكم عليه · كما كان النبات والعشب مصفرا منذ أمد زايلته الحياة ، وقد أحرقته أشعة اللهب التى يصطلى بها السهل بأكمله ·

أرض محترقة ! أرض محترقة !

هذا التعبير التقى به مرات عديدة ولكنه لم يفهم قط ما الذى يعنيه تماما أما الآن فهو يفهمه جيدا وقد رأى ثيساليا فى قلب الصيف · كان ذلك يعنى جفافا عاما · الأرض جرداء فى السهل ، والاحجار عند سفوح الجبال عارية خشنة جدباء ، بلا أدنى نبت تكتسى به · وكان ذلك يعنى أيضا فيضا من الضوء الأبيض الباهر الذى يعمى البصر ، وغياب كل كائن حى ·

أرض محترقة ! أرض محترقة !

بينما فى هذا الوقت ، كانت حدائق باريس يانعة الخضرة ، وفى الريف الفرنسى لا تلبث النسمات الرطبة أن تطرد الحرارة ، وبين الفينة والفينة يسقط مطر خفيف ، وكل شىء ، حقا كل شىء ، يبتسم لك ، ابتسامة نضرة ، فرحة ، خضراء ·

أجل ، ولكن هناك ، الآن ····

طرح نيكيتا كوليتيس الغطاء من على جسده الهزيل · وفى ظلال النوافذ المغلقة راح يفكر فى مأزق الأيام والشهور الماضية ·

لم تكن أثينا حلا ، لكنها كانت محتملة على أى حال · وان كانت ضواحيها تستحق الرثاء ، ولكن الفندق كان طيبا · وبالامكان ان تجد فى المدينة وسائل الراحة الأولية ، ومن ثم يمكنك أن تحيا بها · سكانها خليط من صنوف متنوعة ، هناك الأشرار والأخيار ذوو الأنفة والانذال ، نساء بعضهن سهل الوصول اليهن وآخريات صعب منالهن ، وفتيات ينظرن اليك جميعهن كما لو كنت طالب زواج · حفلات ، ودعوات عشاء كل يوم ، أغلبها مثير للضجر ، ولكنها فى بعض الأحيان كانت مستحبة ، مناقشات فى الصحف عن قصائده · حافلة بالمديح تارة وبالذم تارة أخرى · وبين الفينة والفينة ، نزهات مع صديقات من أيام

الطفولة يشعر نحوهن ببعض الميل · أما الرجال فكانوا غريبى الاطوار تارة وأجلافا خشنى الطباع تارة أخرى ، رحلات الى أماكن تثير الاهتمام ، ومع ذلك فهى تصدك لما ينقصها من وسائل الراحة والتمدين ·

لم يستطع أن يفعل شيئا بطبيعة الحال فى شأن تسوية المسائل المالية · ووجه بالمعارضة من الجميع ، وعلى الأخص من عمه · وذلك فى حين أنه كان يستطيع أن ينفق المال كيفما شاء طالما كان فى اليونان · وهكذا راحت الحياة تمضى · لم تكن الحياة التى تمناها وآلاف الأشياء لم تكن ترضيه ، ولكنها فى النهاية كانت محتملة ·

وبعد ذلك ، كان هناك العدوان الألمانى ، واكتساح الحدود الهولندية والبلجيكية ، والانهيار السريع لفرنسا ، والانسحاب البريطانى من دنكرك ، وتدهور انجلترا ، اضحت باريس ، باريس الجميلة ، المجيدة الأنوف تحت الحذاء الهتلرى !

كل شيء ضاع ·

ما من أحد ، أصبح بامكانه أن يتنفس أو يتكلم بحرية · وصارت أوربا مستذلة · ومنذ الآن ، كل شيء ينتظم وفقا للأوامر القاسية الصادرة عن الطغاة ذوى القمصان الداكنة أو السوداء ·

وذلك ، لأنه لم يعد بامكان أحد ، بطبيعة الحال ، ان يهزم الدكتاتورين اللذين يحتلان بجيوشهما المدججة بالسلاح أوربا كلها ·

أرخى الليل سدله الثقيلة على العالم ، على العالم كله الذى يعرفه ، على عالمه هو ··

اجتاحه اليأس · داخله شعور بأن القدر أنزل ضربته على روحه وفكره · ماذا كان يرى أمامه ؟ ماذا ؟ البلاد التى يحبها ، الحياة التى تروق له ـ كان عليه أن ينسى كل هذا · ثم هو بعد ذلك قد انغلق بين جدران مصيدة ضيقة هى اليونان · ولكن حتى اليونان ، المسكينة ، سيئة الحظ ، لن تبقى ولا شك على ما هى عليه ··

كان اليونانيون مجانين · مجانين الى حد لا برء منه · نصبوا أنفسهم نقادا عالميين · راحوا يسبون ليوبولد ملكالبلجيك الذى كان أول من كف عن المعركة واستسلم للالمان · وقالوا! انه لا يمكن أن يكون ابنا لألبرت ، الملك الجندى · وألقوا على الفرنسيين اللوم ، وشهروا بهم لأنهم

انهزموا بسرعة ، ولم يغتفـــروا لهم موقف بعض جنرالاتهم المجللون بالامجاد السابقة الذين لم يحاربوا وهادنوا هتلر ٠

وعلى العكس من ذلك ، نظموا قلائد المـــديح لانجلترا وهللـــوا لانسحاب الانجليز ، وافلاتهـم من دنكرك ، واعتبروه تمهيدا لانقضاضة جديدة ٠ وأكدوا انهم كدأبهم دائما سيكسبون المعركة الأخيرة سيسحقون الألمان ولو بعد حين ٠

وكل هذا ، كانوا يقولونه بيقين مطلق وحجج لا تفتر ، كما لو كانت الاحداث التاريخة لهذه الايام الاخيرة ــ على الجبهة الشرقية فى الخريف ، وعلى الجبهة الغربية فى بداية الصيف ــ غير راجعة الى آلات الحرب الجهنمية التى فى أيدى النازيين ، بل الى الضعف المعنوى لسائر الشعوب الأوربية ، والى بعض الأحداث الصغيرة العارضة أو الاخطاء الثانوية ٠

لم يكونـوا يعـــرفون ماذا يقولون ، ولا يفهمون أن أوروبـا قد ضاعت ، وان ما من شىء يمكن أن ينقذها ، على الأقل فى أجل قابـل للتقدير ، وان دورهم آت عن قريب ، ذلك انه لم يكن بمستطاع أن تحتمل أوروبا الهتلرية وجود ناشز تحب الانجليز ، ألا وهى اليونان ٠ وكان أهل اليونان عن ذلك غافلين ٠ ويقولون بغرور : ان المحور ــ محور برلين روما الشهير ــ لن يجروء أن يهاجم اليونان لأنه يعرف انه بذلك سيجدع أنفه !

هذه الأحاديث الخرقاء كانت ترهق أعصابه ٠ وذلك أيضا لأنه بدا له أن الكثيرين يدلون بهذه الأحاديث أمامه عامدين كما لو كانوا يعتبرونه ضمن المسئولين عن انكسار الفرنسيين بل ان العم سبيروس واجهه بذلك صراحة وبلا مواربة ٠

ذات يوم ، دعا فى بيته كل أولاده وأولاد أخوته وأخواته ٠ أوقفهم أمام صورة الجد ، وراح يوبخهم بشدة ٠

« كان القدامى من أسرة كوليتيس يبنون ويشيدون ، أما الجدد من أبناء الاسرة ، فهم يلوثون ويخربون » ٠

« أبادت الحروب كل من كان له قيمة من رجال أسرة كوليتيس قتل ثيودوروس القبطان عام ١٩١٣ فى كيلكيس وشارك فى كسر المقاومـة البلغارية ٠ وسقط المقدم اناسطاسيوس صريعا عام ١٩١٧ فى سكرا ٠ أما العقيد دينترى الذى حوصر ورجاله عام ١٩٢٢ فقد أصطحب قسيس

الفرقة وأمسكه علما · سار الى الأمام حاملا مسدسه فى يد وسيفه فى اليد الأخرى · شق منفذا لرجاله وسط صفوف الاعداء وسقط · لم يبق اذن سوى الضعفاء الذين اخرجوا الى الدنيا ابناء اليوم المشوهين » ·

وبعد ان قال وأعاد أشياء أخرى بغيضة تتعلق بهم جميعا ، خاطب كلا منهم على حدة ، مبتدئا بابنائه ·

وعندما وصل الى نيكيتا · تذكر انه « انما ارتضى أن تطأ قدمه أرض أجداده المبدعين لا لغرض سوى أن يخالف قوانين البلاد » ولطمه بهذه العبارة القاسية :

ــ فخور أنت بقصائدك ! ولكن أليست هذه وما على شاكلتها من قصائد هى التى مهدت للاستسلام والهزيمة وأودت بتلك البلاد المجيدة الى الضياع ؟

ويذكر انهم نهضوا آنذاك وغادروا القاعة دون أن يقولوا شيئا · ولكن عمه وجد فسحة من الوقت مع ذلك كى يقول له غاضبا :

ــ اغرب عن وجهى ، اذهب عش مع الناس الذين سممتهم · هنا الناس تحارب ، وعند الضرورة تموت · وهم لا يتساءلون لماذا نحارب ·

ربما كان هذا المشهد مع عمه ، أو على وجه التحديد ابن عم أبيه ، هذا العجوز الذى يمثل آخر الاعمدة التى لا تزال قائمـــة فى خرائب الأسرة ــ ربما كان هذا المشهد ، الذى جمع بين المأساوية والاضحاك ، هو الذى دفعه الى أن يتخذ قراره ·

تماسك · لم يقبل على الشراب كما كان يفعل كلما استبد بـه ضيق · وظل تلك الليلة يتأمل مصيره بهدوء ·

حتى لو كان بامكانه ان يعود الى فرنسا ، ما كان يجب أن يفعل ذلك · فى هذه اللحظة ، ولأسباب عديدة ، سوف يكون مستحيلا عليه أن يحيا فى فرنسا · على أن اليونان بدورها ، ان عاجلا أو آجلا سوف تحتل · وستعرف أثينا الجوع · ويذكر كيف انه فى طفولته عانى من المجاعة أثناء حصار الحرب العالمية الأولى ، وكيف ان الأسرة كلها هرعت الى فتيليونا · ما الذى سيغذى تلك المدينة الكبيرة هذه المرة أيضا عندما يحتلها الألمان بدورها ؟ الحقول القليلة الهزيلة المحيطة بها فى اتيـكا ؟ البطاطس التى سبق لدكتاتورية ميتاكساس ان أمرت بزرعها فى بعض

حدائق العاصمة وفى ميدان سينداغماتوس ؟ ٠٠ أم اذعانة التى تكيمن بها المحور بصعوبة لا يجهلها ؟ فى أثينا سيموت الناس من الجوع ٠٠

يجب عليه أن يعود الى فتيليونا ٠

سيحسن من علاقاته بذلك المهندس الزراعى الشرس ٠ سيعتذر له عما بدر منه ويرجوه أن يعيد تنظيم الضيعة ٠ بهذه الطريقة على الأقل ، أثناء الليل الحالك الذى سيأتى ، لن ينقصه شىء ٠ سيصلح البيت ، ويزوده ببعض وسائل الراحة ، ويشترى بعض دواليب الكتب ٠ وسينعم بصحبة الفتاة الجميلة التى تبادلت معه العديد من الرسائل . وربما سينعم أيضا بأكثر من صحبتها ، وسيسعى الى تكوين حلقة من الرجال المحتملين يلتفون من حوله ٠ واذا كان السفر ممكنا ، ربما أتت بعض صديقاته القديمات من باريس ليسكن معه ٠ ولماذا لا ؟ وعلى الأخص ، تلك التى لن تتوافر لهن سبل العيش ٠٠ فى باريس ، فسوف يكون عليهن ان يذللن آلاف الصعاب هناك ، بينما الى جواره فلن ينقصهن شىء ٠

أجل ، أجل ! يجب عليه أن يقفل راجعا الى فتيليونا ٠ وأى قرار غير ذلك سوف يفضى الى كارثة ٠ وعليه أن يتصرف بسرعة ، ذلك انه عندما ستسوء الأمور ،، ربما تعذرت العودة الى فتيليونا ٠

وسافر ٠٠ لم يكن شهر يونيه قد أقبل بعد عندما سافر ٠٠

كل شىء حدث كما توقع ، فيما عدا صعوبة واحدة طرأت ولم تكن فى حسبانه ٠

ابتسم وهو يتذكر كيف ان اليكسى رفض بأى حال من الأحوال ان يقابله ، ولا أن يهتم بفتيليونا ! ٠ ذهب بنفسه الى المدرسة وتوسل اليه ، كما كلمه ريامو وابنته ٠ ولكنه بقى صعب المرأس ٠

وفى النهاية ، على غير علم نيكينا ، وبناء على الحاح ريامو ، تدخل ناظر المدرسة الزراعية ، وكان رجلا متقدما فى السن ، محترما من الجميع ٠ وكما حكى له اليكسى فيما بعد ، قاده الناظر بالاكراه تقريبا الى فتيلبونا ٠

وقال له :

ــ صديقى العزيز ستورناريس وأنا نريد ان نساعدك فى النهوض بهذه المنطقة التاريخية ٠ أتريد أنت ذلك أيضا ؟

فاجاب قائلا :

ـ أجل ، أريد · انها أكثر رغباتى الحاحا !

ضغط على نفسه ، وقال :

ـ بل وقد سبق لى أن رجوت السيد ستورناريس الذى يوحى لى بالثقة الكبيرة ·

أضاف الناظر قائلا :

ـ يجب على أى أن تعرف شيئا · ان أرضك أسوأ أراضى المنطقة استغلالا · ستقتضى اجراء تغييرات جذرية · وسيحتاج الأمر الى نفقات من أجل جلب الآلات وأشياء أخرى أيضا · نريد أن نعيدها الى الحالة التى كانت عليها · فى أيام جدك ، كانت أرضك تضارع أراضى المدرسة · بل وبالنسبة لبعض المحاصيل وبعض أساليب الزراعة الحديثة ، كانت أرضك تفوق أرضنا ، وكنا نغار من ذلك · ولذلك يجب أن يكون لستورناريس مطلق الحرية فى أن يقرر ما يراه ·

قبل كل الشروط ، وعاملهما بكل احترام ، وحمل نفسه على تملقهما ·

منذ اليوم التالى ، انكب المهندس على العمل · وأمسى يأتى الآن كل مساء ، ليبحث هذا ويقرر ذاك ، جالبا اينما حل حماسة متأججة ·

ولكن فى علاقاته معه فحسب لم يكن المهندس الزراعى الخشن يظهر أى نوع من الحماس ·

كان يأتى لمقابلته كى يقول له ماذا ينوى ان يفعل ، وكم من المال يحتاج لذلك ، ولكنه كان يتصرف فى حضرته كما لو كان أزاء رئيس يجب التحفظ فى معاملته ·

أما نيكتيا ، فربما لأنه بحاجة اليه ، أو ربما بسبب عزلته الفظيعة ، كان يظهر له ودا ، محاولا كل مرة أن يبقيه الى جواره أطول وقت ممكن ، والابانة عن اهتمامه بكل ما يجريه فى الأرض ·

وتغير الآخر قليلا قليلا ، ببطء شديد ، وبغير أن يتنبه الى ذلك · ومن الأدق ان يقال انه صار أكثر تأدبا ، ورويدا رويدا صار أقل تحاشيا له ·

الى أن جاء يوم ، فى أعقاب نقاش ، زاد هذا التطور تقدما بشكل غير ملحوظ ٠

فى البداية ، كان حوارهما متحفظا ، شرع اليكسى يتحدث عن صوت الأرض ٠٠ كانت محاولاته للايهام بأن الموضوع طرأ على باله عرضا فاشلة ، كما كانت محاولات نيكيتا للايهام بانه لا يفهم ما يقصده محدثه فاشلة ٠ أيضا ٠٠ هل يوجد هذا الصوت حقا ؟ هل تتكلم الأرض ؟

لقد سمعها اليكسى ، وفهم ما كانت تقوله ، وبامكانه أن يدخل فى حوار معها ٠

أما نيكيتا فلم يكن يعترف بذلك ٠ وفى النهاية ، اعترف على مضض بانه أول يوم خرج فيه الى السهل ، وكان قد مر على ذلك شهور ، ذلك اليوم الذى وجده ريامو فى الاخدود الذى شقه بمحراثه ، حدث شىء غريب ٠ انه لم يسمع أى صوت ٠ كلا ٠ ولكن شيئا مثل حياة جديدة ، مثل رسالة آتية من مكان ما ، صاعدة من الأرض المحروثة حديثا ، مخترقة جسده ٠ وكان هذا كل ما حدث ٠ وفى حقيقة الأمر ، يمكن أن يكون ذلك مجرد انطباع خاطىء ، أحدثه دوار أو انفعال ما ٠

لمعت عينا اليكسى للمرة الأولى ، وعلق قائلا :

ــ انفعال المتلقى ٠ ثمة رسائل من كل نوع ، تتراوح بين البساطة المتناهية والغموض المستحكم ، يبعث بها باستمرار ، ولكن لا يتلقاها سوى أولئك المؤهلين لتلقيها ٠

تظاهر نيكيتا بانه لا يفهم ٠

قال الآخر ببساطة :

ــ ان أكثر الكلام البشرى وضوحا وقوة لا يمكن أن يلتقطه من كان أصم ، وذلك لمجرد انه غير مؤهل للتلقى ٠

ولكن منذ اليوم التالى تغير اليكسى فى نظر نيكيتا ٠ بدا له انه أصبح أكثر حرارة ، وبدأ يحبه ٠ وكان واضحا من أكثر من جزئية صغيرة انه لا يحبه لأنه الحفيد بل يحبه لذاته ٠ وكما انصرف الى الاهتمام تلقائيا بالمزارع والمراعى ، بالحيوان والآلات ، وفتيليونا ، كذلك راح يهتم بصالح نيكيتا ، وبصحته ، وبحالته المعنوية ٠ .

كم كان ذلك غريبا !

وقبل كل شيء ، هل كان يوجد من يهتمون بجيرانهم دون سعي الى منفعة ، ودون حافز مادي ، ولمجرد ما يسمى بالصداقة ؟

لم يكن يصدق شيئا في هذا المقام ! ...

الى ذلك الحين كانت الصداقة تعني في نظره الصحبة الطيبة ، مقاومة الضجر ، المجاملة ، ولفتات صغيرة قبل الآخرين كي يكونوا بدورهم مهذبين قبلك . لم تكن الصداقة تعني مصلحة حيوية ، مشاركة حقيقية لاحزان وأفراح الآخر . فهذا ، على ما كان يعتقد ، لا يوجد في غير الروايات ، أما الحياة فتخلو من ذلك . أو اذا وجد في الحياة فما كان يوجد الا عندما يوحد الحب بين كائنين ، ذلك الحب الذي كان بدوره مجهولا .. ومع ذلك فكل هذا كان موجودا في هذا الرجل الكامل !

كانت الصداقة موجودة في الحياة اذن ، انها موجودة حقا ، ولا بد انها شيء عظيم .

« ولا بد انها شيء عظيم » لانه من جانبه لم يشعر بها من قبل كان راضيا بأن يرى اليكسي ، وكان يشعر نحوه بنوع من التعاطف والعرفان بالجميل ، ولكن ليس بذلك الاهتمام التلقائي الحميم الذي كان يوليه الآخر .

وكل هذا الارتباط الانساني المصفى ، الذي لم يكن معروفا له من قبل ، ربما لم يكن على غاية من الأهمية ، ولكنه كان مع ذلك شيئا جديرا بالاعتبار في عزلة منفاه باعماق مقاطعة ضائعة في مكان ناء باليونان .

وفضلا عن ذلك ، كان شيئا نافعا .

وأيا كان النحو الذي سيتطور اليه الموقف ، ومهما استفحلت الويلات التي ستحل باليونان ، بل وفي حالة ما اذا عانت من أسوأ صنوف الحرمان ، فانه اذا ما سارت الأمور على ما يرام في فتيليونا ، فلن ينقصه شيء . والى أن تنتهي الحرب ويأتي اليوم الذي يعود فيه الى باريس ستتوفر له كل احتياجات الحياة .

أجل ، في بداية الأمر ، سارت الأمور كلها كما توقع ، بل وأفضل مما توقع أيضا من بعض النواحي .

الشيء الوحيد الذي لم يتوقعه ، وكان فظيعا ، هو المرض الجسيم .

كان قد قيل له في فرنسا انه يعاني من كسل طفيف في الكبد .

كثير ما عانى من قبل ، لكنه لم تنتابه الآلام الى هذا الحد · أوجاع ، فى بعض الأحيان ، مهولة ، نوبات قيء ، وعرق غزير ، ارتفاع فى الحرارة ، وهذيان مخيف ، ساعات من الضعف ، ما كان لديه الجلد أثناءهـا ان يرفع يده ، انى من كل شيء أثناء مرضه · ودون أن نتحدث عن النظام الصارم فى العلاج ، والانتصار على تناول الطعام غث وهزيل ، فقد تعين عليه أن يمتنع بالأخص على تعاطى الخمر · وذلك فى اللحظة التى كان هذا الصديق الزم له من أى وقت مضى · وقد حرم عليه تماما ، لأنه على ما يبدو كان السبب الأساسى للداء ··

وهكذا · وجد نفسه مريضا ، خائر القوى الى أقصى حد ، مسمرا الى سريره فى هجير أغسطس · بينما ركد الزمن ، وظل معلقا لا يتحرك ·· لم يبق له من عزاء سوى صحبة قلة قليلة من الأشخاص ــ وان كان مهموما بينهم ــ والأمل فى أن صحته ستتحسن فى النهاية ·

داخله شعور بأن ثمة رعشة تسرى فى جسده ، وجذب الغطـاء عليه · وقال لنفسه « ما ان تحدثت عن التحسن حتى ذكرنى المرض بوجوده ! كيف ستنتهى هذه المحنة ؟ ما الذى استطيع أن أفعل ؟ أهو امتحان جديد ، سأتكلم فى هذا الأمر منذ الليلة · يا للخسارة أن أكون مضطرا الى مقابلة كل من كيتى واليكسى على انفراد · سوف تكون المناقشة أكثر طلاوة فى حضورهما معا » ·

آه ! عسى الا تنتابه هذه الحمى الملعونة من جديد بهزالها وعرقهـا وهذيانها ·

الأحاديث القـديمة مع فرنسيين من معارفه ، الذكريات التى يعود فيعيشها معهم ، كل هذا ، لا شك انه هذيان ·· ولكن تلك المناقشات الحادة مع اليكسى ستورناريس الذى أصبح منذ مرضه على الأخص صديقا من ألصق الاصدقاء ــ هذه المناقشات أكانت هذيانا حقا ، أم أنه كان يرددها ساعة اشتداد الحمى وقد تمناها واستدعاها من كل قلبه ؟

لم يكن يعرف عن هذا الأمر شيئا · ولكن من ناحية أخرى ، لماذا البحث عن هذه المناقشات واثارة لواعجها من جديد ، ما دامت تضايقه أكثر مما تستميله اليها ؟

كان يصيح قائلا :

ــ تمسك شرارة وبخيالك تصنع منها شعلة ! تمسك نجما وتجعل منه شمسا !

وكان الآخر يجيب :

ـ كلا • ليس هذا من قبيل الخيال • التاريخ يقول ذلك • اننا نعيش هذا والآخرون يروننا نعيشه • انه لشيء كبير ، يانيكيتا ، شيء كبير وفريد ، ان تكون يونانيا ، وان تواصل أنت نفسك ، بجسدك وروحك ، تاريخا يمتد ثلاثة آلاف عام وارتقى الى قمم عالية مجهولة من سائر العالم •

كان يقاطعه بعصبية :

ـ وينحدر اليوم الى حضيض مجهول بدوره من سائر العالم !

وبالهدوء ذاته ، كان اليكسي يواصل :

ـ أثناء تلك الحقب الوضيئة كثيرا ما اجتزنا ظلمات أسوأ من هذه • وكان لاجتياز الظلمات هذا ما يعتبر عظيما وجميلا وصعبا • فلنكن نحن التواصل الحي لتلك الحقب المجيدة • بل ولنحقق صعودا جديدا ، يونانيا مسيما •

ويجيبه بانفعال :

ـ انك لا تعرف ماذا تقول ، يا اليكسي • أتعرف ماذا يعني الغرب ، الغرب المتحضر ؟ انه متقدم ألف عام على هذه البلاد الفقيرة الممزقة •

ويجيبه صديقه بذات اللهجة المقتنعة بما يقول :

ـ لن نقيس عظمة اليونان ، يانيكيتا ، بمقاييس تصلح للبلاد الأخرى ، بالبيوت والطرق والآلات • كل هذا حسن ، ولا شك • سوف نصنع مثله بدورنا ، رويدا رويدا • ولكن عظمة اليونان يجب أن تقاس بعظمة الفكر والروح • وهكذا يجب أن نقيس تلك العظمة حتى اليوم ، وذلك كي نصعد عاليا جدا •

كانت الأحاديث التي من هذا القبيل تثير سخطه • لا شك ان ثمة ما هو جميل فيها ، جمال يتبع على الأخص من اللهجة الملتهبة التي تصاحبها • ولكنها كانت تتضمن من المبالغات الكثير أيضا ، وعلى الأخص بالنسبة له ، وهو المنكر لكل شيء ، وأول ما ينكره أمته ••

ومع ذلك ، كانت تلح عليه هذه الأحاديث وتلاحقه • كانت تتردد

في فكره حتى عندما كانت الحمى تنهش عقله ، بل وربما على الأخص في ذلك الحين .

في هذه اللحظة ، كان يجب أن يتفادى تذكرها . وان يلزم الهدوء، فسرعان ما سيزول القيظ الشديد ، وستأتي كيتي للجلوس معه قليلا .



بعد أن سألها ما اذا كانت جاهزة ، دخل حجرتها للتحدث اليها .
ـ لماذا هذا التبكير ، أيها العم نيقوس ؟ انها لا زالت ساعة القيلولة . ماذا يجرى ؟

ـ يمكنني أن أوجه اليك السؤال ذاته . ها أنا بطول انتظاري كي تفرغي من زينتك . ماذا يجرى ؟

أجابت وقد بان عليها الضجر . فبالنسبة لها كان هذا جدولها اليومي المعتاد . ومن غير المجدى التظاهر بالمكر بشأن موضوع لا يحتمل المزاح .

قال لها بلهجة أكثر جدية :

ـ لم أحضر كي أداعبك . بل جئت من أجل جـــدول مواعيدك العادية . منذ فترة طويلة هذه الأونة الأخيرة ، وعلى الدوام في الساعة ذاتها ، من بعد الظهيرة ، كل يوم ، تتكرر زياراتك له . وهذا بالاضافة الى تلبيتك بعض الدعوات الاستثنائية في الصباح أيضـا . تجـاوزت المسألة حدها قليلا . وبدأت ألسنة الناس تلوك موضوعكما . هل لديك على الأقل أمل ؟

كان ثوبها الأبيض ينسجم مع لون بشرتها الشقراء وشعرهـا الكستنائي ، ويشع الجمال والنضارة والصحة من جسمها المتفتح ـ وكان كل ذلك يوحي بامرأة سعيدة . ولكن ما ان تكلم عمها ، حتى تغيرت الانطباعات على وجهها وبدت امرأة يائسة وان كانت لا تريد أن تعترف بهزيمتها .

علاها الاكتئاب • جلست على حافة السرير البعيـــدة ، واسندت مرفقيها على ركبتيها ، وأطبقت راحتيها ، وقالت :

ـ السنة الناس أعرفها • أخمن ما يقولونه • ويحدث أحيانا ان اسمع طرفا من أقاويلهم • ولكن هذا لا يعنينى • أما الشيء المحزن فهو أن الكيل قد فاض بى ، بل ربما أصبح الأمر يثير تقززى ، ومن ناحيـة أخرى لم أعد أعرف على الاطلاق ما اذا كنت سأبلغ أهدافى •

أجابت على ما وجهه اليها عمها ، وراحت تحكى له •

انه ضعيف ، ضعيف الى حد مخيف ، وقد زاد المرض من ضعفه الجسدى والنفسى • كانت الســاعات التى تقضـيها فى فتيليوفا أول الأمر ساعات تمريض ، والآن بعد أن تحسنت صحته • اختلطت فى تلك الساعات الصحبة بالتمريض • ولكنها صحبة تثير فى قلبها الضجر • كانت ثمة ومضات خاطفة من الحكايات المستحبة ، ومناقشات أدبية تتضمن بعض القيمة ، ولكن فى المجموع كانت تجد نفسها بصحبـــة الخـوف ، والعدمية ، والضعف • ولم يكن ذلك يعجبها أو يحرك فيها شيئا • بل على العكس كان ينفث فيها التعب •

ـ لكنه مريض ، ذلك المسكين •

قالت :

ـ مريض فى الجسد والروح معا •

ـ وطوال كل هذه الفترة ، وعنايتك به وتواجدك الى جانبه ، ألم تولد فيه أى عاطفة نحوك ؟ ألم يقل لك شيئا ؟

ازدادت كآبة • ظلت على جلستها مسندة رأسها الجميل الى يديها •

وتمتمت تقول وقد ثبتت انظارها فيما امامها :

ـ أجل ، الى حد ما • عندما يشرح لى لماذا تعلق بى وباليكسى ، ربما يقول الحقيقة • ولكن منذ بضعة أيام • طلب منى بالحاح أن نرقد سويا ، هذه كل ما توصلت اليه حتى الآن •

لمح لها ولكن بطريقة فيها من الوضوح الكفاية ، ان الأمر ليس بهذا السوء الذى تصورته ، على أنه لا يجب أن ترتكب حماقة من هذا القبيل ، وان كان بامكانها أن تستغل هذا العرض للمضى بمخططها •

تمتمت باللهجة ذاتها :

ـ مخططى ... بدأت أتساءل عما اذا كنت لا أزال متمسكة به •

كنت قد عزمت على ذلك بأمل أن يجلب لى ما كنت أحلم به منذ أمــد طويل • ولكن ماذا بقى كى أمل فيه ؟ باريس ، لا يجب التفكير فيهـا لسنوات ، ربما عديدة • أثينا ، لقد مللها بعد بضعة أشهر من الاقامة بها ، وأقصى ما سيكون عليه الأمر ، سفر من لاريسا الى أثينا ذهابـا وأيابا • ومع من ؟ ليل نهار ، مع من ؟

نهضت ، خطت بضع خطوات • ثم اطبقت بيديها فى عنف عـلى مسند أحد المقاعد •

ـ عندما يأخذ بيدى وبتوسل الى أن اتمدد الى جواره ، عندما يتلفظ بكلام ساذج ويبسط حججه كى يتغلب على مقاومتى ـ أجزم لك ان ذلك يجعل قلبى ينقبض •

مضت تقول ، وفى صوتها نبرة غضب :

ـ حقا ، لا أستطيع أن أتصور ماذا يمكن أن تعنى لهفات الحب بالنسبة لجسد خامل وروح متحللة • انه يريد أن يمارس ذلك معى أنا •• عندئذ تنتابنى الرغبة فى القىء من شدة تقززى ، اقرر ان أضـع حدا لهذه المهزلة •

نهض بدوره • لاطفها • وحملها على الجلوس من جديد فى مواجهته • وتوصل بشكل أو بآخر الى تهدئتها • احتفظ بيدها قليـلا فى يده ، وقال لها :

ـ استغرقت المهزلة وقتـا طويلا حتى يوضـع لهـا حـدا • ما من بيت لا يلوك الأقاويل عنكما • وفى عديد من المناسبات أشاعوا عنك الشائعات • هذه المسألة يجب أن تبلغى النجاح فيهـا • ومن المستحيل غير ذلك • وفضلا عن ذلك ، ما ان يتم الزواج ، سوف تطرح احتمالات كثيرة ، غير الذهاب والأياب الى أثينا • صدقينى ، أنا الذى احبك ، وأفكارى متحررة ، وبلا تعصب ، لم يبق لك مخرج آخر • أو اذا شئت فان المخارج الأخرى بالنسبة لامراة مثلك سوف تكون أسوأ • يجب أن تثابرى •

قطع الحديث دخول فاسيلى مانوهميس • وقد دلت تفاهة كلماتـه الأولى وهيئته الحانقة بوضوح على أنه كان يريد أن يقول شيئا • وفى النهاية بعد أن سعل مرتين أو ثلاث مرات ، اتخذ قراره :

ـ اننا فى اليوم الخامس عشر من أغسطس ، وهو عيد العذراء . هذا المساء ، سيخرج الى الميدان كل من بقوا فى لاريسا رغم هذا الصيف الفظيع . حوالى الساعة السابعة والنصف أو الثامنة يجب أن نذهب نحن الثلاثة لتناول بعض المرطبات والقيام بنزهة هناك ، أليس كذلك يا عزيزتى كيتى ؟ .

لاحظت هيئته الضجرة ، والنبرة المتوسلة فى صوته ، وشعرت نحوه بالاشفاق . ولكنها رفضت عرضه مع ذلك .

قالت له برقة :

ـ أبى ، تعرف كم أمقت هذه النزهة فى الميدان ، ولا أذهب الى هناك أبدا .

عاد يقول بلهجته المتوسلة :

ـ أجـل ، يا بنيتى ، ولكنـه الخامس عشر من اغسطس . فلنبد مرة واحدة ، مثل سائر الناس العاديين جميعا .

ازدادت اشفاقا عليه ، وقبلت ـ كما قبل العم نيقوس ـ اقتراح ابيها . وعدته بانها ستحاول أن تترك كوليتيس فى وقت أكثر تبكيرا اليوم ، ما دام انه يسير فى طريق التحسن ، ولو امكنها ذلك فستاتى للتجوال معهما قليلا ، وذلك ارضاء لهما .

وانصرفت للذهاب الى فتيليونا .

★ ★ ★

سمعا وقع خطوات حصان فانقطع ما بينهما . كان الحصان يركض سريعا ثم توقف فجأة تحت نوافذ البيت . لم يكن بالامكان ان يكون الا هو . ومع ذلك ، كيف يجىء فى هذه الساعة ، وهو يعرف أن كيتى موجودة فى فتيليونا ؟ كان ذلك مخالفا لما التزم به منذ أمد طويل . تبادلا النظرات متضايقين . ولكن قبل أن تتاح لهما فرصة التعبير عن افكارهما ، تعالى وقع أقدام رجل على درجات السلم ، وظهر اليكسى عند فتحة الباب . ارتسم على وجهه تعبير لم يرياه فيه من قبل . ودون أن يقول لهما صباح الخير ، اندفع يقول :

ـ اذا كنت قد جئت في مثل هذه الساعة ، فلأن ثمة حادثا جللا وقع ، ويجب أن تعلماه بلا توان · لقد أغرقوا هيللي ·

ـ وما هيللي هذه ؟

ـ أين ؟ كيف حدث ذلك ؟

ـ لا أعرف عن الحادث أشياء كثيرة · ذهبت مع اثنين من زملائي للاحتفال بالعيد في احدى القرى المجاورة · وبعد ان بدأ الرقص ، جاءت الشرطة فجأة وأسكتت الموسيقيين · قالوا ان الأوامر وردت من أثينا بالغاء الاحتفالات في اليونان كلها ، لان غواصة اغرقت هذا الصباح سفينتنا الحربية تلك ، وهي راسية في تينوس بمناسبة عيد السيدة القديسة مريم · استفسرت من رئيس نقطة الشرطة عن الأمر ، لكنه لم يعرف المزيد · اضاف فحسب ان ثمة ضحايا ·

بدا وجه نيكيتا كوليتيس الشاحب النحيل أكثر تحولا وشحوبا وبصوت خائر سأل :

ـ ألم تظهر الغواصة قط ؟ الا يجوز ان يكون قد وقع على ظهر السفينة حادث اعتقد معه البعض انها قد قذفت بطوربيد ؟

ـ هذا محال · انها سفينة كبيرة · ثاني قطع اسطولنا ما كانت ستغرق بسبب حادث على السطح · ثم انه لا مجال لاكاذيب من هذا القبيل ·

قالت كيتي معلقة :

ـ لابد انها غواصة ايطالية ·

ـ هذا هو الاحتمال الأكبر · ولهذا جئت ابلغكما انها خسارة كبيرة لنا ، لأننا لا نمتلك سفنا كثيرة · وكانت هذه السفينة رائعة · ولكن اذا كانت الخسارة جسيمة فان دلالة هذه الحادثة أكثر جسامة · لا أعتقد أنهم ارادوا ادخال الخوف الى قلوبنا للزعزعة من شجاعتنا ، ذلك انهم لا بد يعرفوننا ويفهمون انهم سيزيدون بذلك من حماستنا · ولكنني اذا ربطت هذه الحادثة بتحرشاتهم الأخرى ، فانني أخلص من ذلك الى انهم سيهاجموننا بلا تأخير · وربما منذ الغد · هذا ما يعتقده الناس جميعا وبحسب الظاهر ، فقد أرادوا أن يحرموننا بأبخس ثمن من واحدة من أفضل سفننا ·

اعتدل المريض فى سريره · وارتكن الى ساعديه ، ونظر بقلق الى الآخرين اللذين خيم عليهما الوجوم · تطلع اليهما · نظرا اليه دون أن يقولا شيئا ، وهو ما جعله أكثر ضيقا · ثم ابتسمت له كيتى ، وأخذت يده وشدت عليها برهة · جلبت اليه هذه اللفتة راحة خفيفة · كان يجب أن يطلق العنان للهلع الذى استبد به · لكن الخجل غالبه ، واقتصر على أن يقول :

ـ منذ الغد ! لكنه فظيع هذا الذى تقول !

قال اليكسى ، وهو يكسر على ركبته بحركة مفاجئة الخيزرانة التى كان يمسك بها :

ـ انه فظيع فى الواقع · تصور اننى معين لقيادة فرقة من حملة المدافع الرشاشة بسرية ابيروس الثامنة ، ولكنهم اعتبرونى لازما للزراعة التى يمكن أن يقوم بها ألف رجل غيرى ، ولهذا فلن يمكننى أن أغادر وظيفتى بالمدرسة الا اذا تلقيت الأمر بالسفر ! اتصلت تليفونيا منذ هنيهة بهيئة الجيش ، لكنهم لم يتلقوا بعد أمرا بالتعبئة · وقال لى أحد أصدقائى هناك اننى انتمى الى طائفة المفيدين للمجهود الزراعى ومن ثم لن استدعى الا بعد اطلاق النيران وحدوث الاشتباك فعلا · كيف سيمكننى اذن أن أسهم فى الجبهة دون أن اتفقد الرفاق الذين سأقودهم ، ودون ان اعرف حالة الاسلحة ؟

التقت نظراته عرضا بنظرات كيتى · لمح على وجهها تعبيرا من الحب والاعجاب جعله يرتعد ·

أكانت لا تزال تحبه ؟

غمرت قلبه فرحة مباغتة ·

لكن التعبير تغير توا · سألت بابتسامة مستهزئة :

ـ هل سيتسع لك الوقت كى تذهب الى هناك ؟

نظر اليها نظرة دهشة وداخله حزن ·

ـ ماذا تريدين ان تقولى ؟ كيف لن يتسع لى الوقت ؟

اجابت قائلة :

ـ ثمانية مليون جندى ، مدججون بالسلاح ، واقوى الاسلحة الجوية فى اوربا · لسنا سوى قطرة ماء ، يا اليكسى ، وايطاليا قوة كبيرة · اذا

هاجمتنا فستغرقنا بجيوشها ، وتدمر جسورنا وطرقنا وتسحق قواتنا قبل أن يتيسر الوقت لارسال الأمر الذى تنتظره ٠

شد قامته واقفا ، ونظر اليهـا بعداوة ، مطبقا قبضـتيه كـى يكبح جماحه ، وقال :

ــ لقد وضعت قواتنا بدورها فى الحسبان الاحتمالات المختلفة ٠ ولكن لوجرت الامور على النحو الذى تقولينه ، فبدون انتظار لاوامر سيذهب كل يونانى ، مشيا على الاقدام ، وعبر الانهار ، الى حيث يجب ان يذهب كى يصد أيا من سولت له نفسه ان تطأ قدمه ارضنا ٠

لم تتلاش الابتسامة الساخرة من على شفتى كيتى ٠ جميلة كانت ومتحدية ٠ همت ان تقول :

ــ اعتقد ٠٠٠

قاطعها اليكسى وقد خرج عن طوره :

ــ لا تعتقدى شيئا ٠ وأنصحك بشدة ألا تجاهرى فى غير هذا المكان بمثل هذه الأفكار الانهزامية ، والا وجدت نفسك فى السجن دون أن تعرفى ماذا يحدث لك ٠

دقت الأرض بقدمها غامضة ، شدت على يد المريض بابتسـامة مفتعلة ، ثم جرت ، دون أن تنبس بكلمة ، الى الباب وانصرفت ٠

استدار اليكسى نحو النافذة ناظرا من خلال خصائصها المغلقة ٠ خيم صمت ثقيل ٠

بعد برهة وجيزة ، قال نيكيتا :

ــ آلمتها كثيرا ٠ بدونها وبدونك ، لا أعرف كيف كان بامكانى أن احتمل المرض والوحدة ٠

تحدثا هنيهة عن اغراق السفينة ، وتفاديا أن يقتربا من موضـوع الفتاة ، أو ان يقولا شيئا ذا أهمية عن علاقتهما بها ٠ فى هذه اللحظة ، لم يكن ذلك يشغل بال أى منهما ٠

أما الذى كان يشغل بال نيكيتا كوليتيس فكان الحرب ، الحرب التى كان بالامكان أن تنشب غدا ، فتلقى به فى مخاطر لم تكن تخطر على باله قط ، وصار الآن يفزع من مواجهتها ٠ تردد أن يقول ذلك ٠ لكنه

لم يكن بامكانه ألا يفعل · ممن كان يستطيع أن يطلب النصيحة غير اليكسى ؟

قال بوجل :

ـ واذا وجدنا أنفسنا غدا فى حرب ، وقد احتللنا ، ما الذى تعتقد انه سيكون مصيرى ؟

نظر اليه الآخر ، كما لم يكن قد فهم السؤال ·

سأله من جديد :

ـ هل تعتقد انه يجب أن أبقى هنا ؟ أم أسافر الى أثينا ؟

وكما لو كانت قد خطرت له فكرة رائعة ، مضى يقول بحرارة :

ـ أو الى جزيرة من الجزر ، ربما ؟ لم أفكر فى أن لاريسا هى مقر قيادة القوات المسلحة ·· وانها أيضا مفتاح طرق المواصلات !

نظر اليه اليكسى مندهشا ، لكنه لم يقل شيئا · ذهب الى النافذة، وفتحها على مصراعيها · انتشر الضـوء والحـرارة فى أرجاء الغرفة · فانحسرت العتمة غير الصحية مفسحة المكان لنداء السهل الكبير المفعمة بالضياء والوهج ·

تجلى وجه اليكسى وكتفاه العريضان فى غمرة الضوء أمام النافذة · سرحت عيناه بعيدا وهو يقول :

ـ اذا قامت الحرب فان نيكيتـــا كوليتيس لا يستطيع أن يذهب الا الى مكان واحد : هناك حيث يحارب اليونانيون من أجل انقاذ وطنهم·

نهض بيكيتا من جديد فى سريره ، وتكلم هذه المرة بحدة :

ـ لكننى مريض ! دعك الآن من العبارات الوطنية الطنانة · منـذ فترة طويلة ، وأكثر من مرة ، عاملتنى معاملة الأخ · وكنت أفعل ماتقوله لى لأننى أثق فيك ، ولأننى أعرف انك قوى ، بينما أنا يائس وضعيف · ولكنك الآن تنجرف فى طوفان وطنيتك ، وتبالغ فيما تقول · فكر فى اننى مريض ·

ـ ان نصف اليونانيين مصابون بالملاريا · وآخرين مصدورون · ويكاد الجميع يعانون من سوء التغذية · أما أنت فليس بك شىء من ذلك كله · مرضت بالكبد قليلا لأنك أضررت به ، ولكن كل أعراض المرض قد انحسرت الآن · انك طبيا قد شفيت ، كما يقولون · لم يبق الا أن

تحترس قليلا فيما تأكل · أو بعبارة أخرى ، ليس بك شيء · انت في صحة جيدة ·

ــ لكنني مريض ، خائر القوى ، مهدم · ثم هل فكرت فيما تقول ؟ كيف أذهب لأحارب ؟ باعتباري يونانيا عشت بالخارج لم يسبق تعبئتي · ولا أندرج في أية وحدة من وحدات الجيش · والأكثر من ذلك ، انني لم أتلق أي تدريب · لا أعرف شيئا عن القتال ، ولا المدافع الرشاشة ·

ولما رأى أن الآخر ينظر اليه دون أن يسارع بالاجابة عليه ، اضاف بعصبية :

ــ لا أعتقد انك تريدني أن آخذ بندقية صيد أو سكينا ، واسير وحدي الى الجبهة !

متكئا الى النافذة ، قال اليكسي بذات اللهجة الهادئة :

ــ انك تعرف الايطالية · وتعرف أيضا لغات أخرى · لو طلبت أن تتطوع فسوف يأخذونك فورا كي تستجوب الأسرى ، وتتحدث الى ضباط وصحفيي الحلفاء · حتى وانت بضعفك هذا ودون أن تتلقى تدريبا يمكنك أن تكون نافعا ، يا نيكيتا · الشيء الوحيد الذي أريده ، والذي ارجوه حقا ، هو أن ندبر الأمر كي يلحقوك في مكاتب القيادة بأحد الفيالق أو ــ وهذا سيكون أفضل ــ باحدى الكتائب ·

ــ وأي فارق بينهما ؟

ــ في الكتيبة ستعمل مترجما ولكنك ستكون بالقرب من المعركة ، وستعيشها · وسيقتضيك الأمر في بعض الأحيان أن تحمل بندقيتك ·

لم يكن نيكيتا كوليتيس يفهم شيئا · كان اليكسي يحبه ، وقد اثبت ذلك أكثر من مرة · كان يحبه كأخيه ، وقف الى جانبه أثناء عذابات مرضه · وأمضى ليال بأكملها عند سريره ، مظهرا رقة لا تبدو من رجل في خشونته · وها هو ذا الرجل نفسه ، الذي فعل كل ما باستطاعته ليكفل راحته ، يقول له أن عليه أن يسافر ليعرض نفسه لآلاف الصعاب بل ولخطر الموت ذاته ، بينما الشيء الطبيعي الوحيد بالنسبة له أن يقبع في عقر داره ويعتصم بريف تسوده السكينة !

كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنا ؟ ان للوطنية ، كما ثبت ذلك أكثر من مرة تطرفاتها التي تنحرف ولا شك بمعناها الأصيل ، وتصبح شيئا مشوها ·

قال محيطا :

ـ غير معقول ما تقول ، لكن هناك شيئا آخر أريد أن أعرفه مادمت ترجو أن تراني منخرطا في المعركة . ألا تحس بالخوف ، أنت؟ ألا تخشى على نفسك ؟

أجابه بذات اللهجة الهادئة ، ولكن بتعبير من القلق في نظراته :

ـ انى أحس بالخوف . أخاف ، على الأخص ، التشوهات اللعينة . مثل فقىء العينين ، أو بتر الساقين . ولا شك ، ان هذا شيء فظيع !

أحس نيكيتا بروحه المعنوية ترتفع . داخله الانطباع بأنه يكاد يكون على قدم المساواة مع الآخر . **وقال بصوت أكثر حيوية :**

ـ ما من شك في انه شيء فظيع ، وتريدني دون أن أكون ملزما بالخدمة العسكرية أن أعرض نفسي لهذه المخاطر ، بل وأن أقتل ؟ انها المرة الأولى التي اسمعك تقول فيها أشياء غير معقولة ، يا اليكسى . انني اذا رحلت من هنا . فلكى أذهب الى حيثما أكون أكثر أمانا .

ثم أضاف بصوت أقوى وأكثر اصرارا ، وبعنف هستيرى :

ـ لست مدربا . وأعاني المرض . وانه لأمر مفروغ منه انني لن أرتكب حماقات .

تأمله اليكسى دون أن يقول شيئا .

ـ لماذا تنظر الى بنظرة الاتهام هذه ؟ ان الذى تقوله لا معنى له ، ولا يمكنك أن تتجاهل ذلك . انني لم أدع للخدمة العسكرية ، أليس كذلك ؟ وألست مريضا أيضا ؟

استمر الآخر في صمته . عقد ذراعيه على صدره ، وراح ينظر خارجا . ثبت عينيه على هامة احدى الأشجار ورقعة من السماء ، لزم صمتا مطبقا .

وفي غمرة الصمت الذى أعقب ذلك ، نهض نيكيتا ، واقترب منه حافي القدمين .

ـ يكفيني ما بي من عذاب ، يا اليكسى . لا توجه الى النقد ، ولا ترهقني .

وبعد نظرة قصيرة مفعمة بالعطف ، أدار اليكسى عينيه من جديد نحو السماء الزرقاء . ربما كان مترددا أن يجيب ، أو ربما كان يفكر فيما سوف يقوله .

مضى نيكيتا يقول :

ـ لا تقارنني بنفسك · انت قوة طبيعية · انت مثل المطر ، والريح ، والرعد ·

ظلت نظرات اليكسى مثبتة بالخارج على الدولم · ولكن هذه المرة أجاب قائلا :

ـ كل رجل قوة طبيعية ، مثل الريح والرعد · واذا لم يكن فعليه أن يكون · والفارق الوحيد بين رجل ورجل أن أحدهما أقوى من الآخر ، أو أن عليه أن يبذل جهدا أكبر تبعا للصعوبة التى يواجهها ·

لم يكن نيكيتا ليصدق أن بالامكان أن يقال عنه انه بدوره رعد أو صاعقة !

وقال :

ـ كلا · ليس هذا صحيحا · بعض الرجال وحدهم قوى طبيعية، وهؤلاء يسندون الآخرين ، وتركن اليهم القلوب والأوطان والأفكار · أما آنا فلست سوى رجل مريض ·

التقت نظرة المهندس الزراعى بنظرة صديقه وقد تغيرت · لاحت فيها الصرامة والجدية

وقال :

ـ بعد عشرة أيام ، عندما تكون قد استرددت عافيتك ، سوف تكون أقوى مما كنت · ولكن حتى لو كنت مريضا يجب أن تقول لنفسك، انه فى الظروف الحالية كثير من الرجال الأشداء سيقتلون أو يصابون بعاهات · فكيف يمكن أن تتخذ من وعكتك الطفيفة تبريرا ؟

لم يعرف بما يجيب · وبعد برهة من الضيق ، قال بلهجة خجلة :

ـ لماذا تريد أن تذلنى بارغامي على أن أكرر ما قلته ؟ لست مثلك· انى خائف · كل شيء يبعث الرعدة فى أوصالى · أنا رجل ضعيف · لماذا اذن اصرارك هذا ؟

اخذه اليكسى بمودة من ذراعه وقاده الى سريره :

ـ أرقد من جديد ، وساشرح لك ·

جذب الغطاء على جسمه ، ثم جلس على السرير بجواره · وقال له :

ـ انت لست رجلا ضعيفا · أنت تنتمى الى الأقوياء · ولكن كل

هذه السنين التى أمضيتها فى باريس ، فى العزلة والضباب والمطر ، جعلت روحك سقيمة . ولكن ما ان وصلت الى هنا ، قبل حتى أن تتفتح عيناك على ضياء اليونان ، سمعت نداء الأرض !

قاطعه قائلا :

ـ هل ستعود الى هذه الحكاية من جديد ؟

ـ اذا لم تكن قد فهمت بعد مغزى ما عشته ذلك اليوم ، فسوف تفهم يوما ما . ان الأرض لا تتحدث الا الى من ولدوا أقوياء . ولئن كنت ادرت ظهرك لبلدك ، وبدا لك كل شيء غريبا وغير مناسب ، فقد عدت، ووحدك دون أن يرغمك أحد أردت أن تجيب على الرسالة التى وجهت اليك . هذا ما يجعلنا فى فتيليونا نحبك جميعا .

تمتم قائلا :

ـ لا أفهم . حقا ، لا أستطيع أن أفهمك .

ـ ساعيد عليك القول . ربما لم تدرك بعد معنى ما حدث لك . هذا سيجيء بدوره . ولكن لا تقاطعنى ، عندى شيء آخر أقوله لك .

تخلى عن لهجته الرقيقة الخفية ، واستطرد بلهجة أكثر حزما :

ـ لو طلب منا أن نصمد مثلما صمد أجدادنا ، هل سنرفض ؟ الا نفهم انهم لو هاجمونا ورفعنا أيدينا فى الهواء مستسلمين ، لن نكون ولن يكون أولادنا من بعدنا يونانيين ؟

ـ أفهم ذلك . ولكن انت لا تعرف ، ولم تفهم قط من أكون . انى أعتبر فرنسيا أكثر مما اعتبر يونانيا ، كما انى أميل الى المرض من الصحة ، والى الضعف من القوة . أو بعبارة أدق ، لست قويا على الاطلاق . انى ضعيف . ضعيف الى حد الأسى .

ولأول مرة منذ صداقتهما نظر اليه اليكسى نظرة قاسية ، وأحس نيكيتا بها . قال اليكسى :

ـ لا أعتقد اننى أخطأت فيما يتعلق بجوهر طبيعتك . ولهذا فسوف أسبب لك ألما . ان فرنسا بلد كبير وأنوف . وقد رأيت كيف ان بعض الفرنسيين فى لندن ، بل وكل الفرنسيين بالمستعمرات يواصلون الحرب صامدين ويوجهون النداء الى فرنسا الأم بأن تحمل السلاح من جديد ! وانى واثق من انها ستعود الى حمل السلاح . وعندما ستتحرر باريس ، وسيمكنك أن تذهب اليها سيدير لك الناس جميعا ظهورهم .

سوف تعتبر الأجنبى الذى سمم جيلا بأسره بقصائده الحلوة · سوف تعتبر الأجنبى الذى بلغ به الأمر أن رفض الدفاع عن وطنـــه الأول ، ذى الاسم المجيد · سوف تكون مرفوضا هناك ، ومرفوضا هنا أيضا · وهنا ستكون خطيئتك مزدوجة · انك لست يونانيا عاديا · انك تحمل اسما يعتبر رمزا وقدوة · فاذا اختبأت ، سيتساءل كثيرون لماذا يجب عليهم هم أن يتعرضوا للخطر ليدافعوا عن بلدك وثروتك ·

غطى العرق جسد نيكيتا كوليتيس · لمعت قطرات كبيرة على جبينه وصدره وانتابه الكرب ، وهو يستمع الى هذا الكلام الجارح عن مكانته فى فرنســا · وعنــدما صمت الآخر ، اتكأ على وسائده ، وأطبق جفنيه بشدة ، وضم أصابعه النحيلة قائلا :

ــ قد تكون على حق · لكننى لا أستطيع · لا أستطيع · انك تطلب اكثر مما أستطيع أن أعطى ! لا أستطيع !

جلس اليكسى الى جوار سريره · وأمسك به من منكبيه ·

ــ نيكيتا ، وددت على الدوام أن يكون لى أخ · ولقد أعطانيه الرب فيك · ما كنت سأحبك مثــل أخ لو كانت روحك مريضــة الى حـــد لأبرء له ·

نهض ، ذهب يبلل طـرف منشفة مسح بها مرطبا وجه نيكيتــا المغطى بالعرق ·

ــ للأسف ، يجب على أن أتركك الآن · الغروب يقترب · ويتعين أن أذهب الى الدير ثم أعود الى المدرسة قبل أن ينام التلاميذ · لو : اخبارا هامة سأعود ·

★ ★ ★

عنــدما مر أمــام كوخ ريامو ، ممسكا ببيجاسوس من لجامه ، رأى فروسو خارجة · قال لها :

ــ لو لم يكن الأمر ضروريا للغاية ، لا ترحلى ·

أخبرها بسرعة عن ضرب السفينة ، والاحتمالات التى يعنيها ذلك· ثم استطرد يقول :

ـ سوف تؤدين لى خدمة كبيرة لو صعدت لرؤيته • كل ما قلته له زلزل كيانه ، وكذلك المشادة التى نشبت بينى وبين كيتى •

ارتسم الألم على وجه فروسو • توسلت اليه قائلة :

ـ اليكسى ، مادامت الحرب على أهبة النشوب ، ابق معى • انه أنت الذى أريد أن أراه • عما أتحدث معه ؟ ما شأنى وهذا الأرستقراطى الذى لا يعتبرنى سوى فتاة مهملة ومكلفة بأعمال الخدمة المتعبة ؟ أرجوك ، ابق !

ـ سأذهب لأرى موديستوس ، يا فروسو •

نظر اليها بنظرة ارتسمت فيها الرقة • وقال لها بلهجة أكثر بشاعة :

ـ ربما سوف يكون لدى شىء هام أقوله لك ، وعندئذ سأعود • أما الآن، فلا ترفضى هذا الذى طلبته منك • لا تفكرى فيه كارستقراطى. بل كانسان يتعذب ويعانى الأرق • أعتقد اننا قد ألقينا الاضطراب فى أعماقه • اصنعى لى هذه المكرمة •

كف عن النظر اليها ، وأمسك بيده اللجام وحافة السرج وبيده الأخرى أمسك الحافة الأخرى ، ثنى ركبته قليلا ، ورفع جسده فى الهواء بدفعة قوية • وامتطى الجواد • استقرت قدماه فى الركاب بينما كان الجواد يعدو مندفعا •

تابعته بانظارها وهو يبتعد ويختفى عند الأفق كما لو كانت قد امتصته سحابة التراب التى أثارها فى طريقه •

أحست بقبضة ثقيلة تعتصر قلبها •

خيل لها أن السحابة التى امعنت فى الابتعاد وقد ابتلعته ابتلاعا كليا لم تكن من التراب بل من غلالة مضيئة نسجها القدر وحملته بعيدا ، بعيدا جدا • وهى ، ساكنة ، متحجرة ، عاجزة ، تنظر اليه يمضى ، يمضى ••

وعندما كفت عن تمييز النقطة السوداء فى الدوامة المضيئة المبتعدة، تملكها احساس بأنها تذوب وتتلاشى • جرت الى غرفتها ، وألقت بنفسها على صدرها فى سريرها ـ ودون أن تعرف السبب ـ انفجرت فى البكاء •

جاء من يخبره بأن ابنة ريامو تطلب مقابلته · لم يبادر الى الاجابة ·

بدت له هذه الزيارة غريبة · لم يحدث ذلك من قبل · ابنة فلاح بمزارعه جاءت لمقابلته ؟ انه لأمر مستغرب !

كان اليكسى قد كلمه عنها · وقص عليه قصتها ، بعبـارات تكاد تنضح اعجابا بها · وكانت قد لفتت نظره · مليحة معتنية بنفسها . وعلى وجهها نضارة ريفية ·

ولكنها ظلت في نظره ابنة فلاح يعمل عنده ·

كان رد فعله الأول ألا يستقبلها ، معتذرا بأن صحته ليست على ما يرام · أو أن يأذن لها لحظة ثم يصرفها · ولكنه ما لبث أن غير رأيه هذا سريعا ، بل انه خجل لاحساس بالفرحة داخله · ان الرب قد أرسل اليه هذه القروية الشابة المتحضرة ! ألم يجزع منذ قليل من انه سوف يبقى من جديد طوال الليالى وحيدا ؟ آه ! هذه الوحدة ، هذه الوحدة القاتلة ·· وحيدا ، وحيدا تماما ، فى غرفته ، وعلى الأخص أثناء الليالى الأليمة ·· التى كانت لا تقطعها الا فترات استراحة ثلاث قصار ، وذلك حينما كان يجىء اليكسى ، أو كيتى ، أو الطبيب ـ ثم تعود العزلة من جديد ، العزلة الراكدة بلا نهاية !

استقبلها بفرحة ، وقد بدا شخصا آخر ، حتى ان فروسو لم تصدق عينيها ·

لماذا قال لها اليكسى انه معذب وينهش القلق أعماقه ؟ انها المرة الأولى التى يواجهها وقد خلت لهجته وهو يقرؤها السلام من تلك النبرة المستعلية المزدرية ، انها المرة الأولى التى يتحدث معها باهتمام عن أشياء صغيرة عديدة · صحيح انه عندما كان يتحدث عن الحرب وعن صحته ، كانت تبدو عليه امارات الفزع ، مما يثير فى النفس بعض التقزز ، ولكن بالنسبة لبقية الموضوعات ··

هل كان هذا الرجل المتدهور يفيق لنفسه حقا ، هذا الرجل الذى يتظاهر بالاستقراطية ناسيا أجداده ، من رعاة الجبل الفقراء ؟

ولكن هل كان باستطاعته أن يفيق ؟ هذا التافه · هل كان بامكانه حقا أن يصبح رجلا ؟ كان اليكسى يعتقد هذا ، أما بالنسبة لها فكانت ترى أن ذلك مستحيل ·

مع ذلك ! اذا استبعدنا الأمور التى كانت تملأه رعبا وتجعل منه كائنا مثيرا للضحك ، هناك الكثير من الأمور أظهر اهتمامه بها فبدأ بذلك على صورة أخرى ·

وعندما رأت بوادر التعب تبين عليه ، نهضت للانصراف ، فقال لها بأدب ، وبلهجة أقرب الى البهجة :

ـ عودى للسؤال عنى ، من فضلك · زيارتك أفادتنى ·

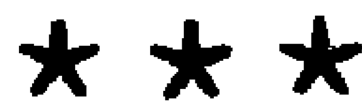
وقد أفادتها بدورها هذه الزيارة أيضا ·

وبينما مضت خارجة الى الحديقة فى الليل الدافىء الموشى بالنجوم، أحست بيد ثقيلة تعتصر روحها ويد أخرى خفية تربت عليها ملاطفة ·

وفى اللحظة ذاتها التى سمعت فيها نداء موجعا ، سمعت أيضا نداء شيقا بعيدا ·

توقفت وراحت تتفحص النجوم علها تجد اجابة · رأت القبة السوداء الهائلة) وقد بدرت فيها نجوم لا تحصى ، وشقها نهر المجرة المنهمر بالضياء · ولكنها لم تلمح هناك أية اجابة ، بل ارتسم لغز أكبر ·

فكرت قائلة لنفسها « كم الأمر غريب ! تبكى وترتعد لاحتمال أن تفقد صديقا اشبه بنسور الجبال الشوامخ ، وتبتهج لا حتمال انها ستجد صديقا آخر اشبه بعصفور عار من الريش · منذ الذى يستطيع ان يرى ما فى الأعماق بوضوح ؟ منذ الذى يستطيع ان يفهم رسائل القدر ؟ » ·



لاحظت كيتى وهى تعبر الميدان ان النزهة التى طالما تمناها أبوها كانت ملغاة تقريبا ذلك اليوم · الصخب والضحكات التى كانت تصاحب هذا اليوم على الدوام وتتردد اصداءها من بعيد ، لم تكن تسمع هذا المساء· بل ولم تكن تتعالى همسة واحدة ·

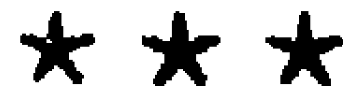
وضمن المتنزهين القلائل ، لم يكن ثمة فتيات ، من تلك الفتيات القرويات الوقورات المحافظات ، اللاتى يأتين وقد تحلين بأبهى زينتهن ليجذبن الاعجاب ، ويأخذن مكانهن فى طابور المرشحات للزواج، أو ليتبادلن

فى كل لفتة نظرة سريعة مع الحبيب ، وفى بعض الاحيان ــ وهذه جرأة متناهية ــ ابتسامة خجلى · بعض الرجال كان يسيرون جيئة وذهابا والبعض الآخر يتبادلون الرأى ويتناقشون فى مجموعات صغيرة ساكنة · كان يفهم من مظهرهم أن ما كان يسيطر عليهم قد لا يكون الخوف ، بل الاصرار والغضب · ولكن كان يبدو ايضا ان التحفظ يخيم عليهم . وان ثمة ما هو خطير يشغلهم جميعا ·

وعند مرور كيتى ، كثيرون استداروا نحوها والقوا اليها نظرات ذات مغزى · كما حياها البعض وابتسموا لها أحلى الابتسامات · والبعض أيضا ــ وكان ذلك واضحا ــ غيروا مجــرى الحديث ، وراحوا يتحدثون عنهــا ·

ولم تمنع رهبــة الحرب من أن يوقظ مرآها الشــهوات فى كيان الرجال · ولم يكن خطر الحرب كافيا لان يغلق أفواه أهل الريف النمامة ·

يا للقدر الملعون ! ··· ومن يدرى ان لم يضــح هذا القــدر أكثر لعنة ايضا !



كان أبوها والعم نيقوس يتحادثان بجهامة وجدية ، ولم يبديا لها أية ملاطفة مما كانا يستقبلانها به من قبل عند عودتها الى البيت · قالا لها « مساء الخير » وأستأنفا على التو حديثهما · جلست منزوية فى ركن ·

قال أبوهــا :

ــ يا للخســارة ان غامرنا بأموالنــا فى صفقة أقراض الفلاحين · صحيح أن سعر الفــائدة مرتفع ومن كان بامكانه أن يعرف أن الأمور ستستحيل الى هذا ·

قاطعه العم قائلا :

ــ من الغد سنتحرك لتحصيل كل ما يمكننا تحصيلة · وعند الاقتضاء سوف نتنازل عن جزء من الفوائد · ولكن المشكلة انه بالنسبة لما لدينا فى البنك يجب علينا ان نفقد الفوائد ·وعلينا ان نشترى جنيهات ذهبية · منذ غد ، سوف يبدأ سعر الذهب فى الارتفاع ·

ابتسم ابوها ابتسامة ماكرة راضية وقال :

ـ بدأ سعر الذهب يرتفع منذ أمد . وكنت مفتوح العينين لهذا . لم يعد لنا في البنك سوى القليل ، لانني مضيت اشترى رويدا رويدا ذهبا وقصديرا .

سأل الآخر دهشا :

ـ قصديرا ؟

عاد أبوها يقول برضاء :

ـ اعرف ذلك منذ الحرب الاخيرة . أثناء الحروب ما من شيء يرتفع سعره مثل القصدير . حتى يضحى الناس غير قادرين على اصلاح قدورهم . ولهذا فقد رحت فى هدوء منذ سبتمبر الماضى اشترى من التجار والمبيضين كميات منه . ولدى منه فى القبو الشيء الكثير .

ـ أليس الوقت مناسبا لشراء عقار ؟ الا نستطيع ان نجد احدا فى حاجة الى المال ولا يعرف ماذا سيحدث ؟

نهضت كيتى وجاءت تجلس قبالتهما ، وتنظر اليهما نظرة استنكار . وقالت :

ـ أنكما تثيران دهشتى . ان هذا وقت البيع . علينا أن نبيع هذا البيت والدكان الذى لنا بالسوق .

نظرا اليها مندهشين . ثم ابتسم العم نيقوس ابتسامة ساخرة :

ـ كنت أعرف مواهبك الموسيقية والأدبية . ولكننى لم أكن أعرف انك تفهمين فى الاقتصاد أيضا .

شرع ابوها يقول :

ـ يا صغيرتى كيتى ..

قالت كيتى :

ـ ليس الأمر بحاجة الى أن يكون المرء باشكاتبا كبيرا . أن لا ريسا مركز حربى من مراكزنا الرئيسية وملتقى خطين للسكة الحديد وللطرق الهامة . وما أن تعلن الحرب حتى تدك المدينة بالقنابل فلا يبقى منها سوى الأنقاض . والشيء الوحيد الذى سوف نفعله لو ظللنا على قيد الحياة ، هو اننا سننبش الأنقاض لنجد قطع الذهب وسبائك القصدير التى يقول عنها والدى .

تبادل الشقيقان النظرات . وازداد وجه فاسيلى مانوسيس شحوبا. وارتسم على قسماته قلق عميق حل محل الرضا الماكر الذى كان يسود وجهه من قبل . ونسى العم السخرية التى أفصح عنها ، وفكر لحظة بجهامة ، وسألها :

– وماذا تقترحين ؟ ماذا يجب أن نفعل ، فى رأيك ؟

– ان نجد شخصا لا يفهم ماذا سيحدث ، ونبيع له كل ما نملك . ونحمل الذهب والقصدير معنا الى أثينا أو الى جزيرة من الجزر .

صاح أبوها بهلع :

– هذا مستحيل ! هذا مستحيل !

– اذا كنت على حق ، فلماذا هو مستحيل ، يا أبى ؟

وضع فاسيلى مانوسيس رأسه بين راحتيه ، وقال :

– ربما كنت على حق . ولكن كيف أترك عملى ؟ سوف يتخذون ضدى اجراءات تأديبية ، وسأفصل ! وقد كرست حياتى كلها كى أصل الى منصب المدير . والبيت ؟ والدكان ؟ لقد حرمت نفسى من الأكل ، بل ومن فنجال القهوة ، كى أشتريهما ، وأدخل عليهما تحسينات . كيف يمكننى أن أبيعهما ، وأن أصفى كل مالى ، وعلى الأخص بهذه العجلة ، كى أشترى جنيهات استرلينية سيرتفع سعرها أكثر غدا ..

استبد بصوته يأس كبير ، حتى أشفق أخوه عليه . فوجه حديثه الى كيتى بلهجة آمرة :

– اجلسى ، وانصتى : لو استحالت لاريسا الى خرائب ، فان البلاد كلها ستصاب بكوارث ضخمة لن يكون بمجد ازاءها عمل أى تكهنات . ولهذا فاننا سوف نتصرف مستندين الى تكهنات فى حدود المعقول . لنا ، أنا وأبيك ، بعض الخبرات النافعة فيما يتعلق بالحروب، تجعل المسائل الاقتصادية وكثيرا من الأمور الأخرى تتجاوز ادراك فتاة شابة مثلك ، مهما بلغ ذكاؤها . وقد ناقشنا مع أبيك مسائل أخرى أيضا . قبل كل شيء ، يجب أن نأخذ حذرنا ولا نعرض أنفسنا للشبهات فى هذا الوقت المريب . ومن ناحية أخرى ، لابد انك لاحظت فى الشوارع أن مواطنينا قد استبد بهم الجنون . يمتلكهم الرعب ، ويرتعدون ، ولكنهم مأخوذون أيضا بنوع من الهستيريا الوطنية . نحن أيضا علينا أن تفعل شيئا . وهذا الشيء ، ستفعلينه أنت ، لأنه سيكون مفيدا لك

أيضا · منذ غد ، ستذهبين الى عيادة طبيب لتتدربى على التمريض ، حتى اذا ما قامت الحرب ، التحقت بخدمة المستشفى العسكرى ·

صاحت مستنكرة :

ـ أنا بين المرضى ، وفى العفن ؟

ـ يجب ذلك · أنه الشيء الوحيد الذى سيبعد عنا الشبهات عندما سيصل الايطاليون فيما بعد الى هنـــا · والذى سيؤمن جانبنا بالتالى ازاء مواطنينا المتطرفين فى وطنيتهم ·

ـ وبعبارة أخرى ، بسبب بعض الحمقى ، أذهب ، أنا ، لأفرغ قصارى البراز ، وأغسل الاجساد القذرة ؟ كلا ، لن أذهب الى أى مكان· هذا يعذبنى كثيرا ·

نهض أبوها ، وقد تصبب العرق من وجهه · قال :

ـ ما عدت أستطيع · انى أجن · سأذهب للقيام بجولة · ما عدت أستطيع ·

★ ★ ★

ومرة أخرى ، فى تلك الليلة ، لم يستطع بيجاسوس أن يفهم شيئا من تصرفات سيده ·

منذ وقت مبكر فيما بعد الظهيرة ، أثناء نزهتهما الأولى . كان سيده يريد بعض اللهو ، فكان يجعله يتنقل من العـدو السريع الى الخطـوة القصيرة ، ويقفز فوق الحفر الصغيرة أو يرقص على حافريه الخلفيين ، أو يتركه يسير على مهل شديد وقد ألقى اللجام الى عنقه ·

وفيما بعد ، بينما كانا عائدين الى البيت ذى الأشجار الضخمة الذى يعرفه جيدا ، أجبره سيده أن يجـرى وبطنـه تكاد تلامس الارض ، ويضربه بعصاه اللينة · وقد راح يعدو بلا هوادة فى الجو الحار ووصل الى هدفه دفعة واحدة ·

والآن ، بينما هما يتجهان نحو التل ذى الأعشاب اللينة من حيث يفد رنين الأجراس ، أسلس سيده له القياد وتركه يسير على هواه · وسواء قفز بيجاسوس أو سار كان يحس به على ظهره ، جالسا متماسكا كالمعتاد ،

ولكن دون أن يكترث بالطريق ، ولا أن يتنبه حتى الى أنه يمتطي صهوة جواد · كان يبدو وكأنه يحلم ·

وفي هذه اللحظة ، عندما أشعره سيده باللجام بين فكيه ، وحثه على الاسراع في عدوه ، زاد الموقف غموضا في نظره ، ولم يفهم ماذا يريد منه الفارس · جعله يخرج عن الدرب ، ويجري في أرض غير ممهدة ·· ومع ذلك مضيا يقتربان من التل · وفي الطريق كان يوجد الخور اليابس ، الذي كانت تجري فيه السيول ذات يوم ثم جفت ، تاركة الخور عميقا غائرا نضبت منه المياه ولهذا كان الطريق يميل بالجواد في نزوله ثم في صعوده من الضفة الأخرى · ولكن لماذا كان الفارس ينحرف عن الطريق المعتاد ؟ لماذا كان يغذي المسير ، ويدفعه الى الاسراع ؟

لم يكن بيجاسوس يفهم ذلك ·

ولكن فجأة عندما ضربه برفق وراح يحادثه ، قائلا له ان يبذل قصارى جهده ، وقد قطعا مسافة لا بأس بها ، فهم بيجاسوس · كان سيده يريد الليلة ـ للمرة الأولى ـ أن يعبر الخور قفزا !

وعندما فهم سرت فيه الرعشة ، وذلك لا لأن الخور عميق ، وكان يحتاج من أجل مزيد من الأمان الى قفزة أطول من المسافة بين حافتيه غير المستويتين · ولكنه ارتجف لأن قفزة مثل هذه سوف تكون خطرة ، وان كانت فائقة الجمال !

يا له من جنون وخيلاء ! يا لها من فكرة رائعة تلك التي خطرت لسيده !

وبينما راحت سنابك الجواد الحديدية تدق الأرض الجافة ، المتحجرة ، بسرعة وقوة متزايدتين ، وراح الفارس وجواده يشقان الهواء بحيوية تكبر على الدوام ، كان دبيب الأرض المدكوكة وصفير الهواء يؤلفان في آذان الرجل والحصان نشيدا من الحماسة والفتوة يمنح أجنحة لروحيهما اللتين ما عادتا سوى روح واحدة ·

عندما اقتربا من الخور ، وصارا أمامه ، في اللحظة التي أحس بيجاسوس ان الأمر ما عاد يتسع الا لقفزة أخيرة ، صاح فيه سيده بخشونة وشد اللجام بقوة · في تلك اللحظة أحس انه والرجل الذي يحكم قيادة جسدا واحدا ومصيرا واحدا · دق التراب بحوافره بقوة لم يدق بها الأرض من قبل ، واندفع في الفضاء بعنقه ورأسه مشدودين الى الأمام ، وحوافره ملتصقة ببطنه ، في وثبة ، بل في انطلاقة لا تتأتى الا لمن وهب جناحين ··

وعندما استقر بخفة على الضفة الأخرى ماضيا فى اندفاعه ، أدرك انه حقق عبر الخور العميق قفزة تناهز ضعف طول جسمه ·

وحينئذ ترددت صرخة متوحشة ممتدة ، لا تنتهى ، لم يسمع سيده يطلق مثلها من قبل · مزقت الصرخة الهواء مثل نغمات نفير تريد أن تبلغ الجبال كى تردد صداها ···

ماذا كان هذا ؟ ماذا كان يعنيه هذا الصياح ؟ لماذا كان سيده يصرخ بهذا القوة ؟ أجل ، كانت صرخة انتصار وفرح ، لأن الفارس كان يضحك ، يقهقه فى صخب ، ويعاود صرخته ·

ودون أن يتلقى الأمر ، ولا حتى مجرد ايماءة ، كف بيجاسوس عن العدو ، ووقف على حافريه الخلفيين ، ومد رأسه نحو السماء ، وراح بدوره يصهل بقوة ، بقوة شديدة ، مثلما لم يفعله من قبل قط ·

وبينما كان يقف هكذا على ساقيه أحس بيد تلاطف عنقه ، وقبلة سريعة مفعمة بالحرارة والحب · قفز فرحا مرتين أو ثلاث مرات · وعاد يقف ويضرب الهواء بساقيه الأماميتين ، وعيناه تقدحان شررا · ومنخاراه مفتوحين ، ورأسه منتصبة ، ويصهل بجنون ، بينما مضى سيده يطلق فى السهل الرهيب صرخاته الوحشية الواحدة تلو الأخرى ، تعبيرا عن الانتصار ·

وهكذا ، فى الساعة التى كانت الشمس تصبغ سماء ثيساليا الرحيبة بالقطرات الأخيرة من دمائها مؤذنة بما سيجىء ، وفى تلك الليلة التى كانت تنتظر اليونان أن تصحو بعدها على الحرب ، كان تل القديس ايليا يردد صيحات انتصار راح يبعث بها لوقت طويل الى السهل الفسيح·



فى الكنيسة بالغة القدم ، جلس الأب موديستوس على كرسى خشبى يتابع قداس المساء · ولما كان قد تقدم فى السن ، فكان يترك الشبان يقومون بمراسم القداس · وبين الفينة والفينة يتأمل الجزء السفلى من التصاوير الحائطية أمامه حيث رسم القديسين المحاربين : القديس ديمترى ، والقديس نيستور ، وغيرهما ، واقفين ممسكين بالسيوف أو الرماح فى آيديهم ·

راح يتأمل القديسين الذين كانوا ينظرون اليه بدورهم · ربما كانوا يتبادلون معه الحديث في بعض اللحظات أيضا ، وربما كانت نظرات القديسين المحاربين اليه أكثر غرابة من نظرات سائر القديسين ، تتعاطف نظراتهم معه عندما يستحضر الى ذهنه ما جرى من أحداث في الحرب المقدونية · كم كان حلوا هذا الاستغراق في النسيان ، وحيدا منسحبا يلوذ بأهداب العزلة ، في أجواء الدير حيث تختلط أزمان أخرى ، جد سحيقة ، بالزمن الحاضر !

وفجأة ، تقلصت أصابعه على مسند الكرسي · ما هذا أيضا ؟ أي رؤية يبعث بها اليه الرب ؟

أمامه ، الجزء السفلي حيث تصاوير القديسين المحاربين يقطعها في مكان ما الباب المقوس الذي يتركونه مفتوحا بالصيف عندما تشتد حرارة الجو · ولكن ها هو الباب ما عاد يقطع التصاوير التي تحكي عن الشجعان الأطهار ، بل جاءت هيئة جديدة تكملها ! شغلت فتحة الباب فجأة بقامة طويلة مكتملة الرجولة تقف ساكنة مهيبة ، بينما كلل الباب المقوس هامته بما يشبه الهالة · آكانت عيناه اللتان أضعفهما السن تخدعانه · كلا · بدت اللوحة الحائطية مكتملة الآن ·

رسم علامة الصليب متمتما :

ـ الرؤيا هي الارادة الالهية ·

ولكنه عندما دقق النظر ، رأى القديس الجديد يتطلع اليه مبتسما· وعندما تعرف عليه ، أحس بالاضطراب ، لماذا رأى ابنه الحبيب الى جوار القديسين المحاربين الذين ماتوا منذ عصور خلت ؟

ذهب لمقابلته ، وخرجا معا الى ممشى الكنيسة المغطى ·

وفي بضع كلمات ، أطلعه اليكسي على الأخبار ، وقال له ان من رأى الجميع أن هذا يعني الحرب ، وربما ، بلا تأخير ·

تعلق رئيس الرهبان العجوز بشفتي محدثه ، وألقى عليه نظرة مليئة بالخوف ، ولكنه لم يقاطعه · وعندما فرغ اليكسي من كلامه ، ظل العجوز بعض الوقت مستغرقا في التفكير · ثم خلع قلنسوته ، ورفع ذراعيه وعينيه الى السماء ، **وقال بورع :**

ـ يارب ! يا أقوى الأقوياء ! أنقذ شعبك ، وبارك قومك · واكتب النصر للانسان على قوى البغي والهمجية !

ثم ركع على أرض الممشى المرصوفة ، وأسند جبينه الى حجر الكنيسة التليدة وشبك ذراعيه على صدره • وصلى بخشوع عميق • سمعت أنفاسه المتهدجة ، وبين الفينة والفينة ندت من شفتيه همهمات خافتة •

وقبل أن ينهض رفع أنظاره مرة أخرى الى الأعالى • كان وجهه الآن هادئا ، وقسماته مفعمة بالسكينة • ثبت أنظاره فيما أمامه ، وفتح ذراعيه وقال :

ـ البعض يتجبرون بمركباتهم الحربية ، والبعض بخيولهم • أما نحن ، فباسم المجد الأبدى ربنا نتمجد ! أولئك انحنوا وسقطوا • أما نحن فنظل واقفين ونصمد • يارب ، نتوسل اليك ! حقق من أجلنا ، بعظمة اسمك ، هذا المزمور من مزامير داود ! يا رب ، نتوسل اليك !

وما أن هم الراهب بالمسير ، قال له اليكسى :

ـ يا أبتى ، أريد أن أدلى لك باعتراف ، وانى لفى حاجة هذه المرة أيضا الى نصحك •

دخلا الى الصومعة الركنية ، صومعة رئيس الرهبان ، وجلسا جنبا الى جنب على الأريكة :

ـ ماذا فى الأمر يابنى ؟ انى أصغى اليك •

ـ أيها الأب موديستوس • لن أتأخر فى السفر الى الجبهة ، وانى أسافر راضيا ، ليس لدى ما أشكو به من حياتى • كانت جميلة • ولكن ثمة حسرة واحدة ، حسرة تؤلمنى • وهى اننى لم أخلف أولادا ، أولادا من لحمى ودمى ، لم أخلف ابنا • واذ أفكر فى اننى ربما لن أعود فهذا يجعل حسرتى لا تحتمل • لا تحتمل •

توقف • وسرح بصره مستغرقا فى التفكير •

سأله العجوز :

ـ واذن ؟

ـ لو قدر لنا بعض الوقت • أنوى أن أجمع غدا كل الأوراق اللازمة وأحضر هنا للزواج •

تأمله الأب موديستوس دهشا ، وسأله :

ـ ممن ؟

ـ أفكر أن أعرض الزواج على فروسو ، ابنة ريامو • بيننا صداقة كبيرة • وهى شخص ممتاز • امرأة قوية • أعتقد انها ستوافق • واذا

عدت سننظم نحن الاثنان حياة طيبة ، وسنؤلف أسرة • واذا لم أعد سيتقرر لها معاش ، وستربى الطفل ، الذى ان شاء الرب ، ستحمل به فى هذه الأثناء •

لاحظ أن رئيس الرهبان أشاح بوجهه وبدا عليه عدم الارتياح ، سأله وقد ملأه القلق :

ـ يا أبتى ، لا تبدو موافقا على ما أقول • لماذا ؟

ـ لأن الزواج ، يابنى ، سر ، سر من الأسرار الكبيرة ، ربما أكبر الأسرار جميعا ، مادام يتحقق كنداء من الله ونفحة منه ، مادام يتدخل هو بنفسه فى الاتحاد بين مخلوقين من مخلوقاته من أجل أن تولد حياة جديدة • واذا كانت قوانين البشر وعاداتهم ومنافعهم جعلت من الزواج تصرفا عاديا من تصرفات الحياة اليومية ، فلا يجب أن ننسى أن الزواج، وفقا لارادة الرب ليس كذلك • الزواج هو الاندفاعة التى لا تقهر ، الشعلة التى لا تنطفىء المنبثقة من كل خلية • انه الشىء الذى يمكن لله وحده بأن يوقده فينا ، طالما انه بطريقة غير معروفة ، ومقدسة ، تأتينا من خلاله القوة على خلق أنفس جديدة • ولهذا أيضا فان الاليفين اللذين توحد بينهما هذه الشعلة ، حتى لو لم يكونا متزوجين ، عندما يرقدان معا يحتفيان بسر ما • لا تعتقد انهما فى هذه اللحظة يمارسان لعبة • انهما يمارسان أكثر أفعال حياتهما قداسة وبهاء ، ويمارسانها كما أمر الله • وأنت ، أيها الرجل الكامل ، يامن تنتمى الى الصفوة الممتازة ، لا يمكنك أن تحقق زواجك على نحو غير ذلك •

لم يكن اليكسى يتوقع ردا مثل هذا ، وظل مطرق الرأس • مضى العجوز يقول :

ـ الأخرى •• تلك التى تحبها •• لا تريد أن تتزوجك ؟

اكتسى صوته فى الرد نبرة جافة :

ـ انها لا تريد • وأعتقد أننى ما عدت أريدها ، لأنها غير قادرة على أن تكون أسرة على ما أحلم •

وبلهجة أكثر رقة ، ولكن لا زالت محتدمة ، قال :

ـ وبهذا الخصوص ، وددت أن أسألك هذا أيضا ، يا أبتى • لو كان حبى لها رسالة السماء الى ، لو كان حماسة وشعلة وضعتها الارادة الالهية فى ، لماذا اذن أرسلت الى هذه الرسالة ، وهذه الاندفاعة ، وهذه

الشعلة ، من أجل امرأة غير أهل ، أو على الأقل لماذا لم يودعها فيها على ذات التحو ، وبذات القوة ؟

ربت موديســتوس على لحيته ومرر يده الى وجهه مغطيا ايـاه حتى عندما تستعصي عليه اجابة ، ثم رفع يده الى وجهـه مغطيـا اياه حتى عينيه • ومن فوق اللحية البيضاء اعتملت الحيوية فى العينين واختلجت فيها الأحلام •

وفى النهاية قال :

ــ يا بنى العزيز ، لو كان بامكانى ان أرد فذلك يعنى اننى عـلى صلة وثيقة بأعلى العليين • ان نوايا الرب غير معروفة ، يا بنى • ان ما قلته توا قلته أنا أيضا ذات يوم ــ وأنت أول من يسمعنى اعترف بذلك ــ فى الأيام التى تركت فيها بيتى وأهلى لأجرى بعيدا جدا فى الخارج القى بنفسى عند قدمى امرأة كنت أعبدها وفى الوقت ذاته احتقرها • وحتى عندما تمالكت نفسى ، عندما رأيت النور الحق ، وعرفت ان كل ارادات الرب غير المعروفة هى ثمار الحكمة ، كان يحدث لى مع ذلك ان ارتكب الخطايا أيضا وان أسأل نفسى السؤال ذاته الذى تسأله أنت • فيما بعد فحسب ، أدركت ، أو ربما ادركت ••

ــ ماذا أدركت ؟

ــ لما كنت قويا وأتفجر حيوية فى شبابى ، فقد مضيت فى دوامه الحياة ، وكنت سأبقى بغير هذا الاحساس بالألم المبرح ، وبالاتضاع الذى يعجز عنه الوصف ، كنت سأبقى مجرد خاطىء ، أعمى ، انسانا لا يساوى شيئا • وما كان سوف يكون بامكانى أن أرى النور الحق • ربما قادتنى مشيئة الرب عن عمد نحو الأكذوبة كى تتيح لى الافادة بالنعمة الكبرى بعد ذلك • لست أدرى • هذا جائز •

أعقبت ذلك برهــة صــمت لم تدم طويلا • وقطعها اليكسى قائلا بحزم :

ــ ان حالتى مختلفة • اننى مؤمن وأمارس شعائر ديانتى ولكننى لم أر النور الحق ، كما تقول • والآن الأمر بسيط : أحس بالحاجة ، بالحاجة حقا ، أن أخلف بعدى أطفالا وفى هذه الخصوصية أسالك النصيحة •

ــ نصيحتى أعطيتها لك • انها النصيحة الوحيدة التى استطيع أن اعطيها لرجل مثلك • أنت ، لا يجدر بك أن تنجب أولادا الا بالتحـو الذى قلته لك • وكل ما تقوله خلاف ذلك دليل على غرور لا يليق بك •

تبادلا النظرات · ثم عاد اليكسى يقول :

ـ لا أعرف لو كنت سأتبع نصيحتك هذه المرة ، يا أبتى ·

ـ لتفعل ما تشاء يا بنى · لكل منا روحه ومصيره · لو قررت أن تفعل ما تقول ، سأمنحك بركتى ، لكننى لن أزوجك ·

ـ كيف ؟ هذا مستحيل ؟

ـ انى أحبك كثيرا ، وامنحك بركتى · ولكن لا تطلب منى ان اشارك أنا المؤمن المسكين فى الهزء بسر كبير ·

وقبل أن ينصرف ، أمسك موديستوس يد اليكسى وفى للظلمة ، همس له بهذه الكلمات :

ـ انى عجوز · وأنت ستمضى الى الحرب ، ربما بعد وقت قليل · نحن الاثنان فحسب نعرف المخبأ · يجب علينا أن نخبر به أحدا ، أو بالأصح ، أكثر من واحد ·

ـ ماذا يوجد الآن فى المخبأ ؟

ـ أشياء قليلة · الجنيهات النابليونية انفقت لدى وصول اللاجئين عام ١٩٢٢ · أودعت هناك حديثا بعض الجنيهات الذهبية ـ كيسا صغيرا ، وأسلحة قليلة ، بنادق قديمة ، محفوظة بعناية ، وبضعة صناديق من البارود · ولكن ليس المهم هو ما يحتويه المخبأ ، بقدر انه مهم فى حد ذاته · قد يكون مفيدا ، اذ لا يعرف أحد مدخله · الى من يجب أن أعهد بالسر ؟

أجاب اليكسى دون تردد :

ـ الى نيكيتا كوليتيس ·

لم يستطع العجوز أن يخفى دهشته :

ـ يا بنى كنت أنتظر منك أى اسم آخر ··

ـ اليه ، ستعهد به اليه قبل أى شخص آخر · ولكن اذا قامت الحرب ، فانى اعتقد انه سيمضى اليها بدوره · فى هذه الحالة ، اعهد بالسر الى ريامو وابنته فروسو · اذا كان نيكيتا غائبا ، الجأ فى كل ما تحتاجه اليهما ، وعلى الأخص اليها ، يا ابتى ·

الجزء الثالث

طريقَ البعث

١

لم تبدأ الحرب فى السادس عشر من أغسطس ولا فى السابع عشر ولا فى الثامن عشر ، ولا فى أى يوم آخر من أغسطس ٠

ولكن ظلها راح يتزايد ثقله ، وتهديدها يسمع بوضوح أكبر ويخنق الانفاس ٠

كان أى اجراء زاجر ، أو اتهام حاقد ، أو تحريض أو اهانة ، يشير الى أن الحرب تقترب ٠

انها كانت تقترب ، ولكنها لم تكن تقوم لها قائمة ٠

من الغرب الى الشمال ، كانت سماء ثيساليا تضحى كل ليلة حمراء تماما ، مثلما فى الاصياف الأخرى ٠

ولكن هذا العام ، منذ الخامس عشر من أغسطس ، كانت هذه الحمرة مختلفة ٠ كانت أكثر امتدادا ، وأكثر قوة ٠٠ وقبل ان تسود الظلمة منتصرة على آخر شعاع للشمس ، كانت الحمرة تتخذ تلك الصبغة الكابية التى للدماء المتخثرة منذ أمد طويل ٠

وتحت تأثير الاشاعة البعيدة عن الحرب ، كان البعض يقول ان هذه الصبغة كانت تأتى فى الواقع من الدماء التى تجرى انهارا على ساحات المعارك والمدائن التى دمرتها القنابل ٠ وكان مرد هذه الصبغة فى نظر البعض الآخر انعكاسات نيران الحرائق على اريم السماء ٠ كما كان البعض يعتقد أن القدر بذلك ينبه الشعب المختار الى أنه يجب أن يكون على أهبة الاستعداد للخطر الداهم ٠

ولكن النهـار كان يطلع في صبيحة كل يوم ، متألقـا ، غامرا بالضياء ، والسماء ساطعة ، ناصعة الزرقة ...

ثم من جديد يحل المساء المحمر ، الدامي ..

وبعيدا ، بعيدا جدا ، كان ينهمر طوفان من النار والحديد على البلد الوحيد الذى لم يرتض الخضوع .

كان الجميع يصغون الى التهديدات ، ويتطلعون الى السماء الحمراء ، ويتلقون الأنباء السيئة الآتية من هناك ، ويكتمون أنفاسهم .

الحرب على وشك الوصول ! الحرب على وشك الوصول ! ..

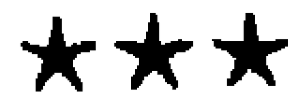
آه ! لو أمكن ألا تأتى الى هذا البلد المسكين ، الذى سبق أن فتك به عديد من المحن ، هذه الأرض التى لا حامى لها ـ والفقيرة الى الحد الذى لن يكون بامكانها أن تصمد للاعصار القادم ..

ولكن كيف يمكن أن يؤمل ذلك ! الحرب قادمة ! انها تقترب !

كان العشاق يتعجلون ويعقدون قرانهم ، والشجـعان يلوحـون بقبضاتهم ، وأصحاب المصالح يرتعدون قلقا ، ويسـوون صفقاتهم ، والجميع معا يكتمون أنفاسهم .

وفى بعض الأحيان ، كان عناء الانتظار أكبر مما يحتمل ، والخنق الذى يثيره طول الترقب مهولا ، حتى انهم كانوا يقولون :

ـ فى النهاية ، آن الآوان ان تصل ، هذه الحرب ! فلتنطلق العاصفة الكبيرة من عقالها ! الأفضل ان نتلقف ضرباتها فى الصدور ، ونثبت أقدامنا لنظل واقفين من أن نتحمل كل يوم عناء هذه الانذارات المروعة .



كان نيكيتا كوليتيس هو الوحيد الذى لا يتكلم على هذا النحـو فبالنسبة له ، لم يكن ثمة شيء يوضـع فى الحسـبان سـوى ذاته الصغيرة . استبد به الخوف ، ودون أن يفصح عن ذلك ، كان يدعو بكل كيانه ألا تصل الحرب أبدا .

وعندما هطلت الامطار الأولى وامتلأت الطرقات بالمياه التى قيـل بأنها تعوق التحركات العسكرية ، ثم عندما انتشى الريف وغطته الخضرة ، جالبة الى النفوس بعض التخفف ، داخل قلب كوليتيس الأمل فعلا .

ربما لن تأتي هذه الحرب ! أو ، على كل حال ، يمكن أن تتأخر .. من يدرى ! ربما كان ثمة قليل من الأمل ..

لم تكن الحياة فى فتيليونا تروق له . ولكنه فى النهاية كان يحيا .. كانت الأيام تمضى ، وكان يقول لنفسه انه يحيا ، وانه فيما بعد .. لا أحد يدرى .. قد تتغير الأمور .

هذا هو الوضع ، ولا شيء غير هذا اذ لو لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن كوليتيس يستشعر تهديد الخطر المهول الذى يحمل على نسيان كل شيء وتحمل كل شيء ، للعن الساعة التى جاء فيها لينغلق فى هذه المنطقة التى يفيض قلبه بالضجر منها . وقد كانت هذه الحياة الرتيبة تخنقه .

ولما كان لا رغبة به على الاطلاق فى القراءة ، ولا فى الكتابة ، فلم يكن بالامكان ان يدخل على قلبه شيئا من العزاء سوى صحبة أصدقاء ، عديدين وطيبين .

ولكن أين يجدهم ؟

حتى العلاقات القليلة التى أمكنه ان يعقدها ، تناقصت .

كيتى نفسها ، منذ أن ذهبت الى العيادة كى تتدرب على التمريض ، قل مجيؤها ، وبدت شديدة الاهتمام بشخصها ، على نحو غريب .

تشبث اذن باليكسى ، وبسائر سكان المنطقة .

ولكن مع هؤلاء كان عليه ان يمثل دورا ، ذلك ان كل اهتماماتهم كانت غريبة عنه . صحيح أنه رويدا رويدا ، بحكم المداومة ، انتهى به الحال الى أن يستشعر فضولا ما نحو الموضوعين اللذين يملآن حياتهم ، ألا وهما : الوطن والأرض .

لم يكن ذلك سوى فضول . وليس شيئا آخر ! ومن ثم كان بالامكان ان يملأ هذان الموضوعان حياته ــ المختلفة تماما عن حياتهم ــ والتى كانت تنساب فى العزلة ، والخوف ، والضجر !

ولكن لا يهم ! أجل ! لا يهم ! ما دامت الحياة تنساب فى هدوء ، ويكسب بذلك وقتا ، وقتا كثيرا .. وبعبارة أخرى ، لا شيء يهم ما دامت الحرب لا تصيب اليونان ...

ولكن الحرب وصلت ، فى ذلك الصباح المهول ، ذلك الصباح المشئوم الذى استيقظ فيه على دوى الكارثة .

أحس بأن ثمة من يرجه . ففتح عينيه .

كان الوقت لا زال ليلا .. لم تكن بوادر النهار قد بدت بعد . اضيئت الغرفة بنور فانوس اخفيت ضياؤه . كان اليكسى يمسك به . لم يكن يبتسم ، ولم يكن مبتهجا بل كان يبدو مصمما وجادا ، وان احتوت نظراته على شيء مضيء وصارم فى الوقت ذاته . قال ببساطة :

ـ جئت أودعك .

فهم على الفور ، ولكن الأمل لم يكن يريد أن يموت بداخله . سأله بصوت متهالك :

ـ كيف ؟ لماذا ؟ ماذا حدث ؟

ـ تلقينا جميعا أوامر الاستدعاء . سأسافر فورا ، بأول وسيلة مواصلات تتاح لى .

وبصوت زاد تهالكه ، سأل نيكيتا :

ـ الحرب أعلنت ؟

ـ يبدو ان ذلك حدث منذ منتصف الليل تقريبا ، وهذا يعنى انها أعلنت منذ ست أو سبع ساعات والعدو يهاجمنا من عدة مواقع على الجبهة الألبانية .

جلس نيكيتا فى سريره ، وظل صامتا .

ـ الوداع ، يا نيكيتا . اتركك على خير .

ـ كلا ، يا اليكسى ، لا ترحل .. ابق قليلا ... هذا يعنى انهم استعدوا استعدادا كاملا ، وهاجمونا على غرة .. ماذا سيحدث الآن ؟

ـ ما الذى سيحدث ؟ سنجدع أنوفهم !

ـ لكن لديهم ثمانية ملايين جنديا . وطيرانا .

قاطعه اليكسى بجفاء :

ـ فليكن لديهم ما شاءوا . أجزم لك أننا سنجدع أنوفهم

ـ اليكسى ، أود أن نتناقش فى الأمر ..

ـ كلا ، يا نيكيتا . ليس لدى وقت أضيعه . فضلا عن أن كـل دقيقة لها قيمتها .

مد له يده :

ـ انى منصرف . تحية . أودعك بخير .

نهض نيكيتا مسرعا ، وضمه بين ذراعيه ·

لأول مرة في حياته ، أحس في داخله شيئا أصيلا ينبض بقوة · قال له :

ـ كنت بالنسبة لى أخا ، يا اليكسى · لن أنسى ذلك ما حييت · لم أعرف صداقة كتلك التى منحتنى · أرجوك أكتب الى بانتظام ·

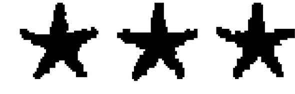
عانقه · نظر اليه اليكسى وقد افعمت نظراته بحرارة جديدة وقال :

ـ سوف أكتب اليك ، يا نيكيتا · ولكن أرجو ألا يكون ذلك لأمد طويل · آمل ·· كلا

ـ اعتقد اننا سنلتقى قريبا على الجبهة فى ابيروس ·

تبادلا القبلات · ثم رحل اليكسى ·

ظل نيكيتا واقفا عند النافذة · وفى الليل البارد الذى يقترب من نهايته سمع صهيلا مجنونا وخطوات حصان يعدو بسرعة مبتعدا ·



فى ساعات الفراق قبيل طلوع النهار لم يكن نيكيتا كوليتيس يريد أن يحزن صديقه العزيز ، صديق أيام التعاسة ، ولهذا فانه لم يخبره كم كان سخفا منه أن يأمل أن يلقاه قريبا فى ابيروس ·

قال لنفسه « أنا انخرط فى الجيش متطوعا ؟ ابدا لن ارتكب حماقة مثل هذه ؟ » ·

ومع ذلك ، على ممر الأيام ، وتغير وجه الحياة ، بدت الحماقة رويدا رويدا كمخرج ، مخرج وحيد ولا مفر منه ·

استبدت باليونانيين حمى غريبة · أراد الجميع أن يحملوا السلاح ويحاربوا · اراد الجميع أن يصبحوا أبطالا ، وان يستشهدوا · من كان يجرؤ أن يتحدث عن الخوف !

كل القادرين على الحرب كانوا بعيدا · سافرت فروسو مع منظمة الى قرب الحدود للاهتمام بالجرحى أو بشىء من هذا القبيل ، لم يعرفـــه بالضبط ·

كما قلب ريامو الدنيا رأسا على عقب كي ينخـــــرط فى صفوف المحاربين ، لكنه لم يقبل لعدم لياقته .

أما كيتى فلم يبد لهـــا بادرة ، فقد لزمت المستشفى العسكرى متطوعة .

ولم يعد أولئك الذين بقوا فى الصفوف الخلفية يتحدثون الا عن الحرب . واضحى الجميع ينظرون اليه نظرات غريبة . ويبدون له برودا كبيرا ، بل وألقى اليه البعض تلميحات جارحة .

وازداد وضعه سوءا بعد بضعة أيام أخرى ، عندما حوصر الايطاليون وسقطوا فى الأسر بالمناطق الجبلية من بيندو ، ثم بدا واضحا ان مركز القوات الدفاعية فى كالباكى ظل صامدا ، كما أخذ الأعداء فى التراجع من كل المواقع ، بينما أمكن لليونانيين بعتادهم الهزيل ان يتحولوا الى مهاجمين على طول الجبهة . **وراحوا يرددون أقوالا مثل هذه :**

– سوف نلقى بهم الى البحر ! سنسحق ايطاليا ! .

– فليهاجمنا الألمان لو جرؤوا ! سوف نجدع أنوفهم ! .

– وماذا يهم لو بقينا وحدنا ! انهـا اليونان ! هنا تتكسر أمواج المحيطات كلها ! .

– خرجنا الى ثيرموبيلى فبلغنا ماراثون . هيا بنا الى انتصارات جديدة ! فلنحقق أمجادا مثلما حققنا فى بلاتيس وفالتيتسى ! .

– سوف نهزمهم ! سننتصر على العالم كله ! .

اشتعلت الحمية فى اليونانيين جميعا . وكان ذلك جنونا جماعيا .

وكانوا ينتصرون ! يخيل اليك انهم أصبحوا جميعا أبطالا كما لو كان الله قد انتزع لفترة من اليونانيين قلوبهم العادية وأحل محلها قلوب أسود ضـــارية . راح الناس ينظـرون الى نيكيتـا كوليتيس بعـداوة وكراهية . وكان نيكيتا كوليتيس الوحيد الذى احتفظ بقلبه الواهن .

ذات يوم ، منتهزا ضياء النهار بعد الغمام وجفاف التربة ، خرج يتربض فى السهل .

رأى من جديد الطيور المهاجرة فى رحلتها الخريفية الطويلة .

راحت أسرابها المثلثة التكوين تتقدم بجلال ومهابة فى الســماء الزرقاء . هاربة من رياح الشمال وعواصفه الثلجية ، ماضية فى طريقها ، أبية قوية وسيمة . كانت الطيور التى تقترب تصـيح بالكلمات ذاتهـا التى سمعها منذ عام مضى .

« ليس للمهزومين مثوى . أما المنتصرون فليمضوا الى الأمام ! الى الأمام ! وليمت الآخرون ! وليمت الآخرون ! » .

ومن جديد تتكاثر الصيحات . الأسراب كلها تصرخ . عن يمينه ، وعن يساره ومن أمامه .

« فليمت الآخرون ! فليمت الآخرون ! فليمت الآخرون ! ... » .

انتابه الخوف ، انكمش جسده . ولما فكر انه بدوره ينتمي الى الضعاف ، الى هؤلاء الذين يجب ان يموتوا كما كانت تقول وتقول الأصوات المريعة صاح دون وعي منه بغضب :

ـ كلا ! لماذا تحكمون عليهم بالموت ! ان القوة تنقصهم وهناك أيضا الخوف الذى يكسر أجنحتهم . هذا ظلم . من الاجرام ان يموتوا ! » .

لم يلحظ اقتراب ثلاثة أزواج من الجياد من فتيليونا كانت تحرث الحقول وتزرعها مثل كل يوم ، عندما تصبح الأرض فى أحسن أحوالها .

مر به زوج الجياد الأول بقيادة ريامو . كان الفلاح العجوز يمضى خفيض الرأس صامتا .

أما الاثنان الآخران فقد توقفا بالقرب منه . كانا فلاحين عجوزين أبيض شعرهما . نظرا اليه بدهشة . بدت على وجهيهما سيماء الغضب . **وصاح أحدهما :**

ـ ولماذا لا يموتون ؟ فليموتوا !

ولما كان لم يألف كثيرا أن يعارضه أحد فقد تفادى نظراتهما . **وقال الفلاح الآخر بدوره :**

ـ فليموتوا ! فليموتوا جميعا ما داموا يريدون ان يسحقونا ! .

فهم سبب هذا الرد المتمرد . اعتقد انه يتكلم عن الايطاليين .

وعلى وجهيهما قرأ امارات الكراهية . ورأى ريامو يبتعد فى صمت . فاستدار وجرى بسرعة متجها الى البيت .

وبينما مضى مبتعدا قال له الفلاحون بوحشية :

ـ فى نظرنا ، يجب ان يموتوا !

ـ فليموتوا جميعا ، هؤلاء الانذال !

واصل طريقه فى هذا الجو الرطب الذى ازداد قلقا ، وراح وقع خطواته السريعة يردد الآن صيحاتهما الغاضبة ، وحكمهما القاسى :

« فليمت الانذال ! فليمت الانذال ! فليمت الانذال ! » .

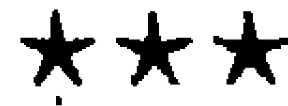
توقف كي يضع حدا لهذا الأصوات المتسلطة . ولكنه في الصمت الذى خلفه توقف وقع خطواته ، مضى يسمع الكلمات ذاتها تقذف اليه بالكراهية ذاتها . ثمة شيء آخر كان يردد الصدى .. بل يمكن أن يقال انه ضميره النائم صحا يتكلم .

راح يسمع هذه الكلمات ... كان يسمعها . ألم تكن ... ألم تكن روحه هى التى تهذى ؟ ...

شرع يجرى ...

وفى اليوم التالى . عقب تلقيه أول اهانة صغيرة وجهت اليه فى المدينة توجه رأسا الى رياسة الثكنات وطلب قيد اسمه متطوعا .

وقبل كمترجم ، وسافر الى يانينا يملأه الخوف ولكنه تخفف قليلا من الثقل الرازح على قلبه .



فى ٨ مارس ، نزل اليكسى الجانب الآخر من التل ليقابل قائد الكتيبة .

وفى كل مرة يكلف بهذه المقابلة كان يطلب رؤية نيكيتا ، وكان هذا اللقاء بالنسبة للاثنين فرحة كبيرة .

وعندما وصل نيكيتا الى يانينا اعتقد نيكيتا انهم نظرا لالمامه بلغات كثيرا سيستبقونه فى مقر القيادة العامة بالمدينة . ولكنه ما ان قدم نفسه حتى الحقوه باحدى الكتائب .

وفى استحياء أبدى اعتراضه قائلا :

ــ انى أتكلم أربع لغات . كثير من الصحفيين والضباط الأجانب سيأتون الى المدينة الن أكون أكثر نفعا هنا ؟

ولكنهم لم يقبلوا أية مناقشة ، واكتفوا بأن قالوا له ان مهمته ستكون استجواب الأسرى . وهكذا وجد نفسه ملحقا بكتيبة تتبعها فرقة المدفعية الرشباشة التى يندرج فيها اليكسى ! ...

وبكل وضوح ، كان الحاقه بتلك الكتيبة مدبرا من قبل ..

في ذلك المساء تحدثا طويلا ، واسترجعا الذكريات . وكان الحديث مثيرا حتى ان نيكيتا مبتهجا لحماسة اليكسى ، اقترح دون تردد كثير ان يذهب لقضاء الليلة معه ، كي يرى كيف يبدو السفح الآخر من حيث يشاهد الايطاليون ، كان على الجبهة . وسمع طلقات المدافع بل وطلقات البنادق . وتحدث الى رهط من الأسرى ، لكنه لم يكن يعرف أين خطوط الأعداء بالضبط • سوف يذهب لرؤيتها وسيرجع غدا عند الفجر ، حتى قبل ان يشرق اليوم التالى •

ووافق اليكسى على ذلك فى حماس :

ــ سوف تتعرف برجالى ، وسترى خندقنا حيث يوجد مخبأ مريح للغاية • سوف يروق لك ! •

وذهبا الى هناك •

باحتياطات كثيرة ، محنيى الظهر ، بل وزاحفين أيضا ، وصلا الى الخندق قبل ان يهبط الغروب تماما •

قال اليكسى :

ــ منذ عدة أيام والهدوء يعم الجبهة ، ولكن هناك بوادر كثيرة على انهم يعدون العدة لعمل هام ! سوف نرى •

قدمه الى رجاله • وأراه المواقع الايطالية ، وطاف به الخندق ، وشرح له بالتفصيل استخدام المدفعية الرشاشة الثقيلة والمدفعية الرشاشة الخفيفة ، والبنادق الرشاشة • ثم أخذه الى المخبأ الذى انحصرت وسائل الراحة فى وجود سقف ومصباح •

بدا كل شيء هادئا وبسيطا ، دون أى ارتباط بالحرب ، كما لو لم يكونا موجودين فى الأماكن التى يحوم الموت حولها •

وكانت موضوعات الحديث ساعة العشاء عادية للغاية • ولم يرد ذكر للحرب الا فى بضع كلمات قليلة عندما أراد نيكيتا باعتباره وافدا جديدا ان يمتدحهم •

ــ اصبت القول يا اليكسى • لم أكن أصـــدق ما قلته ولكنكم حققتموه • انهم لم يمروا فعلا ! •

أجاب جندى من أبناء كونبتسا :

ــ وكيف يمرون ؟ هل نحن جنود من طين ؟ أم ماذا ؟

وبدلا من ان يمجدوا أفعالهم ويتحدثوا عن شجاعتهم اتخذوا من بطولاتهم مادة للتندر •

واصر نيكيتا على قوله :

ـ أجل ، ولكننى اعتبر ذلك رائعا ، لأن هؤلاء الذين يواجهونكم يفوقونكم سلاحا وعتادا .

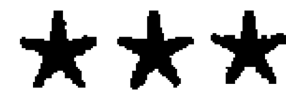
اجابه عريف من تجار يانينا :

ـ ولكنهم لم يجدوا سلاحا يكسرون به عزمنا على ان ندق أعناقهم . ومن ناحية أخرى ، ان يقتلونا جميعا شيء مستحيل . اذن ، كيف سيمرون ! سوف يوجد على الدوام من يستقبلهم بطلقة من بندقيته ! .

كانت هذه كلمات البطولة الوحيدة التى سمعها تلك الليلة المترجم الآمن من رجال الفرقة الثامنة . وكانوا جميعا منذ اليوم الأول فى التحام مستمر مع العدو ...

عندما انتهى العشاء ، عين اليكسى من سيتلولون الحراسة أثناء الليل . ومضوا جميعا ينامون فى المخبأ . لم تكن توجد هنا امتيازات ، ولكن ضيف الملازم اليكسى نعم بأخوة المحاربين .

على ان هذه الليلة التى قضاها المحاربون فى نوم هادىء سعيد ، أعقبها فى الفجر ، أفظع استيقاظ فى حياتهم .



اغارة جوية تفوق التصديق ! انفجارات بعيدة ، وأخرى قريبة جدا ، وبعض هذه الانفجارات مروعة ، والبعض أضعف أثرا ، ولكنها توالت بلا توقف .

زلزلت الأرض من هول هذه الانفجارات .

ملتصقين بالأرض وبالصخور ، أحسوا بها ترتعد بين الفينة والفينة ، وتهتز بشدة .

انهمر عليهم الركام ، وأحسوا بأن من المتعذر عليهم ان يستنشقوا الهواء المعبأ بالتراب الذى ملأ المخبأ .

وفجأة ، ظنوا ان كل شيء انتهى .

صم آذانهم صوت مروع . انشق السقف ، وكما لو انفجر بركان

على مقربة منهم . وفى التو ، بدا كأن كل شيء ليس سوى نار . وحجارة ورماد . ارتفعت أنات الألم . وعندما انقشعت غمامة التراب ، أمكن رؤية اشلاء متناثرة فى كل مكان وملتصقة بالصخر .

قال اليكسى :

ـ فلنخرج الى الخندق . أريد أن أفحص المدفع الرشاش .

وخرجوا .

وسط هذه الضوضاء الفظيعة تقدم اليكسى زاحفا ، ثم نصب قامته رويدا رويدا تجاه الجدار المقابل ، كى يتفحص المدفع الرشاش الثقيل ..

كان نيكيتا يرتعش . اختبر شيئا مختلفا عن حياته السابقة تماما ، شيئا لم يكن بالامكان وصفه . كان كما لو كانت الدماء تجمدت فى عروقه . أحس بقلبه يدق ضربات قوية ، بينما تحجرت أحشاؤه فى كتلة راحت كل طلقة تصعدها الى حلقه . وكانت أذناه تطنان وتؤلمانه .

كان ملتصقا بجدار الخندق . فى أسفله . ودهش اذ لاحظ انه يرفع صدره قليلا كى يرسم عليه علامة الصليب . وراح يرسم الصليب بلا توقف . وهو الذى كف منذ طفولته ، أو منذ صباه عن ان يرسمه !

عقله فحسب كان بالكاد يعمل داخل دائرة ملتهبة من الخوف واليأس .

يا لها من حماقة ان آتى الى هنا ! يا لها من حماقة انه لم يرحل فى المساء ، ما ان سمع ان الأعداء « يعدون العدة لشيء ما » . كيف ينسلخ من هنا ، الآن ؟ كيف يقفل راجعا ومن كل النواحى تسمع القنابل تنفجر بلا توقف ؟ لقد أغلق على نفسه هذا القفص المصنوع من الحديد والنار ، من الدم والعذاب . يا له من أحمق لا عذر له ! يا الهى ، النجدة ! ... الموت قريب منه ، جد قريب منه ، بل وما هو أسوأ من الموت ، أيضا ، التشويه أو العاهة .. يا للبشاعة ! كيف الرحيل ؟ كيف الرحيل ؟ على يده التى ترسم الصليب ، أحس بسائل دافيء .

نظر ورأى دما . تفصد عرقه وأحس بالرغبة فى القيء .

بجواره سمع اليكسى يقول بحماسة :

ـ المدفع سليم .

لم يكن اليكسى يكترث الا بالمدفع ! ولم يكن يعنيه هو حتى لو استحال رمادا .

قال مرتعدا :

ـ انى أنزف . جرحت .

سأله الآخر بحمية :

ـ جرحت جرحا خطيرا ؟

تمتم قائلا :

ـ لا أعرف . الدم يسيل على وجهى .

جاء صوت اليكسى قلقا ولكنه آمر :

ـ حرك رأسك . أهى تتحرك بطلاقة ؟

جرب واستراح . « أجل . اعتقد انها بخير » .

ـ هل تتكلم بلا صعوبة ؟ بلا حشرجة فى حلقك ؟

عاد يقول : « أجل » .

ـ ضع يدك على بطنك لترى اذا كان ثمة دماء .

فعل ما قاله اليكسى ، وأجاب :

ـ لا توجد دماء .

ـ اذن ، ليس بك شيء . شظية خدشت وجهك فحسب . لا بد من غسل الجرح حتى لا يتلوث .

وفجأة ، كما لو كان ذلك بفعل معجزة ، توقف الضوضاء المروع من حولهم . ما عاد يسمع سوى صفير يمر فوق رؤوسهم ، صفير كثير ، بعضه أكثر حدة من غيره ، وانفجارات بعيدة فى المؤخرة . بعضها مكتومة مختنقة ، وبعضها خاطفة ومدوية .

لقد بعد مدى قذائفهم . انهم يضربون خطوطنا الخلفية بمدافع الهاون كى يحولوا دون وصول الامدادات .

استرد نيكيتا شجاعته . الآن ، وما عادت توجد انفجارات قريبة شعر من جديد بقدرته على المزاح . **فقال :**

ـ أفضل هذا !

ـ أجل ، ولكن المشاة ستهاجمنا هذه المرة ، ونحن قد تكبدنا خسائر جسيمة وحدثت ثغرات كثيرة فى صفوفنا !

ومن موقع خفيض ناحية الأمام ، انبعثت صيحة :

ـ هيا ، يا مدفعية ، انهم يصعدون !

وفى خضم الطلقات القليلة صاح صوت آخر من نقطة أبعد .

ـ هيه ، يا مدفعية ! يا مدفعية !

نهض اليكسي دون ان ينبس بكلمة ·

مستلقيا على الأرض · استدار نيكيتا قليلا لمتابعته ·

رآه ينظر من كوة الرمي المعدة بين الأكياس على الأرض ، ثم يخفض مدفعه الرشاش ، يصوب ويضغط على الزناد ·

كرا ـ كرا ـ كرا ـ كرا ·

يا له من صوت بشع ! أكانت طلقات الرصـــاص تنطلق محدثة أصوات « كرا » المتقاربة هذه ؟ أكان حديدا هذا الذى يطلق ويتكسر ؟ أم كان عظاما ؟ أم لعله الموت يأتى هذه الأصوات كل مرة يضرب فيها ضربته ؟

نظر اليكسى مرة أخرى من الكوة · وحرك فوهة مدفعه وانكب على اطلاق النار من جديد · وفد صـوت طلقات الرصاص فى الوقت ذاته على نحو أكثر كثافة من مواقع منخفضة الى اليمين والى اليسار · أطلق اليكسى النار أيضا مرة ثالثة ورابعة · كان فى وقفته جادا ، جادا للغاية · من خندق مجاور تصاعدت صيحة :

ـ آيرا ! (١) ·

رفع اليكسى رأسه قليلا فوق أكياس الرمل ، وصاح واضعا راحتيه حول فمه ، بصوت الرعد :

ـ آيرا ! صبوا عليهم نيرانكم يا فتيان ! ··· صبوا !

وعندئذ ، من كل خندق على سفح التل تعالت أصوات أخرى :

ـ آيرا !

ـ آيرا !

ـ آيرا !

وسمعت من جديد طلقات المدافع من تلك المواقع ، كما تعـالت الطلقات من موقع اليكسى ·

نظر نيكيتا بخوف نحو الطرف القصى من الخندق · ربما لو زحف لأمكنه ان يبلغ الى الجانب الآخر من التل ، وربما كان ثمة أمل ، أى أمل ·

---

(١) ايرا : صرخة الحرب التى يطلقها الجنود اليونانيون · ايريا كلمة معناها الريح وهو ما يعنى اذن « فلنكتسحهم اكتساح الريح » ·

منبطحا على سور الخندق ، راح العريف الذى تحدث أمس معه فى المخبأ ، يصوب مدفعه ويطلق رصاصه ٠ بدت على كتفه بقعة حمراء لزجة ، كما بدت بقعة أخرى ضيقة وممتدة فى كثافة على فخذه حتى خلف ركبته ٠

« لا يمكن ان يحطموا عزيمتنا على ان ندق أعناقهم ٠ ان يقتلونا جميعا شيء مستحيل ٠٠٠ » ٠

أجل ، ولكن الذى كان ممكنا هو قتل الجسد الصغير الضعيف المرتعب ، جسده نيكيتا كوليتيس ٠٠٠ وبالنسبة له ، كان هذا وحده الذى يهم ٠٠٠ كيف الافلات اذن ؟ كيف ؟

نظر الى الطرف القصى الآخر ٠

رأى الجندى ابن كونيتسا ٠ كان اليكسى قد كلفه بأن يتولى الحراسة فى الفجر ٠ وكان الآن ميتا ، ينام على ظهره ، فاغرا فاه ، عيناه مفتوحتان تحملقان ٠ أما ذراعاه فمسندتان على حافة الخندق ٠ كما لو كان قد وضعهما هكذا ، قبل ان يموت ، فى وضع ابتهال أبدى ، وصلاة الى السماء لا نهاية لها ٠

لطخ الطين والدم وجهه الذى ارتسم عليه انطباع عميق بالدهشة ٠ ما الذى أثار دهشة هذا الفتى ، قبل ان يلفظ أنفاسه ؟ أهو شيء بسيط ملموس ، أهو ذلك الصوت غير المعقول الذى سمعه ، أهو ذلك المطر المنهمر حديدا ونارا ، الذى رآه يغمر فجأة التل الصخرى ؟ أهو شيء غير مادى ، الموت الذى كان يعتبره بعيدا فاذا به يراه مقبلا قاسيا لا يرحم ؟ أم انه وجد غريبا جدا هذا العبور المباغت من الشباب المزهر الى هاوية العدم والمجهول القاتمة ؟

تعالت من ناحية المخبأ ، آهات ألم ٠

أصيب من جديد بالغثيان ، ولكن فكرة الاستسلام أمام اليكسى ملأته خجلا ، وتمالك نفسه ٠

صاح فجأة :

– سوف أعاين أنقاض المخبأ ٠ ربما أمكننى ان أغيث الجرحى ٠

اجاب اليكسى :

– ليس الآن ٠ تعال هنا ، احضر لى لفافات البارود ٠

كان صوته آمرا ، ويكاد يكون خشنا ٠ ولم يجرؤ نيكيتا على مخالفته أعاد تزويد المدفع الرشاش بالطلقات على عجل ، بمعاونة نيكيتا ،

ومال ينظر من فوق المتاريس ، ممسكا بمنظاره المكبر ٠ وعندئذ جاء الخراب الأكبر ٠

عن قرب شديد ، سمعت نوبات من الصفير القصير لا يكاد يكون ملحوظا ، كما لو كان طنين سرب من الزنابير ٠ وقد عرف بعد ذلك انهم أضحوا هدفا لعملية ضرب محكم من رماة محنكين ٠ أزت طلقة أو طلقتان فوق رؤوسهم واستقرت طلقة أو طلقتان بغتة في الخندق ٠

وفجأة ارتج الجسد الرشيق القوى ، وتصلب ، كما لو كان يريد ان يصد عنه شيئا ٠ وبعد قفزة قصيرة الى الوراء بقى مسند الظهر الى جدار الخندق ٠ ثم انحسر الجسد ببطء الى أن اتخذ وضعا جالسا ٠

هرع نيكيتا الى جواره وقد رفع قامته متناسيا خوفه ٠ وصرخ قائلا:

ـ اليكسى !!

تحامل الآخر على نفسه وابتسم له ، وتمتم يقول :

ـ ليس شيئا بذى بال ٠

ولكن نظراته كانت تكذب قوله ٠

أمسك به من كتفيه ٠ وسأله يائسا :

ـ اليكسى ، كلمنى ! ماذا أستطيع ان أفعل من أجلك ٠

تمتم مرة أخرى :

ـ لا شيء ٠ لا أعرف ٠ ليس بى شيء ٠ لا تخف ٠

انكب نيكيتا يفك له ازرار سترته :

ـ أصبت ٠ أين ؟

صمت اليكسى ٠ وراح ينظر اليه ، ينظر اليه بمحبة ، ولأول مرة بدا كما لو كان يطلب منه في يأس شيئا ٠ يرجوه ، يتوسل اليه ان يصنع معجزة ٠ معجزة ٠٠٠ يا لها من نظرة ! ٠

من الناحية ذاتها ٠ من الأمام ، تعالى الصوت المعروف يقول :

ـ هيه ، يا مدفعية ! انهم يتقدمون !

امتلأت نظرات المصاب حيوية ، وقد زايله تعبير الاستجداء وغمرت وجهه الشراسة ٠

سمعت طلقات ، ثم صيحات أخرى :

ـ انهم يصعدون ! يا مدفعية !

ـ هيه ! يا مدفعية ٠

ثم وفد صوت أقوى :

ـ أيها الضابط ٠ انهم يتقدمون على المكشوف ٠ أطلق عليهم النار !

استند اليكسي على يديه ، وسحب اليه ساقيه ٠ تقلصت قسمات وجهه ، وبذل محاولة للنهوض ٠ نجح فى الوقوف على قدميه ، لكنه لم يستطع التحرك ٠ كما لو كانت قدماه سمرتا الى الأرض ٠ ترنح الجسم الفارع ، شجرة البلوط الباسقة ، برهة ، الى الأمام والى الخلف قليلا ٠ اقترب منه نيكيتا جزعا ٠ اتكأ الآخر على ذراعه ونظر الى عينيه الى أعمق أعماقه ، وقال له :

ـ ما عدت أستطيع ٠ ربما قضى الأمر بالنسبة لى ٠٠٠ نيكيتا ٠٠٠ أخى ٠٠٠ انه دورك الآن ٠٠ أطلق النار ٠٠٠

تخلى عن الذراع التى كان يمسك بها ، واستند بظهره كله على الجدار ، وترك نفسه ينحدر ببطء الى ان جلس على الأرض ٠

مضى ينظر الى صديقه ٠ لم يعد صوته تمتمة كما كان منذ برهة مضت ٠ دبت فيه الحيوية ، وصار آمرا ، ولكن الكلمات تحشرجت فى حلقه ٠

عادت الصيحات :

ـ يا مدفعية !

ـ هيه ، يا مدفعية ! انهم يحدقون بنا !

ـ اطلق ٠٠٠ اطلق ٠٠٠ اطلق ٠٠٠

ـ لا أعرف كيف !

صاح فيه اليكسى باللهجة ذاتها :

ـ انت تعرف ! افعل مثلى ! اطلق الرصاص ! حالا ! يا نيكيتا ، حالا٠ تحرك ! هيا ! ٠

ما عاد يطيق نظرته ٠ أحس بأنه لا يمكنه ان يقاوم هذا الأمر ٠ بدا له كأن الآخر ينقل اليه شعلة يجب ان يحملها فى يده ٠ حتى لا تسقط وتنطفىء ٠ نهض ٠ نظر من الكوة ٠ رآهم يصعدون المنحدر ، مكشوفين ، مندفعين ٠

هذه المرة أيضا توقف بداخله كل تفكير ٠ أدار المدفع الرشاش الى الناحية التى كان فيهـا أكثر المندفعين عددا ٠ وأمسك بالزناد وأتى الحركات التى رأى اليكسى يأتيها ٠

نظر مرة أخرى من الكوة · رأى بعض الأجساد مسجاة على الأرض، والبعض الآخر تحاول النهوض ثم تسقط · كما رأى آخرين يلقون بأنفسهم وراء الصخور ، وآخرين يعمدون الى الفرار ، وقلة قليلة منهم تواصل التقدم على الرغم من كل شيء · أطلق عاصفة من الطلقات المتلاحقة ، ثم أدار المدفع الثقيل ناحية اليمين حيث كان طابور آخر يتقدم على المكشوف كما لو لم يكن الأمر يتعلق بمعرفة حربية ، ولا الموت بالمرصاد ، وكأن هؤلاء الرجال يتبارون في الصعود بسلام الى القمة ··

ومن جديد سقطت أجساد ، وفر رجال ، وتوقف الآخرون عن التقدم ·

صاح صوت من اليمين :

ـ آيرا !

ـ آيرا !

وتعالت أصوات من خنادق أخرى ·

وهتف آخرون من مكان قريب :

ـ أحسنت ، أيها الملازم ·

ومن ثم نسى صديقه وأخاه ، ودون أدنى تفكير في أنه قتل بعض الأنفس ، ولا اكتراث بالخطر المحدق ، صعد على حجر ضخم ، وأخرج نصفه الأعلى من الأكياس ، ولوح بخوذته عاليا ، **وصاح بكل قوته :**

ـ آيرا ! أطلقوا النار ، يا رجال ! صوبوا واطلقوا ! آيرا !

وباستثناء فترة توقف قصيرة قرب الظهيرة ، استمر ذلك حتى المساء ·

بالليل فحسب ، عندما وصلت بعض التعزيزات في النهاية ، وفي كل من الخنادق نزل رجال مستريحون ، بالليل فحسب أدرك ، بل وأيقن ان اليكسى أخاه العزيز مات ·

كان جالسا مسندا ظهره الى جدار الخندق · ذراعاه القويتان اللتان اصبحتا عاجزتين ، تحدقان بصدره العريض ساكن الحراك · كانتا تتدليان مطويين مثل غصنين مكسورين على جانبي البلوطة الضخمة التي هوت · كانت الرأس منتصبة بميل طفيف الى الوراء ··· الفم فاغر قليلا ، ويمتد الآن الى ملتقى خطين أحمرين ··· من الدم المتجمد ! ··· يا للشقاء ! ··· الضياع ··· الضياع الى الأبد ··· السكون ···

السكون المطلق ... العينان فحسب يبدوان على قيد الحياة · مفتوحان محملقان ، يتطلعان بلا انقطاع الى أعلى والى السماء ·

دفنوهم عند الفجر ، ووضعوا على لحودهم صلبانا من الحجر · كان الموتى كثيرين · وربما كان دفن الأجساد المشوهة بشعة المنظر أمرا أكثر استعجالا · ولكن نيكيتا دفن اليكسى أولا ، وذلك لأنه كان لا يعلم ما اذا كان الوقت سيتسع لدفن الجميع ، وما كان يريد ان تعرف الشمس ان هذا الجسد الوسيم ذا القلب الأبى على وشك ان يدب فيه التحلل ·

٢

كانوا يسيرون منذ خمسة أيام ، بلا توقف تقريبا ·

أثقلت الأكياس والبنادق كواهلهم بالألم · والأحذية الثقيلة التى تنثنى عند المشى فى المواضع ذاتها أحدثت بالأقدام قروحا · وعلى الرغم من الارهاق راحت الأجساد تسير وتسير طوال النهار ، ولا تتوقف الا لماما كى تشرب قليلا من الماء وتأكل قضمة خبز ·

هل كانوا متعبين ؟ بالتأكيد كانوا كذلك ، ولكن أى أهمية لذلك ؟ كان عليهم ان يمضوا قدما ويصلوا · وما دام ذلك كان متعينا عليهم ، فقد كانوا يمضون قدما ·

كانت الأقدام تتحرك بآلية ·

والركاب تدفع أصحابها الى الأمام كما لو كانت تتحرك بزنبركات مثبتة الى لوالب حديدية ، ومن وقت لآخر كانت تخطر بالعقل خاطرة عابرة ·

بالنهار ، كانت الأجسام تظل واقفة حتى تستطيع السيقان ان تتحرك مثل انسان آلى · وبالليل ، لم تكن الظلمة تسمح للسيقان ان تمشى ، فتتمدد الأجسام اينما وجدت لها مستقرا ، وتبقى حتى الصباح بلا حراك وكما لو كانت من الروح خالية ·

كانوا قد حاربوا المعركة الأخيرة فى أرض ألبانيا ، على بعد بضعة كيلو مترات من كونيتسا ، كافلين الوقاية للكتيبة التى راحت تنسحب حاملة معها ذخيرتها ·

أكان ذلك يوم ٢٠ أم ٢١ أم ٢٢ من ابريل ؟ لم يكن يذكر · بضع

فرق ، هزيلة العدد ، واصلت المعركة كى تسمح للجيش بأسره ان ينسحب بانتظام • وفى الصباح سرت شائعة بأن وحدات المانية دخلت الى يانينا وحاصرت الجيش المحارب كله فى البانيا ، وان ثمة اتفاقية هدنة وقعت أو فى طريقها الى التوقيع مع الألمان •

قال الملازم قائدهم ان الشائعة تظل شائعة ، وانهم سيواصلون فى تغطية الانسحاب ، وانهم كل يوم سيبنون الى الخلف صفوفا ، واذا لم تبلغهم فى هذه الأثناء أوامر جديدة سيواصلون الحرب متراجعين الى الطريق الوحيد الذى يربط ثيساليا بابيروس ، الى ميتزوفو ، وهناك سيعرفون ، بل وربما وجدوا ، الأمر بحل الجيش ، وفى هذه الحالة سيعودون الى ديارهم •

ولكن ذلك الصباح أمطرهم الايطاليون طوال ست أو سبع ساعات بوابل من قذائف مدافعهم • وبعد ان صمدوا لهجوم المشاة ، تبينوا عندما هبط الليل ان السرية لم يعد لها وجود ، وانهم ما عادوا على اتصال بالكتيبة من أى جهة • كان الضباط جميعا قد قتلوا • ومن جنود الفرقة مات أيضا الكثيرون ، كما جرح آخرون •

تجمعت القلة التى ظلت على قيد الحياة لمواجهة الموقف • وفى اليوم التالى ، ما عادوا بقادرين على مواجهة أى هجوم • من خلفهم لم يكن ثمة جيش أو اذا كان هناك فلا بد انه بعيد • ولم يكن بالامكان على الاطلاق العناية بالجرحى أو نقلهم • ولذلك فقد استقر رأيهم على اتخاذ الحل الوحيد الممكن : كل من مساعدى الضباط الذين بخير سيجمع مجموعة من الجنود ويقودهم فى اتجاه الجنوب الى لحظة الالتقاء بأى وحدة من وحدات الجيش •

حتى الفجر قدموا لجرحاهم ما وسعهم تقديمه من رعاية طبية • تركوا لهم خبزا يقتاتون منه الى حين جمعهم بمعرفة الايطاليين • علقوا أقمصة على أغصان عالية على هيئة أعلام بيضاء • وقبل ان يطلع أول بصيص من نور النهار بدأوا مسيرتهم •

جماعتهم هم بعد خمسة أيام من المشى فى الجبال لم تلتق بأية فرقة • لا يونانية ولا ايطالية ولا ألمانية • عبروا ثلاثة قرى أمدهم أهلها بالخبز وبعض المؤن ، ولكن لم يعرفوا منهم أى أخبار ، ذلك انه فى هذه القرى الضائعة فى سلسلة جبال بيندو والشاهقة ، لا أحد كان يعرف ماذا يحدث • ومن ثم واصلت الجماعة سيرها •

قيل لهم انهم يسيرون فى الاتجاه الصحيح •

كانت لدى رفيقهم ميتسو ، وهو سائق بغال من سيراكو ، معرفة طيبة بالمنطقة . اجتاز بهم مضايق وعرة ، وغابات ومراعى ، وأرض حجرية جرداء . وعبر ركام من الجبال التى تبدو منخرطة فى رقص غير منسق ، التزم بهم الاتجاه الصحيح ، وقادهم صوب ميتزوفو حيث سيعرفون الأخبار ، وسيمكنهم ان يقرروا ما عليهم ان يفعلوه .

خرجوا من غابة كثيفة الى العراء فى اللحظة التى كان الغروب يعتم على الوجود . طوال ساعات طويلة ساروا عبر الاحراش تحت الأغصان المتشابكة لأشجار البلوط الباسقة . ثم ظهر لهم مرج عند حافته نبع صغير يتعالى خرير مياهه ، على مقربة من شجرة سرو ضـخمة بالكاد يستطيع رجلان ان يحيطا جذعها .

توقفوا .

قال ميتسو :

ـ من هنا الى ميتزوفو نحتاج الى مسيرة ثلاث ساعات ، أو أربع ساعات على الأكثر . والأرض تحت أقدامنا حانية لينة . سوف يكون علينا ان نخترق مراعى مكشوفة . ومن رأيى ان نتوقف هنا .

وقال آخر :

ـ حسنا . فى الغابة يمكننا ان نشعل نارا دون ان يرانا أحد . بل ويوجد هنا نبع أيضا .

استطرد ميتسو يقول :

ـ واذا تحركنا عند الفجر سوف نصل الى ميتزوفو فى وقت مبكر . وسيكون النهار متسعا أمامنا .

سأل شاب لم ينبت بعد شاربه بلهجة ثقيلة :

ـ ماذا تقول ، يا سيدى الضباط ؟

واضاف مبتسما :

ـ استبد التعب ببغالك الصغار . فلنضع أحمالنا على الأرض ، أليس للبغال ان تستريح لحظة ؟

قال الضابط :

ـ حسنا . فلنبق هنا على حافة الغابة .

أنزلوا الأمتعة والبنادق . خلعوا خوذاتهم ، وفكوا ستراتهم . وشربوا ماء . وتناول كل منهم كسرة خبز مغطاة بلمسة من الجبن . وتجمعوا حول النبع .

كسر الصمت شاب من أهل يانينا ، يدرس القانون ، موسوس الى أقصى حد . وقال :

ـ الآن ، وقد وصلنا ، ولن نصبح اعتبارا من باكر معزولين عن الناس مثل البهائم الوحشية ، سأطلعكم على فكرة تؤرقنى . أخشى ان يلقى علينا القبض غدا ونقدم الى المحكمة العسكرية كفارين من الخدمة .

أثار هذا الكلام دهشة الجميع . وأجاب الفلاح الشاب الذى لم ينبت شاربه بحرارة :

ـ ما الجدوى اذن ان تكون على هذا القدر من التعليم ؟ تقول اننا فارون من الخدمة ؟ نحن الذين لم نكف عن الحرب ليلا ونهارا ؟

قال الطالب :

ـ حاربنا ، ولكن جاء يوم دون ان نطلق رصاصة رحلنا وحدنا ، ولا زلنا نواصل الترحال .

ثم أضاف مستغرقا فى مزيد من التفكير :

ـ القاتل أيضا الى اليوم الذى يقتل فيه ، والسارق الى اليوم الذى يسرق فيه ، لا شائبة عليه فى نظر القانون .

وقال جونجوس مستنكرا :

ـ ما هذا الذى تقول ؟ تشبهنا بالقتلة واللصوص ؟ عليك ان تأتى الى سيراكو ترعى عنزاتى . يا سيدى الضباط ، ما هذا الذى يقوله ؟ هل من الممكن أن يحدث لنا شيء من هذا القبيل ؟

لم يكن بالعريف رغبة فى المناقشة ، ولكنه فهم ان مخاوف المواطن من يانينا بذرت بذور القلق بين جنود آخرين ، ممن لا يتوافر لهم غير قليل من الثقافة .

قال بصوت وقور :

ـ لا أعرف الأنظمة العسكرية . وليس بمستبعد ، على الأخص اذا كانت وحدات أخرى واصلت القتال ، ان يجروا تحقيقا معنا . ولكنى أعتقد انهم لن يعتبرونا فارين ، بل وسيوجهون الينا التهنئة . بعد اغارة فظيعة ، تصدينا ونحن حفنة صغيرة من الرجال لهجوم عنيف . وبعد ان أبيد العدد الأكبر منا وتبعثرنا ، أدينا المهمة الأخيرة التى عهد الينا بها ، ورحنا ننسحب محافظين على عتادنا الى ان نتلقى أوامر أخرى . واذا كان ثمة من تقع على عاتقه مسئولية فهو أنا وحدى ، ولكن لا أعتقد

ان أحداً سيقول لى انه كان من الأفضل مخالفة الأمر الذى تلقيناه وان نترك أنفسنا نتردى فى الأسر بلا طائل .

انبرى جونجوس يقول بحماس :

ـ لنا قائد ، يا متعلم ، وأى قائد ! يستحق نوط الشجاعة بجدارة وتنتظره ترقيات كثيرة . فهل سيقدم هذا البطل الى مجلس عسكرى ، ونحن معه ؟



رقدوا ، وانقض النعاس على أجفانهم سريعا وثقيلا . أما الضابط فهو وحده الذى لم يقرب النوم عينيه .

بالليالى السابقة ، كان ينام مثل رفاقه ، مثل كتلة صماء ما ان يرقد . ثم يستيقظ عند الفجر معهم . لم يكن الاجهاد البدنى يدع متسعا لأى عاطفة ، ولا لأى ذكرى . لم يكن الافراط فى الأقراص وشتى أنواع الخمور التى كان يحتاج اليها فيما مضى للتغلب على الأرق سوى أدوات ضعيفة لا تذكر اذا ما قورنت بالارهاق الحالى الذى يشل بدنه وفكره .

على ان النوم ، كان يهرب منه اليوم ، لأن هذه الليلة على ما يبدو هى ختام المغامرة .

تذكر ما قاله راعى الماعز الشاب قبل ان يناموا ، ووفدت الى شفتيه ابتسامة مريرة : نوط الشجاعة بجدارة ، ترقيات ، هو بطل وقائد حربى ، لو كان يعرف هؤلاء الفتيان الذين وثقوا فيه ، من يكون ، وأى جبان هو ، وان كل هذا الذى حدث انما حدث مصادفة ، لأن الظروف جاءت على ما جاءت عليه ، وليس بفضل أى بطولة أو حماسة أو وطنية ! بالتأكيد . لم يعد هو نيكيتا كوليتيس القديم ، الباريسى الضجر العدمى . ولكنه لم يكن على أى حال البطل ، الوطنى ، القائد ، الذى كان هؤلاء الرجال الشجعان البسطاء يظنونه .

تذكر كيف تتابعت الأحداث وترابطت ، وتلك الأيام الأخيرة التى قضاها فى فتيبيليونا ، وكم كانت بعض ساعاتها كئيبة باهظة . ثم تذكر المعركة التى خاضها مع الكتيبة ، ثم مضيه الشاق قدما عبر جليد البانيا المخيف ، والوقفات الصعبة أمام الشعاب الضيقة المفزعة فى تبلينى ... يا لها من مريرة أيام مارس هذه ...

آه ، اليكسى ، اليكسى ، كم عذبنى فقدانك ! عذاب ثقيل ، مرير ، وبلا دواء ، أبدا ، لن يبارحنى طيفك ، انت ميت آ كيف يمكن ذلك ! ، كنت من أولئك الرجال الذين لا يمكن الاعتقاد بأنهم يموتون ... كنت قوة ، ولم تكن سوة قوة ، قوة نفس وبدن ،

اليكسى ، يا أخى ، يا أخى الحبيب ، كيف يمكن ان تكون قد مت ؟ مات البطل الحقيقى بينما هو لا زال حيا ، وبطلا مزعوما ؟ لم يكن بطلا ، بل ربما لم يكن حتى وطنيا ... كان يعرف ذلك ، فى بعض اللحظات شعر ، على نحو عابر تماما ، بعض الحماس البدائى والوحشى ، ولكن بالنسبة لغير ذلك ...

انها المرة الأولى ، يوم ٩ مارس ، التى يحارب فيها ، وذلك لانه لم يستطع أن يعارض أوامر اليكسى ، بدافع الضعف ، أو ربما بدافع الخجل ، أو ربما لأنه وهو يسمع صيحات الآخرين أدرك أنه لو لم يمض المدفع الرشاش فى اطلاق قذائفه لقتلهم الايطاليون ، جميعا ،

وبعد ذلك ، حارب لأنه لم يكن بامكانه أن يفعل غير هذا ، كانت ذكرى اليكسى ، الذى احتفظ حتى فى لحظات احتضاره بالقوة على أن يصدر اليه الأوامر ، كان هناك ثقل الموت الذى استشعره بين ذراعيه ، كانت هناك الدوامة التى لفته ، والجميع يطالبونه بأن يسهم فى المعركة ، وكان هناك أيضا علمه بأنه حتى لو أراد الهرب لتعذر عليه ذلك ،

كل هذا لعب دوره ، ولكن ما بدر منه لم يكن راجعا الى شعلة الروح ، ولا الحماسة المتدفقة التى قادت كل هؤلاء الفتيان ، من القرويين غير المتعلمين أو أهل المدن المثقفين ، لم يكن ما أقدم عليه حبا فى الوطن ، ولا حبا فى الحرية ، الأبطال الحقيقيون هم هؤلاء الفتيان هناك ، الذين كانوا يعرفون لماذا يحاربون ولماذا يعرضون أنفسهم للأخطار ، وكل ذلك أيضا عن طيب خاطر ، صحيح انهم استشعروا قدرا من الخوف ، ولكنهم حاربوا بايمان وحماسة ، البطل لم يكن هو الذى أظهر شهامة بمحض الصدفة ، أو لان عملاقا أصدر اليه أوامر وجد نفسه يتعذر عليه أن يرفض اطاعتها ، كل شىء كان من عمل الصدفة ...

ولكن الآن ... الآن ، وهو راقد تحت هذه البلوطة العتيقة ، يتأهل للتردى فى نوم ثقيل ... ماذا يريد ؟ هل يريد أن يحارب من جديد ؟ هل يريد أن يصبح بطلا من جديد ؟

آه ، كلا ، كلا ! يا للكارثة لو قالوا لهم غدا أن يذهبوا ليحاربوا فى مكان آخر ، سوف تكون كارثة لانه سيذهب بدوره ... ولن تكون

ثمة وســـيلة ليفعل غير ذلك · ســـيذهب ، ولكنه لا يتمنى هذا ، ولا يريده ·

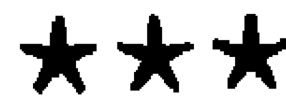
الذى يريده حقا هو أن يعود الى فتيليونا · كيف جاز أن تبدو له فتيليونا لوقت طويل لا تطاق ومتخلفة ؟ كيف كان أعمى الى الحد الذى لم يكن يرى ما يمكن أن تجلبه له فتيليونا ؟ لو ساعده الحظ أن ترد اليه حريته فســـوف يعود الى البيت الذى اعتبره فيما مضى رثا وغير مريح · سوف يخلع ثيابه التى التصقت بجلده ونضحت قذارة من فرط العرق والوحل · سوف يأخذ حماما طيبا · سيبقى ساعات طوال فى الماء الدافىء الذى سوف يسكب فيه عطورا باريسية · ثم يلف جسده برداء نظيف ، ويأخذ كتابا فرنســـيا ويشرب قدحا كبيرا من القهوة الساخنة !

كيف لم يدرك المباهج التى يمكن أن تحققها له فتيليونا ؟ وسوف تأتى كيتى أيضا ! لن يتخلف عن الحضور سوى اليكسى ·

آه ، اليكسى ، اليكسى كم هو قاس أن أفقـــدك ! الموت فظيع ، يا اليكسى · كم تبعث فى النفس اليأس والألم فكرة ان ما من أحد سيراك أبدا ، أو يسمعك ، فكرة أن تكون وأنت الرجل القوى الكامل الذى يبدوت خالدا ، قد مت ، ودفنت بالبانيا حيث تحيط بك عزلة ضارية !

كم كان سيصبر جميـــلا أن أكون فى فتيليونا معك ، مع كيتى ، مع الحمام الدافىء ··· والثياب النظيفة ··· والملاءات البيضاء ··· والكتب الفرنسية ·

وأغلق النعاس فى هدوء جفنيه ·



فى ميتزيفو التقوا بالناس من جديد ، وعرفوا منهم الأخبار ·

– على الحدود البلغـــارية اكتســحت المواقع الحصينة بقاذفات اللهب · لم ينج منها سوى بضعة رجال شوهتهم الحروق · آزر الألمان جنود الأعداء وقدموا لهم السلاح ·

– تسلل الألمـــان واجتازوا الحـــدود الحربية غير المزودة بقـــوات للدفاع · ودخلوا الى ثيسالونيك محور الاتصال لقواتنا الدفاعية ، منذ

اليوم الثـاني لاندلاع الحرب · واضـحت بذلك كل مقاومة من جانب قواتنا مستحيلة ·

– بعد سحق الاستحكامات اليونانية الضـعيفة وفرقة استرالية كانت العون الخارجي الوحيد . تغلغلوا بسرعة في ثيسـاليا · ومنها يواصل الأعداء الآن زحفهم نحو ابيروس وأثينا ·

– دمر طيرانهم بوحشية كل المدن التي مروا بها ·

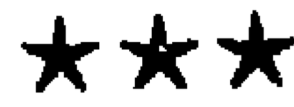
– كل شيء أصيب بالشلل · في ابيروس انشق بعض الجنرالات على أوامر الملك ووقعوا اتفاقية هدنة · مرت على ذلك سبعة أيام على وجه التحديد ·

– أعلن هتلر أمام البرلمان الألماني ، انه من بين كل أعدائه سيحتجز الأسرى فيما عدا اليونانيين ولن يفرض عليهم الأسر ، تكريما لشجاعتهم ·

– سـيدخل الألمان أثينا اليوم أو غـدا · أما الملك فقد رحل مع حكومته الى كريت ، ومن هناك ستواصل اليونان الحرب ·

– الجيش كله حل · وعاد الجنود كلهم الى ديارهم بأي وسيلة نقل أتيحت لهم ·

كانت هذه هي الأخبار ·



بادلوا بزاتهم العسكرية بملابس مدنية ، مما أتيح للفلاحين أن يدبروه لهم · وزع نيكيتا كل النقود التي كانت معه – ففي فتيليبونا سيجد ما شاء من المال في انتظاره – وبعد أن تبادل الجميع العناق ، افترقوا ·



جاثما على بعض الألواح الخشبية تنقلها سيارة نقل الى مدينة من مدن مقدونيا ، راح يقترب الآن من لاريسا ·

كانت فرحته كبيرة ، ونفد صبره ، لأن رغبته فى الوصول بأسرع وقت كانت كبيرة أيضا ٠

نزل أمام المدرسة الزراعية ٠ كانت فتيليونا فى الجهة المقابلة تماما ٠ يفصله عنها نهر البينيه ٠ وكى يجد جسرا يمر من عليه كان عليه أن يدخل الى المدينة ويقطع طريقا طويلا ٠ كان نفاد صبره كبيرا حتى يستطيع أن يؤخر وصوله الى هناك ساعة !

نزل المنحدر الهين المفضى الى النهر متجها الى المخاضة التى سبق أن أروها له ٠ والبينيه فى هذا الموضع أقل عمقا والقاع أكثر صلابة ، ولكن الماء مع ذلك كان بطول القامة ٠

أكان البرد هو السبب الذى جعله يشعر بالدوار ، أم انها الدوامات التى ارتسمت أمامه ؟ أو لعله الارتجاج الذى راح يعـــانيه على ألواح الخشب طوال الطريق غير الممهد ؟

لماذا اذن تبدو له أشجار الدردار هناك بالجهة المقابلة مضطربة ، وغير مألوفة المظهر ؟ هل عيناه اللتان لم تبكيا منذ طفولته تدمعان لحظة أن يعود الى بيته ؟

أحقا الدموع فى عينيه هو ! دعه من ذلك الآن ! كانت عيناه صافيتين وليس بهما للدموع أثر ٠ الآن ، وقد راح يصعد الضفة الأخرى من النهر وصار بامكانه أن يرى الحقول والغابات فهم ماذا حدث ٠

كانت حفر ضخمة تشق الأرض المنبسطة فى أى اتجاه تتجه اليه الأنظار ٠ عند ركن الغابة ، وأبعد من ذلك ، تحت الأشـــجار تناثرت سيارات نقل ومدافع ومقطورات فى حالة من الفوضى لا توصف مقلوبة، مهشمة ، مفككة ٠ لا بد انها وحدة يونانية كانت تعسكر هناك ، وأمطرها طيران العدو وابلا من القنابل الثقيلة ضخمة العيار ٠٠٠

اقترب من المكان الذى كان قد رأى فيه منذ ما يقرب من عام ونصف ريامو يحرث الحقل بجواديه ٠٠٠ انقبض قلبه ، وتملكه عذاب لم يسبق أن شعر بمثله من قبل قط ٠

أشجار ضخمة قطعـــة وألقيت على الأرض ٠ وأخـــرى اجتثت من جذورها وظلت واقفة وقد اندست أغصانها فى أغصان أشجار مجاورة، كما لو أراد الاحيـــاء أن يبقوا تلك التى كفت عن الحياة مرفوعة نحو السمـــاء ٠ كانت الغـــابة الثرية ، فخر الاقليم كله ، قد تعرضت لاتلافات جسيمة ٠

اطبق نيكيتا قبضتيه ... أحس بالغضب يتصاعد داخله ، كما أحس بسخط جعله مستعدا أن يحارب الجبال ذاتها .

قال لنفسه وقد استشاط غضبه « يا للبرابرة ! البرابرة ! لماذا جاءوا يدمرون الأشياء القليلة التي نجحنا أن نقيمها رغم فقرنا ! ما الذى يحمل الأغنياء على أن يأتوا بآلاتهم الحديدية يهاجمون الحفاة الذين يبذلون جهـــدهم كله من أجـل أن يكسبوا لقمـة العيش ! من الذى سيعاقبهم ؟ وكيف ؟ » .

كم كان يكرههم ! كم كان يكرههم !

ولكن ثمة فكرة أخرى مثلت فى ذهنه وجعلت الدم يتجمد فى عروقه .

اذا كانت الكارثة بهذه الفداحة بالنسبة لأشجار الدردار الضخمة ، المتغلغلة الجذور فى الأرض ، فكم يكون ما آل اليه حال المنزل والمخازن والحظائر ... وقد تعرضت المنطقة من قبل أيضا لزلزال فى فبراير . كتبوا اليه آنذاك يخبرونه أن الأضرار لم تكن كبيرة فى فتيابيونا . هل كانوا قد أخفوا عنه الحقيقة ؟

ودون أن يستطرد فى تأملاته ، راح يجرى وينحرف عن طريقه كلما اعترضته شجرة ساقطة أو حفرة غائرة . كان يجرى لاهثا . قلقا ، مثل مجنون ...

وصـــل الى الحـــديقة الكبيرة . فى نهايتها كان المنزل العالى ذو الطابقين والأقبية قائما وان كان السقف مهدما . وفى أحد أركانه ، كان الحائط المشيد من أحجار سميكة منقوشة منهارا . والى اليمين كان المخزن مائلا الى الخلف كما لو كانت قد دفعته يد عملاقة . والى اليسار ، كانت الحظائر كلها تقريبا منهارة . وعن قرب كان ثمة شرخ فاغر فاه . وكان ثمة شروخ أخرى بعيدة . أما عنبر الآلات والعربات فكان خرابا وخاليا . البيت الصغير وحده حيث يسكن ريامو كان سليما .

لاحظ انه يتنفس بصعوبة ، وفى حلقه غصة . تقدم الى البيت الصغير . ما من نفس حية . لا انســـان ، ولا حيـــوان . بل عزلة ودمار .

صاح مناديا :

ـ ريامو ! فروسو !

رفع راحتيه الى فمه وصاح بصوت أعلى :

— ريامو ! فروسو ! انه أنا ! لقد عدت !

لم يتلق اجابة . حائط وحيد لم تمسه يد الخراب وقف هناك يرجع صوت الصدى فى سكون الموت المخيم من حوله .

« لقد عدت ! لقد عدت ! »

أجل . بالطبع أجل ! هذه المرة ، لم يكن الأمر مجرد خاطر أو انطباع . طفرت الدموع من عينيه وعتمتا ... سالت الدموع ببطء ، تقلص جسمه ، ضعفت روحه وذابت ، رقت ...

جلس على الأرض . دفن وجهه بين يديه ، وانخرط فى البكاء . سبح جفناه فى الدموع .

بكى ، وبكى طويلا . أجل ، بكى ، وهو الذى لم يبك منذ طفولته . وكم جلبت اليه هذه الدموع الدافئة من فرح ! ويا له من معنى ، وأى مفهوم عميق دلت عليه ! الآن ، هناك ، فجأة ، فى العزلة ، والخراب أدرك أشياء كثيرة قال له عنها الصديق الذى لا ينسى ، وكانت تبدو له من قبل غامضة حافلة بالأسرار . الآن ، أصبح يفهمها . قبل كل شىء ، فهم لماذا حارب بكل حماسه ... انه لم يحارب بالمصادفة وبلا حاسة انه لم يحارب لمجرد أن صديقه الحبيب طلب اليه ذلك ... كلا ! لقد حارب أيضا من أجل شىء آخر . حارب لانه دون أن يعى يحب بل ويقدس هذه الأرض المباركة مهما حل بها من ويلات ...

أجال من حوله نظرة عتمتها الدموع ، ولاحظ أن السكينة ذاتها مضت تسود ، ثم تتمدد على الأرض التى تجاهد كى تخضر من جديد ، على الرغم من التمزقات التى حلت بها . ربت عليها براحتيه فى مودة وحب ، أجل ، حب لم يشعر به قط نحو أية امرأة ... قبلها عدة مرات ، وأسند خده بوله الى بشرة هذه الأرض التى بدأت تسرى فيها بعض الخضرة ...

كم من الوقت بقى على هذا الحال ؟

الى اللحظة التى خيل له أنه يسمع فيها جلاجل قطيع من الماشية ووقع حوافر جيـاد ، وصرير عجلات . ثم توقف كل هذا ، واقتربت منه خطوات مهرولة .

نهض .

جرى نحوه ريامو وفروسو وفلاحان آخران مكتملا الرجولة .

بدا لهم جميعا رجلا جديدا . قامة منتصبة وقوية ، بشرة خشنة لوحتها الشمس ، تعبير رجولى ، ونظرة دافئة .

تحدث أول ما تحدث رئيس الفلاحين ، أكبرهم سـنا جميعا . قـال :

ـ حمدا لله ، يا سيدنا . حمدا للرب ! علمنا انك جرحت ، علمنا أيضا انك حاربت مثل الاسود . حمدا لله ، ها أنت تعود !

تعانقا ، وتبادلا القبلات . وظلا برهة متعانقين . ثم قبل الآخرين بدورهم .

وقال ريامو :

ـ ما ان ألقيت القنـابل الأولى جمعت الخراف ، وأخذت كل ما اتسعت له العربة ، وذهبت الى دير القديس ايليا . ثم لحقت بى فروسو هناك . ولكن هل رأيت ، يا سـيدى ، فى أى حال صارت فتيليونا !

طوق نيكيتا بذراعه الأيمن كاهل الرجل العجوز ، وانفجر فى الضحك . وأتى بذراعه الأخرى حركة قال فى أعقابها :

ـ سنصلح كل هذا ، يا ريامو . سـنعيد فتيليونا الى الحياة ، وستصبح مفخرة للاقليم كله .

٣

دخلت القوات الايطالية لاريسا . وعاد الرجال الذين حاربوا فى البانيا وثراكى الى ديارهم . وبدت الحيـاة وقد أصبحت عادية من جديد .

فى المدينة ، انكب السكان على اصلاح البيوت التى أصابها التلف بسبب الزلزال والقنابل ، وعكفوا على اعادة بناء ما انهدم منها . وكانوا فى أغلب الأحيان يشيدون طابقا واحدا ، من غرفتين على الأكثر ، تأويهما فى الشتاء .

وفى القرى المحيطة والمدينـة ، كان أصـحاب الحوانيت الذين يعرضون خدماتهم عادة على المزارعين ، يتأهبون للمشاركة فى الحصاد والدراس . فقد كان ثمة عجز فى الآلات وقطع الغيـار وأشـياء أخرى عديدة . ومع ذلك ، فهذه المرة أكثر من أى مرة مضت كان يجب أن يمتد الحصاد الى آخـر سنبلة ، ذلك لانه كان باديا بجلاء ان حاصلات

الأرض سوف تكون غالية وشحيحة ، وسوف يكون الشعب بحاجة شديدة للحفاظ على وجوده طوال الشتاء كله ·

وهكذا فى الكفاح اليومى ، وسط المشاغل المنوعة ، بدأت الحياة تتخذ ايقاعها القديم ·

خبت حالة التوتر الشديد الذى سببه قيام الحرب فى أولها · وعندما هدأت نوبات الحماسة التى سببتها الحرب ، وبعدت الاخطار العاجلة ، تذكر الناس من جديد خصوماتهم الصغيرة الماضية ، وانخرطوا فى خصومات جديدة · وانشغلوا بتلبية الحاجات المتواضعة الحالة منها والمستقبلة ، وتذكروا الحب ، وهمومه الصغيرة ، وأفراحه الصغيرة أيضا ·

كان الشيوخ والمرضى يموتون ، والأطفال يولدون ، ومن وقت لآخر ، وعلى نحو أكثر ندرة مما مضى ، كان يعقد زواج ·

هذا ما كان يبدو لمن لا يبصر الا السطح ·

ولكن فى المدن كلها ، كما فى كل العصور ، لا يختلف السطح اليوم بشكل أو بآخر عن السطح أمس أو أول أمس · والآن ، اضحى السطح فى مدن اليونان يشبه ما كان عليه فى سنوات ما قبل الحرب· كان هذا كل مافى الأمر ·

على أنه اذا ما دقق المرء النظر فيما تحت السطح ، فسوف يتبين أن الأشياء قد تغيرت كثيرا ·

بادىء ذى بدء ، كان ثمة ثقل فادح ترزح تحته نفوس أهل لاريسا ، مثل أهل اليونان جميعا · لماذا ؟ لأن هؤلاء القوم يتلقون الآن الأوامر بصلف وقسوة من أولئك الذين هزموهم على الجبهة · كيف يمكن أن يقبلوا ذلك ؟ كيف ومتى ستكف عبوديتهم تلك التى ما كان أحد منهم يتوقعها ، وأصبح من المتعذر على أحد أن يتكلم أو يسافر على هواه · ما عاد المرء يحس انه سيد فى وطنه ، ولا حتى إنه بأمان فى داره !

فى كل لحظة ، كانت تجرى اعتقالات ، وتحقيقات ، وفى كثير من الآحيان كان الناس يسأمون العذاب أثناء التحقيق ·

ممنوع عمل هذا ، ممنوع عمل ذلك · بل ولم يتورعوا عن تحريم أى شىء ، حتى أبسط الأنشطة المألوفة ·

على أن ذلك كله لم يكن سوى بداية العبودية · ولكن ما الذى سيحدث بعد أسابيع أو أشهر ، اذا طال أمد العبودية ؟ وما كان يقال عن المدة الاحتمالية لهذا العناء لم يكن مشجعا على الاطلاق ·

ما زالت هناك يونان حرة ، تواصل الحرب ، وهى جد قريبة . فى كريت ، ولكن هذه الجزيرة ما لبثت أن وقعت بدورها فى قبضة الأعداء .

والقلة النادرة من السكان الذين استمعوا الى الراديو ، قالوا ان الجزيرة جردت من العتاد ومن الرجال ، وأن الملك رحل الى مصر من حيث سيواصل النضال وسيؤازره فيه الجيش والبحرية والطيران . لم يكن هذا سوى المسكن الذى يعطى للمريض المحتضر الى أن يلفظ أنفاسه ... وذلك لأن الملك ولئن كان سيواصل الحرب ، مع الانجليز وربما انتصر يوما . الا أنه متى سيكون هذا اليوم ؟ متى ؟ ...

متى ، ما دامت انجلترا فى الوقت الراهن تجثو على ركبتيها ، وما دام الحليف الجديد ، العملاق الروسى ، يتراجع بلا توقف وينتظر أن يأتى الشتاء لنجدته ...

كان يجب أن يسلم أهل البلاد بالأمر الواقع .

سوف يكتب لنا النصر . أجل ، ولكن بعد كم من البلاء ؟ وكم سيبقون على قيد الحياة ليروا اليونان حرة ؟

فى أثينا ، وبيريه ، وفى جزر عديدة ، وعلى الجبال ، كانت الفاقة قد بدأت تزحف وتشتد . وأخذت الحاصلات الأولية كلها تتناقص ، بل وأصبح الخبز ذاته شحيحا .

وراح الكثيرون يكتبون للأهل والصحاب ملتمسين أن يبعثوا اليهم ما يحتاجون اليه لاقامة الأود .

كم من الوقت ستتحمل النفوس هذا القهر الثقيل ؟ وكم من الوقت ستقاوم الأجساد الضعيفة أيضا ؟

★ ★ ★

أصاب الخوف نيقوس مانوسيس عندما رأى جنديا ايطاليا مسلحا يدخل مكتبه . قال لنفسه « حانت نهايتى . لابد انهم عرفوا عن أنشطتى السابقة . وسوف يقبضون على » .

ولكن داخله الاطمئنان بل اكتسب من البرود ما جعله يسأل المترجم :

ـ هل أنت ضابط اتصال السيد ديامانديس ، أم انه السيد هناك ؟

تأهب المترجم للاجابة عندما سأل الجندى الأيطالى عما قاله ، وبدا عليه الغضب لهذا السؤال · أجاب بصوت مغتاظ ، وترجم الآخر كلامه حرفيا :

ـ يقول انه ما كان يكلف نفسه مشقة مصاحبتى الى مكتبك لو لم يكن عليه أن يؤدى المهمة التى كلف بها · ويسأل عما اذا كان يضايقك أن يكون هو ضابط اتصال القوندان ؟

لم يكن الايطالى رائق المزاج كي يتحمل التعليقات ، فابتسم مانوسيس ، وقال بلهجة مهذبة :

ـ لا يضايقنى ذلك على الاطلاق · انما سألت هذا السؤال ، كى أعرف من منكما أسأل عن الساعة التى ينتظرنى فيها صديقى القديم ؟

ـ فورا ·

قال :

ـ حسنا · سأنجز عملا عاجلا ، وأذهب اليه بعد عشر دقائق ·

ظل وحده · كان هذا الاستدعاء ، وعلى الأخص بهذا الاستعجال وبواسطة الشرطة العسكرية الايطالية ، يعنى فى نظره شيئا جللا ، ما الذى يريده منه هذا المغامر الخبيث ديامانديس ؟

كان ديامانديس عميلا سريا للايطاليين أثناء الحرب العالمية الأولى · وبعد ذلك صار المتحمس الأكبر للدعاية الرومانية · ولم يكن ديامانديس الذى انغمس فى أنشطة مريبة منذ أكتوبر ١٩٤٠ يتمتع بسمعة طيبة ·

كان نيقوس مانوسيس يفضل ألا تكون له علاقات مع رجل على شاكلته · ولكننا نحيا فى عصر ملىء بالعملاء · ومن المستحيل أن يرفض التعامل معه · يجب عليه فحسب أن يأخذ حذره جيدا ·

استقبله الكيفياديس ديامانديس فى مكتبه لكنه لم يكن بمفرده · كان معه شابان يراهما نيقوس لأول مرة ، ولم يكن اسم أى منهما معروفا لديه ·

استقبله ديامانديس بحفاوة ودية ، وسأله عن أخبار أسرته ، وقال بضع كلمات عن سامارينا قريتهما المشتركة ومسقط رأسيهما ، وبلا استطرادات أخرى دخل الى لب الموضوع :

ــ دعوتك يا نيقوس لانه قد أزفت الساعة التى يصبح فيها الحلم حقيقة . لقد قرر « الكبار » احتضان حركتنا الانفصالية عن اليونان ، واقامة امارة مستقلة لفلاحي اليونان المنحدرين عن أصل رومانى .

وعندما رأى دهشة المتحدث اليه ، ابتسم وقال بلهجة واثقة :

ــ من الطبيعي أن تدهش ، ولكننى أجزم لك أن هذه الساعة قد أتت . ولما كنت أثق فيك ، وأعرف قدراتك وطموحك ، فانى أرغب أن تكون مساعدى الأول والرئيسي ، وسوف أخبرك بما لا يعرف عنه الأغراب الا القليل حتى الآن . لن تقف حدود امارتنا عند جبال البنده وفقا لمشروعات عام ١٩١٧ ، بل ستشمل الجزء الأكبر من ابيروس ومقدونية الغربية وثيساليا كلها .

وأكمل الشابان كلامه قائلين معا :

ــ حتى دوموكو .

وردد ديامانديس قائلا :

ــ حتى دوموكو .

استوقفهم مانوسيس متشككا :

ــ مهلكم قليلا . ان أغلب هذه الاقاليم لا تشتمل على قرية واحدة يسكنها فلاحون منحدرين عن أصل رومانى . ونحن نعيش عصرا يتأجج فيه اليونانيون وطنية .

أجاب ديامانديس :

ــ هل تعتقد انى لا أعرف ذلك ؟ كل شيء عمل حسابه ، والخطط وضعت . وستسمع ماذا سيحدث . ولكن لا تقاطعنى . دعنى أوضح لك أولا الخطوط العريضة ، وسأعود بعد ذلك الى التفاصيل . لقد أصبحت امارتنا ، امارة الفالاك ، ضرورة ملحة بالنسبة لدول المحور .

ان اليونانيين لا صلاح لهم ، وهم متعصبون فى صداقتهم للانجليز . ستقطع اليونان أربا أربا ، وستعود الى حدود عام ١٨٨٠ . ستأخذ البانيا اقليم تسناموريا ، وستأخذ بلغاريا اقليم ثراكى وجزءا من مقدونية ، وذلك حتى تمتد نازلة الى ثيسالونيك . وستأخذ امارتنا الباقى ، لأنهم يريدون أن تكتب لها الحياة ، حتى تكون حلقة الاتصال اللاتينية بين ايطاليا ورومانيا .

كرر مانوسيس قوله بلهجة مؤيدة حتى لا يستثير غضب الآخرين :

ــ حسنا ، ولكن كيف سيكون ذلك ممكنا ، طالما انها ستكون مسكونة باليونانيين ٠

ــ أولا ، سيتحقق ذلك لأن هذا ما يريده أولئك الذين سحقوا أوربا كلها وشمال أفريقيا ، وهم فى طريقهم الى أن يسحقوا روسيا ، وثانيا سوف تستبدل المجالس المحلية كلها رويدا رويدا ٠ سنضع فيها رجالا من أعواننا ، وسوف ينادون بما نريده نحن ، وقبل كل شيء بأن السكان لاتينيون ٠

صحح أحد الشابين هذا القول :

ــ رومانيون ٠

ــ أجل ، أعنى فالاك أو كوتسوفالاك ٠ وانت تعرف انهم يسموننا بذلك ٠

ثم مضى ديامانديس يقول :

ــ وثالثا ، فان نواة الدولة الجديدة ، أى مادتها الخام ، سوف ترسى من الآن ٠ سنطلق عليها « الاتحاد الرومانى » سوف يكون لدولتنا جيشها الخاص ، الذى سيتعاون مع فرق الاحتلال الايطالية ، ورويدا رويدا ، سوف تحل الدولة الجديدة محل الدولة اليونانية ٠ وعلى سبيل المثال فى الصيف ستكلفنا قوات الاحتلال بجمع قمح ثيساليا ٠ كما ستكلفنا قبل ذلك بأن نحول لبن ثيساليا كله الى جبن بحجة أنه ليس بالامكان فعل غير ذلك نظرا الى النقص الشديد فى الملح ٠ وسننفذ أيضا كثيرا من أعمال المنفعة العامة ، وسنمد السكك الحديد من كالامبوكا الى جريفينا ٠

كف عن الكلام ونظر اليه نيقوس مانوسيس فى صمت ، غارقا فى التفكير ٠ بدأ المشروع كبيرا ، ولكنه فى الوقت ذاته غير منطقى ، بل خطرا ، ومبهما لألف سبب ٠ ولم يكن التفكير فيه يولد سوى دوار الرأس ٠

هل كان ديامانديس يعرف ما يقول ؟ هل كان يخادع ؟

قال هذا الأخير :

ــ أخمن ما تفكر فيه ٠ تتردد أن تعتقد ان مشروعا بهذه الجرأة يمكن أن يصبح حقيقة ٠ هذا يمكن أن يؤكده لك عندما تشاء ضابط ايطالى كبير فى قيادة المنطقة ٠ وسوف يؤكد لك ذلك أيضا افتتاح المكاتب المركزية للدولة الرومانية الجديدة غدا ٠

ـ هنا في لاريسا ؟

ـ هنا ، بشارع اثناس ـ دياكوس .

ـ ولكن لا يوجد في المدينة سوى قلة من أهل الفالاك . وكلهم يونانيون قلبا وقالبا . أليس من الأفضل أن يفتتح هذا المقر في تريكالا أو في جريفينا ، حيث يسكن عدد لا بأس به من رعايا الدويلة المنتظرة ؟

أجاب الآخر بقدر من الخشونة :

ـ كلا ، ليس هذا ممكنا . انه لواء فورلي الذي تلقى الأمر بوضع المشروع موضع التنفيذ . وقيادة هذا اللواء في لاريسا . أما لواء بينيرولو المرابط في تركالا ويختص أيضا بجريفينا فيبدو ان القمصان السوداء لم تعتبره أهلا لتولي مثل هذا المشروع .

خيم صمت قصـــير . كان عقل نيقوس مانوسيس يعمل بكامل قوته . بدت الخطة غير مقنعة . على أنه لو أكدها له أحد ضباط القيادة العليا فهذا سوف يغير كل شيء . لن تكون مجرد خداع اذن . لا بد أن ثمة أمرا ما تقرر في هذا الشأن بمعرفة « الكبار » ...

قلب نيقوس في رأســه المزايا والأضرار . متصــورا ما سيسأله الآخر وبما سيجيبه . راح يفكر ولا يقول شيئا لم يكن لديه مبرر كي يتكلم . كسر دياماندیس الصمت . وكان هذه المرة صارما ومصمما .

ـ بعد بضعة أيام سأدعو المثقفين من رعايا امارتنا البارزين في لاريسا ، وفي مقدمتهم من كانوا من ساماريينا مثلي ومثلك . سأعرض عليهم الموضـــوع ككل . لكنني أردت أن أتحدث اليك فأنت أقدرهم وأكثرهم حيــوية . وذلك لانه في الدولة الجـديدة سأكون أنا أميرها وأريدك أن تكون رئيس وزرائي . في المرحلة الحالية سأتخذ لنفسي لقب كبير فالاك البلقان . وستحمل أنت لقب رئيس الاتحاد .

شعر نيقوس مانوسيس بالخوف . ولأول مرة ، فقد سيطرته على نفسه . وقال :

ـ لكنني لست مستعدا لشيء من هذا القبيل . اتركني أفكر . لا أعرف ما اذا كانت لدي الصلاحيات اللازمة .

ـ لديك هذه الصلاحيات . ليس فيك الا عيب واحد وقد جعل هذا العيب الرياسة التي كانت قد أدرجت اســمك بالقــوائم الســوداء تتردد في اختيارك ، ولكنني تصديت لهم ضامنا لك . وأكدت لهم ان كل

ذلك لم يكن سوى سقطة من سقطات الشباب ، وقد عفا عليها الزمن الآن • انى متأكد انك عندما تقدمت لترشيح نفسك للعمودية • وكنت آنذاك فى مقتبل الشباب ، لم تكن ضالعا بجدية مع أولئك الذين انضممت الى عصابتهم • ليس لدى أى شك حول معتقداتك • وقلت ذلك حيث كان يجب أن يقال •

سرت البرودة فى ظهر مانوسيس • كان التهديد واضحا • قال :

— سأعطيك اجابتى غدا •

ابتدره الآخر بابتسامة معسولة :

— نيقوس ، ليس من مصلحتك أن ترفض • ولا يمكنك أن تنكر الدماء التى تجرى فى عروقك • أعرف انك من أهل الفالاك • أصيل ومتعصب لدعوتهم فلا تترك الفرصة تفلت منك اذن • أود أن نلتقى غدا بمكتب الضابط الايطالى •

سأل مانوسيس :

— من سوف يكون هذا الضابط ؟ قلت انه ضابط بالقيادة العليا •

— ان لواء فورلى يرأسه من حيث المبدأ الجنرال فوجيرو ، وهو ارستقراطى ليست له قيمة كبيرة • أما فى الواقع فاللواء يسوسه قائد الطوارىء ، وهو الذى ستقابله •

بعد صمت قصير ، غير ديامانديس نبرة صوته ، وراح يتحدث بلهجة سريعة وملتهبة ، سائلا كل برهة ان لم يكن على حق فيما يقول ، ساكبا كل السم الذى فى الدعاية الرومانية : الفالاك هم الذين خلقوا اليونان على مر الحروب وفى السلم • بينما خدعهم اليونانيون ولم يعطوهم حريتهم • لم يحترم اليونانيون المعاهدات ، ومارسوا الارهاب حتى لا يلحق الكوتسوفالاك أبناءهم بالمدارس الرومانية • وقد عذبوهم ووقفوا فى طريق تقدمهم • وليس ثمة أمان فى وضع هذه الأقلية • والاستقلال وحده هو الذى سيسمح لهم بأن يروا نور الشمس ولما كانوا مهرة ونشيطين فسوف يحققوا تقدما كبيرا فى حضن اخوتهم الرومانيين، فيما يقول • وفى كل لحظة كانت تند منهما ايماءات عصبية بالاستحسان والتأييد أو تبدو عنهما صنيحة استنكار •

كانت عيون الشابين تقدح شررا • كانا ينظران اليه مستغرقين

فيما يقول . وفى كل لحظة كانت تند منهما ايماءات عصبية بالاستحسان والتأييد أو تبدر عنهما صيحة استنكار .

لم يعرف نيقوس مانوسيس أى موقف يتخذ . تصادف من قبل أن سمع هذه الأكاذيب الضخمة المخالفة للواقع الملموس كل يوم ولكنه كان يجهل انه يوجد أناس يعتبرون هذه الأكاذيب حقـــائق . وهذان الشابان لاح عليهما انهما يصـــدقان كل هذا ، ويصـــدقانه بحماس ، وحقد . وكانت تســـاندهما فى ذلك الحراب الايطالية . انهما اذن خطران عليه .

يا للخســـارة انه لم يكن معدا لهذا الموقف . لم يكن بامكانه بلا مقدمات وأثناء النقاش أن يفكر فى أسلم أسلوب للتصرف ، ولكنه شعر بأن الموقف الذي انتهجه حتى اللحظة سيظهره بمظهر سيء . ربما كان الشابان المتعصبان يتربصان له .

كان عليه أن يصحح موقفه بسرعة . لا بد أن يظفر برضائهما ، وفى حالة ما اذا كان سيشترك فى العملية أن يعطيهما انطباعا طيبا .

فى بعض العبارات المركزة الواضحة حلل الموقف الدولى ، وقال ان الأمر سوف يتطلب النظام الصارم والعمل الكثير من ناحيـــة ، ومن ناحية أخرى سيتطلب أيضا تنمية أيديولوجيات ومصالح كبرى وركز على انها فرصة فريدة للوفاء بواجب أسمى ولاثبات قومية الفالاك وحيويتهم .

قرأ على وجهيهما انه بلغ هدفه .

ودون كبير عناء صرف ديامانديس الشابين الممتلئين بالحماس .

وأثناء نهوضهما سألهما بدهاء :

ــ ما رأيكما ؟ ألم أنتق رئيسا صالحا .

أبدى أحدهما تحفظه :

ــ سوف نرى ذلك من الأفعال .

وتكلم الآخر بصراحة أكبر :

ــ انه على ما وصفته لنا يبدو جادا ونشيطا . ولكن طوال هذا الوقت حدثنا باليونانية . ألا يعرف لغتنا ؟

وجه الشاب خطابه الى مانوسيس باللغة الرومانية ، فرد عليه هذا بلغة الكوتسوفالاك الأصيلة . كان يعرف جيدا هذه اللغة وليس اللغة الرومانية .

رد الشاب بلهجة متضايقة ، بادئا باللغة الرومانية مكملا باللغة اليونانية :

ـ الأمر سيان • أنت تعرف الصيغة المحرفة التى طبعها اليونانيون بطابعهم •

جرت مناقشة قصيرة حول الاختلافات بين لغة الكوتسوفالاك تبعا للاقاليم ، وتشابه هذه اللغة باللغة الرومانية • وبدأ التوتر يتزايد على الشابين • وحاول ديامانديس أن يلطف الجو بالانحياز الى صفهما •

لزم مانوسييس الصمت برهة •

أحس بأنه لو تعين عليه أن ينخرط فى هذه العملية ، فعليه أن يظهر نفوذه توا ، وان يوضح هذا الأمر الذى يمكن أن يصبح عقبة كبيرة فى طريقه • **فقال :**

ـ انى معكما ، ولكننى لن أشترك فى شىء ما لم يكن معتمدا على الواقع • اذهبا اذن وألقيا محاضرة بالرومانية فى قرى الفالاك ! ما من أحد سيفهمكما • وما أما فالجميع سيفهموننى • ما الذى تفضلانه ؟ أن تكون اللغة بحاجة الى أن تقوم ويرفع من مستواها وتثرى مسألة أخرى سوف تعالج رويدا رويدا بفضل المدرسة • أما الاصرار واصدار الأوامر فلن يوصل الى شىء •

وعندما رأى ان كلامه أحدث تأثيره ، **أضاف بمزيد من الصرامة :**

ـ هذا رأيى ، ولن يجعلنى أحد أغيره • واذا لجأنا الى العناد وابتعدنا عن الواقع فان ذلك سيسبب أضرارا بمصالحنا ، ويعطى للمعارضة الفرصة أن تنتصر علينا •

بقيا وحدهما • مال ديامانديس نحوه ، وخفض صوته قائلا :

ـ حسنا فعلت ان أغلقت منقاريهما • انهما لا يطاقان • أنفقت السلطات فى رومانيا على دراستهما من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة، بينما والداهما معدمان حافيان ، يعملان راعيى ماعز فى أفديلا • يمكنك أن تتصور ما تعنيه بالنسبة لهما بوخارست وكيف يطيعانها طاعة عمياء • أما أنا فرحب التفكير وواقعى • وبالنسبة لكل ما ذكرته لك من وقائع تاريخية فى كلامى اليك فانى أعرف جيدا ما ليس صحيحا ، ولكننى تعمدت أن أتكلم هكذا أمامهما ، وأردت أيضا أن يعرفا انك تنتمى الى الفالاك قلبا وقالبا • ولكن كى تتاح لى فرصة أن أحدثك عن بعض الأمور فى هذا الموضوع فضلت أن نبقى وحدنا •

ومضى يقول بلهجة حميمة :

ـ كل شىء سيسير على ما يرام يا نيقوس • هناك نقطة وحيدة

شائكة ، وشائكة جدا · بوخارست تريد أن تكون الحركة ، ومن بعدها الدولة ، رومانية وتتبعها هي · فقد بذلت من أجل ذلك ستة وستين عاما من الجهد والمال · على أن روما من ناحيتها تريدها دولة لاتينية ، تبسط عليها قبضتها المطلقة · أرأيت كيف ان المســألة على غاية من الدقة ؟

ابتسم نيقوس ابتسامة خبيثة :

ـ اخوة من ناحية ، أبناء عمومة من ناحية أخرى · لقد أحسنت صياغة المشكلة ·

ابتسم الآخر بدوره ، وغمز له بعينه :

ـ أجل ، الصياغة طيبة · ولكن الايطاليين يريدون أن يكونوا هم الأخوة · وان يضحى الرومانيون هم أبناء العمومة · المسألة تحتاج الى قدرة على المعالجة · وهي ليست سلسة ·

قال نيقوس بعد برهة من التفكير العميق :

ـ كلا ، انها ليست سلسلة · ولكن ما دامت الحرب قائمة فلن يكون من الصعب أن نلعب على الطرفين بأن نقول للرومانيين انه بغير مساعدة الايطاليين ليس بالامكان عمل شيء ، وان نقول للايطاليين بأنه اذا لم نساند الموالين للرومانيين فلن نستطيع أن نتقدم خطوة ·

غمز له الآخر بعينه من جديد :

ـ **وبعبارة أخرى :** نحن اخوة هؤلاء ، واخوة أولئك · ولـكن قد يحدث أن يغضب ذلك الطرفين · ولهذا فانى أفضل صيغتى أنا بأن تقدم مخططنا لكل من الطرفين على انهم هم الاخوة وان الآخرين هم أبناء العمومة ·

ـ يمكن أن يثور الطرفان عندما يعلم كل منهما ما يقال للطرف الآخر ·

ـ المسألة تتوقف على حسن المعالجة · وعلى كل حال فهذه هى النقطة الشائكة فى الموضوع · ستتبينها بنفسك غدا أثناء مقابلتك لباتسيبولينى ·

ـ من باتسيبولينى هذا ؟

ـ قائد الطوارىء فى المنطقة ·

ـ لكننى لم أقبل بعد ، يا الكيفياديس !

نهض هذا الأخير ، وربت على ظهره بمودة ·

ـ هيا ، يا نيقوس ، لا تتصرف كالأطفال · تعرف انه ليس لك مخرج آخر · وفضلا عن ذلك فان هذا الطريق سيقودك عاليا . عاليا جدا · أما الطريق الآخر ··· فأنت تعرف الى أين يقود ·

أراد نيقوس أن يقول شيئا ، ولكن الآخر لم يدع له الوقت · وقال :

ـ تحدثت اليك ، كأخ ، وأنا موقن أنك ستكون ذراعى الأيمن · سوف ترى كيف سأتحدث عنك الى زملائك بعد بضعة أيام · فلا ترتكب أى خطأ · فسيكون بالنسبة لك ، أنت على الأخص ، كارثة ·

ثم أضاف بلهجة قصد بها أن تكون غير مكترثة ، ومتخذة نبرة استعلائية :

ـ أريد أن أقول لك شيئا آخر أيضا · وفكر فيه أثناء مقابلة الغد· يمكنك أن تتصور ان صناعة الجبن ، والأشغال العامة ، والمشروعات الأخرى كلها سوف تكون مشروعات ضخمة · بل وضخمة فى الاطار الاوروبى · ان كل لبن ثيساليا وقمحها سوف يكون بين أيدينا · تفهم ما يعنيه هذا · ولذلك فان بعض الضباط الايطاليين يلمحون بوضوح أنهم يريدون أن يكون لهم نصيب فى كل هذا · لا أعرف ما اذا كان يختفى وراء هؤلاء بعض من رؤسائهم ، ومن هم · ولكنى سوف أسهل لهم الأمور· سوف أرى كيف أظهر أنا فى الصورة كى يظلوا هم مستترين، وسأساعد مساعدى المقربين كى يضعوا شيئا من الأرباح فى جيوبهم الخاصة · أما بالنسبة لى فهذا الأمر لا يثور ، فأنا لا أريد مالا · أريد أن يدخل الجزء الأكبر من الحبوب خزانة الاتحاد · ان دولة ، أو على الأدق نواة دولة ، بلا خزانة عامرة ، لا تساوى شيئا · فى لقائك بباتسيبولينى يجب أن يتجه اهتمامك على الأخص الى نقطتين · الأولى : أصلنا اللاتينى· والثانية : المشروعات · الأفكار التى ستعتمد عليها فى حديثك سوف تكون الآتية : اننا لا نهدف الى أى نفع أو كسب مادى ، والمكاسب ستدخل خزانة الاتحاد ، والمشروعات لازمة كى يمكننا أن نحل حلولا واقعيا وتدريجيا محل الدولة اليونانية ·

نظر الى ساعته وهو يخرج من عند ديامانديس · كانت الساعة الثامنة · ولديه متسع من الوقت · جرى الى مكتبه واستدعى كيتى بالتليفون · **قال لها :**

ـ تعالى حالا · أريد أن أتحدث اليك دون أن يقاطعنا والدك ·

خطرت الأفكار برأسه مثل ومضات البرق ، وهو ينتظر ابنة أخيه · راحت فكرة تطارد الأخرى ، ومضت الأفكار تتصادم فى رأسه · جلس فى كرسيه منتصب الظهر خلف مكتبه ، وقد ثبتت نظرته الصارمة أمامه · بدأ كما لو كان يجتهد ليقرأ المستقبل على سطح الحائط أمامه ·

سمع الباب يفتح ، ودخلت كيتى · رشيقة ، جميلة ، أنيقة ، لف جسدها فستان من اللون الأزرق الفاتح يتناسب مع بشرتها الشقراء ·

تأملته ، وقالت :

ـ ظننت أنك سمعت من يتحدث عن زياراتى الى فتيليونا وانتابك القلق باعتبارك من الأعمام القرويين المحافظين ·

استعاد سيطرته على ميله الى التهكم وقال :

ـ كأنك ما عدت تفكرين فى الأمر · لماذا غيرت رأيك ؟

بعد أن نظرت برهة قصيرة الى عينيه ، اجابت :

ـ نادرا ما رأيت هذا التعبير على وجهك · بل ربما لم أره قط · لا بد أن ثمة شيئا جسيما يحدث ، شيئا جديدا ·

سأل باهتمام :

ـ ما الخطب فى التعبير الذى على وجهى ؟

قالت :

ـ النزعة التهكمية خبت · ثم اذا كانت ملامحك على الدوام صارمة قليلا ، فهى هذه المرة بلغت أقصى حدودالصرامة · وفضلا عن ذلك، يمكننى أن أقول لك انك تبدو قلقا ، مرتعبا ، وفى عينيك جذوة لهب متقدة · انك تبدو غريبا هذا المساء يا عمى ·

طوقها بنظرة معجبة ، وقال :

ـ يمكنك أن تتصورى الى أى حد أصبت القول · انت شيطانة ·

لم أكن على خطأ عندما فكرت ان ما من أحد يستطيع أن يعطيني نصيحة سواك ٠

وقص عليهـــا زيارته لديامانديس ، محيطا اياها علمـــا بكل التفاصيل ، ساردا الحوار كما لو كان سجله على شريط دون أن يضيف اليه أى تعليق ٠

واختتم حديثه قائلا :

ــ يمكنك أن تلاحظى اننى تحاشيت أن أدلى بالرأى ، ذلك لاننى أريد أن أحصل على رأيك حرا دون أدنى تأثير عليه ٠

أصغت اليه بانتباه كبير ، وباهتمام متزايد ، متعلقة بشفتيه ٠ ولم تدل باجابتها سريعا ٠

سألها وقد نمت عيناه عن بعض القلق :

ــ اذن ؟

ــ أعتقد انك اتخذت قرارا قبل ان تستدعينى ٠ لكننى سأعطيك رأيي ٠ ان الحكاية كلها تتوقف على من سيكسب الحرب ٠

قال العـم :

ــ بالنسبة لهذه النقطة لا يخيل لى ان ثمة شكا يثور ٠ وأعتقد ان هذا ليس لب المشكلة ٠ وباختصار ، فانني سأدخل فى صراع مع أهل المدينـة كلهم ، سواء أكانوا من الفالاك أو لم يكونوا ٠ كيف تبـدو لك الأمور اذن ؟

قطبت وجهها بازدراء وقالت :

ــ نتحدث عن مسألة ذات أهمية عالمية وانت تقلل من شأنها وتجعل منها مجرد مشكلة اقليمية يونانية ٠ أنا لا أعمل حسابا لأهل المدينة واعتبرهم مجرد تفاهات ٠ فهل سبتوليهم انت اعتبـارك ، عنـدما تسنح لك ، ماذا أقول ، عندما تعرض عليك فرصة من أكثر الفرص ابهارا ، وعلى الأخص وانت الرجل الذى لم يلق بعد المكانة اللائقة به ؟

قـال :

ــ هذا صحيح ٠ ولكن الناس جميعا فى هذه الفترة تجتاز أزمة مالية مستحكمة ٠

قالت كيتى ببرود :

ــ سوف تمر الأزمة ٠ انهم جميعا بورجوازيون جبناء ٠ وكلما زاد

وضع الحلفاء ضعفا ، كلما تناقص انتفاخهم • فى البداية سيعارضونك ، ولكن رويدا رويدا سيأتون اليك يقبلون يدك • ولهذا فانى أعتقد انه سيكون من الأفضل فى الفترة الأولى ان تذهب فورا لتقيم فى مكان آخـــر ، وسنشيع اننا لسنا متفقين معك تماما •

قال بصوت لائم :

ـ ليس مفهوما هذا الذى تقولينه • سيكون ذلك وكأنكما تعطيان المثل للآخرين ليقتدوا بكما •

ـ أجل ، ولكن بهذه الطريقة سيحتفظ أبى بمنصبه • وسيتقبل الأمور بشــــكل أفضـــــل ، اذ أنه سيلعب على وترين ، وهذا يناسب شخصيته • سنتعرف على ردود الفعل ، وسنخبرك بها • وعندما ينحنى أغلب الناس ويدينون لك بالولاء • بل وقبل ذلك اذا لزم الأمر سنجاهر برأينا صراحة نحن بدورينا •

قال بجفاء :

ـ هذا الاسلوب لا يعجبنى • انها البداية التى ستكون صعبة ومساندة أهلى لى سوف تكون لازمة • هذا فضلا عن اننى فى عـلاقتى بالايطاليين ساحتاج الى معاونتك •

تبادلا النظرات لحظة ، ببرود وفى صمت ، ثم قالت كيتى بتؤدة :

ـ من ناحية أعتقد اننا بهذه الطريقة سنسندك أكثر • ومن ناحية أخرى ، فان هذا الموقف المائع لا غناء عنه بالنسبة لى ، لأننى لا أعرف بعد ما اذا كنت سأساعدك • بدأ كوليتيس يجذب اهتمامى حقا •

ظل نيقوس مانوسنيس فاغرا فاه • وقال :

ـ ولكن أى علاقة لذلك بموضوعنا • ثم ان كوليتيس أصـــبح يحتـــذى بالفلاحين • رأيته فى المدينة مرتديا ملابسهم ويحمل مذراة • انى لا أفهمك •

قالت بصوت حالم :

ـ لقد صار رجلا • وسيما وناضجا • وقد أصبح يتأجج وطنية • أرجو ان يتخلى سريعا عن كل ما يفعله الآن مدفوعا بوطنيته • ربما فعل ذلك مع مقدم الشتاء بامطاره وأوحاله التى تذيب كل مقاومة • اذا تخلى عن ذلك ولم يبق فيه سوى اهتمام حيوى بفتيليونا فسوف أتزوجه • ذلك ما يجعلنى بحاجة الى هذه المهلة • اما اذا توصلت الى الاقتناع بأنه

يريد ، كما يبدو عليه فى الوقت الحاضر ، ان يتحول الى فلاح ، والى الأبد ، فسأجد القوة من جديد كى أنفصل عنه • وعندئذ •••

ابتسمت ابتسامة ملتوية • ومضت تقول :

ـ وعندئذ سأكون ابنة شقيق رئيس الوزراء • ولا ينقصنى الجمال ولدى قليل من العقل ، وستجد انت لى ضابطا ايطاليا ، وهو ما سيسمح لى بأن أفلت بعيدا عن هذه الحفرة الموبؤة اللعينة •

ثم نهضت ، وقالت بصوت خانق :

ـ ما عدت أستطيع • لن أحتمل ذلك للمرة الثالثة •

نهض بدوره وأحاطها بذراعيه • يعرف كل منهما ان فى قلبه نحو الآخر حنان لا ينضب ، وانهما لا يشعران بهذا الحنان نحو الآخرين الا فيما ندر • قال لها :

ـ ما الذى لن تحتمليه مرة ثالثة ؟

بدا عليها الحزن ، ولكن بلا افتعال ، قالت فى سكون ورصانة :

ـ لا شيء • ان الاشجان ، مثل أقدارنا ، لا يشاركنا فيها أحد •

تحررت من ذراعى عمها • واستدارت على كعب حذائها •

ووجدت نفسها فى مواجهته ، وقالت له بنبرة مداعبة :

ـ لو احتجت اليك كوسيط ، سوف أخبرك فى الوقت الذى أريد، يا سيادة رئيس الوزراء • وعندئذ سأساعدك من كل قلبى •

بقى لحظة بلا حراك ، صامتا ، وبلا ادنى تعبير • ثم قال :

ـ بالنسبة للوقت الحاضر لا تقولى شيئا لأحد • سنتشاور من جديد • سأحيطك علما بكل ما يحدث ، وستقولين لى كل ما سمعته ورأيته • أعرف الصعاب • ولكن تصورى نحو أى شيء أبحر • لو آكد لى قائد حالة الطوارىء الايطالى ما قيل لى ، فسيعنى هذا انه من الآن فصاعدا سأحكم ثيساليا ، وفيما بعد سينبسط نفوذى من بحر الادرياتيك الى بحر ايجيه ، ومن الحدود الى دوموكو •

قالت بصوت يتاجج حماسا :

ـ وربما آكثر •

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ لو سارت الأمور على ما يرام ومات ديامانديس •••

ـ أصمتى ! ••• ومن هذه اللحظة اغلقى فمك تماما عندما لا تكونين معى •

٤

كم العبودية ثقيلة ! وكم ليلها أسود وكئيب !

وبأى ثعبان تلفنا هذه العبودية ، وعلى الأخص عندما يكون لنا أسرة ، وأولاد صغار السن نكدح من أجل اطعامهم ، وتربيتهم ، واذا أمكن من أجل تعليمهم أيضا !

وكما لو لم تكن الهموم الأخرى التى تتكاثر كل يوم تكفى ، فيأتى هم آخر كى يوجه الينا لطمته !

ما الذى يعنيه « اتحاد البلقان » هذا ؟ وما هذه الدعوة الآمرة التى بعثها اليهم ذلك الخائن ، المغامر الكيفياديس دياماندس عن طريق جنود ايطاليين ؟ وكيف يمكن ان يأتمر بأمره جنود ايطاليون ؟ ولماذا يطلق عليه لقب كومنداتور وهو ما يعادل على حد قول أصدقائه لقب صاحب السمو ؟ فيما كان يريدهم ؟ فيما سيحادثهم ؟ وعلى كل الأحوال ، فالأمور لا تنبىء بالخير • فى أية مغامرة سوف يجرجرهم ؟

هذه هى المسائل التى طرحها على أنفسهم محامو وأطبـاء لاريسا المنحدرون عن قرى الفالاك وهم يتجهون الى مكتب الاتحاد الذى اصطف أمام مبناه بعض الجنود الايطاليين يذهبون ويجيئون •

فى هذه المسائل مضوا يفكرون بقلق ، ويتســاءلون باضطراب عن فحوى الدعوة التى وجهت اليهم فى صيغة الأمر • ولم يطل بهم الـوقت حتى يعرفوا ماذا كان يراد منهم •

لم يبقوا سوى بضع دقائق فى الغرفة الجانبية • قبل ان يدخلوهم الى غرفة واســعة الأرجاء وقف فيها دياماندیس يرحب بهم خلف مكتب ضخم •

والى جواره ، ولكن عن ورائه بقليل وقف ــ وهو ما لم يكن يتوقعوه ــ زميلهم وصديقهم نيقوس مانوسيس •

كان الأول عصبيا • اما الثانى فكان هادئا ، وأكثر شحوبا من المعتاد بقليل ، وقد بدا عليه البرود والاستعلاء • وعندما أخذ دياماندیس يتكلم عقد ذراعيه على صدره والتزم هذا الوضع طوال الوقت ، وراح يتابعهم بنظرة ملتوية متغطرسة •

تكلم دياماندیس اليهم بلهجة عنيفة ، مظهرا منـذ البداية قدرا من الشراسة • وبدأ يعاتبهم على عدم مجيئهم من تلقاء أنفســهم لزيارته • ألقى عليهم الخطبة الدعائية المعهودة عن الماضى ، وأعلنهم ان امارة الفالاك

قد أنشئت فعلا ، وركيزتها التأسيسية هى الاتحاد البلقانى الذى يرأسه نيقوس مانوسيس ، وأما عاصمة الامارة فالاحتمال الأكبر ان تكون لاريسا التى سترى بفضل ذلك نهضة كبيرة • وستكون ساماريبنا مقر الرياسة الصيفى • واختتم خطابه بأنه يعتمد على عونهم ، ويتمنى ان يكونوا على مستوى المسئولية •

خيل اليهم ان الصواعق سقطت على رؤوسهم ! كانت ورطة عويصة ! الجميع لديهم أولاد وبيوت يقيمون أودها ، وسنهم ليس بالصغير ، ولكنهم جميعا كانوا على الأخص يونانيين ، وفخورين بذلك ، وقد كرهوا على الدوام الدعايات الرومانية وحاربوها من تلقاء أنفسهم ، دون أن يجبرهم أحد على ذلك ، مقتنعين بأن الضمير الوطنى لا يمكن أن يباع ، ولا يغير لقاء المال •

كيف يتنكرون لمعتقداتهم ؟ ولكن أيضا كيف سيعولون الآن أسرهم اذا عارضوا فكرة « الاتحـاد » ؟ هوى أميرهم المقبل بقبضته على المكتب • وصاح :

ـ لماذا لا تقولون شيئا ، أنتم أيضا ؟ لماذا ألجمتكم ألسنتكم ؟

تكلم واحد منهم فقال :

ـ نحن ، يا الكيفياديس ، عشنا سعداء فى هذا الوطن • كنا أطفالا بلا ثراء فشققنا طريقنا بلا عقبات • ولا نشعر بانفسنا غرباء •

أفلت منه الزمام ، وصاح بأعلى صوته :

ـ ألستم من الفالاك ؟ ان كل الفالاك ينتمون الى جنس واحد • ألستم من الفالاك اذن ؟

أجاب الآخر ، دون ان يرفع صوته ، ولكن بحزم :

ـ نحن فالاك ولكننا فالاك يونانيون نتكلم اليونانية • وانت نفسك، جئت تحدثنا باليونانية •

ارغى كبير فالاك البلقان وأزبد قائلا :

ـ تحدثت اليكم باليونانية ، لأننى أعرف ان بعضا منكم قد تدهور حاله ونسى لغة أجداده • ولكننى جئت أنقذكم ، وأصنع منكم رجالا • من موناستير الى دوموكو ـ هل تسمعوننى ؟ ـ الى دوموكو ! ستقوم امارتنا، وسيساندنى فى ذلك الجيش الايطالى الذى يقف خلفى • هل تسمعوننى؟ أرجو أن يلقنكم هذا الطبيب مدعى الشجاعة الذى لم يشأ أن يصحبكم الى هنا درسا ، وانى أخبركم بأنه سيأتى كرها وسنجعله ينصاع رهبة ؟•

كان يدق المكتب ، ويتكلم بعصبية ، وانفعال ، ويرغي ويزيد غضبا٠ ومضى بلهجة أكثر عنفا :

ـ من سيتبعني سيختط طريقه ٠ ومن لن يتبعني سيرسله الايطاليون يقطع حجارة لرصف الطرق ٠ هل تسمعون ؟ لقد قضى الأمر : ستقطعون حجارة فى جحور ضيقة ! انى أمنحكم ثماني وأربعين ساعة كي تجيبوا ٠ هيا ، انصرفوا ٠ انصرفوا ٠

توقف واحد من الجماعة وقال :

ـ نحن نعول أسرا ، يا الكيفياديس ٠ دعنـــا فى حالنا ، وأتركنا لهمومنـــا ٠

ساكنا ، بلهجة مستعلية أجاب نيقوس مانوسيس :

ـ أما معنا ، واما ضدنا ٠ هذه سياستنا ٠

صرخ الزعيم قائلا :

ـ اغربوا عن وجهي ! سوف نتحدث فى الأمر من جـديد بعد ان تكونوا قد فكرتم ٠

* * *

فى الغد ، بعد الظهيرة ، دخل عيادة الدكتور نيقوس رابتيس اثنان من جنود الشرطة الايطاليين ومعهم واحد من مساعدى الضباط ، بصحبة المترجم الذى لاغناء عنه ٠ كانت العيادة فى وسط المدينة الى جوار الميدان ولم تكن قد استكملت بناءها الا قبيل الغزو الايطالى بقليل ٠

وبمشقة أصلحت الاضرار التى سببها الزلزال ٠

سأل رجلا الشرطة الايطاليان عن الطبيب ٠ ولما وجداه قالا له :

ـ الكومنداتور بانتظارك ٠

ـ يجب أن أرى مرضاى الآن ٠

ـ سوف تراهم فيما بعد ٠ كما انك لم تلب الاستدعاء الذى وجه اليك بالامس ٠ لدينا تعليمات بان نقتادك اليه ، فورا ٠

تبعهم ٠ كان يعرف انه « ضعيف الاحتمال وسريع الانفعال » وكان

يردد عن نفسه ذلك ، ولكن هذه المرة كان يجب عليه ان يتماسك ، مهما بلغ ما سيوجه اليه من سوء المعاملة · كان مسئولا عن أسرة ، واستدان مالا كي يبنى العيادة · على انه لن يخضع ولكنه سيتحاشى أيضا كل اثارة · كان من الضرورى ان يسيطر على نفسه · من حسن الحظ ، انه كانت تربطه بنيقوس صداقة قديمة ، ومن حسن الحظ أيضا انه أخذ الأهبة لهذه المقابلة بفضل ما أخبره به الآخرون · وان كان لا يعرف على وجه التحديد ماذا سينسمع ، وأى جو سيجد ·

وعلى الرغم من الكومنداتور لم يكن فريسة الغضب ذلك اليوم ، فان الطبيب أحس بانه يقترب من حافة الانفجار ، وان عقله يثور فيه بركان كلما امتدت المقابلة واستطال النقاش · كان الأمر يفوق التصديق حقا ! يا للعار ! كيف يرضى صديقه نيقوس ان يمد يد المؤازرة لهذه الفضيحة ؟

وبعد أن فرغ دياماندیس من عرض مشروعاته ، لم يطلب منه العون والتأييد · بل سأله وقد امتلأ بالرضا عن نفسه :

ــ حسنا ، ما رأيك ؟

أجاب الطبيب ببرود :

ــ انى دهش ·

سأله دياماندیس متشككا :

ــ تدهش لأن الفالاك يعبرون عن أنفسهم فى النهاية ؟

ــ كلا · بالعكس · أدهش لأن الأمور ليست على ما تقول اطلاقا ولأننى لم أكن أتوقع ان نطالب نحن بتخريب اليونان ·

لم يستشط الزعيم غضبا كما فعل البارحة · شبك يديه خلف ظهره ، ومال بجسمه الى الأمام متجهما · **اقترب من الطبيب ، وجاء يجلس قبالته :**

ــ لكن قل لى اذن ، يا دكتور ، ألست من الفالاك انت ؟

اقترب نيقوس مانوسينس بدوره :

كاد الطبيب يفقد زمام أعصابه ، لكنه أفلح ان يجيب بهدوء :

ــ انى من الفالاك بلا شك ، ولكن الفالاك يونانيون · وقد تعلمت القراءة فى المدارس اليونانية · وأديت الخدمة العسكرية فى الجيش

اليوناني • ومنذ فتحت عيني لم أر علما سوى علم اليونان ذى اللونين الأزرق والأبيض •

رنت صفعتان مدويتان على خدى الطبيب ، بينما راح ديامانديس يصرخ :

ـ خذ • سيجعلك هذا ترى علما آخر •

أسرع مانوسيس يتدخل بينهما • أمسك برئيسه قائلا انه ما كان يجدر أن يفعل ذلك • ثم هرع الى الطبيب الذى استبد به الغضب فأمسك بكرسى شرعه كى يرد ما لحقه من أذى ديامانديس •

وأهاب به نيقوس قائلا :

ـ كلا ، يا دكتور ، أرجوك •

صاح الطبيب :

ـ أغلق فمك ، أيها الخائن • اغلقه ، أيها القذر ! اغرب عنى !•

أمسك مانوسيس بالكرسى • وفى هذه الاثناء أقلقت الضجة الجنود الايطاليين بالخارج فدخلوا وفرقوا بينهم • طلب الزعيم منهم شيئا بالايطالية وهو ينتفض غضبا • ساقوا الطبيب الى الباب ، وقالوا له أن ينصرف •

من خلف مكتبه صاح فيه ديامانديس ، وهو يراه خارجا :

ـ احترس جيدا ، فسوف تسحق عظامك ان لم تنصع لنا • احترس، فسوف تسحق عظامك •

رد عليه الطبيب قبل ان يخرج :

ـ فلتسحق عظامى مائة مرة ! لن أكون انفصاليا •

★★★

ظل رئيسا الحركة وحدهما • لاحظ ديامانديس ان نظرة مانوسيس قارسة وجسيمة • أشاح بوجهه • ذرع الغرفة مرة أو مرتين واضعا يديه خلف ظهره •

قــال :

ـ يبدو ان الأمر لن يسير بيسر •

ـ هذا مؤكد •

ـ لم أكن أتوقع ذلك ٠

ظل نيقوس على صرامته وصمته ٠ تحاشى ديامانديس نظراته من جديد ٠ **وكرر ما قاله :**

ـ لم أكن أتوقع ذلك ٠

ـ لماذا ؟

ـ كيف ، لماذا ؟ انى أصنع من حلمهم حقيقة ، ويقاومون ٠ ثم تسأل لماذا ؟

استمر الآخر ملازما الصمت ٠

ـ الا اذا كنت غير موافق ، انت أيضا ؟

ـ لو لم أكن موافقا لما كنت سأوجد هنا ٠

ـ هذا صحيح ٠ ولكن ما الذى يحدث من هؤلاء ؟ الا أصنع من حلمهم حقيقة ؟ نعم أم لا ؟

ـ ربما كان حلمهم هم شيئا آخر ٠

ـ هذا مستحيل ٠ انهم فالاك ، بل وأغلبهم من ساماربنا ٠

ـ أبوك أيضا كان من ساماربنا ٠

ـ وماذا فى هذا ؟

ـ لماذا اذن سماك الكيفياديس وسمى أخاك ثراسيفولوس ٠

غضب ديامانديس :

ـ تريد ان تقول انه كان يونانيا ؟ حسنا ٠ أقول لك انه لم يكن كذلك ٠ بل كان مفسدا ٠

ـ من الذى أفسده ؟

ـ القساوسة أفسدونا باناجيلهم ومدارسهم ٠

بذل نيقوس كل جهده كى يتفادى المزاح ، ولكنه لم يقاوم نفسه من أن يقول :

ـ لم أكن أتصـــــور ان تكون انت من يسترشـــد فيما يقول بكارل ماركس ٠

ـ لماذا ؟ ماذا قال ماركس ؟

ـ ان الدين أفيون الشعوب ٠

خطا ديامانديس غاضبا بضع خطوات ثم عاد وتوقف ٠

ـ هذا سخف • بلغ تحياتي الى ماركيس ! ان الدين والوطن ، والملكية ليست مخدرات • بل هي دعائم المجتمع •

متحاشيا على الدوام نظرة مانوسيس ، ثبت أنظاره على الأرض الخشبية مستغرقا في التفكير • ثم مضى يقول بهلجة مغايرة :

ـ دعك اذن من أبي ومن ماركس ، يا نيقوس • وقل لي رأيك • ما الذي يجري ؟ هل أخطأت بصفعي هذا المتبجح •

ـ ربما اخطأت ، وربما لم تخطيء •

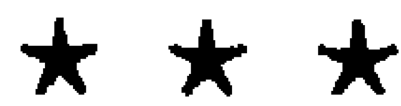
ـ أفادكم الله !

ـ اريد ان أقول ان في ذلك بعض المزايا وفيه أيضا بعض المضار • وعلى أي حال ، فليس الأمر سوى حادثة تافهة ليست بذي أهمية •

بدت على ديامانديس الحيرة حقا •

ومضى الآخر يقول ببرود :

ـ على الأقل ، بالنسبة لجوهر المسألة • فاننا يجب ان نعرف وليبق هذا فيما بيننا تماما ، اننا نمارس أمرا لا يرضى عنه الناس • ولكن ما دمنا قد انخرطنا في الموضوع ، فمن الضروري ان نسوسه على ما يرام • وكي نسوسه على ما يرام ولو رغما عن الجميع وضد رغباتهم يجب ان نلجأ الى اجراءات مختلفة ، ونستعين بالوسائل الكبيرة • اذن ما أهمية صفعة على الوجه ؟ ربما كانت مفيدة كتحذير من ضربات أعنف •



لن يغلق مكتبه •

ما كان يجب أن يفعل ذلك •

قبل كل شيء ، سيقول الناس انه ليس بحاجة اليه ، وسيضر ذلك بمركزه ونشاطه المهني • ومن ناحية ثانية ، فانه بحاجة اليه • فلو لم يكن للاتحاد نتائج في المستقبل القريب ، فان لقبه كرئيس للوزراء سوف تعود عليه بزيادة في العملاء • سوف يقتضيه الأمر فحسب أن يستعين بمساعد له • ربما تفاهم مع زميل على أن يرسل اليه القضايا ، ويتقاسم معه الأتعاب دون أن يدري أحد بذلك •

حقا ، لا يجب ان يتخلى عن مهنته • فقد كانت أيضا شيئا يعود عليه بالنفع وله جدواه فى خضم هذه الأيام العاصفة التى يحيونها • وعلى سبيل المثال ، بعد هذه الحادثة المجوجة التى ألمت بصديقه القديم رابتيس والمناقشة الغبية التى جرت مع ذلك الغبى ديامانديس ، فانه مما يعيد اليه بعض هدوءه أن يفكر انه سيتوجه الى مكتبه ، ويفتح ملفات ألفها ، ويبحث عن حجج يكتبها فى مذكراته ، وينغمس فى أبحاث قانونية •

ولكن ما ان استدار عند ركن الزقاق الذى يوجد فيه مكتبه حتى فقد سكينته التى استردها مؤقتا •

فى ظلال هذه الليلة التى تأخر مجيئها ، لمح فولا • رآها من بعيد تسير ببطء ، تتجاوز المكتب ثم تعود أدراجها • كانت تتظاهر بأنها تمر من هناك مصادفة ، ولكنها فى الواقع كانت تنتظره • لا شك أنها سوف تؤنبه بدورها •

أدخلت هذه الفكرة البهجة الى قلبه •

كان يعرف ان فولا تعبده ، وانه هو كله لها • فلم يكن بدوره غير مكترث بها ، بل على العكس فان هذه المرأة جذبته أكثر من أى امرأة أخرى • ولكنهما لم يكونا يتبادلان الحب بالطريقة ذاتها • انها تحبه بكل روحها وجسدها • اما هو فلم يكن يحبها الا بجسده ، وربما أيضا بعقله الى حد ما • ليس معنى ذلك انها ليست الا للحب المبتذل ، وانما هى لاشك لا تضارع كيتى من ناحية الشخصية ، والثقافة والذكاء ، والاهتمامات ، ولكنها أيضا كانت واحدة من أبرز نبساء المدينة • كلا ، انها لم تكن مسئولة عن نوعية حبه لها • فقد خلق هكذا • وما كان بامكانه ان يحب على نحو آخر •

كانت تنتظر حضوره ، ورتبت الأمر كى تصل فى الوقت ذاته الذى يصل هو فيه • ودلفت الى المكتب برشاقة • كانت الستائر مسدلة • وما ان أغلق الباب بالمفتاح حتى تعلقت به ، وسألته قلقة :

ـ حبيبى نيقوس ، أى ورطة هذه التى أوقعت نفسك فيها ؟ كيف جرؤت ان تفعل ذلك ؟

نظر اليها بنظرة مكتئبة • وقال لها :

ـ هل جئت تؤلميننى ، انت أيضا ؟ ان لدى ما يكفينى من المتاعب على أى حال •

ربتت على شعره ووجهه :

ــ لا يانيقوس ، يا عزيزى · لا أريد ان أسبب لك ألما · جئت لأننى خائفة · نما الى علمى ما حدث بالأمس · أولئك الذين كانوا هناك لا يخبرون الجميع بما وقع لكننا علمنا بما حدث ، حكوا كل شيء لزوجى · لابد انه كان مشهدا فظيعا ·

ــ ولو كنت رأيت ما حدث اليوم ، منذ بضعة دقائق فحسب لرأيت ما هو أسوأ مما حدث بالأمس ·

ــ من كان هناك اليوم ؟

ــ نيقوس رابتيس وحده ·

تمتمت مذهولة :

ــ أقرب الأصدقاء الى زوجى · وهما يتعاونان فى العمل أيضا ·

بعد برهة مضت تقول بصوت منفعل وبالغ القلق :

ــ نيقوس ، ماذا سيحدث ؟ كل الناس سيعرفون بما حدث قريبا ! لا زال فى الوقت متسع ! ارحل ! سنقول انك لم تكن موافقا ، وكانت لديك الشجاعة ان ترحل · لو كان فى الامكان ان يساعدك وجودى الى جانبك سآتى معك · نيقوس ، أتوسل اليك ! ارحل !

قال لها بصوت جهم وعنيد :

ــ لن أرحل · على رسالة يجب اداؤها واذا لم يفهمها الناس الآن فسوف يفهمونها فيما بعد · سأحمى وضع الفالاك ، وأعلى من مقامهم ·

ــ نيقوس ، أنسيت ما كنت تقول لى عن الفالاك قصــــار الذيل فيما مضى ! خبرنى الحقيقة ، خبرنى أنا !

ــ انها الحقيقة ما أقوله لك الآن · تيقنت انه فى خضم المبالغـات التى ينشرونها هناك أيضا كثير من الحقيقة · لا شك ان الفالاك كانوا على نحو أو آخر مقصيين فى الظل · وفضلا عن ذلك فان ثيسالونيك وجزءا كبيرا من مقدونية تتعرض لخطر كبير من جانب البلغاريين فاذا أنقذنا تلك البقاع سوف يكون الفضل فى ذلك لنا · امـا من ناحيتنا ، فسـوف نكون من حيث المظهر دولة لاتينية ، ولكن فى الجوهر سنظل مع اليونان ·

مسحت بيدها وجهها وذقنها · وألقت اليه نظرة مرتعبة ·

تمتمت تقول :

ـ نيقوس ، يا حبيبى ٠ عما تتحدث ؟ أتعنى ان قولهم ٠٠٠ حتى دوموكو ٠٠٠ كل هذا صحيح ؟ ٠

أجاب بخشونة :

ـ أجل ، انه صحيح ٠ من موناستير حتى دوموكو ٠

أوشكت ان تنفجر فى البكاء ٠ وهمت بالانصراف ٠

أمسك بها من ذراعها ، وجذبها اليه ، وضمها بين ذراعيه ٠

ـ ولكن ألا تفهمين اننى لو لم أوافق على ذلك لألقى بى الى السجن باعتبارى شيوعيا قديما ؟ الا تفهمين اننى فى هذه اللحظة الحرجة ، احتاج اليك أكثر من أى وقت مضى ؟

غاصت نظراته فى عينيها ٠ قرأ فيهما نظـرة جمعت بين الرعب والرفض والوله وخيبة الأمل ٠ كانت تريد ان تقاوم شيئا يقول لها ان الأمر لم يعد كما كان فيما مضى ، وانه ما كان يجب ٠٠٠ وجدا نفسيهما على الأرض ، على سجادة المكتب القذرة ٠

أدخل بعض النظام على ملابسه وشعره ، وأشعل سيجارة ، ثم حاول ان يعيد تقويم كل ما حدث ، وان يناقش الحجج المؤيدة والحجج المعارضة ٠ لم يستطع ان يتوصل الى رؤية واضحة ٠ رفع سماعة التليفون وتوسل الى كيتى أن تأتى بسرعة الى مكتبه على الرغم من ان الليل قد أوغل بعيدا ٠

كانت هادئة ، بل على غاية من الهدوء ٠ قالت :

ـ لابد انك تحس بالضيق ٠ لم تكن البدايات رائعة ٠

ـ لم تكن رائعة على الاطلاق ٠ وياليتك رأيت ما حدث اليوم ! ٠

قص عليها الأمر بايجاز ٠ فقالت معلقة :

ـ شجاعة مصطنعة ٠ هذه هى البداية ٠ لا زالوا جميعا سـكرى بما يسمونه ، على حد قول الشعراء ، ملحمة البانيا ٠ ولكن كمية النبيذ قليلة ، والعطش كبير ، وأكبر منه الجوع ٠ وشتى أنواع الترياق ضد نشوة السكارى تفد بوفرة من كل بلاد أوروبا التى خضعت ٠ سينفثون لهيبهم ببعض التبجح ثم سيهدأ كل شىء ٠ لا تخش شيئا من جانبهم ٠

ـ اننى لا أخشاهم جميعا بل أخشى البعض ٠

ـ أظن انك مخطىء ٠ أعتقد ان الناس فى كل العصور ، تستسلم للمال ، أو للخوف ، أيا كان هذا الخوف ، الخوف من الجوع ، من السجن، من الموت ٠ وسيكون رهن أمرك هاتان الوسيلتان اللتان تجعلان الناس

يستسلمون . ولهذا فانني أريد ان أستعلم منك عن الخبر الوحيد الذى له أهمية : هل أيد قائد الطوارىء ما قاله لك ديامانديس ؟

أجاب بقدر من التردد :

ـ أجل ، تقريبا . الامارة داخــله فى خططهم ، ولكن دون حـدود معينة ، ومرتبطة بايطاليا وليس برومانيا .

ـ هذا أفضــــل .

ـ بالطبع . اما بالنسبة للاتحاد فثمة ما ليس واضحا تماما . ليس ثمة تأكيد بانه سيقوم مقــام الدولة فى كل ما يتعلق بتنمية مواردها وتركيز الحاصلات بين يديها ، وما الى ذلك . بل يبــدو ان هذه أمــور تهمهم ويريدون الاستحواذ هم عليها . وبالنســبة لجيشنا ، يبدو انهم سينظمون لنا حرسا وطنيا من ألفين أو ثلاثة آلاف رجل .

قالت متأملة كلامه :

ـ الأخبار فى مجموعها طيبة .

ـ المهمة التى ستسند الى جيشنا هى الكشف عن الأسلحة المخفاة .

ـ ليس هذا بالشىء الطيب . ولكن على أى حــال ، لا يهم . اللعبة تمت ، وليس من شىء مجد بعد ذلك . المحور هو المنتصر . أمض فى طريقــك . لا تخش الجبناء ،ذلك لأن شجاعتهم تتمثل فى ألا يظهــروا انهم خائفون .

قال لهــا :

ـ انك ذكية ، ولكنك جد صغيرة ، وتطلقين أحكاما عامة . ذلك الذى قلته عن الخوف والمال كأداتين لاخضاع البشر صحيح ، وأوافقك عليه ، ولكن لا يسرى هذا على الجميع . هناك أيضا مثاليون .

وبصوت أجش ويرتعد قليلا ، اضاف :

ـ أقصد هناك مثاليون أصلاء .

قالت

ـ انهم يوجدون ولكنهم استثناءات . لم أعرف منهم فى حياتى سوى اثنين . ولا يجدى شىء بالنسبة لهذه الاستثناءات ، لا المال ولا الخوف ولا حتى الحب .

فهم انها ندمت لأنها أشارت الى الحب ، وقال لها :

ـ ما ان ينتهى الحب ، يمضى لحال سبيله ويكف عن ان يضحى قوة .

ـ لا أعرف • هذا ممكن ••• لا أعتقد ذلك ••• قد يصبح قوة أكبر •

وبحمية أكبر قالت :

ـ وعلى كل الأحوال • فقد عرفت أنا استثنائين • وربما أعرف الآن استثناء ثالثا •

ـ أتعرفين انه هوأيضا منالكونسوفالاك أبا وأما ؟ يذكر ديامانديس باستمرار أسماء القدامى من أسرة كوليتيس فى الترهات التى يعدها للدعاية •

نهضت كيتى فجأة ، وخطت بضع خطوات بهدوء ، خفيضة النظرات ، ثم عادت تجلس قبالته •

وسألته بصوت وديع ولكن فى حزم :

ـ هل ضايقتموه بدوره ؟

ـ كلا ، أبدا • ان ديامانديس يجهل حتى وجوده • والآخرونأيضا•

ـ أسمع يا عمى • أولا ، لو استدعيتموه فانك ستؤذينى فى شخص اهتم بأمره كثيرا • ولنتحدث بوضوح : لو انكم هددتموه فان ذلك سيثير بيننا الشقاق لأول مرة فى حياتنا • وثانيا انه لا يشغل بشىء ويجهل كل شىء • واذا استدعيتموه ، فربما صار ألد اعدائكم •

ابتسم ابتسامة جمعت بين الاستعلاء والتسامح ، وقال :

ـ حسنا ، حسنا ، كونى مطمئنة • لن نضايقه • ولكن عن قولك انه قد يصير ألد أعدائنا ، فان هذا البليد غريب تماما عن الحياة الخشنة وعن روح الكوتسوفالاك •••

لم يبدر عنها أى رد فعل • ولم تصدر عنها أى حركة أو تغير فى قسمات الوجه • **مضت تنظر شاردة أمامها وقالت :**

ـ لم يعد غريبا عن الحياة الغبية ولا عن الروح الأكثر غباء لبعض اليونانيين • لقد تغير كثيرا ••

سألهـا :

ـ هل حدثته عن ذلك ؟

ـ مهدت الطريق فحسب • قلت له اننا اختلفنا وانك تركت البيت • وتأدبا لم يسأل عن السبب •

ثم قالت بلهجة أكثر حيوية :

ـ ولكن صدقنى · لو علم بالأمر ، لو صار عدوا لكم · فسوف يكون فظيعـا ·

انفجر العم في الضحك ، بصراحة · هذه المرة :

غيرت من لهجتها بدورها ، وابتسمت · قالت :

ـ ابى هو المسرور ·

ابتدرها قائلا :

ـ احك لى قليلا ·

ـ انه معجب بك جدا · ويقول أنه لم يكن بوسعك ان تفعـــل غير ذلك ، لأن التهديد المسلط عليك بسبب ماضيك مقلق للغاية · ويؤكـد أنه ليس صحيحا ان ديامانديس اســتدعاك وانما أنت الذى دبرت كل شيء بدهاء حتى تصعد الى القمة · ويقـــول أنه فى أوقـــات الاضطراب يتصرف الأهل بعيدو النظر هـكذا : يذهب البعض فى اتجـاه ويذهب البعض الآخر في اتجاه مضاد ولكن على نحو يضـع فيه كل جانب عين الرعاية على الجانب الآخر ·

انفجرت فى الضحك · أما العم فلم يضحك · بل على العكس ازداد تجهما · وقال :

ـ هذا الانقسام لا يمكن ان يمتد الى ما لا نهاية · اننا نلعب لعبة هامة وصعبة · ومن الصعب ان يتبعنى الاغراب اذا قاطعنى الاهل ·

قـــالت :

ـ انك على حق · لكن ليس ثمة عجلة فى الأمر · بعد شهر أو شهرين سأقول لك الى أى جانب سأنضم ·



٥

كانت فتيليوتا الجديدة جد مختلفة عن القديمة · منسفة ، من حول دارها العالية التى عرفت فيما مضى أيام مجد ، وذاقت الخراب أخيرا · كل شيء كان الآن أصغر حجما ، وأكثر بدائية واكتسبت كل الكائنات هناك ، بشرا كانوا أو أشياء أبعادا أشد تواضعا ·

ومع ذلك ، اذا نظرنا الى فتيليوتا عن كثب ، فسوف نلاحظ أن المكان دبت فيه روح تدفع الجميع الى بذل قصارى الجهود لاعادته الى الحياة ·

منذ طلوع النهار حتى أضواء الغروب الأخيرة ينكب الجميع على العمل ، دون أمر يعطى لهم ، ودون حاجة الى كلمة أو مناقشة • وكان أشدهم حماسا للعمل رفاق نيكيتا فى المعركة • أفراد فرقة المدفعيةالذين عادوا اليه لمساعدته ساعة الحاجة ، وليأكلوا من نتاج ضيعته ساعة الجوع •••

ولكن هل كان بالامكان الحديث عن الأفضل والأحسن ؟ هل كان بالامكان أن نضع ريامو مثلا فى المقام الثانى ، وهو يشع بالفرحة ، أو نيكيتا الذى كان حاضرا على الدوام ، ومتغلبا على كل الصعاب الراجعة الى نقصان العديد من الأشياء ؟

لم يكن بالامكان الحديث عن الأفضل والأحسن • ولكن كان بالامكان أن نقول ان الشخص الذى كان لا غناء للجميع عنه هو فروسو• بشوش، نشيطة ، متيقظة ، تساعدها خادمة واحدة ، أعطت الجميع انطباعا بأنها سيدة ممتازة • كان القوت شحيحا ، وآلاف الحاجات ناقصة • ومع ذلك كانت فروسو تنجح فى أن تدبر الأمور•وبعد أن أصلح المخزن،واستخدم مطبخا ، لم يعد فحسب غرفة طعام جذابة ، بل صار ملاذا وقت المطر أو ساعات الراحة •

وفى تلك الأمسية من أمسيات الخريف ، قبل عودة الآخرين ، دخل ريامو الى المطبخ • طلب من فروسو قدحا صغيرا من عصير الفاكهة ، وثرثر ببعض الكلام التافه ، متظاهرا بعدم الاكتراث • لكنها شعرت أنه مشغول البال بشيء يتمنى أن يقوله لها • ابتسمت له • **وقالت :**

ـ أبى ، لماذا الكتمان ؟ تريد أن تتحدث عن شيء • واذا لم تقله لابنتك ، فلن تقوله اذن ؟

أجاب :

ـ يا ابنتى ثمة شيء أحجم عن قوله لغيرك ، ويجب اليك وحدك أن قوله • ولكن الأمر يشق على •

اقتربت منه قلقة ثم جلست الى جواره ، وسألته :

ـ الى أنا وحدى ؟ بم يتعلق الأمر ؟

نظر اليها برقة بالغة ، متالما ، وقال ببطء شديد :

ـ عرفت الخبر منذ بضعة ايام ، لكنى اردت ان اتأكد منه • لقد عاد • انه هنا •

فهمت فورا • انقبض قلبها ، وشرد بالها ، وهي تستمع الى ما يقوله :

ـ زوجك • انه في لاريسا • تردد على مدن كثيرة • لكنه لا يشاهد في المقاهى ولا في الأماكن العامة الاخرى • يبـــدو أنه يتحرك بحذر • قيل لى أنه سأل عن أخبارك •

خيم الصمت • وبعد قليل سألها خجلا :

ـ ماذا ستفعلين ؟

ـ لا شيء •

ـ ولو جاء يبحث عنك هنا ؟

اشتعل وجهها ، وأجابته بانفعال :

ـ قلت « زوجك » وتسأل الآن ماذا سأفعل لو جاء • هل تتصور أن بامكانى أن أستأنف الحياة الزوجية معه ؟ أبى ، انه بالنسبة لى مات •

انطفأ الألم من نظرات ريامو :

ـ أجل ، لكنه لم يمت • انه هنا ، بالقرب منا •

ـ لا تجزع يا أبى • مادمت قد طردته تماما من قلبى فانه لا يمكن أن يعكر صفو سكينتنا • فلنتمن فحسب ألا يكون سببا فى أضرار أكثر جسامة • لماذا عاد فى لحظة مثل هذه ؟ من أين عاد ؟ ما الذى جاء به مادام يلتزم الحذر فى تحركاته ، ويتنقل من قرية الى قرية ؟ •

أتى ريامو بحركة موافقة وعدم اكتراث :

ـ هذا صحيح ، يا ابنتى الصغيرة • على أى حال نتمنى ألا يفعل شيئا سيئا هنا •••

جرع جرعتين من عصير الفاكهة • واستطرد يقول :

ـ اننا بخير والحمد لله رغم الاحتلال والدمار الذى مر بنا •

التزمت الصمت لحظة • لف ريامو سيجارة وأشعلها • وقال :

ـ أتساءل بعض الأحيان ، لماذا توجد الهموم ؟ لماذا دون صيحة انذار يسقط علينا شجن لا يحتمل ؟

أمسكت بيده مبتسمة ، وقالت :

ـ المهم ألا تنتابك أنت الهموم •

ـ ادمت هنا ، قوية ومرحة ، فلا يعكر صفو مزاجى شيء • انى

أتحدث عن الآخرين • كم من أحزان في الحياة • لماذا ؟ لماذا ؟ أنت يا متعلة ، يا من قرأت كتبا ، اشرحي لي لماذا كل هذه الأحزان ؟ لماذا يولد كثير من البشر أشرارا ؟ لماذا يولد آخرون تعساء ؟ لماذا نحن على هذه الحال أو على غيره منذ أن نولد ؟ وفي بعض الأحيان أيضا لماذا يختلف الواحد منا عن الآخرين ، على الرغم من أننا ننحدر جميعا من أصل واحد • لماذا ؟ كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنا ؟

قالت له مبتسمة :

ـ أبي ، حتى أولئك الذين نالوا حظا من التعليم أكبر مني ألف مرة لن يكون بامكانهم أن يجيبوك على أسئلتك • لذلك حدثني عن أمور بسيطة • قل لي ، متى ستنتهون من بدر الحبوب ؟

راح يتحدث عن الضيعة ، وفجأة صاحت فروسو :

ـ أريد أن أسألك بدوري عن شيء بدا لي غير مفهوم • أتذكر ذلك الرجل الهش الذي جاء الينا من باريس منذ سنتين أو ثلاث سنوات ؟ أتذكر أنك عندما رأيته قررت أن تترك فتيليونا ؟ كيف يمكن أن يكون قد تغير الى هذا الحد ؟ هل هناك تفسير لذلك ؟

ومضت نظرة الفلاح العجوز ، وقال :

ـ هناك تفسير واحد ، وهو بسيط للغاية ، يابنيتي • الأرض تحدثت اليه • تحدثت اليه بقوة • وقد زلزلت كيانه •

ـ أبي •• : هل تصدق حقا أن للأرض صوتا ؟

نظر اليها نظرة عتاب •

ـ ولا أنت ، ولا كل أولئك الذين تلقوا تعليما أكبر من تعليمك ، ليسوا بقادرين على الاجابة على شيء بسيط مثل هذا • لماذا تقولون ، أنتم أيها المتعلمون ، أن الأرض ليس لها صوت ، بينما كثيرون منا ، نحن الذين لم نتلق تعليما ، يسمعونه ؟ أن صوتها ليس مثل صوت البشر • ونحن لا نفهمه جيدا ، والمتعلمون ـ لا أعرف لماذا ـ يفهمونه أيضا بدرجة أقل • لكن هل نفهم ماذا تقول العصافير وهي تغرد ؟ ومع ذلك ، فان لهذه الطيور بكل وضوح صوتا • هل فهم أحد ماذا يعني ثغاء الخراف ؟ أو ماذا تقوله الحيوانات الأخرى ؟ ثم انني أتصور في بعض الأحيان شيئا آخر • لماذا لا يكون الله قد أعطى الأرض صوتا ، مادام قد حباها بهبات أكثر حيوية وجسامة ، ولن يستطيع أي رجل ، متعلم أو غير متعلم ، أن يفهم هذه الهبات أبدا ؟

ـ هبات مثل ماذا ، يا أبى ؟

ظل لحظة يفكر . وقد ارتسم ظل ابتسامة على شفتيه ، كما لو كان لديه الف مثال يعطيه . قال :

ـ فكري قليلا فى ان الارض وحدها بلا ان تتلقى من احد معارف أو حكمة تعطى ثمارا وفاكهة ، تصبح زرعا أو غابة ، تعطى عطرا ورحيقا وأصباغا تكتسى بلون الخشخاش أو الكريز أو الخوخ وبشتى ألوان الزهر أيضا أن الأرض تصير ما تصير عليه وحدها . هل فكرت فى ذلك ؟

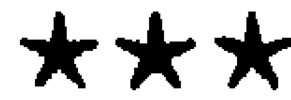
مضى يقول ، وقد امتلأ حماسا :

ـ كيف أمكنك أن تسألى ما اذا كان للأرض صوت ؟ ان لها صوتا . وأنت تعرفين ذلك . بل والسيد ذاته سمعه . وأنت أيضا رأيته راقدا على الأرض ، ويكلمها .

ـ أنت على حق يا أبى . رأيته فى الربيع وكان يكلمها . وكان سعيدا فى الخلاء على الرغم من الخراب الذى أحدثه الزلزال والحرب . ولابد أن صوتها قد أدهشه أكثر مما أدهش الآخرين .

قال ريامو وهو ينظر أمامه كما لو كان يقرأ نبوءة فى ظلال المخزن القديم .

ـ ولكن ليس هذا هو الذى غيره . انها وصية من وصايا الله ، واحدة من تلك الوصايا التى لا تفسير لها ، والتى لا يعرف أحـد كيف ولا من أين تأتى . انها الدماء التى فى عروقه هى التى غيرته . ولو لم تكن دماء أجداده تجرى فى عروقه لما سمع الأرض تكلمه . ثم انه التقى باليكسى الذى كان هو ذاته صوتا للأرض . أسباب عديدة ساهمت فى أن يتبدل حال السيد على هذا النحو . لقد كانت هذه مشيئة الرب .



تحسن الجو ، وانفكت زخامته . لم يكن أحد يعرف كم من الوقت سيبقى كذلك . وكان الرجال جميعا منذ بضعة أيام فى الحقول ليفرغوا من بذر الحبوب فى الأرض بأسرع وقت ممكن .

أما فروسو فلما أنجزت كل أشغالها عادت الى كوخهم القديم كانت تقرأ عندما سمعت دقات على الباب جعلتها تجفل .

جرت تفتح وظلت عند الباب كما لو كانت قد صـارت تمثالا من حجر ٠

أمام الباب وقف نوتيس ، معبود السنوات المنقضية ، الحب الكبير ٠

لم يتغير سوى قليلا ٠ أصبح أكثر نحافة ، وارتسمت على وجهه تجعيدة أو تجعيدتان ٠ وبرز مزيد من الصرامة فى تعبيراته ٠ ولكنه بدا بذات الوجه الناضج بالرجولة ، والعينين الملتهبتين الحالمتين ٠

مثل ومضات البرق خطرت فى ذهنهـا الساعات السـاحرة التى نسيتها ، وغضبها من ذلك الذى صنعها ليعود بعد ذلك ليجحدها ٠

قال لها :

ـ أنى سعيد أن أراك من جديد ، يافروسو العزيزة ٠

سألته بجفاء :

ـ لماذا جئت ؟

ـ كنت فى اليونان ، ومررت بلاريسا ، ألم يكن يجب أن أجىء لرؤيتك ؟

ـ كلا ، لم يكن يجب ٠

ـ لماذا ؟

ـ أن تسأل عن السبب وقاحة من جانبك ، مادمت لم تفكر فى أن ابنك مات ، واننى أنا أيضا كان بالامكان أن أكون قد مت ٠ لماذا عدت ؟ ما الذى جئت تبحث عنه ؟

بدا على وجهه بعض الضيق ٠ لكنه لم يخفض عينيه ازاء نظرات فروسو المعادية ٠ وقال :

ـ لا تعرفين كم عانيت ٠ وليس من المجدى أن أصف لك ذلك ٠ لكن يجب أن أضحى بنفسى وان أضحى بآخرين عند اللزوم ، لأننى أجاهد من أجل شىء أكثر أهمية بكثير منى ومن ذوى ٠

ـ انه حقك ٠ أذكر تلك الاسطورة العالمية ٠ ولقد عرفتها ودفعت ثمنها غاليا جدا ٠

ـ ان الثمن غال جدا ٠ انه حلو ومر معا ٠ ولكن كم هو جميل ، يا فروسو ، أن يتعذب المرء ٠ وعند اللزوم أن يجعل آخرين يتعذبون من أجل أن تصبح تلك الأسطورة حقيقة !

ردت عليه بصوت غاضب وقالت :

ـ كافح من أجل الانسانية واقتل الانسان ٠ هذا مبدؤك ٠ أما أنا فلا أفعل شيئا من أجل الانسانية وأحب الانسان ٠ لهذا دعني في حالي٠ أرحل ٠

أرادت أن تغلق الباب ، لكنه تقدم واستند الى الضلفة المفتوحة ٠

شعرت بالخوف ٠

كانت تعبيرات نوتيس هادئة ، كما لو لم يكن ثمة مايزعجه ، وكما لو كان يعرف أنه سيفعل بالضبط مايريد ٠ كان وسيما ، مهيب الطلعة ، واثقا من نفسه ، قاسيا وفي الوقت ذاته غير مكترث بشيء ، سوى أن يفعل ما يناسبه ٠

أحست أنها تفهم لماذا أحبته ، ولماذا أيضا كرهته ٠

ولكن لم يكن هذا وقت التفكير في هذه الأشياء ٠

كانت وحيدة ، وحيدة تماما ٠٠ هل سيصر على الدخول ؟ هل يحاول أن يأخذها بين أحضانه ؟

تزايدت مخاوفها عندما قال لها :

ـ أريد أن نجلس ونتحادث قليلا ٠

ـ ليس لدينا شيء نقوله ٠

ـ بل لدينا الكثير ٠ أشعر نحوك على الدوام بحنين شديد ٠ وأنت لم تتغيرى على الاطلاق ٠ أنت جميلة كما كنت دائما ٠

شعرت بوجنتيها تحمران ، وتزايد ضيقها ، اذ أنها خشيت أن يفسر احمرارها على أنه ضعف فيها أو يقظة حب نائم ٠

قدحت زناد فكرها كي تكتشف ما يمكن أن يكون مناسبا لأن تقوله حتى تتخلص منه بأسرع وقت ٠

لكنه سبقها ٠ وسأل :

ـ هل هناك رجل آخر غيرى ؟

قالت ساخطة :

ـ لا أحد ٠

وأحست من جديد بالدماء تصعد الى وجنتيها ٠

ـ عرفت أنه كان ثمة رجل ٠ اليكسى ٠

صاحت باللهجة ذاتها :

ـ أخطأ من أبلغك ذلك ٠ أغرب عني ٠ أفعل الصنيع الوحيد الذى يمكنك أن تفعله بى ٠ أغرب عن وجهى !

أثناء الطريق • وانتزع منهم حملهم الثمين • بل ان بعضهم ممن عمدوا الى المقاومة لقوا حتفهم • انه التطبيق الحى والبشع للمثل القائل « مت انت كي أحيا أنا » وقد أصبحت صحته « مت كي يحيا أولادى » •

ـ منذ ثلاثة أيام ، وجد واحد من أهل ميتزوفو وكان عملاقا قوى البنية حقا ، مقتولا بالقرب من جريفينا • حمل بغلين بالقمح والذرة ، فهاجمه مجهولون واعتدوا عليه • وجدناه بارد اليدين وقد أمسكتا ببلطته ، وعلى مقربة منه انطبعت آثار أقدام • من يدرى كم صارع من أجل انقاذ خبز أولاده ! يمكنك ان تفهم يا كوليتيس ، ماذا يحدث فى موقف مثل هذا عندما تصل الذرة بوفرة وتوزع مجانا ، لقاء مجرد توقيع • انها كارثة • أقول لك « كارثة ! » •

نسى نيكيتا الطنين الذى فى رأسه ، وقال بتوقد :

ـ اسمع ، يا خريستو • هذه الحمولة من الحبوب لا يجب ان تصل الى مقصدها • لدى فكرة •

بدأ الاهتمام على الآخر ، وزالت أمارات القلق من وجهه • اكتسى فجأة مسحة الوحش الذى على أهبة الانقضاض •

ـ أى فكرة ! قل لى ! •

ـ سوف تعرفون متى ستصل الذرة الرومانية • وسوف تعرفون كميتها من عـدد المخازن التى ستعد لذلك • والأغلب انكم انتم الذين ستحرسونها • ولكن حتى لو كان الايطاليون هم الذين سيتولون ذلك ، فسيكون ميسورا عليك ان تخطر قرى الجبل القريبة وان تنظم اغارة للسطو عليها ليلا • وسندبر بعد ذلك أن نشيع فى قرى الفالاك أن لا شىء اتخذ • وان الذرة الرومانية كانت أكذوبة كبيرة من أكاذيب الدعاية •

ـ لا أحتاج الى كلمـة أكثر من ذلك • كانت تنقصنى الفكرة • وبالنسبة للباقى سأتكفل بـه أنا ورجالى وبعض رفاقنـا فى الحرب ، يطحنهم الجوع بدورهم ، وسأخطرهم فورا • كن مطمئنا • لن تحصل الدعاية الرومانية على أى اقرار موقع ، أيا كانت كميـة الحبوب التى سترسلها • أتعهد لك بذلك •

داخلهما الارتياح للفكرة • بامكانهما اذن أن يفعلا شيئا ايجابيا فى هذه المعركة غير المتكافئة•واستعادا بشاشتهما قليلا ، ونسيا الشقاء الذى حل بالبلد المستعبد ، وتذاكرا أيام الحياة الحرة ، والنضال ، ومواجهة الخطر ، حيث كانت الحياة مليئة بالبهجة والنشاط •

٧

لا بد من فعل شيء ·

جن جنون مدعي الشجاعة الكيفياديس هذا ، بلا سبب ، ولكن المسألة كانت تحتاج على أي حال الى قدر من التبصر · وكان هو الذي عليه ان يظهر الحكمة ، وليس ذلك باعتباره رئيسا للاتحاد فحسب . بل لأنه كان الوحيد القـــادر في ذلك المخطط عى ان يتصرف بحزم ورجاحة عقل ·

استبد الخوف بقائد الطوارىء في المنطقة ، عندما سمع مطالب الأهالي بالاجتماع به ، فأخطر ديامانديس بالأمر · والذي سـبب له الخوف الأكبر كان الطلب المكتـوب الذي قدمه كوليتيس · لأن هـذا الطلب لا يمكن طمره · كثير من توافه مرؤوسيه انخدعوا باجادة الشاعر للايطالية ، فاهتموا بالطلب بل وقيدوه في السجلات، وسارعوا بارساله الى مساعدي الجنرال في ثكناته · ولكن الجنرال لم يكن يعرف شيئا عن موضوع الاتحاد ···

لم يكن يعرف شيئا ···

هذا يعني ان الرياسة لم تكن في صفهم تماما ، وقد أقلقت هـذه النقطة الأخيرة على الأخص بال نيقوس مانوسيس · لقد خدعوه الى حد ما · ومن ثم تتغير المعطيات ·

ولكن لم يكن بالامكان التراجع الآن ، لأنه كان قد تورط كثيرا · ولذلك كان عليه ان يتخذ بعض الاحتياطات · قبل كل شيء ، عليه هذا اليوم ذاته ان يقابل ثلاثة أشخاص وان يحركهم في ثلاثة اتجاهـات مختلفة ·

★ ★ ★

ما ان رآه يدخل عليه في « مكتب الرياسة » حتى قال له نحن جميعا مسرورون منك ، يا فاسيلاكي · أرجو أن نتمكن قريبا ان نحيط المنطقة العسكرية رسميا بتنصيبك جنرالا للاتحاد · ولكننا بحاجة في الوقت الحاضر الى أمرين : الأول ، ان نسـلم للايطاليين عددا أكبر من الأسلحة ، ومن باكر اذا أمكن · هل يمكن ذلك ؟

ـ بالطبع ، هذا ممكن ٠

ـ كيف يمكنك ان تكون على هذا القدر من الوثوق فيما تقول ؟ ٠

جلس الآخر قبالته ، ونظر اليــه بعينيه الصغيرتين الخبيثتين ، وقال له :

ـ ربمـــا لم تعطونى بعد مرتبتى التى أستحقهـــا ، ولكننى ولدت جنرالا ويسموننى روبوتيكا ٠ ألفت ست فرق ، كل يوم من أيام الاسبوع تخرج فرقة منها للقيام بجولتها ٠ وينصرف أفراد الفرق الأخرى الى أعمالهم ٠ أما الليلة فسآمر أن تخرج الفرق كلها ، وان تضاعف سبع مرات ضربها للأهالى ، وان تكافىء نفسها بنفسها على ان تأتى فى ظل التعبئة العامة بالاسلاب والغنائم ٠

وغمز بعينه :

ـ ومن غد سنحصل على سبعة أضعاف من الأسلحة ٠

ـ انك جنرال ممتاز ، يا فاسيلاكى ٠ اعترف بذلك ٠ لكننا لسنا بحاجة الى أســلحة بهذه الكثرة ٠ ان زيادة معتدلة فى العدد ســوف تكفينا ٠ فلنقل الضعف ٠

ابتسم له الآخر بيقين الرجل الذى يعرف ما هو كفء له :

ـ لماذا ؟ لماذا هذا التقتير ، أيها الرجل الطيب ؟ هل هناك سبب؟٠

ـ هناك سبب واحد ٠ قبل كل شيء ، لن يكون من صالحنا ان ينضب معيننا ثم نعود فنبدأ قريبا فى تسليم كميات أقل ٠ ثم انه قد يحدث فيما بعد شيء ، فنضطر الى اجراء زيادة جديدة ٠

علق روبوتيكا على ذلك قائلا :

ـ أفكار مليئة بالذكاء ٠ هذا يعنى انها أفكار سياسية ٠ أنا لست سوى جنرال ٠ سوف أفعل ما أردت ٠ لكنك قلت انــك بحاجــة الى أمرين ٠ ما الأمر الثانى ؟

كان الأمر الثانى ان رئيس الاتحاد بحاجة الى معلومات عن بعض قادة الشيوعيين الذين بعد ان اختفوا منــذ سنين عادوا يظهرون من جديد ٠ لماذا عادوا ؟ ماذا يفعلون ؟ ما نواياهم ؟ ٠

أجابه « الجنرال » قائلا :

ـ لدينا ما يكفينا من المشاغل الخاصة بنا ٠ لماذا اذن نبحث عن متاعب أخرى ؟ اننا نعذب الأهالى بما فيه الكفاية من أجل الأســـلحة

والاقرارات • هل سنعذبهم الآن لنحملهم على الاعتراف بأشياء أخرى لا تخصنا ؟ •

لزم ديامانديس الصمت لحظة • بدا عارفا عما يتحدث وانه فخور بذلك • قال :

ــ ألا تتصور الأهمية التى تكسبها منظمتنا فى نظر الايطاليين اذا كشفنا لهم ، فى الوقت الذى لا يعرفون هم فيه شيئا عن الأمر ، جماعة من اليساريين يتلقون تعليماتهم من أثينا أن من موسكو ؟ •

نظر اليه روبوتيكا مذهولا ، واجابه قائلا :

ــ انت على حق ، يا عجوزى نيقوس ، سيكون الأمر باهرا • اذن ، فسوف لا نضرب سبع مرات أشد فحسب ، بل وأربع عشرة مرة أيضا • ان الأمر يستحق التحرى عنه • سأبذل قصارى جهدى • كن مطمئنا •

ــ اعتمد عليك ، لأنى أعرفك قادرا على فعل أشياء مبرزة عندما تريد • شكرا •

هم روبوتيكا بالنهوض • ثم عاد الى الجلوس ، وقال :

ــ ما دمت تشكرنى ، وتقول عنى انى مبرز • خبرنى الحقيقة فيما سأسالك •

ــ انى أقول الحقيقة دائما ، يا فاسيلاكى •

علق على ذلك مبتسما :

ــ يا عجوزى • هذا قول يصلح للآخرين • أما أنا فأجبنى صراحة فى الشأن الآتى : هل يريدون ان يجعلوا منا امارة حقا ؟ •

اجاب مانوسيس بحماس :

ــ هل يريدون ؟ بالطبع ، هم يريدون • لماذا هذا السؤال ؟•

ظل « الجنرال » يفكر لحظة • ثم قال :

ــ ان أغلب الناس تقول ان هــذا لا يمكن ان يتحقق • أما أنا فبحسن فهمى للأمور ، أعتقد ان لهم مصلحة فى ان يحققوا ذلك • ولكننى فى بعض الأحيان أتساءل عما اذا لم يكونوا يخدعوننا كى نساعدهم •

ــ انهم لا يخدعوننا • ولكن لماذا تسأل هذا السؤال ؟ هل يتحدث الناس عنه كثيرا ؟ •

ــ بالطبع يتحدثون عن ذلك • ولا ينظر الرجل الذكى الى الحاضر فحسب بل يفكر أيضا فى المستقبل • ولكن هل تعرف ما أقوله لنفسى

أنا ، يا نيقوس ، عندما يقفز هذا السؤال الى عقلى ؟ ألن يفعلوا ذلك ؟ لا تزعج نفسك ، فى هذه الحياة التعسة ، كل شيء يتوقف على رمية زهر . ولقد رمينا الزهر كى نصبح أمراء وسادة .

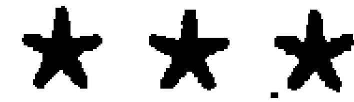
نهض ، وبغمزة من عينه قال :

ــ الى ذلك الحين ، فلننعم بالحياة ! لسنا أغبياء !

لحظة خروجه ، استدار قاطع الطريق القديم ، وقال له بلهجة عتاب:

ــ فى الواقع ، انك لم تأت ولا مرة واحدة الى حفلاتنا الصاخبة . انت تفقد كثيرا بذلك . لا تستطيع ان تتصور ما يدور فى هذه الحفلات .

ــ انتظر حتى تنتظم الأمور قليلا وسآتي . سآتى بكل تأكيد .



ما ان أظلمت الدنيا بعد الغروب حتى هرع الى مكتبه كما طلبت فى الرسالة التى تلقاها منها . كانت أكثر شحوبا ، واضطرابا وقلقا من ذى قبل .

لم تتعلق برقبته كما كانت تفعل دائما . ولم يكن العناق الدافىء المرتجف أول أفعالها هذه الليلة . جلست على كرسى ، وصوبت اليه نظرة مليئة بالحب واليأس . ثم قالت :

ــ نيقوس ، حبيبى ، فى أى ورطة وقعنا ! ما عدت أحتمل . تصبح الحياة أكثر صعوبة يوما بعد يوم ، ولكنه الشيء نفسه بالنسبة لكل الناس . أما بالنسبة لى فيضاف الى ذلك مسألتك . القلق يدفعنى الى الجنون ، والاتهامات التى أسمعها تكال لك تقتلنى .

ظل صامتا برهة ثم اقترب منها ، وانحنى يضمها ويقبلها فى عنقها . اسندت خدها على وجهه ، وأحست بالتحسن .

سألته :

ــ هل سترحل ، يا نيقوس ؟ سترحل ؟ .

جلس الى جوارها وقال لها بلهجة هادئة لكنها حازمة . انه لن يرحل . وشرح لها أسبابه ، وكرر حججه التى لا تتغير عن واجباته نحو الفالاك . وضرورة انقاذ ثيسالونيك ثم دون انفعال قال انه ليس من أولئك الرجال الذين يتخلون عن قضية لأن الناس لا يفهمونه أول الأمر .

ثم مضى يقول :

ـ للأسف ، وقعت بعض الأفعال المتطرفة أساءت الينا كثيرا . ما كان يجب ان تحدث أفعال مثلما حدث لصديقنا نيقوس رابتيس . ومن ناحية أخرى فان الاجراءات التى يمارسها روبوتيكا شيء لا يطاق . وكى أنجح ، أحتاج الى أمرين ، احدهما هو حبك .

نظرت اليه بفضول شديد . كانت نظرتها تحتوى على الحب والدهشة والعتاب وبعض الشك .

قال لها متضايقا :

ـ لماذا تنظرين الى هكذا ؟ .

أجابت مرتبكة :

ـ لا ... أخشى ... لماذا تقول ...

ثم أردفت تسأله بحيوية أكبر :

ـ هل تقول لى الحقيقة ، يا نيقوس ؟

أبان لها انه لا يمكن الا ان يقول لها الحقيقة . وأيا كان الدافع له فى البداية ، سواء أكان قد تصرف تحت ضغط الضرورة أو كمناضل من أجل قضية ، ففى كل الأحوال يرجمه الجميع الآن بالحجارة . ويتلقى من كل جانب الكراهية والمقاطعة . كل أصدقائه تخلوا عنه ، وحتى أقاربه ما عادوا يلقون عليه السلام .

مضت تنظر اليه بنظرتها المستغربة .

سألها بلهجة شاكية :

ـ ماذا بك الليلة ؟ .

ـ ألا تعرف اذن ما يقولونه عن خلافك مع فاسيلى ؟ .

كلا ، لا يعرف . لم يسمع شيئا بهذا الخصوص .

أطلعته على ما يقال بشأنهما . وأيضا بشأن تبادل الزيارات ليلا .

قـــال :

ـ الشيء الحقيقي الوحيد فى كل هذا هو ان كيتى حدثتنى بالتليفون وجاءت مرة واحدة هنا . انها قلقة بصدد موضوعى ، كما ان لها متاعبها الخاصة . ولكن هذه الضجة ، مثل غيرها ، تثبت لك الى أى حد احتاج الى حبك . كيف سيمكننا ان نكثر من مقابلاتنا ؟

ظلت تفكر ثم قالت :

ـ هذا صعب . بل ان ما أفعله خطر بالنسبة لى ، وبالنسبة لزوجى . قلت لى انك بحاجة الى أمرين . ما الأمر الثانى ؟ .

ـ يجب ان أنجح فى تطييب خاطر نيقوس رابتيس . لا أدعى اننى سأجذبه الى أفكارنا ، وانما سألطف من غضبه ، بحيث يصبح الآخرون بدورهم أكثر مودة نحونا ، ذلك اننا فى النهاية لا نضطعدهم وقد احتججت على ما حدث لهم ، واتعهد بأن ما من أحد سينعرض لهم بعد اليوم . فليلزموا الهدوء من ناحيتهم . أما اذا عرقلوا عملنا فانهم سيضطرون الاتحاد ان يرد عليهم بعنف ، وكل شىء سيمضى عندئذ الى أسوأ .

ـ ولكن هم ماذا يفعلون ؟

ـ انهم ينشرون دعاية سيئة ضدنا . وأنا الذى أحبهم لا يبادلوننى حتى التحية . وأكثر من ذلك طلبوا مقابلة الجنرال الايطالى . هل عرفوا بما سينصح ديامانديس القائد الايطالى ؟ ربما يقبض عليهم . الأفضل ألف مرة ان يظلوا ساكنين : تفهمين ردود الفعل التى قد تترتب على ذلك ، والكراهية التى يمكن ان يولدها . فليحسنوا من سلوكهم أمام الناس ، وسوف نضمن لهم ألا يضايقهم أحد .

خيم صمت ثقيل . وبعد برهة سألها :

ـ هل يمكنك ان تساعدينى ؟ .

ـ كيف ؟ .

ـ يجب ان يقنعه الدكتور . ان له تأثير عليه . واذا أراد ...

ـ انه لن يفعل . ثم بصرف النظر عن ذلك : كيف يمكننى أنا ان أحادث زوجى فى الأمر ؟ .

ـ لماذا ؟ ...

ـ لا أريد . سيفهم اننى أفعل هذا من أجلك . وسأسبب له عذابا اضافيا . ومن ناحية أخرى ، فانه معجب بنيقوس .

أخذ يدها .

ـ عزيزتى فولا ، يجب أن تفعلى ما أقوله لك . اذا هدأ رابتيس ، فسيقبل أن يعمل على أن يلطف من حدة الآخرين . وسوف يعطينى هذا مهلة أتمكن خلالها من اصلاح التجاوزات . يجب اذن أن تفعلى ذلك من أجلى ... يا فولا ...

خفضت عينيها وهمهمت بصوت منطفىء :

ـ لا أستطيع ··· لا أستطيع ···

كانت على وشك البكاء ·

تركها تهدأ · نهض · سار الى خلف الكرسى الذى تجلس عليه · ومال عليها · وطبع على عنقها قبلة طويلة ·

مغمضة العينين ، اسندت من جديد وجنتها الى وجه نيقوس · كم كان جميلا ان تنسى همومها هكذا ···

احتضنها ، وراح يلاطفها بوله ·

ـ كلا ، كلا ، يا نيقوس ! ·

عاد وقبلها بحرارة أشد · وضمها بقوة الى صدره ، لكنه أحس بأنها لا تستجيب لملاطفاته ·

همس فى اذنها:

ـ فلنرقد على الأرض ··· كما فعلنا أمس ·

لم تطاوعه من جديد · أصر ، وأنهضها من كرسيها ·

ـ تعالى · انى مشتاق اليك جدا ! ·

لم ترضخ · وأوشكت من جديد على البكاء ·

اتخذ لهجة آمرة ، وجذبها الى الموضع الذى توجد فيه السجادة الصغيرة بالغرفة ·

تمتمت تقـــول :

ـ ليس هذا حبا ، يا نيقوس ·

وعندما لمسا السجادة وشعرت به على اهبة ان يثنى ركبتيه ، تحررت من ذراعيه ، وصرخت بصـــوت أشبه بالنحيب · بأن هـــذا مستحيل · أدارت المفتاح وفتحت الباب واختفت فى الليل قارس البرد ·

★ ★ ★

انتظرت قليلا حتى ينام الطفل واستعدت للعودة الى قاعة المعيشة · كانت عرف عن ظهر قلب ما سيلى من مشهد ممل الى حد اليأس ·

الدكتور يجلس غائصا فى كرسيه المخملى الكبير ، يقرأ كتابا علميا • سوف يقول لها كلمة أو كلمتين ••• ستذهب وتجلس قبالته وتنشغل بالتطريز • سيظلان على هذا الوضع ساعة أو ساعتين حتى تحين اللحظة التى سيقترح عليها زوجها أن يذهبا ليناما •

كل ليلة ، بعد العشاء ، الحركات ذاتها ، والكلمات ذاتها تقريبا ، كل ليلة فى الشتاء على الأقل •

كان الأمر مثيرا للضجر ولكنها كانت قد سلمت بالأمر الواقع •

كان هناك الطفل ! وحبها التعس ، ووخزات الندم • ثم لم يكن لديها وسيلة لأن تتصرف على نحو آخر • انه القدر • القدر المطبق الذى لا مفر لها منه ، ولا لأية امرأة أخرى فى الاقليم •

على ان الأمور بدت هذا المساء مختلفة • كانت قلقة • كان من المستحيل عليها ألا تساعد نيقوس ، أو على الأقل ألا تحاول ان تساعده • وسواء كان صادقا فى كل ما قاله أو لم يكن فانه فى كل الأحوال بحاجة الى معونتها ، ولا يمكنها ان تأباها عليه • وفضلا عن ذلك ، فقد كان من مصلحة الجميع ان تكف المعركة الشرسة بين أصدقاء قدامى •

ومع ذلك فان معالجة هذا الموضوع لم تكن سهلة • كيف سيتلقى زوجها الأمر • كانت هذه علامة الاستفهام الكبيرة ••• ربما ضايقه تدخلها ، أو آلمه • وهى لا تريد ذلك • كانت تشفق عليه ، تشفق عليه حقا •

أخفض الدكتور فايديس الكتاب ما ان سمعها تدخل ، وابتسم لها • كان صغير القد نحيلا متلاشيا بمعنى الكلمة فى مقعده الوثير • وعلى وجهه الحافل بالمعاناة بدت الابتسامة ذاتها عليلة • لم يكن المرء يغالب نفسه من اجراء المقارنة بينه وبين مظهر نيقوس المفعم بالقوة والرجولة •

تبادلا السؤال والاجابة التقليديين ، بشأن ما اذا كان الصغير قد نام ، وعاد كل منهما الى شغله المعتاد •

بينما راحت تغزل فتحت الحديث حول الاتحاد ، مرددة كثيرا من الأفكار التى تسمعها تتداول كل اليوم فى هذا الخصوص • وقالت له ان كل من قابلته حدثها عن أمور هذا الاتحاد ، وان الناس مذعورون ، وقد حدثت فى نظرهم أحداث فظيعة ، وان الرأى يكاد يجمع على انه يجب وضع حد لكل هذا •

نحى الدكتور كتابه جانبا ، واستمع اليها بانتباه . جذب موضوع الحديث الذى اختارته الليلة اهتمامه كثيرا . **تكاملت ضد الاتحاد ... شيء غريب ... عندما توقفت سألها بلهجة هادئة ، هى لهجته المألوفة :**

ـ لا شك انه يجب وضع حد لهذا ، ولكن كيف ؟ ما العمل ؟ .

ـ لو كف أصدقاؤك عن مهاجمة الاتحاد أمام العامة ، أو أفهموهم انهم سيكفوا عن ذلك ، قد يغير رجال الاتحاد أيضا أسلوبهم .

ـ هل تعتقدين انهم سيغيرون ؟ لا أعتقد ذلك . لا يتعلق الأمر فى هذا المقام بمشاجرة أيا كانت . هناك اناس يخونون ، لأن لهم على الأخص تطلعات جسيمة : المال ، السلطة ، الامارة . وكى تكف الخيانة يجب ان تتلاشى الأهداف التى يخدمها الاتحاد .

ـ ربما كنت على حق . ولكن تحدث أشياء بشعة كثيرة تستدعى ان تعقد مصالحة مؤقتة لتداركها ، أو على الأقل محاولة لعقد مثل هذه المصالحة .

وبدأت اللهجة الهادئة الرقيقة ، سألها :

ـ أى محاولة ؟ كيف تتصورينها ؟

كانت تنظر اليه كل لحظة ، وهى متظاهرة بالانكباب على التطريز ، كى تخفى اضطرابها . وتتحدث اليه بأفضل ما تستطيع أن تبدو عليه من هدوء . كان رجلا راجح العقل متزنا ، وصديقا لرابتينس الذى كان أكثر المعارضين لفكرة الاتحاد ضراوة . ألا يستطيع زوجها أن ينصحه بمحاولة اصلاح الأمور ؟ أو على الأقل الامتناع عن أى تحرشات مدة شهر ؟ وفى هذه الأثناء سوف نرى كيف سيتصرف الآخرون من جانبهم ... ولو هدأوا بدورهم سيكون الأمر رائعا ... ولم يكن ثمة شخص آخر على الاطلاق غيره ... يمكن بتدخله أن يصل الى نتيجة . يجب فحسب أن ...

تركها تتحدث دون ان يقاطعها ، ولكن هذه المرة لم يسمح لها بأن تواصل . ودون ان يرفع صوته ، بل بهدوء وحزم ، **قال لها :**

ـ ليس ثمة احتمال أن أفعل شيئا من هذا . قد أكون ضعيفا وجبانا ، لكننى معجب بموقف أصدقائى . من وقت لآخر ، أبعث اليهم باعجابى سرا . اننى لا أعتبر نفسى مناضلا كبيرا ، يا فولا ، ولا أعتقد اننى أقول ذلك بدافع من الوطنية ! كيف أوضح لك الأمر ... انها مسألة كرامة فحسب .

رغما عنها ، رفعت عينيها عن القماش الذى تطرزه لتنظر اليه • فقال لها :

ـ لا تدهشى • هذا هو الأمر •

وببعض الضيق والتردد أضاف شيئا لم يسبق ان قاله لها من قبل ، ولم تكن تتوقع ان تسمعه منه :

ـ لا تعتمدى على اننى لم أرد ان نتحدث قط عن مسائلنا الخاصة ••• أقصد عن كل تلك الأقاويل التى تصدر عن الناس ••• فهناك الطفل ، ولا أريد ان أفقدك ••• أعنى ••• كيف أشرح لك ••• الأمر شخصى للغاية ••• ولا يخص سوانا ••• وقد كنت حرا ان أواجهه بالنحو الذى أراه • لكن هذه المرة ، يا عزيزتى فولا ، الأمر مختلف • انها مسألة جماعية ••• لا أعرف اذا كان سوف يمكننى ان أشرح لك ذلك••انها مسألة تخص الآخرين••مسألة عامة••قومية ، كما يقولون•• لم يعد الأمر يقتصر على مسئوليات شخصية ••• قد أكون عاجزا عن ان أشرح لك جيدا ••• حسنا ••• أقول لك لا يجوز لى الآن ان أتصرف على هذا النحو أو ذلك ، لأن هذا النحو أو ذاك يروق لى • ان الأمر هنا مختلف تماما • لم تعد المسألة تتعلق بحفنة من مواطنى يتابعون موقفى فى شأن يخصنى أنا وحدى • ماذا أقول؟•• هناك فى الوقت ذاته الناس المحيطون بى وهناك أيضا المستقبل ، أو بعبارة أخرى التاريخ ، وأولادنا ـ كل هؤلاء يثبتون أنظارهم على ليروا كيف سأتصرف فى مسألة عامة وان كانت قد ألقيت على عاتقى ••ان مسئولياتى ضخمة ••• وتريدين منى أنا الذى لست من الجسارة فى شىء ان أدخل الخوف الى قلوب الجسورين ؟ ••• لن يحدث ذلك أبدا ! قد أكون ضعيفا فى كثير من المجالات ••• ولكننى لست كذلك فى كلها • لا أعرف ما اذا كنت تفهميننى •

كلا ، لم تكن فولا تفهم ، وكانت قلقة ، مرتعدة ••

ولما كانت تمسك بقماش التطريز فقد بدت ارتعاشة يديها ملحوظة ••فوضعته على المنضدة ، وأخفت يديها بين ركبتيها تحت اهداب غطاء المنضدة •

كانت تسمعه ، وتنظر اليه دون ان تعرف أين هى • تعرف انها تنظر اليه دون أى تعبير ، مذعورة • تعرف انها تحمل نفسها على ان تبدو طبيعية ، وتعرف أيضا انها لم تكن تتوصل الى ذلك •

وكيف كان بامكانها ان تتوصل الى ذلك ؟ انه لم يشر قط أدنى

اشارة الى مغامرتها الغرامية ، وها هو الليلة يحدثها عنها بصراحة وبلا مواربـة •

لماذا ؟ لماذا ؟ هل داخله الشك ان يكون نيقوس هو الذى دفعها الى ان تفاتحه فى الأمر ؟ هل هو على علم بمقابلاتهما الأخيرة فى المكتب ؟ والآن ، هل تضاعفت كراهيته لنيقوس لأنه منشغل بالاتحاد ؟ •

لم تكن تجد اجابة ، بل وكانت الأسئلة التى تتساءلها تزيدهـا اضطرابا • ما عادت تجرؤ ان تنظر اليه •••

كف الدكتور عن الكلام ، وازداد الصمت ثقلا • لكنه نهض واقترب منها • واسند يده على كتفها • وقال :

ـ لا تعذبى نفسك • لا أريد ذلك • لو كنت تعرفين كم أحبك •••

جالسة ، أدارت رأسها نحوه • أرادت ان تعبر له بنظرتها عن حزنها وامتنانها • بدر ذلك منها تلقائيا كما لو كان ضرورة • ولكن ما ان وقع نظرها عليه حتى رأته مختلفا • كان وجهه وضيئا • بدا لها أقل دمامة ومرضا • بل كاد يكون فى نظرها وسيما وقويا • نظرت اليـه برقة ، وبومضة اعجاب مفاجىء •



فى الوقت ذاته ، كانت كيتى تتناقش مع نيقوس مانوسيس فى مكتبه • وبلا مواربة ، ولا احتياطات كتلك التى اتخذها عندما كانت فولا معه ، قص عليها كل ما جرى ، واشركها فى مخاوفه ، وفى النهاية طلب منها العون • الأفضل ان تتزوج كوليتيس على شريطة ان يذهبا للاقامة بأثينا ، أو بالخارج ، ان أمكن • فاذا لم تظفر بذلك ، فيجب عليها اقناعه بالكف عن الخوض فى شئون الحركة الانفصالية • واذا احتاج الأمر ، فعليها أن تهدده بالافتراق عنه ، بل وان تفترق عنه فعلا لاجباره على ذلك •

وافقته كيتى على كل النقاط • واذ فهمت مبلغ كربه شجعته على التطلع الى المستقبل بتفاؤل •

قال لها فجاة ، وقد استغرق فى التفكير :

ـ قولى لى • فيما تفكرين الآن ؟ لو نحينا الخطر الآخر الذى كان يتهددنى بسبب ماضى ، فهل أحسنا صنعا ان انغمسنا فى هذه الحكاية ؟

بادرت تجيبه قائلة :

ـ يا لكم من مخلوقات غريبي الأطوار أيها الرجال • حتى أقواكم عزيمة لا يخلو من قدر من الصبيانية المفعمة بالضعف والسذاجة • أنتم مثل عنقود العنب لا تنضج حباته كلها دفعة واحدة • نحن وحدنا تنضج عناقيدنا كلها • بالطبع أحسنا صنعا ! أتذكر ما كنا نقوله منذ سنوات عديدة • كنا نلعن أقدارنا ونبكي لأن ما من فرصة كبيرة متاحة لنا • حسنا ، أكبر الفرص التي بالامكان أن نحلم بها أتيحت لنا الآن • الشيء الوحيد في الأمر اننا نلعب لعبتنا وقد راهنا على من يكسب هذه الحرب • ولكن ثمة ملايين من الناس يلعبون اللعبة على هذا الوضع مثلنا • بل ان أغلب هؤلاء يلعبون اللعبة دون مقابل ، ومنهم من يدفع حياته ثمنا لها • هناك دول بأسرها ومصالح ضخمة تقبلت المجازفة • حسنا فعلنا وشاركنا في اللعبة • اذن ، دعك من مخاوفك •

ثم مضت تقول بلهجة وئيدة ومغايرة :

ـ أما من ناحيتي ، فسأفعل ما تريد ، وليس ذلك لأنك بحاجة الى فحسب ، بل ولأنني بدأت أعتقد ازاء ملايين التفاصيل انني لن أفلح في تغيير كوليتيس • جاءت الساعة التي يجب علي فيها أن أحسم الأمور •

قال لها بحزم كي يشدد من عزمها في اتخاذ القرار :

ـ انت على حق • رأيته مرات عديدة ، وقد كان مختلفا تماما عن ذلك السيد المهذب الذي دعوناه للعشاء العام الماضي • حركاته ، ملابسه ، كل شيء فيه ، يشعر بأنه أصبح فلاحا جلفا • أتساءل كيف يمكنك البقاء على علاقة به •

ـ حسنا ، في لحظات يبدو لي كذلك • وهو لا يروق لي الا على صورته هذه •

ـ كيتي ! ما عدت أفهمك ! •

ـ ستفهمني حالا • في بعض اللحظات أعجب به كما سبق ان أعجبت بالآخرين جميعا • ولكنني عادة عندما أحس بأنني مخلوق يعيش بين مخلوقات أخرى ••• ينتابني الاشمئزاز منه ، ومن فتيليونا ، ومن لاريسا ، ومن كل شيء • يملؤني هذا تقززا ، وأخاف من المستقبل

تركها لحظة مع تأملاتها • اشعل سيجارة ثم سألها :

ـ هل سمعت عمن يدعى كاستيليون ؟ •

ـ كلا ، من هو ؟

ـ اذا لم تكن قد سمعت عنه ، فلعلك قد رأيته • ألم تلمحي

ضابطا ايطاليا شابا ، ممشوق القامة قوى البنية ، يتجول هنا وهناك ، تارة ممتطيا جيادا رائعة ، وتارة راكبا عربة ملفتة للأنظار ؟ .

ـ لا أعتقد اننى ... آه ، أجل ، رأيت ضابطا ايطاليا يجرى كالمجنون بعربة جميلة مكشوفة ذات عجلتين ، عجلة كابريوليه كما يطلقون عليها .

ـ حسبنا ، يا صغيرتى العزيزة . سمع هو عنك . وأول أمس ، قال لى « يا سيدى الرئيس ، علمت ان لك ابنة أخ تغنى غناء جميلا ، وتمتلك فتنة الدنيا كلها . لماذا تبقيها فى الخفاء ؟ اننا لسنا من أكلة البشر ! » .

استمعت اليه باهتمام ، وأردف يقول :

ـ وهل تعرفين من كاستيليون ؟ انه يحمل لقب كونت . وله أب واسع الثراء . تصورى انه جلب من ايطاليا جيادا يمتطيها وأخرى تجر عربته الصغيرة . وفضلا عن ذلك فان أسرته لصيقة جدا بالدوتشى ، وهو ذاته من المتعصبين لقيام امارتنا ، ومن أشد المعجبين بفكرة الاتحاد. ولا يكف عن مطالبتنا بمزيد من العمل . انه ذكى ، جذاب ، وسيم ، فى الخامسة والثلاثين من العمر تقريبا ، وأعزب . يجب ان تتعرفى به .

★★★

فى ساعة متأخرة من بعد الظهيرة ، وصلت كيتى دون سابق اخطار الى فتيليونا .

ما من أحد أجاب طرقاتها على الباب ، فاتجهت الى السور الذى يفصل الحديقة عن بستان الفاكهة . رأته من بعيد تحت السقيفة ، مشغولا مع آخرين فى فك عربة ذات أربع عجلات لاصلاحها . اقتربت منهم دون ان يتنبهوا الى مجيئها . لم يكن الرجال الثلاثة يتكلمون ، وبين الفينة والفينة كانت تصدر عنهم كلمات مقتضبة بشأن ما انكبوا عليه من عمل.

كان الجو شديد البرودة . ارتدى نيكيتا صديرية سميكة من الصوف ، وشمر كميه حتى المرفقين ، وانفتح قميصه عن صدره كثيف الشعر . انهمك مع آخر فى رفع العربة ، وأشار الى رجل ثان موضحا له كيف يبقيها مرفوعة حتى يستطيع بعد ذلك أن يخلع العجلات . كان ملطخا بالطين والأوساخ . وعلى الرغم من البرودة ، انهمر العرق على وجهه .

لم يتبينوا وجودها الا عندما اقتربت منهم كثيرا وقالت لهم « طاب يومكم » حياها بدوره ، ولكن دون أن يترك عمله الذى ما كان يحتمل فى هذه اللحظة أى توقف • انسحبت ووقفت خلفه ، وانتظرته متابعة ما يفعل •

قالت لنفسها « حقا ، انه أصبح فلاحا قلبا وقالبا • كيف أمكن أن تمحى عنه المسحة الباريسية تماما ؟ » •

وفدت الى أنفها الرائحة المنبعثة من جسمه ، وتذكرت أريج العطور الفرنسية الرائعة التى كانت تفوح منه فيما مضى • فى هذه اللحظة شممت على الأخص رائحة العرق ، ورائحة أخرى اختلط فيها عبير الأرض المبتلة ، وطلل الجلود ، وزخم البهائم المستدفئة • شىء أشبه برائحة الحيوان •

فكرت أو على وجه التحديد شعرت بما جعلها تحمر خجلا : كانت هذه الرائحة الغريبة التى تصدر عنه وهو منكب على العمل ، تروق لها وتستثيرها بقوة ! استشعرتها الآن بجلاء الى الحد الذى جعلها تشتاق الى أن تضمه بين ذراعيها وتقبل بشغف خصلات الشعر الخشن المخضب بالعرق التى تكسو صدره •

أدخل هذا الشعور الاضطراب الى نفسها •

تذكرت كلمة قالتها لها أمها وبدت لها فى هذه اللحظة كما لو كانت كلمة قدرية ، فقد حذرتها أمها أكثر من مرة « انك ستمضين الى حتفك ، لانك لا تعرفين ما تريدين » ماذا كانت تريد ، حقا ؟ العطور الفرنسية أم العرق البهيمى ؟ كانت تريد هذا وذاك معا ، بكل ما فى نفسها من قوة • وكانت هذه مأساتها •

لم تسترسل فى خواطرها ، لان الرجال فكوا العجلات وأسندوا العربة العربة فى الحظيرة • وسمعت نيكيتا يقول لها :

ـ خذى مفتاح البيت وأوقدى النار فى المدفأة • لم يبق أمامى عمل طويل ، وان كان يلزمنى بضع دقائق كى أتفاهم مع الرجال وأغتسل •

كانت تفضل ذلك • فسيتيح لها ذلك الوقت كى تعيد التفكير فى الخطة التى ستنتهجها • ترك فيها مرآة انطباعا غريبا هذه المرة • بدأ لها غريب الأطوار وميزت فى طباعه شيئا غير مألوف • انتظرت منه أن يعبر عن فرحته الكبيرة لرؤيتها ، وأن يطلق صيحة سرور ، ويضحك ضحكة من ضحكاته المجلجلة متندرا بمهارته كنجار عربات • الا انه بدأ يميل الى التحفظ ، وتحدث اليها كما يتحدث زوج

ريفي إلى زوجته ... لكن ربما تصرف على هذا النحو لوجود الآخرين هناك ...

ومهما كان الأمر ، فلم يكن بامكانها أن تتبع نصائح العم نيقوس . من المستحيل أن تقول لنيكيتا أن يبقى بعيدا ، من المستحيل أن تحاول الضغط عليه كي يكف عن محاربة الاتحاد . لم يكن لديها أية نكتة جادة كي تتصرف هكذا . بل انها ربما ولدت فى قلبه بذلك الشـــكوك . أما الورقة الوحيدة التى كان بامكانها أن تلعب بها ، فهى الزواج مقرونا برحيل سريع . هذا وحده ما يمكن أن تعزز به خططها . كما أنها الورقة الأخيرة التى يعقل أن تلعب بها . ولكن هذه اللعبة تحتاج الى الانتباه والتحرز ، بل والى الانتباه والتحرز كثيرا .

وفى الحقيقة ، كانت هذه الورقة الأخيرة تتطلب منها أيضا تيقظا أكثر مما كانت تتوقع . ذلك انه فى اللحظة أن تأهب نيكيتا للعودة الى البيت ، وصل صبى الى الحظيرة راكبا دراجة ، وطلب أن يتحدث اليه على انفراد .

قال :

ـ اذا قبضوا على . واستجوبونى سأجيب بأن تاكى خادزيبيروس أرسلنى أخبرك بانه وجد لك حبوب الحمص التى ستزرعها فى الربيع . أما الحقيقة فهى انه أرسلنى أخبرك ...

توقف لحظة كي يتذكر جيدا ما قيل له ، ثم استطرد :

ـ اليك ما أخبرنى أن أقوله لك : احدى الزيارات التى تعرفها جرت من جديد بالمكتب ، أمس ، قبيل منتصف الليل .

« احدى الزيارات التى تعرفها » ... أو بعبارة أخرى زيارة كيتى لمكتب نيقوس مانوسيس . فكر فى ذلك وانقبض قلبه .

سأل الصبى :

ـ أهذا كل ما جئت تخبرنى ؟

ـ أجل ، هذا كل ما جئت أخبرك .

ـ كرر ما قلته لى ، من فضلك .

كرر الصبى الرسالة من جديد ، ثم سأل نيكيتا ، وقد رآه شارد البال :

ـ هل تريدنى أن أقول له شيئا ؟

ـ قل له انى أشكره كثيرا ٠

قال الصبى مبتسما :

ـ وعند اللزوم لا تنس الحمص ٠ يجد تاكى انها سهلة الطبخ دائما ٠

وانصرف ٠

فى غرفته ، بدأ الجو ثقيلا٠منذ اللحظة الأولى كانت الكلمات شكلية بحت ، وذات وقع خاطىء ٠ خلا الحديث من تلك البشاشة التى كانت تميز لقاءاتهما عادة ٠ كل منهمـــا كان يفهم ان الآخـر يخفى ويدبر شيئا ٠

لم يستطع نيكيتا أن يمضى فى اخفاء نواياه وقال لها :

ـ كيتى ، جئت ولم أكن أنتظرك ٠ ويبدو لى انك تغيرت ٠ ماذا جرى ؟

ـ أستطيع أن أسألك السـؤال ذاته ٠ انت بدورك لسـت على ما عهدتك ٠

أجابها بلهجة غامضة :

ـ ربما كان ذلك صحيحا ، ولكن ما دمت انت التى حضرت الى هنا، قولى لى أولا ماذا جرى لك ٠

تظاهرت بأنها تضايقت من كلامه ، وبدت مترددة ٠ ابتلعت لعابها مرة أو مرتين ، وقالت له فى النهاية انها جاءت كى تتخلص من زخم هذا الريف الذى يأخذ بخناقهـا ٠ يجب أن ترحل معه ، ترحل معه بعيدا ٠

سألها بصوت وئيد ، مثبتا أنظاره فى عينيها :

ـ ألهذا السبب وحده تريدين أن ترحلى ؟

فكرت انه ليس ثمة دافع لها أن تتهرب من هذا السؤال ٠ ما دام كوليتيس يعرف بوجود الاتحاد ٠ ما كان يجب أن تتهرب من الاجابة ، ولكن هذه الاجابة بحاجة الى حـذر ، والتأنى فى اختيـــار الكلمات ، والا صارت الأرض زلقة للغاية ٠ **فأجابته قائلة :**

ـ لدى سبب آخر ٠

ـ عمك ؟

ـ أجل ٠

ـ لكنكما قطعتما صلاتكما به ٠

كانت الأرض زلقة خطرة ، ولكن يمكن للنقاش أن ينتهى الى نتيجة طيبة ٠

ـ قطعنا صلاتنا به ، ولكن ما الجدوى ؟ هو يعتقد بطبيعة الحال انه صاحب رسالة ، ولكن الجميع يتهمونه ، ويرجمونه بالحجارة . لأنه ـ على ما يبدو ـ تحدث أشياء فظيعة ٠ ما عدت أستطيع أن أسمع هذه الاتهامات ٠ كانت زخامة هذا الريف تخنقنى دائما ، ولكن الأمر زاد الآن سوءا ٠ ما عدت أحتمل ٠

بدت جد صادقة فى يأسها حتى كاد نيكيتا يضعف أمامها ٠ هل كانت تعارض عمها حقا ؟ تذكر مع ذلك كلمات صدمته كما لو كانت طعنة خنجر ٠

ـ أى نوع من الرسالات يشعر بأنه يبشر بها ؟

ـ يقول انه سوف ينقذ قوم الفالاك كما سوف ينقذ ثيسالونيك من أيدى البلغار ٠٠٠

فهمت انها انزلقت على الأرض الخطرة ، ولكن فات الأوان ٠٠ فهم هو ذلك أيضا ، وسأل :

ـ كيف تعرفين انه يشعر بذلك كله ويتحدث عنه ؟

أسرعت تجيب قائلة :

ـ أخبرنى بذلك بعض الأصدقاء ٠ كما أخبر أبى بعض المتعاملين مع البنك ٠

ـ لماذا لا تحاولان أن تحملاه على أن يغير رأيه ؟ كان يجدر بكما ان تحاولا من أجلكما ، ومن أجل وأد هذه الحكاية القذرة ٠

قالت يائسة :

ـ أين ؟ كيف ؟ لقد ترك المنزل ٠ ويمضى أيامه فى ذلك الاتحاد النجس ، مع أولئك الناس البشعين ٠

حول نيكيتا أنظاره عنها ٠ تناول سيجارة ، ودق بها فى رفق علبة سجائره ٠

راحت كيتى تتابعه بانتباه شديد ، مليئة بالقلق ٠ كان ثمة شىء يؤرقه ٠ وجعله يستغرق فى التفكير ٠ هل كان يصدقها ؟ أم كان لا يصدقها ؟ الى أين تمضى ؟ نحو الزواج الكبير الذى طالما اشتهته .

وعلى الأخص من رجل قوى يستهويها ؟ أم على العكس ، ستبدأ الحكاية ذاتها من جديد ؟ خيبة أمل ، حسرة ، بحث عن فرصة جديدة ، انتظار . سخط ، يأس ؟

كل ذلك يتوقف فى جزء كبير منه على ما سوف يقال فى الدقائق القليلة التالية !

رأته يضع السيجارة بين شفتيه ، وينحنى نحو المدفأة ليأخذ منها عودا من الحطب يشعل به لفافته · أتيحت لها فسحة من الوقت كى تتساءل لماذا تروق لها حركاته ؟ هل لانها مطبوعة بالرشاقة والنبل · أم لانها بطيئة الى حد مثير للغرابة ؟

سألها منكبا على المدفأة :

ـ حسنا ، أوافقك على انه يقضى النهار كله هناك ! ولكن لو أردت مقابلته ، الا يذهب حتى بالمساء الى مكتبه ؟

شعرت بالسؤال يسرى قشعريرة باردة فى ظهرها · أدركت انه تعمد أن ينحنى نحو المدفأة حتى لا ينفضح وهو ينظر اليها ·

اذن ، فقد اكتشف أمر زياراتها ! لا بد أن ثمة من تتبعها ! ومادام الحديث قد اتجه هذه الوجهة فما من شىء يجعلها تتفادى الانزلاقة النهائية التى أحست بها وشيكة سوى اندفاعة جسور ·

فقالت بحمية :

ـ قابلته ، يا نيكيتا · انت الوحيد الذى يعرف ذلك · الوحيد · رأيته ليلة أمس · لمته أشد اللوم · توسلت اليه · وجهت اليه السباب· ولكن ما من جدوى · انه يعتبر نفسه صاحب رسالة · ويقول انه سوف يضحى بنفســـــه لو اقتضى الأمر ، وسيضحى بنا أيضا · انه قدرى قدرى التعس ·

دفنت وجهها بين راحتيها · بدت على أهبة البكاء ، أو على الأقل ، بدت تحاول أن تســيطر على دموعها · كـــان يمكن أن يكون ما تقوله صحيحا ، ويمكن أن يكون نسيجا من الأكاذيب أيضا · لكن نبرة صوتها لم تكن زائفة · وبدا يأسها صادقا · ماذا كان يجب عليه أن يعتقد ؟

« انها على غاية من الذكاء ، لكنها الشيطان مجسدا » · هذا ما كان قد قاله له خادزيبيروس ·الذى استطرد يقول أيضا « على الأخص اليها لا يجب أن تتحدث · فان فعلت ، فقد تقع من جراء ذلك كارثة كبيرة » ·

وقد أجمع الجميع على أن الخلاف بين الأخين ليس سوى أضحوكة ·

ولكن الآن ، ما قوله فى اعترافها التلقائى ؟ وفى تفسيرها المنطقى للمقابلات ؟ وفى يأسها ؟ وفى الاقتراح الذى عرضته عليه بالرحيل ؟ ومن جديد فكر فيما سمعهم يقولونه بعيادة رابتيس ٠٠٠

لم يستطع أن يجد برا يرسو عليه ٠ أن معرفة الحقيقة سوف تكون مستحيلة ٠ ليس هناك سوى وسيلة واحدة ٠ جلس الى جوارها أحاط منكبيها بذراعه ٠ وقال لها :

ـ عندما تنصلح الأمور ، قد أذهب الى أثينا مرة أو مرتين فى العام ٠ ومن وقت لآخر ، قد أذهب الى باريس وان كان ذلك سوف يكون نادرا ، فقد أصبحت أشـــعر باننى جزء لا يتجزأ من فتيليونا ٠ هنا سأعيش ، وهنا سأموت ٠ اذا أردت أن تعيشى هنا ، فسوف نتزوج اليوم الذى تحددينه أنت ٠ سأصلح غرفتين آخريين من البيت ٠ وسأهيىء مطبخا مريحا ٠ ستكون حياتنا جميلة ٠

لم تزج يديها من على وجهها ٠

هذه المرة لم يكن الأمر مجرد انطباع ٠ كانت تبكى فعلا ، ومن خلال نحيبها تمتمت تقول :

ـ لا أســـتطيع ٠٠٠ لا أســـتطيع ٠٠٠ لا الريف ، ولا الطين ، ولا عمى ٠٠٠

وانخرطت فى البكاء حقا ، لانها شـــعرت بالحاجة الى ذلك فى أعماقها ٠ ان الحقيقة التى لا تبدو مكترثا بها فى الأيام العادية ، تواجهك فى ساعات العمر الكبيرة ٠ فاذا لم تجدك حينذاك أصيلا ومتماسكا فانها تمزقك وتسحقك ببلطة من نار ٠ وقد أدركت ان الحقيقة تفعل معها ذلك فى هذه اللحظة ، وللمرة الثالثة أثناء حياتها القصيرة ٠ وربما كانت هذه المرة أقسى المرات جميعا ٠

وجد نيكيتا الموقف من ناحيته غير مستحب ، ومؤلما للغاية ، لكنه أحس بأنه اتبع الطريق الوحيد ليصل الى معرفة أين هو ٠

جاء ، وجلس قبالتها ٠ تناول يديها وأزاحهما عن وجهها ٠ رآه مدموغا بألم عميق ٠ وقد انهمرت الدموع من عينيها ٠ كانت دموعا حقيقية ٠ ولم يكن رآها بهذه الحال قط ٠

نظرت اليه ، وأحست بأن ثمة شيئا يختلج بداخله ٠ أخذ رأسها بين يديه ، ومال على وجهها الحزين المحتفظ بجماله رغم ذلك ٠ صوب نظراته بحب الى أعمق أعماق عينيها ٠ هم ان يطبع على شفتيها قبلة ، ويقول لها ٠٠٠

ولكن الوقت لم يتسع له ·

هجمت عليه ، ضمته اليها بكل قواها · دست وجهها فى فتحة قميصه ، وتمسحت بصدره المغطى بالشعر حيث طبعت قبلة ملتهبة · ثم فجأة جرت هاربة مثل مجنونة · صائحة بمنتهى اليأس :

ـ لا أستطيع ! كلا ! لا أريد ! هذا مستحيل !

جرى وراءها ·

لم يتسع له الوقت الا كى يراها تبتعد بسرعة فائقة ، وقد امتطت دراجتها ·

ثم ما لبثت أشجار فتيليونا العـــارية ، وتلك التى احتفظت رغم الشتاء بأوراقها ، أن حجبتها عن أنظاره ·



كان شتاء عام ١٩٤٠ قاسيا ، جاء أثناء الحرب ضد الايطاليين ، ولكن شتاء عام ١٩٤١ لم يعادله فى قسوته · أى شتاء آخـر · كان هذا أول شتاء فى ظل الاحتلال · انقضى ديسمبر باردا مطيرا ، وانهمرت الثلوج وتراكم الجليد ·

أمطرت السماء الثلوج بغزارة · طمرت الجبال ، وكست القمم بغلالة بيضاء ، تكدس الجليد فى السهول فاتخذت هيئة الصـــفائح البيضاء ، وتغطت الحقول بمعطف ثقيل ·

وفى السهل الكبير لم يبق شبر من الأرض لم يجلله البياض · فى بعض المواقع كان سمك الجليد قدما ، وفى بعض المواقع ذراعا . وفى مواضع أخرى أكثر من ذلك أيضا · حجب الجليد الأرض ، غطى المزروعات ، دفن الادغال الواطئة · واحال ثيساليا كلها الى بحر بارد ، صامت . بلا حدود ·

انخفضت درجة البرودة الى أدنى من الصـفر · وظل الحـــال على هذا المنوال ، وهو ما لا يحدث الا نادرا فى اليونان ، عشرة أشهـــر

طوال · وأثناء أسابيع ثلاثة لم يتزحزح مؤشر الترمومتر عن عشر درجات تحت الصفر أما بالليل فكان ينزل الى خمس عشرة درجة · بل والى أدنى من ذلك مرة أو مرتين ·

أغلقت المدارس · ألم المرض بالأطفال الصغار والضعاف · وراح العجائز يموتون · وكان دفنهم معاناة كبيرة فى الأرض التى حجرها الى أقصى حد الجليد المتجمد ·

كما جعلت صعوبة لمواصلات تنقلات السكان قاصرة على الحاجات الضرورية ·

أما السلطة الرسمية ، أو الدولة اليونانية ، فكانت عاجزة وغير منظمة وانحدرت هيبتها الى لا شيء تقريبا ، وفيما يتعلق بتقديم العون للمواطنين ، لم يكن بامكانها أن تتصرف ولا أن تأمر ، ولا حتى أن تسمع صوتها كى تدلل على انها لا تزال تحيا · لم تكن سوى متفرج ، ولازمت الظل ·· وأى عون كان بامكانها أن تؤديه فى الوقت الذى تكالبت عليها حتى قوى الطبيعة ذاتها ؟

محن من كل نوع ، محن لم يسبق لها مثيل ، محن ثقال · عذاب فى القرى ، وعذاب فى المدن ·

وكانت الكارثة أكبر أيضا ، وبلغت الى حد اليأس ، بالنسبة لاولئك الذين يحيون على تربية الماشية · فما من نبت أخضر فى أى مكان · ولا حتى فى شبر مربع وأولئك الذين يحتفظون بقليل من التبن أو الحبوب المخزونة كانوا يحصون على الأصابع حتى صح القول بصفة عامة بأن ما من أحد توافرت له حفنة من العليق لقطعانه فى الحظائر المتدهورة · وفى مراقد معرضه للرياح من كل جانب ، مغطاة بسقائف مائلة من حصر أو أغصان مجدولة لا تقوى على صد غوائل البرد ، راحت الاغنام تعانى ساكنة من الزمهرير القارس ، فيضمر عودها ، وتنفر عظامها · ثم لا تلبث من فرط جوعها أن تشرع فى قرض أى أخشاب تجدها بجوارها ·

كثير من هذه الأغنام كانت تخرج الى الجليد الصلب ، تنبشه بحوافرها وقد استبد بها الجنون كى تزيحه عن أديم الأرض ، وتأكل أى نبت أو بذر تجده تحته · ثم تمضى تكرر ما فعلته فى موضع أبعد قليلا ، ثم فى موضع آخر · وفى النهاية يستبد بها التعب والخوار ، فتعود تجرى الى حظائرها وتسقط متهالكة فى مراقدها غير المريحة ·

فى بعض الأحيان ، كان يحدث أن تلد شاة ، ولكن الحملان الصغيرة

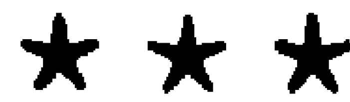
لا تلبث أن تنفق ، فيهرع الرعاة الى حلب الشاة ، لا من أجل القليل من اللبن الذى سيحصلون عليه بل حتى لا تصاب بالعقـــم عندما تخضر المراعى فيما بعد من جديد ٠

الى هذا الحد بلغ اليأس والخوف من الغد ، حتى ما عاد أحد يقرض نقودا أو علفا ٠ والأسوأ من ذلك ، ان ما من تاجر من أولئك الذين كانوا يشترون اللبن مقدما كل عام كى يصنعوه جبنا ، أصبح يعطى الرعاة مبلغا على الحساب كالمعتاد ، حتى يمكنهم من اجتياز الشتاء ٠

من الذى سيقدم على ذلك ؟ وكيف ؟ وليس ذلك فحسب لأن الأسعار ترتفع يوما بعد يوم ، وما عاد بالامكان أن يعرف كم من الدرخمات سوف يساوى لتر اللبن ٠٠ وليس ذلك أيضا لأن النقود أضحت شحيحة ، وصارت البنوك تتشدد فى اعطاء القروض ، فان كل ذلك كان بالامكان أن يدبر له علاج ، نظرا للرحمة التى تتولد فى القلوب كرد فعل للشقاء وانما رجع استعصاء الحل الى أنه بدون ملح لا يصنع جبن ٠ وقد صادرت القوات الايطالية الملح ، ولم يكن يصرف الا بأمر من الاتحاد الرومانى الى التجار الذين يتعاونون معـــه ٠ وباستثناء تاجرين أو ثلاثة من نهازى الفرص المفلسين أو الذين لا يأتمن أحد أقراضهم ، امتنع كل تاجر جاد عن الدخول فى علاقة مع ذلك الاتحاد٠ كيف اذن ، يمكن فى ظروف مثل هذه أن يباع اللبن ويؤدى ثمنه مقدما ؟ فى كل الارجـــاء ، والقـــرى والحظائر ، عم اليأس والخوف من الغد ٠

كم سيدوم هذا الشتاء الخشن ؟ وكم من الاغنام ستظل على قيد الحياة حتى تخضر الأرض ؟ ومن ثم كيف سيصنع بالقليل من اللبن جبن يوفر لرعاة الاغنام أن يكسبوا بضع درخمـــات ، تسمح لهم ولاسرهم ومواشيهم أن يواصلوا الحياة الى العام القادم ؟

تبا لذلك الاتحاد اللعين ، الذى راح يبرق ويرعد فى هذا الليـــل القاسى البهيم ٠



أجل ، فى الحقيقة ، كان الاتحاد يطلق بروقه ورعوده فى ليـــل العبودية ٠

بلغ عدد الذين يتألف منهم جيشه ثلاثة آلاف رجل . انضم اليه أكثر الأفاقين ، وسواقط السفلة ، وكل أولئك الذين نجحوا أثناء القلاقل التى آثارها غزو الالمان للبلاد فى الافلات من السجون ..

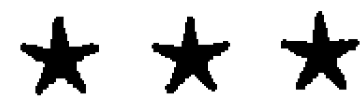
بدرع معلق على الذراع ، ومقلعة فى اليد . ومسدس فى الغمد الجلدى عند الوسط . وفى بعض الأحيان أيضا بأسلحة ايطالية خفيفة معلقة على الكتف كانوا يتجولون ممتلئ البطون بين الجياع ، حسنى اللباس بين لابسى الاسمال ، يطوفون بالسهول ، وينشرون الذعر بين ربوعها .

منذا الذى يجرؤ اذن أن يعصى سادة السهول الجدد ؟ ويل له !

من كل قرية كنت تسمع انباء عن تعذيب ، أو اهانة ، أو ضرب للاهالى . كانوا يعلقون من يعصى الأمر من يديه وأحيانا من قدميه ، ويتركونه يتدلى من أغصان أشجار الميادين ، حتى ترى القرية كلها الهوان وتسمع التوسلات !

ولكن أين بالامكان العثور على حماية ! لم يكن ثمة أحد لحمايتك ! ومن من أحد صار يجرؤ أن يطلب الحماية ، وهو يعلم انه حتى لو حصل على حكم قضائى ، فان أولئك الذين يحكمون السهول بالعنف ، سوف يجعلونه يدفع ثمن ذلك ضربا بالعصى ، بل وبملاحقات أشد هولا من ذلك أيضا . ومن ناحية أخرى . فان كل ما كان يجرى فى شأن صناعة الجبن أوضح بجلاء من جانب من صار الآن السيد الذى يجب أن يطاع فى الأمور كلها ، كبيرها وصغيرها .

ولهذا فان المستضعفين والضعفاء عنوا بأن يبقوا فى الظل ، واذا حدث ومورس عليهم الاكراه فانهم كانوا يستسلمون فى كثير من الأحيان ويرضخون . وماذا يفعلون غير ذلك ؟ فى الظاهر ، كانوا يسلمون بسلطان الاتحاد ، وفى الخفاء ، لم تكف الكراهية عن أن تتزايد فى أعماق قلوبهم .



ومع ذلك ، فقد كان فى لاريسا جماعة صغيرة لم تلزم الظل ولا الصمت . ولكن الوسائل التى فى متناول هؤلاء الرجال المعدودين كانت غير كافية ، وتعرضهم للاخطار . وأينما تواجدت هذه القلة عنى رجالها

بأن يدخلوا فى علاقات مع أكبر عدد ممكن من الناس ، يفتحون الحديث ، ويثيرون المناقشــات ، وعلى الأخص مع الفــلاك • كانوا يقولون لهم ما كانوا يرونه أكثر ملاءمة للظروف ، ويذيعون دعاياتهم مستخدمين فى الترويج لها حقائق وتكهنات• قالوا ، وهو ماجعل الدم يجمد فى عروق كثير من الافاقين نهازى الفرص ، ان الالمان وقد أرسلوا فرقا لتحارب روسيا فان الايطاليين والرومانيين سوف يرسلون جيش الاتحاد أيضـا الى الجبهة الروسية • كانوا يقولون ما وسعهم قوله كى يبثوا الذعر فى رجال الاتحاد ، ويشددوا عزائم الناس ، ويرفعوا الروح المعنوية بينهم •

ولكن كل ذلك لم يكن سوى كلام • لم يكن لا أشياء مؤكـدة ، ولا حلا يسمح للناس أن يقضوا الشتاء • أما أكثر المشاكل خطـورة وإستعجالا ، الا وهى ماذا سيحدث للبن ، فانهم لم يكن يجلبون أى علاج ، رغم كل محاولاتهم فى هذا المقام •

ماذا يفعلون ! ماذا بوسعهم أن يفعلوا ؟

على انهم أجمعوا على نقطة واحـدة ، الا وهى انه فى المـأزق الذى يوجدون فيه ، سون تكون مقابلة الجنرال الايطالى محاولة جديرة بالاقدام عليها على كل الأحوال • وذلك بالأخص بعد أن باءت مساعى مجلس نقابتى الاطباء والمحامين لدى قائد حالة الطوارىء بازيبولينى بالفشل ، بل وانتهت بأن عنفهم أشد التعنيف • صحيح انه سارع باستقبال أعضاء المجلسين فى أقرب وقت ، ولكنه لم يتركهم يكملوا حتى ما جاءوا ليقولوه له • وبلهجة عنيفة مفعمة بالاستعلاء قال لهم: «انالقومنداتور ديامانديس يتمتع بالثقة المطلقة للجيش الايطالى » وانه سوف يفحص شـكواهم • وشدد أيضا على أنهم يجب أن يفهموا انهم فى وقت حرب وان جيوش الاحتلال لا تسمح بالمعارضة •

ثم فض الاجتماع وقد بدا عليه الاستياء •

ولكن هل كل الجنرال يجهل كل هذا ؟

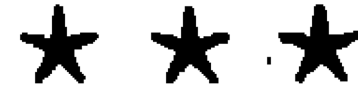
كان هذا غير محتمل ، ولكن فى حالة اليأس التى هم بها • بقيت زيارة الجنرال أملا صغيرا يراودهم ، بل صارت تلك الزيارة منذ ذلـك الحين الأمل الوحيد •

ولكن كيف البلوغ اليه ، ما دامت الأبواب تصفق فى وجوههـم أينما طرقوها ؟ ذهبوا الى مقر العمودية اليونانية حيث كان العمدة على صلة وثيقة بالاتحاد ، والى مكاتب البوليس ، ومكتب المساعدات بالمنطقة ،

قوبلوا في كل هذه الجهات بعدوانية ، وطردوهم · حاولوا أن يتصلوا بالجنرال لحظة خروجه من مكتبه · ولكن عبثا حاولوا ·

ماذا يفعلون غير ذلك ؟

لم يجدوا وسيلة ، وتخلوا نهائيا عن كل أمل ، واذا بمصادفة غير متوقعة تأتي لنجدتهم ·



كان جوليو فيانيللي واحدا من أهل لاريسا القدامى · ورث عن أبيه أملاكا عقارية كبيرة · فعاش في اليونان أكثر مما عاش في بلاده · ومنذ سنوات طويلة ترجع الى شبابه الباكر كان قنصلا فخريا لايطاليا في لاريسا ·

طويل القامة ، انيق الهندام ، يشبك قرنفلة في عروة سترته · يرتدى في الشتاء حذاء لامعا طويل الرقبة ، وفي الصيف رانـــا أبيض مكويا بعناية ، ولا يفارقه سوطه البديع · بشوش ، على الدوام، أفكاره محدودة . ولكن قلبه طيب ، لا يؤذى أحدا ، يوزع القبلات والمجاملات ، ويحظى بحب الجميع ·

وحتى قبل الحرب ، كان يأتي في كل وقت الى لاريسا لزيــــارة أماكن يحبها ، وأصدقاء قدامى · ومن أجل هذا عاد هذه المرة أيضا ·

يذكره نيكيتا جيدا · كيف يمكن أن ينسى هذا الرجل الجذاب الأصيل ، الذى كان يأتي في الأيام الخوالى لزيارة فتيليونا ، تارة بصحبة أسرته ، ويقود عربته الرمادية الصغيرة الجميلة ، وتارة بمفرده أو ممتطيا جواده الأبيض المختال !

وما أن عرف نيكيتا بوصوله ، حتى جرى في الصباح الباكر الى الفندق الذى ينزل به لمقابلته · فقد يكون نافعا لهم · وهرع الايطـالى يرحب به مفتوح الذراعين ·

– عزيزى ! ابنى ! أنت صورة طبق الأصل من جدك ، طبق الأصل حقا ! كم تذكرنى به ! كم كان عجوزا مثيرا للاعجاب ! كان سيدا كبيرا· آه ! يا عزيزى الغالى · أين السادة الكبار الآن في هذا العصر الطنان !

اليوم ، حتى فى ايطاليا ذاتها ، النبلاء ينقرضون . ما دمت ترى آل بيت سافويا العظام يتراجعون أمام موسولينى الذى كان أصله مدرسا ابتدائيا . لا انكر انه اعطانا امبراطورية ، وجعل منا نحن الذين كنا مجرد عازفى مندولين ظرفاء قوما يحترمهم الاصدقاء والاعداء على السواء . لكن وحق السماء ، وحق محبة الله أطلب ألا يداس النبلاء بالاقدام . آه ، أيها السيد العزيز ، نيكيتا كوليتيس ! كم من ذكريات اثرتهـــا بمجيئك ! أذكر أن أباك دعانا ذات يوم الى حفل كبير بفتيليونا . وجاء بعض الضيوف من أثينا . وتجمع فى الحفل كثيرون من كبار ملاك الضياع وضباط الحامية بملابسهم الرسمية ، تدلى عـــدد لا يحصى من المصابيح الملونة من الشجر بحديقتكم ، استجلبت فرقة موسيقية اثينية ، وفرقة أخرى خصيصا لعزف الفالس . كان كل ذلك حلما حقيقيا . وبطبيعـة الحال ، أن يقام حفل مثل هذا ، فذلك يعنى أن جدك كان غائبا . ولكن اذا به يصل فجأة دون ســابق اخطار ، وقد بلغ الحفـــل ذروته . نزل من العربة وظل ساكنا . انحنينا جميعا أمامه . رد علينا التحية ، وجال ببصره فيما حوله ، ثم انصرف . بعد برهة ارسل أمك لتبلغنـــا انه يشعر بوعكة ، ولكنه يرجونا أن نستمر . تصور ماذا نال أبوك من جزاء فى اليوم التالى ! ولكن جدك كان على حق بعض الشىء ، لأننا كنا آنذاك فى وقت الحرب ، كنا عام ١٩١٧ . آه ، الحرب ، يا صديقى . اننا منتصرون على كل الجبهات . انى لا أنكر أن ...

مضى فيانيللى فى حديث لا ينضب . وأصل مونولوجه موجها المديح الى الايطاليين واليونانيين على حد سواء ، مسترجعا ذكريات أيام ملاك الأرض القديمة الحلوة فى ثيساليا ومسجلا ملاحظاته عن تطورات الحرب .

خشى نيكيتا الا يجد فرصة كى ينبس بكلمة . وبصعوبة كبيرة قطع هذا التدفق القولى . وأخبره بما يريده منه .

صاح الايطالى دهشا مستنكرا ، وقد أحمر وجهه حنقا :

ـ ديامانديس ! هذا المهرج الصعلوك ! أذكره ! على الرغم من أنه كان العميل الأول للرومانيين جاء لمقابلتى بصفتى قنصلا لأيطاليا وطلب منى نقودا بحجة انه يتولى حركة تدعو للاتحاد مع ايطاليا . طردته شر طرده . لا شىء يشغل باله سوى المال . هـذا الصعلوك ، ماذا يريد أن يصبح ؟ أميرا ؟ يا للعار ، يا للوقاحة !

ـ كلا ، انها ليست مسألة مضحكة ، يا سيد جوليو

– يا عزيزى ، اعرف ذلك · أفهم مما قلت لى ، انه أمر يستحق الرثاء · ولكننى أعرف فوجيرو · سينهى هذه الحكاية · انه رجل عاقل ، وهو فضلا عن ذلك من السادة النبلاء · لابد أنه يجهل انك طلبت مقابلته · انت الرجل الباريسى المشهور · سوف كان يجيبك الى طلبك فورا ·

توقف فيانيلل فجأة ، تراجع قليلا ، وتفحص نيكيتا من الرأس الى القدمين ، وأبدى دهشة بالغة ·

– لو لم تكن صورة طبل الأصل من جدك لشككت أن تكون من أسرة كوليتيس · ما هذا الزى المضحك الذى تلبسه ؟

ابتسم نيكيتا ابتسامة مرتبكة · قال الآخر غاضبا :

– أتعرف كم كانت أمك أنيقة فى ملبسها ؟ أتذكر كم كان أبوك على الدوام معتنيا بهندامه ؟ أتذكر صدرياته الحريرية التى لم يكن يدانيه فيها أحد ؟ لا يمكنك وأنت ابنه الوحيد أن ترتدى زى الفلاحين · لو كنت تريد أن تشتهر بهذا المظهر فانها فكرة على غاية من السوء · اذا كان ابن كوليتيس يرتدى ملابس قروى جلف ، فمنذا الذى سيعطى اذن المثل الأعلى فى الذوق والأناقة ؟ لا تبتسم ، يا عزيزى · ان ما أقوله لك جاد للغاية · « اذا فقد الملح طعمه ، فمباذا يملح ؟ » واذا انحط النبلاء الى درك الأوباش فما الأمل بعد ذلك ؟ اشرح لى · ماذا يجرى بعد ؟

ضحك نيكيتا ملء شدقيه · لم يفهم الايطالى الطيب لماذا يفعل ذلك · بدا عليه القلق ، **ومال على نيكيتا وساله بلهجة عامرة بالطيبة :**

– هل أنت فى عوز هذه الأيام ؟ هل انت بحاجة الى مال أو الى بعض الملابس من ايطاليا ؟

أجابه نيكيتا قائلا :

– كلا ، كلا ، لا ينقصنى شىء · سوف تأتى يوما الى فتيليونا وهناك سأشرح لك لماذا أرتدى هذا النوع من الثياب · انما الأمر العاجل الآن ، هو أن تحصل لنا على موعد لمقابلة الجنرال ·

– بكل تأكيد ، بكل تأكيد · اليوم سأراه · هذا المساء ، أو غدا على الأكثر ، سيستقبلكم · ولكن لا تحضر بهذا المظهر · فى زى سمج مثل هذا ، سيفقد نجم الصالونات الباريسية الراقية هيبته فى نظر ارستقراطى مثل فوجيرو ·

تذكر نيكيتا المجتمع الراقي بالعاصمة الفرنسية ، وكم من الناس كانوا يسعون للانغماس فيه · ورأى نفسه متعبا ضـجرا ، يتردد على صالون تلو الآخر · ودهش من أن هذه الحياة غير المجدية كان لها وجود فيما مضى حقا · وليس فيما مضى فحسب ، فها هو محدثه اليوم أيضا لا زال يعتبرها المثل الأعلى رغم الكارثة التى يجتازها العالم · ألا زال يوجد اناس بعيدين الى هذا الحد عن الحقيقة الواقعية ؟ ما عاد يستطيع الضحك · وبلهجة جسيمة قال لفيانيللى :

ـ يا سيدى العزيز جوليو · ان الصالونات الراقية فى باريس قد اكتسحت الآن بريح عاتية هبت من الجبال المجللة بالثلوج والوديان التى تضطرم فيها النيران · والملابس التى كنت أرتديها هناك لا تصمد فى وجه هذه الريح · ليس باستطاعة سوى هذه الثياب الخشنة التى أرتديها أن تقاوم ·

وعلى الرغم من الحرارة المتأججة فى صوته لم يفهم الآخر ماذا يعنى، وقال :

ـ الحرب ، الحرب الكريهة ! هذا مؤكد ، الكل يعانى من الحرب · ولكنها ستنتهى · ستنتهى · وسـترى يا صـديقى ان أشـياء كثيرة ستتوقف على بعث الارستقراطية من جديد ·

ـ ولكن أى ارستقراطية ، يا سيد جوليو ؟ أرستقراطية الملابس؟

ظل العجوز المهزار صامتا وارتسم عليه الجد · كان باديا عليه انه يشحذ ذهنه كى يجد اجابة لماحة تترك أثرا فى مستمعه · ولكنه سريعا ما انفجر فى الضحك وربت على كتف نيكيتا قائلا :

ـ أرى انك رائق المزاج ، وتريد أن تتناقش بحرية ، بينما لدى أنا أمور أخرى تشغلنى · دعنى ، الآن ، أرتدى ملابسى · وعد الى عند الظهيرة · سأعطيك اجابة عزيزى فوجيرو ·· لحظة ! تعال ، كى أقبلك ، يا حبيبى · سعدت جدا برؤيتك ، وتأثرت كثيرا ·



قطع ديامانديس الصمت ، ضاربا مكتبه براحة يده غاضبا :

ـ تصور انه فى الوقت الذى بدأت الأمور فيه تسير على ما يرام

بالنسبة لنا ، يحاول شخص أحمق بزيارته العابرة للاريسا أن يفسد كل شيء ·

علق نيقوس مانوسيس على قوله هذا ببرود :

– لا تحل الأمور الى مأساة · لقد نجحوا فى الحصول على اذن بالمقابلة وليس فى ذلك أى شيء فظيع ·

رد عليه ديامانديس مغتاظا :

– انت غريب الشأن · ينتابك الخوف عندما لا توجد أسباب جدية لذلك ، وعندما تنعكس الآية تلزم الهدوء · أقول لك ان الجنرال أصدر أمره أمام هذا الديك الممتلىء غرورا بأن يأتى كوليتيس ورابتيس لمقابلته صباح غد ، ومعهما كل من يرغب فى مرافقتهما · أقول لك ان الجنرال أثار ضجة كبيرة · وان قائد الطوارىء شعر بالحرج الشديد ، وقلب الدنيا رأسا على عقب كى يخطرنى فى أسرع وقت · ماذا تريدنى أن أقول لك أكثر من ذلك حتى ينتابك القلق ؟

– اصغ الى : ليس الأمر سارا ، هذا حقيقى ولكن هل تنسى ان للجنرال مساعدين لهم عليه نفوذ من ناحية ، ومن ناحية أخرى هم الذين ينفذون أوامره · والتنفيذ أكثر أهمية من الأمر فى حد ذاته ؟

– قلت لك ان كبير معاونيه شعر بالحرج الشديد ·

– لأنه أول من تلقى غضبة الجنرال ، وربما أيضا لأنه لا يشعر بارتياح الضمير · ولكن هل تنسى ان لنا فى الرياسة أصدقاء كثيرين كبارا وصغارا يساعدوننا بغية كسب المال · كما ان « المكتب الثانى » يساعدنا لأننا سلمناه من الأسلحة ما يكفى لتسليح فرقتين بأكملهما ؟ أتعرف ماذا يعنى هذا بالنسبة لأمنهم ؟ وأخيرا ، يساعدنا أيضا المثاليون الذين تداعب خيالاتهم الصورة المشرقة لمستقبل ايطاليا الكبير ، أولئك الذين يؤمنون بامارتنا وعلى استعداد لتقديم كل التضحيات ، ولو الى أقصى الحدود ، من أجل قيامها · انهم عديدون ويشغلون مناصب مفتاحية · وعلى سبيل المثال كاستيليون · انهم لن يالوا جهدا من أجلنا ، وهم فى أوضاع تسمح لهم بالصمود فى وجه خصومنا فى روما ذاتها · ما الذى يستطيع أن يفعل اذن جنرال مضيق الخنادق عليه هكذا ؟

نظر اليه ديامانديس لحظة ، ثم قال وقد شعر بارتياح قليلا :

ـ انها لحظة قذرة ، لكنك طمأنتني الى حد ما • سندبر الأمور هذه المرة أيضا •

وبصوت أكثر حيـوية ، وقد ومضت عينـاه ببريق خبيث مضى يقـــول :

ـ أشرت الى كاستيليون • ماذا يجرى بينه وبين ابنة أخيك ؟

ـ عملا ، تمت المسألة • انهما مخطوبان •

دفع ديامانديس كرسيه الى الوراء :

ـ أهما مخطوبان ، وسيتزوجان ؟

اجابه الآخر بلهجة قاسية :

ـ ان بنات الأسر الكريمة يخطبن ويتزوجن !

انحنى ديامانديس وأمسك يد نيقوس الموضوعة على المكتب •

ـ وحق السماء ، يا نيقوس ، لا تسيء فهمي • كان سؤالي يعني هل الأمر مؤكد ، لأنك قلت عملا ، تمت المسألة ! لذلك سألت ، من باب الاهتمام بالامر فقط ، هل الأمر مؤكد ؟

ـ احـــكم بنفسـك • انه جاء رسميا الى البيت وطلب يدها من فاسيلي • ولكنه قال فحسب انه قبل اعلان الخطبة سـواء هنـا أو في ايطاليا ، يجب أن يحصل على موافقة أبيه ، وفقا للتقاليد ، وموافقة الرياسة وفقا للتعليمات • وهو متأكد من انه لن يكون ثمة اعتراض •

نهض ديامانديس متحمسا ، وأخذه من منكبيه :

ـ أحسنت ، أحسنت ، انه زواج رائع ، رائـع من كل الزوايا ! انى لمنبهر • قل لى كيف جرى ذلك ؟

ـ انه الحب من أول نظرة بالنسبة للطرفين •

ـ حسنا ، يا صديقى ، انها ضربة حظ موفقة • فهو بدوره شخصية مرموقة فى بلاده • انه يحمل لقبا ، أليس كذلك ؟

ـ انه كونت ، وأبوه ماركيز •

ـ اذن ، الكونتيسة كيتى ! وفيما بعد الماركيزة •• متى سـيكون الزواج ؟

ـ هذا غير معروف بعد • على كل حال ، انهما لن يطيلا الوقت • فهما يتعجلان الأمر •

ـ حسنا يفعلان · استعجل الأمر من ناحيتك أيضا · والآن ، قل لى ما المنصب الذى يشغله ؟

ـ كان قائد وحدة ، وحارب بكفاءة فى كل مكان · وهذه الشهور الأخيرة اسند اليه منصب ثقة فى المكتب الثانى ·

اضحت نظرة دياماندیس أكثر مكرا من أى وقت مضى · وصاح فرحا :

ـ اذن ، فهو طوع بناننا ، عريسنا الشاب ! *

ـ عندما كنت تحدثنى عن مخاوفك كنت أقول لنفسى ان على كيتى أن تحضره لمقابلتى حتى أحيطه بالموضوع علما ، وسألتقى به هذه الليلة ·

ـ وماذا تنتظر ، يا نقوس ، جالسا هناك ؟ انهض · تحدثنا كثيرا ، ان زيارة الغد للجنرال تحتاج ان نوليها كل انتباهنا ·

★ ★ ★

كان العم يتحدث تارة ، وتارة ابنة الأخ الجميلة . لأن فاسيلى مانوسيس لم يكن يحسن الفرنسية ·

كان يصغى اليهما بانتباه ، ولكنه فى النهاية قال بلهجة عدم اكتراث الأمر :

ـ حسنا فعلمتا وأخبرتمانى بالموضوع سلفا ، لأن الجنرال ، خارج أرض المعركة ، يروق له النظام والأدب · على اننا سنتخذ احتياطاتنا · وسنتدخل نحن بعد الآخرين ونبصره بالحقيقة ، وهكذا بعد قليل من الرعود والبروق ستعود السماء الى صفائها · كن مطمئنا ، يا سيادة الرئيس ·

نبهه نيقوس قائلا :

ـ المسألة ان ثمة بضع تجاوزات ارتكبت ·

ـ فى هذه الحالة ، فان الوالى الايطالى لثيساليا يجب أن يقول : وما التجاوزات ؟ عندما نمارس الحرب ، يا عزيزى ، ونقرر برباطة جأش ان نقتل الناس ، فما من تجاوزات توضع فى الاعتبار · كل شىء مسموح به · نحن الذين لم نرتكب أى تجاوزات لم نعثر على بندقية واحدة مخبأة · أما أنتم فقد ارتكبتم تجاوزات واكتشفتم أكثر من عشر آلاف قطعة سلاح ، وتريدكم أن تعثروا لنا على غيرها · ذلك انه مهما

كان عدد تلك التى ضاعت أو دمرت فان السؤال الأكثر خطورة يظل باقيا : ماذا حدث للبضع مئات الآلاف من البنادق التى كان يمتلكها الجيش اليونانى ؟ ثم بعد ذلك هناك حلمنا الكبير • بعد ألفى عام • تصل روما من جديد الى بحر ايجيه • اذن ، عن أى تجاوزات تحدثنى ؟ وبصفة أعم : أين يقف العمل العادى وأين يبدأ التجاوز ؟ الى أى مدى توسع الظروف الحالية من دائرة الافعال المشروعة • ما المشروع بالنسبة للبعض ، وما هو غير المشروع بالنسبة للبعض الآخر ؟ وباختصار أسألك من جديد : ما التجاوز ؟

مالت كيتى نحو عمها ، لوت وجهها مداعبة ، وقالت له :

ـ هل رأيت ، يا عمى ، ما تعنيه حيوية الذهن الصافى ؟ لا شىء سوى سؤال قديم :

ما التجاوز ؟

اخذ خطيبها يدها ، وبنظرة مليئة بالرقة قال لها :

ـ أما أنت ، يا حبيبتى ، فسوف أشير لك الى مجال لا وجود فيه للتجاوز : الحب • الست من رأيى ؟

ـ رأيى انك فى الوقت ذاته جندى وفيلسوف ، شاعر •

انفجر فى الضحك ، لكن الايطالى ما لبث أن استرد جديته •

ـ بهذه المناسبة ، قلت انى شاعر • وقد علمت ان فى الجماعة التى تصارع ضدنا يوجد شاعر يقرض الشعر بالفرنسية ، رجل غنى أصيل يرتدى زى الفلاحين • اشرحوا لى هذا الأمر قليلا • قالوا لى ان هؤلاء الناس لم تتعرض لهم الشرطة بشكل جاد • لماذا هذا ؟ لماذا يعارضوننا ؟ أليسوا من الفالاك هم أيضا ؟ ألا يشعرون بأصلهم اللاتينى ؟

تبادل الآخران نظرة سريعة ، واجاب نيقوس :

ـ يجب أن نضع المشكلة فى اطار أوسع • ومن المفيد أن تعرفها • من ضمن الفالاك جزء صغير جرفتهم الدعاية الرومانية ، التى أقنعتهم بانهم رومانيون • عدد قليل ، قليل جدا ، درسوا التاريخ ، وانجذبوا الى حلم روما • أما الغالبية العظمى فليس لديهم أى احساس قومى ، ولهذا كا ولازال لديهم بسبب اللغة احساس مبهم بالجنس • وفى النهاية لكى يكفلوا لأنفسهم البقاء فانهم يتجهون نحو أياما كان فى السلطة • وقد ارتبطت طائفة صغيرة لسبب أو لآخر باليونان • أما لأنهم يؤمنون

باليونان أو باعوا أنفسهم لها · والجماعة الصغيرة الداخلة في صراع معنا تنتمي الى هذه الطائفة الأخيرة ·

قال كاستيليون :

ـ آه ، أرى الأمور الآن جيدا · أخيرا ، أفهم أشياء كثيرة · كنت قد بسطت في ذهني المسألة فكان ذلك مصدر تخبطي بطبيعة الحال ، هؤلاء اللاتينيون ، لم يكن بامكانهم ، بسبب ما كانوا عليه من فقر وجهل أن يكون لهم احساس لاتيني أو حيوية لاتينية · انى أفهم الآن · انه لعمل كبير بالنسبة لنا ، يا سيدى الرئيس ، أن نعمل على ايقاظهم وأن يكون لنا أخوة لاتينيون ينتشرون حتى بحر ايجيه !

ـ عمل كبير ، وسنمضي به على خير وجه ·

ـ بالتأكيد ، سنمضي به على خير وجه · واذا استمرت هذه الفئة الصغيرة في مضايقتنا ، فيجب أن نشل مفعولها ·

سألت كيتي :

ـ كيف ؟ ماذا تقصد أن تقول ؟

ابتسم لها برقة · وأجاب :

ـ انه شأننا نحن · هناك آلاف الأساليب لذلك · اقتصرنا حتى الآن على تجاهل هؤلاء السادة ·

ـ اعتقد ان عمى سيكون من رأيى · لا يجب أن تتحدث عنهم بصيغة الجمع · واحد فقط هو الخطر بينهم · الشاعر الذى يكتب بالفرنسية · عرفت أسرته أياما من الرخاء والمجد بفضل اليونان · أما عنه ، فهو يبحث بنشاطه هذا وبتصرفاته الغريبة أن يملأحياته الخاوية بأى شيء ، كى تكون له ذكريات يرويها في باريس بعد الحرب · انه هو الذى يجب اذلاله وكسر شوكته ·

نظرت الى عمها بالحاح ، فقال :

ـ ابنة أخى على حق · انه هو مصدر المشاغبات ، هو وربما اثنان آخران ·

نهض كاستيليون · واستطرد يقول بالفرنسية :

ـ يجب أن أنصرف الآن كى أذهب لأتباحث مع زملائى المختصين من أجل غد ·

حياهما ، وقبل كيتي ، واتجه نحو الباب ، لكنه عاد ادراجه وقد بدا عليه الفرح :

ـ كنت سانسى أن أقول لك اننى تلقيت الأنباء الطيبة التى كنت انتظرها • استمعى الى هذه البرقية كى ترى كم هو لطيف أبى •

اخرج ورقة من جيبه ، وراح يترجمها ، وقد اشرق وجهه بالبهجة :

« ان ما يقرره ابنى البطل على الدوام حسن • أمنحك موافقتى ، وبركتى ، وأبعث اليك بتهانى الأسرة الحارة • مشوقون للتعرف بالتى حازت على الاعجاب » •

ضحك مثل طفل ، وقبلها ، وانصرف على عجل •

ومن عند عتبة الباب غنى لها مطلع أغنية ايطالية معروفة جدا :

ـ سوف نتزوج فى مايو •

وسط ورود كثيرة ،

ورود كثيرة ••

انصرف • وأخذت كيتى عمها بين ذراعيها • وقالت جذلة :

ـ سيدى الرئيس ، انى على وشك ان أفقد صوابى •

ابعدها عنه قليلا ، وابتسم لها مازحا :

ـ بعد ما قلته توا بشأن ذلك الذى يهيج المعارضة ، وبالنظر الى النحو الذى قلته ، ثمة سؤال يفرض نفسه : هل انت على وشـك أن تفقدى صوابك من الحب ؟

لم تجبه وتحاشت نظرته • ثم بعد برهة قالت حالمة :

ـ الآن ، فلنتجه الى الزواج •• وفيما بعد •• قد يجلب زواج مثل هذا الحب أيضا•

٩

فى الميدان الكبير بلاريسا ، فى ذلك الصباح قارس البرد من أيام يناير ، قرب الساعة العاشرة ، تجمع المارة القليلون رغم البرد ، فقد جرت الشائعات ، منذ أمس ، أن الجنرال الايطالى سيستقبل الجماعة الصغيرة التى جرؤت على أن تناطح الاتحاد البغيض • خرج ست رجال من هذه الجماعة من مقر الرياسة وعبروا الميدان • اتجهوا بخطى واثقة الى عيادة رابتيس التى اتخذوها مقرا عاما لهم •

فلنر ! ما انطباعهم ؟ راضين ؟ حانقين ؟ آه ! هل استطاعوا أن يحققوا شيئا ! ... كان هذا بدوره عذابا ! .

تابعهم المارة القلائل بانظارهم ، وخيل اليهم أن الجو قد صار بوجود الجماعة الصغيرة دافئا لحظة ، وأن ثمة حرارة تتوقد فيهم رغم البرد اللاذع .

كان الرجال الستة ضاحكين ، وتشع وجوههم بهجة ، كانت خطواتهم سريعة ، ورؤوسهم مرفوعة .

حمدا لله !

يحيا الوطن !

وعلى رجاله السلام !

★ ★ ★

فى العيادة ، كان الآخرون بانتظارهم . قال لهم الرجال الستة بكلمات قليلة مختلطة كيف جرى الاجتماع بصفة عامة ، ثم شرعوا يحكون لهم التفاصيل كلها .

شامخ القامة ، مختالا ، مرحبا ، استقبلهم الجنرال واقفا وراء مكتبه ، محاطا بضباطه الكبار من فرقة الطوارىء والمكتب الثانى وكان من بين هؤلاء « خطيب كيتى » كما كان جوليو فيانيللى حاضرا ومضى يطلق بين الفينة والفينة كلمة فى صالحهم، أو آهة تعجب أو دمدمة استحسان أو استنكار .

أخذ راتبيس على عاتقه الكلام ، وتولى أحد المترجمين الترجمة . أبدى الجنرال دهشته ، وقد بدا أنه يسمع لأول مرة عن أحداث من هذا القبيل . وطلب مرتين أو ثلاث مرات بعض الايضاحات كى يعرف ما اذا كان ثمة جنود أو رجال شرطة ضالعون فى ذلك . وفى عديد من المرات احمر وجهه غضبا ورمق ضباطه شذرا . بل انه دون بعض الملاحظات . وفى النهاية تعاظم استياؤه ، وأفصح عن رغبته فى أن يختصر رابتيس عرض مظلمته ، وأكد لهم أن كل هذا سينتهى . ثم أشاد كثيرا بالقيادة الايطالية وادارتها الحكيمة ، وأصدر أمره فى حضورهم ، الى رئيس المكتب الثانى ، اللفتنانت كولونيل بازى ، بأن يضعهم تحت حمايته ، وأن يستقبلهم كل مرة تكون لديهم شكوى . واذا احتاج الأمر ، فانه سوف يستقبلهم بنفسه .

ثم انتقل الى هجمة مضادة . تحـــدث اليهم عن ظروف التمـــوين السيئة ، وأدان بشدة السوق السوداء ، وقال ان كل المواطنين الصالحين يجدر بهم أن يحاربوا أولئك الذين يتجرون فيه . وأعط رجال الجماعة لهذه الظاهرة تفسيرات عدة ، ولكن الجنرال لم يقبل أن يترك الفرصة دون أن يوجه اتهاماته بدوره : ان تفسيراتهم لم تكن مقنعة . واذا أراد المواطنون الصالحون لما قامت للسوق السوداء قائمة .

ثم طلب نيكيتا الكلمة . تفحصه الجنرال ، واستفسر منه :

ـ هل أنت الذى تجيد الايطالية ؟

ـ أجل . أجيدها الى حد ما .

واصل الجنرال حديثه بفرنسية عصماء :

ـ واذا لم أكن مخطئـا ، فانك تكتب أيضا قصائد بالفرنســية . فلنواصل الحديث بهذه اللغة .

قال نيكيتا :

ـ ان نقص المواد الغذائية يرجع الى حد كبير الى أسباب لا يمكن تداركها : قلة الوارد ، نقص وقود الجرارات ، وغير ذلك . ولا أعرف ماذا يجرى فى مناطق أخرى ، وعلى الأخص فى أثينا حيث يبدو أن الناس يموتون من الجوع حقا ، ولكن هنا فان المسئولية عن قيام السوق السوداء فى مجموعها أو فى أغلبها يقع عبؤها على الادارة والاتحاد .

ومضت عيون الضباط الايطاليين الذين كانوا يصغون . وندت من كاستيليون لفتة غاضبة . لاحظ الجنرال ذلك ، لكنه لزم رباطة الجأش . **اكتسى وجهه بابتسامة فخور وساخرة . وقال مستخدما لغة الباريسيين :**

ـ انك تبذل كل ما فى وسعك لانجاح قضيتك . هذا خطر . انك تستخدم فرنسيتك الممتازة كى تهاجم حتى الادارة اليونانية ذاتها .

ـ ما من شعب ، حتى شعبنا ، يتألف من ملائكة فحسب .

ـ هل تستطيع أن تعطينى أمثلة تؤيد اتهاماتك ؟

ـ كثيرة . ثق من ذلك . فى مقدمتها : صناعة الجبن . ان استغلال القائمين على الاتحاد لها أفضى الى تخريبها . هذا العام ، فى كل الأنحاء ، لن يتجاوز انتاج الجبن عشر ما كان عليه من قبل .

جحظت عينا الجنرال . واستدار نحو ضباطه :

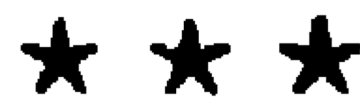
ـ كنتم قد حدثتمونى عن بعض التدابير التى سيتسنى بهــا أن

يفلت الجبن على الأقل من قبضة السوق السـوداء · بل وقد وقعت أوراقا بهذا الخصوص · ماذا حدث ؟

تقدم النقيب انجلو دى كاستيليون خطوتين · وقال :

ـ أمرتم بمنع صرف الملح ، ياسيدى الجنرال · أما عما يحدث ، فيجب ان اخبركم أن المواطنين اليونانيين الماثلين أمامكم يشوهون معنى هذا الاجراء الذى اتخذتم ، كما شوهوا اليوم أمامكم معنى كثير من الوقائع ·

اثناء حديث كاستيليون راح الجنرال ينقر بأصابعه على خشب مكتبه · وما أن فرغ الضابط الايطالى من حديثه قال « على المواطنين اليونانيين » أن يتركـوا للمكتب الثانى مذكرة يعرضـون فيها وجهه نظرهم فى شأن صناعة الجبن » وأمر ضباطه بأن يدرجوا هذه المشكلة فى جدول مناقشات صباح الغد ، ثم انتهاء المقابلة ·



اعتبروا الأنباء كلها باهرة · على الأقل ، رأوا ثمة بصيصا ، ولأول مرة ولد أمل قال خادزيبيروس :

ـ لم يحن الأوان للابتهاج بعد · أن الضباط جميعا مخادعون ينفثون سمومهم · وهذا ما يجب أن نهتم به فى الوقت الحاضر ، وعلينا أن نستغل هذا البصيص الصغير من الضوء جيدا · أولا ، يجب أن يعلم الجمهور مادار فى الاجتماع · وثانيا ، يجب أن نعمل على رفع روحهم المعنوية ·

ـ نحن الذين حضرنا الاجتماع جميعا ، سننشر فى الصحف بضعة أسطر نشكر فيها الجنرال ، ونقول ما فى مصلحتنا أن نقوله ·

ـ ولماذا لا نوقعه جميعا ؟

ـ حتى لا يبدو الأمر كانه تدبير منظم ! اقترح أن يصوغ هذه السطور ذلك الذى ندين له بالاجتماع ، عزيزنا نيكيتا كوليتس ·

وافقوا على ذلك بالاجماع ، وبدر منهم الاجماع على نحو يدل على ما تجيش به قلوبهم نحوه من حب حقيقى · مما جعل نيكيتا يشعر بفرحة خفية ·

عكف اذن على كتابة كلمة الشكر ·

وضمن الصياغات الودية وعبارات المجاملة المديدة التى لا تكلفهم شيئا كتب يقول « وفيما يتعلق بالضغوط الممارسة والدعاية المعلنة من

جانب بعض الفـــالاك أعلنا أننـــا نحن الفـــالاك يونانيون أصـــلا» ، ثم أضاف بعد ذلك بقليل « وقد أكد لنا الجنرال فوجيرو أننا لن نتعرض لضغوط من أحد كي نغير جنسيتنا اليونانية » • كما أضاف بعض عبارات أخرى مماثلة • ثم نسخ المقالة من ثلاث نسخ ، ووقع عليها الستة الذين ذهبوا لمقابلة الجنرال ، وأرسلوا كلمـة الشكر هذه الى الصحف •

★★★

مضجعا على الأريكة بجوار المدفأة ، راح نيكيتا يقرأ رواية أجنبية جيدة ، تضمنت عدة شروح متعلقة بالحرب العالمية الاولى ، وقد أبعدت قراءة هذه الرواية النوم عن عينيه الى هذه الساعة المتأخرة من الليل • فيما مضى كان ينفر من قراءة هذا النوع من الكتب ولكنه صار الآن يبحث عنها ، فقد كان يجد فيها على الدوام شخصية تذكره باليكسى ، أو بعض المشاهد التى تجعله يحيا من جديد ساعات عاشاها معا ، وعلى الأخص ذلك الفجر الأخير الذى لا ينسى ، التاسع عشر من مارس •

ونظر الى ساعته ، فرآها تشير الى ما بعد منتصف الليل ، لم يعتمد أن يظل مستيقظا الى مثل هذا الوقت فى فتيليونا •

شعر بالبرد ، وتنبه الى أنه كان يحس بذلك طوال الوقت الذى قضاه فى القراءة • ومع ذلك ، فقد كانت النار تتوهج فى المدفأة ، لابد أن الجو شديد البرودة اذن •

وضع الترمومتر بالخارج أمام النافذة ، ثم عاود القراءة •

ابتسم • وسأل نفسه « أهي ذريعـــة كي يقرأ بعض الصـــفحات الاضافية ، أم أنه فضول حقيقى كى يعرف درجة الحرارة بالخارج ؟ » •

وعندما أدخل الترمومتر ، انتابته الدهشة ثم بعض القلق • كان الترمومتر يشير الى ثمانى عشرة درجة تحت الصفر ! •

هل كان بامكان الحيوان أن يقاوم بردا قارسا مثل هذا ؟ ماذا لو ظل باب أو شباك مفتوحا فى الاصطبل ؟ الجياد ، على الأخص ، ليس لها فراء سميك •• ومنها بيجاسوس الذى عهدت اليه المدرسة به ! •••

نهض منتفضا وقد خشى أن يصاب صديقه الحبيب بسوء •

تدثر بدثار ثقيل . ووضع على رأسه قلنسوة ، وأخذ من الردهة مصباح الطوارىء .

لماذا نسى أن يغير الفتيل ؟ كان محترقا منذ عدة أيام مضت ، وما عاد يضىء الآن سوى قليلا ! لم يكن بامكانه أن يفعل شيئا فى هذه الساعة وكان عليه أن يصنع بضوئه الواهن . أين يجد فتيلا جديدا فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل .

كان البرد فى الخارج أشد منه فى أى وقت مضى . رفع ياقته . ودس رأسه قدر الامكان بين منكبيه ، لكن كل ذلك لم يعطه من الدفء كثيرا . كان البرد قارسا الى حد رهيب . كان يوجع العينين ويسيل منها الدموع . ويلسع الأنف وكل الأجزاء المعراة التى تتعرض للهواء المثلج تصور كم كانت الحيوانات تتعذب اذن !

أسرع فى خطاه . وعند اقترابه من الاصطبل ، سمع بيجاسوس ، وعرف وقع حوافره وصهيله . ومع ذلك لم يكن صهيله كما عهده ، مديدا أو مقتضبا ، شاكيا أو مداعبا ، كان الجواد يصهل على نحو مختلف تماما هذه الليلة .

فكر نيكيتا قائلا « لابد أنه يشعر بالبرد . ومع ذلك يبدو المكان محكم الاغلاق . وعلى كل حال ، فقد أحسنت بالمجىء . »

فتح الباب ، ورفع المصباح عاليا .

وعلى ضوء ذبالته الهزيلة المرتجفة خيل له أنه رأى الى جوار الحصان الرمادى رجلا طويل القامة ، أميل الى أن يكون شبحا من أن يكون انسانا .

وفد من الخارج فى هذه الأثناء لفحة برد قارس . تأهب لاغلاق الباب عندما هب تيار من الهواء أطلقا الشعلة الواهنة .

احس بالخوف . وسأل :

ـ من هناك ؟

أجابه صهيل فرح ، وخطوات سريعة .

سأل بصوت أعلى فى الظلمة المخيمة :

ـ من هناك ؟

لم يتلق اجابة ، وظل ساكنا فى مكانه . ومن خلفه نسمة من الهواء البارد تصفر خلال ثنية الباب ، وتسرى الرجفة فى أوصاله .

ارتعد جسده كله ، ولم يعد يعرف ماذا يفعل .

سأل من جديد :

ـ من هناك ؟ ماذا تبحث هنا في هذه الساعة ؟

هذه المرة سمع ردا ٠

ـ كنت بانتظارك ؟

خيل اليه أنه تعرف في هذا الصوت الخافت على صوت اليكسى ! حقا ، لم يكن فى حالته الطبيعية !

لكن الصوت تكلم من جديد ، ببطء ، مجيبا على شكوكه :

ـ حواسك لا تخدعك ٠ انه أنا ٠ كيف كان ممكنا ألا أعود الى السهل الكبير ؟ لكننى الليلة جئت من أجلك أنت ٠

كان الصوت على الدوام خافتا ٠٠ لكن الكلمات منطوقة بوضوح ٠٠ الى الحد الذى جعل نيكيتا ينسى مخاوفه وشكوكه ، وأقدم على خطـوطتين مترددتين فى الظلمة ٠

ـ اليكسى ، حسنا فعلت اذ جئت ٠ كم بكيت ! كم أحببتك !

ـ أعرف ذلك ، يا نيكيتا ، يا أخى ٠

ـ بدونك ٠٠٠

لم يدعه يكمل قوله ٠

ـ هناك كوارث آتية ٠ خذ حذرك ٠ خذ حذرك ٠

ـ ممن آخذ حذرى ؟

ـ خذ حذرك من ٠٠٠ مانوسيس ٠٠٠ نوتيس ٠٠٠

كان قلبه يدق بعنف ، وفكره يعتم ٠

بذل محاولة كى يبصر فى الظلمة ، وحملق قدر الامكان ٠ لم ير سوى السواد الحالك ٠

مستحيل ! ٠٠٠ مستحيل ! هذا غير معقول ، كان ذلك من ألاعيب خياله ، كان جنونا خالصا أن يتصور هذه المحادثة مع أخيه الذى مات !

ولكن الصوت ٠٠ لقد سمعه ٠٠ كان يشبه صوته ٠٠ كلا ، لم يكن يشبهه ٠٠ بل كان صوته ذاته ٠٠ ولكنه كان أكثر خفوتا ٠٠

ترك نفسه ينجرف من جديد ، وصاح بحرارة :

ـ ابق بجوارنا ، يا اليكسى ، ابق ! سوف تكون شمسنا فى ليل العبودية ٠ ابق !

لكن الصوت أجاب بلا حرارة ، بل وكان يخلو من كل تعبير ٠

ـ هذا مستحيل ٠ خذ حذرك ٠٠ ليست لديك القوة ٠

قال بحمية :

ـ لا تعرف كم تغيرت ، يا اليكسى ٠ لا تعرف ٠

ـ أعرف ٠٠ أصبح لديك كثير من القوة ٠

ـ اليكسى ، لا أفهم ٠ عقلى يضل !

ـ انى أنصرف ، يا نيكيتا ٠

توسل اليه ، مرتعبا :

ـ كلا ، يا اليكسى ، كلا ! ابق ، يا أخى الحبيب !

ـ انى أرحل ، يا أخى الحبيب ! أستودعك على خير يا نيكيتا كوليتيس ٠

لم يسمع وقع خطوات ، ولا حفيف ثوب ، ولا كلمة واحدة ٠ بأعلى صوته ، فى الصمت الكثيب ، صرخ :

ـ اليكسى ! اليكسى ! ٠٠ أين أنت ؟ كلمنى !

وفد الى أذنه صوت حفيف وخطوات حذاء ثقيل ٠

استدار الى الباب عنوة ، وفتحه بدفعة واحدة ، وفى ظلمة الليل ، صاح بشراسة :

ـ اليكسى ! ٠٠٠

انتظر فى يأس ، وصاح من جديد :

ـ اليكسى ، أخى !

خرج من الظلال صوت يردد قائلا :

« اليكسى ، أخى ! »

أكان ثمة حائط أرجع الصدى ، أم تكلم الليل المسكون بالأرواح ؟

شعر بالعرق يتصبب من جسمه ، وزادت العتمة من بث البرودة فى أوصاله ٠ دخل الاصطبل ، وظل جامدا ٠

تناول الكبريت ، وبصعوبة تمكن من ايقاد مصباحه ٠ لم يلتفت الى بيجاسوس ، ولا الى الجياد الاخرى ، ولا الى النافذة ، بل مضى حتى أغوار الاصطبل باحثا بعينيه كى يرى ما اذا كان ثمة شخص قابع فى

احد الأركان ، أو يكتشف أثرا · ثم خرج من جديد الى الليل البارد ، ومضى عائدا الى غرفته ·

أثناء مروره أمام كوخ ريامو ، لمح نورا ينبعث من نافذة غرفة الطعام الصغيرة ، وفي خضم فكره المرتبك بدا له ذلك البصيص مثل أمل ، مثل فرصة ، مثل حقيقة · دق على خصاص النافذة المقفلة · فانطفأ النـــور فورا ·

فكر قائلا « لابد أن الخوف انتابهم · من يدرى ما الذى تصوروه · »

اقترب من النافذة وقال :

ـ انه أنا ، نيكيتا · افتحوا لى ·

فتحت النافذة ، وسمع صوت فروسو :

ـ استيقظت على صيحة فى الليل · لحظة واحدة ، سأوقد المصباح وافتح الباب ·

وما أن أغلق وراءه باب الكوخ ، حتى تبادلا النظرات مذعورين فى صمت ·

كان شعر فروسو مشدودا ومعقودا الى الوراء ، ثم ينساب بعد ذلك على ظهرها بحرية · اختفت من وجنتيها ألوان الربيع · وقد هربت منها أيضا ابتسامتها وحيويتها البهيجة ، ولما كانت متدثرة حتى العنق بغطاء ذى لون داكن ، فلـم يكن يبين منها سـوى رأس مرمرى قد من رخام شاحب تجسم فيه القلق ·

نظر اليها على ضوء المصباح ، وتحت وطأة انفعالاته سألها شارد البال قائلا :

ـ هل أنت فروسو ؟

كان يبدو ضائعا ، وقد علا وجهه شحوب الأموات ، انتقل الخوف الى فروسو ، وصاحت هذه المرة فيه جزعة :

ـ نيكيتا ! ألا ترانى ؟ ماذا يجرى ؟

حوطته بذراعها الخالية ، احتفظت به فى حضــنها وقادته داخل البيت ·

من جديد سألته لاهثة :

ـ قل لى ، ماذا يجرى ؟

اجابها :

ـ شيء لا يصدقه عقل · ولكن أوقدي المدفأة أولا · أحس بالبرد الشديد · أني أرتعد ·

ما أن بدأت المدفأة تعمل حتى سرى الدفء في أرجاء الغرفة الصغيرة التي اتسعت بالكاد لمنضدة وبضعة مقاعد ·

قص عليها بالتفصيل ما جرى له · وكان الشيء الوحيد الذي لم يذكره اسم نوتيس ·

أصغت اليه ، وقد تعلقت مشاعرها بشفتيه :

قـال :

ـ أعرف جيدا ان الأمر لم يكن سوى هلوسة ، ولكن كل شيء كان عامرا بالحياة ! ··· حتى أكاد أقسم بأنه كان هناك وتحدث الي !

وكما لو كان قد خطر له خاطر جديد ، سأل باهتمام :

ـ فروسو ! هل تعتقدين أنني أصبت بشيء ؟ هل تعتقدين أنه يجب أن يفحصني طبيب ، وأن آخذ علاجا ؟

ضحكت كي تبعث فيه الشجاعة · وقالت :

ـ لم تصب بشيء · أنك مضطرب الآن ، وهو ما كان سيحدث لأي شخص غيرك · وكل ما يجب عليك أن تفعله هو أن تتناول توا جرعة مزدوجة من شراب قوي ·

أحضرت له الشراب ، وظلت واقفة بجواره تمسح العرق من على جبينه بمنديلها · قالت بصوت مرتعش :

ـ جبينك مغطى بالعرق ·

خلعت قلنسوته ، وربتت على شعره كما لو كانت تربت على رأس طفل يعاني من حزن ثقيل ، وعلى أهبة البكاء ، ثم عادت تجلس بجانبه ·

أحس نيكيتا بالتحســـن ، دبت الحيوية في أوصـاله ، أشعل سيجارة ، وقال بهدوء أكبر :

ـ بفضل كرمك وطيبتك ، لدى الاحساس بأنني أعود الى دنيـا الواقع · ولكن أنت ماذا تقولين في الأمر ؟ لماذا حدث ذلك ؟

قالت له مبتسمة :

ـ لو كنت طبيبا ، ربما استطعت أن أجيبك · ولكن ماذا تريدني أن أقول لك ؟ أهو البرد ؟ أهي الهواجس ؟ أم الأحزان ؟

ثم توقفت فجأة ، ونظرت اليه مستغرقة فى التفكير ، وقالت :

ـ ولكن منذا الذى يستطيع أن يقطع بأن الأمر كله مجرد هلوسة ؟

انتفض نيكيتا

ـ هل جننت ؟ هل تعتقدين أن اليكسى عاد حقا ؟ هل تعتقدين أن من الممكن أن يعود الميت ليتحدث الينا ؟

ـ لا أجرؤ أن أعتقد بأن ذلك ممكن ، ولا بأنه غير ممكن . قد تنطفىء الروح . وتختفى . وقد لا تنطفىء وتظل تهيم فى الأماكن الحبيبة ، من الذى يستطيع أن يجزم بما يحدث ؟ وأنا أيضا كثيرا ما يخيل الى أن اليكسى هنا ، بالقرب منا . هل يرجع ذلك الى أننا نحبه ، ونذكره ؟ أم أنه يأتى فعلا من وقت لآخر ، ليتفقد أحوالنا ؟

انتفض نيكيتا من جديد ، وقال بلهجة ممزقة :

ـ ولكنه قتل ! رفعت بنفسى جسده بين يدى وقد فارقته الحياة . أنا نفسى بيدى دفنته !

ـ ومن أين تعرف أنك دفنت أيضا روحه ؟ سوف يتمسك الأب موديستوس بأنك دفنت جسده فحسب . سوف أرتكب خطيئة ، ولكننى لا أستطيع أن أؤكد لك أن الروح موجودة ولا أنها غير موجودة . ولكن لو كانت موجودة ، فلك أن تتصور أى روح سوف تكون روح رجل مثل اليكسى ، وكيف انها سوف تصارع لتكسر قيودها ؟ قال لى أبى ذات يوم قولا غريبا . قال لى أن اليكسى نفسه كان صوت الأرض . لم أسأله ماذا يعنيه بذلك ، ولكن وصفه هذا بدا لى غريبا ومتعديا للطبيعة .

نظرت امامها شاردة ، كما لو كانت عيناها هى ايضا تتابعان حلما :

قال بصوت مرتبك كما لو كان يخجل من سؤاله :

ـ مادمنا نتحدث عن هذا الأمر ، أريد أن أسـألك شيئا : هل تعتقدين أنت فى أن للأرض صوتا ، صوتا حقيقيا ؟

ـ لا أعرف . ولكن كثيرا من الناس يؤكدون أنهم يسمعون صوتها. لابد أنك تعرف أفضل منى ، فقد كان أبى واليكسى يقولان أن الأرض كلمتك .

١٠

تحول الحفل الى نوع من المجون الوحشى لم ير نيقوس مانوسيس مثله قط ·

دعـاه فاسـيلاكى روبوتيكا مرات فلـم يبد ترحيبا ، اذ لم يكن تروق له على الاطلاق حفلات المتع الهمجية بصحبة غلاظ القوم · ولكنه قبل ذلك هذه المرة على مضض ، وقد فهم أن « الجنرال » بدأ يستاء من رفضه المتكرر ، وأيضا لأن ثمة دافعا آخر بدا له فى هذه الأثناء · كان يشعر ولا شك ببعض الخجل ، ولكن هل كان بامكانه ألا يعترف بأنه أغرى بشدة عندما علم بجلب نساء الى الحفل ؟

عندما بدأ الحفل أحس رغم كل شيء بنوع من عدم الارتياح ·

صحيح أن راعى الأغنام وزعيم العصابة القديم كان قد أعاد تشييد وترتيب البيت الذى بناه على أرضه · الأسقف الخشبية أعيد طلاؤها ، والأبواب والشبابيك جديدة ، وهنا وهناك نحوت تزين المكان ، وفى كل الأرجاء طنافس سميكة ريفية ، وعلى الأرائك أغطية طرزت تطريزا يدويا · وبينما أضحى البرد فى الخارج شديدا للغاية وعاد الجليد يتساقط من جديد ، فان الأجساد بالداخل كانت تتفصد عرقا ، بفضل الدفء الذى تبثه المدافىء المنتشرة فى الغرف كلها ، وفى القاعتين الكبيرتين · كل هذا كان حسنا وجميلا ، ويذكر بنبلاء الريف فى عصور ماضية ·

لكن نيقوس لم يكن يحس أنه على مايرام · لم تكن شلة فاسيلاكى وكبار أعوانه جماعة تصلح له · لم يكن يعرف أغلبهم ، ولم يكن بالامكان أن يعرفهم · كانوا نازحين مَن مناطق أخرى أو كانوا من خريجى السجون· رجـال غير مهذبين ، خشنون ، وأغلبهم فى سـن الشـباب ، متحفزون وخبثاء · أجلاف يليقون تماما بصحبة رئيسهم ·

وتزايد عدم ارتياح نيقوس عندما وصل العازفون والنساء : فقد زاد ذلك افسادا للجو ، وعلى الأخص تزايد عدد من سيروته هناك · وهو الرجل المعتز بنفسه ، المثقف ، الارستقراطى المزاج · فى لحظة فكر فى الانسحاب ، ولكن ما من مخرج · بقى اذن ، أراد ذلك أو لم يرد ·

ومع ذلك ، الآن وقد بلغ الحفل أوجه ، نسى كل ذلك وانصرف الى اللهو ·

أكان ذلك راجعا الى النبيذ واللحم الشهى والدفء ؟ أم الى المرح الشيطانى لكل هذه الصحبة ؟ أم الى النساء نصف العاريات اللاتى رحن

يوزعن على الحاضرين القبلات والملاطفات ؟ لم يكن يعرف شيئا · كان مزاجه رائقا ، وهذا كل ما هناك !

من وقت لآخر ، كان يصيح مثل الآخرين · وكان يحس بداخله غرائز تتبدى فى صخب · خيل له أن ثمة شيئا باعماقه قد تحرر ، شيئا يجب أن ينطلق من عقاله قبل أن يهدأ ·

رفعوا الآن المناضد ، ولم يحتفظ الا بالزجاجات والأكواب التى وضعوها على حواف النوافذ أو أمام المدفأة · وبدأت الرقصات ·

رقصات حقيقية ؟ كلا ، بل رقصات مزيفة حيث راح كل على ايقاع موسيقى بدائية يستعرض قوته وليونة جسمه وصوته وبراعته فى الصفير ·

أما أولئك الذين كانوا لا يرقصون فكانوا يغنون ، ويصفرون ، ويصفقون ، ويصيحون ، ويصخبون ·

استغرقت الرقصة الاولى وقتا ليس بالقصير ، بقيادة الجنرال الذى أبدى رشاقة وحمية مبالغا فيها ، وكان يغير كل لحظة أسلوبه فى الرقص ·

تارة يقف منتصبا ، ثم يحنى جذعه بشدة مع بقاء جسده ساكنا ، وتتحرك ساقاه وحدهما وقد اكتسيتا بحذائين سوداوين طويلى الرقبة · وتارة يضع يديه فى وسطه ، ويحنى نصفه العلوى بخيلاء الى اليمين مرة والى اليسار مرة ، بينما يومض حذاءه وهما يتحركان بجنون · وتارة أيضا كان يطوى جسمه نصفين كما لو كان يريد أن ينقض برأسه على ما أمامه ، ولكنه بسرعة فائقة يعود فيسحبها حتى يكاد عنقه الذى يشبه عنق الثور أن يتكسر ·

ولم يكن الدبيب العنيف يتوقف ، فكانت الأرض تهتز تحت الأقدام الصاخبة ، ولم تكن صيحات الاستحسان والتشجيع ، تكف ولا الأوامر الصادرة الى العازفين الغجر تهدأ

ــ نغمات أسرع ، أيها الفتيان ، نغمات أسرع !

ولكن العبارة التى كان يطلقها الجنرال بقوة وتأكيد خاص فى كل مرة تعلو فيه نغمات الموسيقى ، كانت عبارة تعنى بالنسبة له على ما يبدو صيحة حرب وكانت هذه الصيحة تطلق بلغة الفالاك ، وتقول :

ــ تحيا روما ، أمنا !

وعندئذ كان الآخرون يرددون الصيحة معا . ويقذفون في عنف بالأكواب الى المدفأة حيث تتكسر .



تقدم الليل ، فاستولى عليهم التعب واستبد بهم السكر ، حتى شق عليهم مواصلة الرقص وقبل أن ينتهى الحفل ، نظم فاسيلاكى المشهد الختامى فأصدر الأمر بأن تلقى في المدفأة الكبيرة بلا توقف أغصان جافة ، وأن تطفأ الأنوار ، وحمل النساء على أن ترقص رقصة البطن .

كانت الخمر قد لعبت برؤوسهن بدورهن ، واشتعلت أجسادهن بالنبيذ والحرارة ، وبهذا الجو المثير . وثبن الى وسط الغرفة . واذا كانت بعضهن قد احتفظن بشيء من الملابس لاخفاء استدارات الجسد ، فسرعان ما القينها جانبا ، وهن منهمكات في الرقص .

ومن كان يبحث ليرى ما اذا كانت هذه الأجساد المكسوة باللحم جميلة أم لا ؟ كان لحما ، لحما حيا ، دافئا وطريا ، وكان هذا يكفي ! كانت هذه الأجساد شبه العارية تتمايل بحركات داعرة ، وقد ألقت عليها ألسنة اللهب أضواءها الحافلة بالأسرار ، وأثناء كل ذلك انبعث انطباع وهمى من هذا المشهد ، كان خليطا من الجنة والنار وبلاد استوائية بعيدة .

كان الرجال يصيحون ، أو بعبارة أدق يعوون ، ويصفقون ويتحسسون أجساد النساء عندما يقتربن منهم . وقد امتلأت عيونهم بالرغبة وانتشت أنوفهم برائحة النبيذ والدخان ، واللحم الآدمي الدافيء والعرق .

وفي ساعات الليل المتأخرة ، تفرقوا مع النساء في الغرف ، وناموا تحت الأغطية الريفية الثقيلة .



بعربته ذات الجواد القوى النشيط ، كان روبوتيكا سيصل في الصباح الباكر ولا شك الى لاريسا . ولكن التقدم كان بطيئا والطريق

بحالة يرثى لها · كانت الحفر غائرة ، ومع الارتجاجات التى تتعرض لها العربة كانت المحاور عرضة فى كل لحظة أن تنخلع ، والعجلتان أن تنكسرا الى آلاف القطع · ولم تكن لدى « الجنرال » أى رغبة فى أن تتحطم عربته الجميلة ذات العجلتين والسطح القابل للطى وقد أعدت وزينت حتى يتباهى بها ·

وفضلا عن ذلك لم يكن الجرى مريحا ! كانت ترتج الأحشاء كلما هوت العربة فى حفرة أو خرجت منها ·· ثم كان بالرأس ثقل بعد كل ذلك النبيذ وأحداث حفلة الليلة البارحة · ثقل ؟ كان هذا أقل ما يقال ·

تحت غطاء العربة المصنوع من نسيج الكتان المطلى بالشمع والمنصوب عاليا أمامه ، جلس نيقوس شاحبا مغمض العينين ، محتميا من الثلج المتساقط ، ولكن الهواء البارد راح يصفعه فى وجهه · لم يكن يفتح عينيه الا من وقت لآخر وعلى فترات متباعدة ، عندما كانت العربة ترتطم بشىء فى الأرض فترتج بشدة · كان يبدو عليه المرض · والتعب ·

كان روبوتيكا قد بسط الغطاء الواقى من المطر الى منتصفه لأنه كان يجب أن يمسك باللجام · لم يكن يضايقه كثيرا لا البرد ، ولا الحفر، ولا قلة النوم ، انه مثل الجبال التى تعودت أن يكسوها الجليد · ولكنه كان يحس بالضجر ، بالضجر الشديد · لو أمكنه أن يتحدث قليلا ، فان ذلك سوف يجعل الوقت يمر أسرع ·

وفى لحظة ، عندما فتح الآخر عينيه · قال له :

ــ لا تنم · من المضر أن تنام فى البرد ·

ــ انى لست نائما · ولكننى مرهق ·

ــ انك لست معتادا على مثل هذه الحفلات · ولكنها كانت حفلة رائعة · فى المرات الأخرى نحن ننام ساعات طوال بعد الحفل ، ولا نستيقظ فى صباح اليوم التالى ، بل بعد الظهر · هذا ما نفعله دائما· أما اليوم ، فانت ترى ، أخبرنا الرئيس متأخرا بأن ثمة اجتماعا سينعقد· يبدو أن ثمة أمورا خطيرة ستناقش ·

لزم نيقوس الصمت ·

جلجل روبوتيكا بالضحك ·

ــ أمور خطيرة ، آه ، لو كان على قيد الحياة أبى العجوز الذى كان يقول اننى لن أفلح فى شىء ! وأنا ، هل كنت أتوقع يوما أن أسن القانون

المطبق في هذا البلد ، وأن أنشر الرعب بين شعب بأسره ، وأن يدعوني الى اجتماعاتهم رجال مهمون مثلك ! .. كم تدور الدوائر ! هذا متصور بالنسبة لأناس مثلك ، ولكن بالنسبة لي ؟

لم يتلق أي اجابة ، فانبري يجيب على نفسه :

ـ سنوات في الغابات ، وسنوات في الليمان . وفجأة ، انفتح باب السجن ، وخرجت . ولكن من جديد عندما عدت الى قريتي ، أخبرني أحد معارفي أنهم يستعدون لنفيي في احدى الجزر . فقد كنت على مايبدو اشد الخطرين على الامن العام .

ضحك من جديد . ثم واصل الحديث :

ـ أولم يكن ذلك صحيحا ؟ الم أكن في ذلك الوقت روبوتيكا النسر المنقض ، الذي يقتنص العصافير في الفضاء ، وله أوكار في كل مكان . ويذرع الأرض شرقا وغربا ليل نهار . لا تكل قدماه ، ولا يخطيء مرماه ؟ نسر ، أقول لك نسر ! وفجأة أصبحت من الملاك . كم تدور الدوائر ! وهل تعرف كيف أصبحت مالكا ؟ كان نقلي الى جزيرة أسوأ من السجن . غريب ، وحيد ، ملقي به في ركن صغير محاط بالبحر من كل الأنحاء . سوف كنت سأصبح مثل نسر حبيس في قفص . ولماذا أموت هناك من الضجر ! أحسست أنني ضائع . رحت أطرق الأبواب جاهدا فلم يفتح لي أحد . الى أن جاء يوم طرقت كأحد الفلاك باب الجد الكبير .

رسم علامة الصليب . ومضى في حديثه :

ـ رحمه الله . قال لي . سأجنبك النفي الى الجزيرة ، لأنك تبدو لي رجلا ! أعتقد أن الفرصة لم تواتك بعد لتحيا كفتي شريف طيب . وهذه الفرصة ، سوف أعطيها لك أنا . سأشتري لك أغناما ، واذا سلكت سلوكا حسنا ، سأساعدك فيما بعد وأشتري لك مرعى . ولكنك سوف تسلك حياة الشرفاء ، ولو احتجت يوما الى معلومات كي أهاجم قطاع الطرق فسوف تعطيني اياها . اتفقنا ؟

لم أكن أصدق أذني . ولما كان يقف أمامي ، بقامته الطويلة ، ولحيته البيضاء ، ويبشرني بالخروج من القبر كي يجعل مني سيدا ، خيل لي أن الرب نفسه هو الذي يحدثني . فانحنيت وقبلت يده . بل وأسندت جبيني عليها .

فقال لي : القبلة هي الشكر . والعرفان بالجميل هو الاتفاق النافذ . هل توافق ؟ وقلت :

ـ أوافق ، يا سيدى ٠

وها أنا قد أصبحت مالكا ! وقد التزمت بكل ما تعهدت به ، وعشت ناعم البال ٠ الى اليوم الذى وصلت فيه أمنا روما ٠

ادار نيقوس مانوسيس رأسه قليلا ٠ ونظر اليه من طرف عينه ٠ وابتسم له ابتسامة قصد بها ان تكون قدر الامكان ساخرة ٠

نظر الآخر اليه بدوره برهة هازلا ، وغمز له بعينه ، ولما رآه محتفظا بابتسامته الساخرة ضحك ضحكة صاخبة ٠ انحنى بصدره العريض مرتين أو ثلاث مرات حتى لامس ركبتيه مقهقها ، وقال :

ـ يا صديقى العجوز نيقوس ٠ أحيانا اقول لنفسى اننا نعرف ماذا نفعل ، ونحتفظ بحسن تقديرنا للامور ، ولكن هم هل يحتفظون بحسن التقدير ؟

ـ من تقصد بهم ؟

ـ ومن تريدنى ان أقصد ؟ الايطاليون ٠

ـ لماذا ؟

ـ ولكن يا صديقى العجوز ، ثمة من يحسن التقدير ، ويريد ان يسمى اليونانيين بالفالاك ، والفالاك بالايطاليين ؟

صحح نيقوس عبارته دون ان ينظر اليه :

ـ لاتينيين ٠

ـ أى لاتينيين ، يا صديقى العجوز نيقوس ؟ ومتى كنا من هؤلاء ؟ كانت الدعاية تنعتنا بالرومانيين فكان يثور حنقنا ٠

ـ اذن ، ماذا نحن ، فى نظرك ؟

ـ وهل أعرف ما نحن ؟ نحن يونانيون ٠

ـ هل تعتقد أننا يونانيون ٠

ـ فيما بيننا ، ايها الصديق العجوز نيقوس ، ألسنا يونانيين ؟ هبه ، فلنقل كى نرضى أمنا روما اننا يونانيون أصبنا بالعقوق ٠

ـ اذن ، لماذا تتحدث لغة الفالاك ؟

ـ وهل أعرف ؟

ـ على أى حال ، نحن نتكلم لغة الفالاك ٠

ـ هبه ، اذن ، نحن فالاك وثيساليا أرض الفالاك ومقدونية

أيضا · ولكن هل رأى أحد منا رومانيا هــذه ، أو وطات قدمه أرض اللاتين ومتى سمعنا عن روما قبل اليوم ؟

راح يضحك ·

ـ فى أى اتجاه توجد أمنا تلك ؟ فى اتجاه فولوس أم فى اتجاه تركالا ؟ هيه ، يا صديقى العزيز ، كم تحتوى الحياة من غوامض !

التفت نيقوس نحوه ، وتامله · لم يكن يضحك · وقال ببرود :

ـ تجديف وخيانات ·

لم تقلق الكلمات روبوتيكا قدر ما أقلقه البرود الذى قوبلت به · وساله :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ ألا تفهم ان كل ما قلته خيانة ·

ـ كنا نتحدث فيما بيننا ·

ـ للحيطان آذان · هذا ما يقوله المثل الشعبى ·

قال بغضب :

ـ لا أرى أى حيطان هنــا · لقد فتحنا قلبينا · وكنا نتحدث وحدنا ، وحدنا تماما ·

واصر قــائلا :

ـ وحدنا ولا أحد غيرنا ·

ـ ليس لذلك أهمية · لقد انكرت الافكار التى تكافح من اجلهــا وسخرت منها · أو بعبارة اخرى ، ارتكبت الخيانة ·

أسقط فى يد روبوتيكا ، وظل مذعورا محتبس الصوت · ثم اندفع يقول :

ـ ارتكبت الخيانة أنا ، يا له من كلام فارغ ! أنا ارتكبت الخيانة · أم انه أنت الذى استهزأت بى عندما تحدثت عن أمنا روما ؟

ـ ابتسمت كى اجربك ·

لم يتبين روبوتيكا ما الذى كان يريد مانوسيس ان يصل اليه ، ولكن الذى كان يدركه جيدا ان لهجته البــاردة وكلماته الأخيرة لم تكن مقلقة فحسب · بل كانت كلمات قادرة ان تضيعه · لقد سبق ان أحس بالاحساس ذاته عندما حوطت به قوات الشرطة أيام ان كان يضرب فى

الغابات . أما ان ينجو إذن بجلده توا ، وبتصرف غير متوقع وجرىء ، وأما لا نجاة له .

رمى اللجام ، وبحركة قوية أمسك بمانوسيس من ياقة معطفه وصاح فيه وهو يرجه بعنف :

ـ انت تكذب ! انت تكذب ! لقد استهزأت لانك لا تؤمن بهـا ، بالأم روما . وأنا تحدثت على النحو الذى تحدثت به كي اختبر نواياك ومعدنك ! هذه ألاعيب لا تصلح معى ! هل تسمع ؟ هل تسمع ، أنت ، ايها الشيوعى السابق ، أم انه يجب ان اكسر ضلوعك !

توقف الجواد . وتساقط الجليد بغزارة أكبر . ولما كان غطـاء العربة مدارا نحو الخارج ، فقد تساقط عليهما الجليد .

خطرت بذهن نيقوس المتعب المذعور صورة هذه اللحظة لو التقطتها عين أحد المارة .

عزلة قاتمة تحت وابل المطر . عربة واقفة ، على طريق مقفر ملىء بالحفر والوحل . وفى العربة رجلان استبدت بهما الكراهية .. وجها لوجه ، يتحفز كل منهما للهجوم على الآخر . فى الجو الرمادى . البارد العدوانى بلا حـدود ، روحان كان بالامكان أن ينعما بالدفء ، ولكنهما الآن تجمدا كالجليد من شدة الخوف والكراهية .. راح البرد يسرى فى أوصالهما ويزداد سريانه . وجللهما بدار الجليد كما لو كان يعد بذلك الكفن الوحيد الذى يناسبهما ..

أمسك زعيم العصابة القديم بنيقوس برهة دون أن يرجه . ودون أن يصرخ فى وجهه ، وظل صامتا شرسا ، مصوبا اليه نظرة النسر .

أما نيقوس ، فكانت تعبيراته مختلفة . كان يبتسم .. هل كان خائفا ؟ ما الذى يريد ان يتوصل اليه ؟

وما ان تخلى روبوتيكا عنه قال :

ـ يا ثقيل الفهم ألا تفهم الدعابة ؟

ـ ليست هذه دعابات !

ـ ألا تفهم أيها الاحمق ، ان أيا منا لا يمكن ان ينفصل عن الآخر وان أيا منا لا يمكنه ان يوجه اتهامات الى الآخر ؟

نظر اليه روبوتيكا مرتابا مكفهرا :

ـ كلا ، لا أفهم . وضح ما تريده بجلاء .

ـ الأمر سهل جدا ، يا فاسيلاكي · يونانيون كنا أم فالاك فاننا في متناول مدافعهم · لو كان من مصلحتهم ان يعلقوا لنا المشانق لما ترددوا في ذلك · هل بامكاننا ان نتشاجر فيما بيننا ؟ ضعنا لو فعلنا ·

اجاب روبوتيكا متجهما :

ـ هذا صحيح ·

ـ اننا نحكم ، ولكن بالعنف والقوة ·

استرد روبوتيكا حيويته ، وقال :

ـ هيه ، القوة لدينا · وسنحتفظ بها · وسنجعلهم يرون ساعات قاسية ، وسنحملهم على الركوع · ان روبوتيكا موجود من أجل هذا ، اولئك الكلاب الملاعين !

ـ أسرع بعربتك الآن ، فسوف نصل متأخرين ·

مضيا يتقدمان وقد خيم عليهما الصمت في هذا الجو البارد ، وراحت العربة تترنح وسط الحفر المليئة بالوحل ·

قطع نيقوس مانوسيس الصمت :

ـ بالنسبة للخطر الآخر ، قلت لي انك لم تجد شيئا ، هل بحثت من جديد ؟

جأر الجنرال ، وبغضب ، انهال على الحصان بضربة عنيفة من سوطه :

ـ وأي بحث ! لا يمكنك ان تتخيل كم بحثت ! ولكن دون جدوى · رأى رجال من اتباعنا في بعض القرى اغرابا يدخلون تحت جنح الليل بيوتا يسكنها حمر · سارع الأعوان بابلاغي ، فهرعت بنفسي الى هناك ووصلت قبل طلوع النهار · فلم أجد شيئا · أما الأغراب فيبدو ان الليل ابتلعهم ، ولم تبد لهم أدنى بادية · ولم يفتح أهل القرى أفواههم بكلمة ، كما لو كانت ألسنتهم ابتلعت بفعل السحر · وذلك رغم اننا أوسعناهم ضربا ، ولم نرحم أحدا ·

ـ والنتيجة ؟

ـ وهل أعرف ؟ انهم يستعدون لأمر ، ثمة شيء يجري ··· ولكن ليس ضدنا · بل ضد الايطاليين · لو كانوا يستهدفوننا نحن لبان الأمر ، كما بان أمر الكلاب الآخرين ·

بعد قليل عاد يقول :

ـ لا افهم ، يا صديقي العجوز · لا افهم ! ان الجميع ، أولئك الذين

يختبئون ، وأولئك الذين يتجولون في وضح النهار ، مطاردين ، جوعى، يحاصرهم التعذيب من كل ناحية ، الجميـــع يحتفظون بقاماتهم منتصبة ورؤوسهم مرفوعة · كيف يمكن ان يتأتى ذلك ؟

استدار نيقـوس نحـوه ، وصـوب اليه نظرة مديدة حزينة ، تكاد تخلو من كل تعبير ·

ـ لماذا تنظر الى ؟ صحيح هذا الذى اقـــوله ، كيف يمكن ان يتأتى ذلك ؟

ثم استطرد يقول بلهجة حاسمة :

ـ ونحن أيضا لم نضرب بقوة كافية · كان يجدر ان نصفى البعض حتى يلزم الآخرون حدودهم · هذه هي الوسيلة الوحيدة لاحناء القامات المنتصبة وتنكيس الرؤوس العالية · لا شيء ناجع المفعول غير هـــذه الوسيلة · أما أى اجراء آخر فلا جدوى منه ، ولذلك فانك ترى كثيرين يختالون بأنفسهم · قلت لكم · هيا نتخلص من خمسة أو ستة « فلـــم تأذنوا لى » ·

ـ ربما كان من الضرورى الآن ان نتخلص من واحد ·

استيقظت حاسة قاطع الطريق القديم ، وقال بحماس :

ـ ايهم تقصد · قل لى · واتعهد لك بأن أجهز عليه بنفسى هـــذه الليلة ·

ـ نيكيتا كوليتيس ·

جذب روبوتيكا اللجام بقوة ، فتوقفت العربة فجـــأة · ثم نظر الى نيقوس بنظرة مرتبكة وقال :

ـ سمعتهم يتحدثون عنه · لا اعرفه ولكننى لن أجهز عليه ·

واستطرد يقول بلهجة قاطعة :

ـ لن اسمح لأحد يقتل هذا الرجل ·

احتفظ نيقوس برباطة جاشه · وقال :

ـ انه هو الذى يحاربنا · ثم هناك شيء آخر · تذكر انك قلت لى انك علمت منذ عدة سنوات بوجود مخبـأ للاسلحة في دير القـــديس ايليـــا ·

ـ اذكر ذلك · يقال ان الجد كان يخبيء الاسلحة هنـــاك ايام الثورة ·

ـ اذن ، لابد ان هذا المخبأ ليس خاويا اليوم · من يدرى ان لم يكن يحتوى على مائتى ألف أو خمسمائة ألف بندقية · لو اننا اكتشفنا أمرها ، فربما امكننا ان تسلم السلطات الايطالية أسلحة كل يوم لمدة أسابيع عديدة · اذن بخدعة يمكننا ان نبهر الانظار ·

ـ حسنا ، واذن ؟

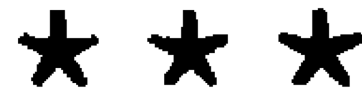
ـ اذن ، لابد أن سر ذلك المخبأ يعرفه رجلان على الأقل : رئيس الرهبان ونيكيتا كوليتيس · فاذا أجهزنا على أحدهما ، فان الآخر سوف يتكلم ما ان نضيق عليه الخناق قليلا ·

قاطعة روبوتيكا قائلا :

ـ كلا ، كلا ، أنا لا اقتل ، ولا اعذب أحدا من أسرة كوليتيس · أى شخص تريد غير هذا الشخص قل لى عنه ، أما هو فلا ·

هوى بسوطه على ظهر الجواد بقسوة ، فانفلتت العربة منطلقة باقصى سرعة · مقطبا ، شكسا ، عنيدا ، راح يسوق عربته بسرعة ، غير مكترث بالمطبات والأخطار التى تحيق بعربته وتعرضها للانكسار والتفكك ·

فى النهاية فلتتحطم ! ان ما يقوله نيقوس فيه فائدة محققة ··· ولكنه كان غير قادر على هضم فكرة ان يخل بالتعهد الذى أخذه على عاتقه قبل الجد ··· أجل ··· لن يخل بذلك التعهد ، فهو رجل ! ···



ما ان انتهى مما كان عليه من أعمال بمكاتب الاتحاد ، حتى توجه بخطوات حثيثة الى البيت الصغير الذى استأجره منذ زمن قريب ·

كان متعبا ، مثقل الجفنين بسبب سهرة الليلة الماضية ، لم يغسل وجهه ، وربما كان يحس أيضا بشىء من الجوع ، ولكنه لم يكن يشعر بالحاجة لا الى الراحة ولا الى الاغتسال ولا الى الأكل : وانما الذى كان يحس بأنه فى مسيس الحاجة اليه هو الحاجة الى الخلوة كى يفكر ·

كل شىء يسير الى الأفضل ، ومع ذلك يشعر بأنه اسوأ حالا ، يوما بعد يوم ·

كان الاتحاد يقوى ، والمخاوف التى سببها الاجتماع بالجنرال الايطالى انفجرت مثل فقاعة الصابون · واصلت الجماعة الصغيرة معارضتها ولكن

غالبية الناس راحت تخضع • وذاعت شهرة الاتحاد وامتدت الى منـاطق ومدن أخرى ، ووردت من كل الانحاء عروض بالتعاون معه • وتزايد دفاع السلطات الايطالية عنهم • كانت بطونهم ممتلئة بينما عاني الآخرون من الجوع • لم تنظم صناعة الجبن بسبب نقص الاعتمادات ، ولكن كان واضحا انهم سيتوصلون الى حل مع أحد البنوك • وفضلا عن ذلك ، حتى بدون الجبن ، كانت الاموال تدخل خزائنهم • وذلك بفضل صفقات متنوعة تتم باشارة صغيرة • ومن ثم كان نيقوس يربح الآن فى الشهر الواحـد اكثر مما كان يربحه في عامين أو ثلاثة من قبل •

أحلت الحكومة الزائفة بأثينا ضابطا متقاعدا محل عمدتهم السابق، وتلاقى مع الآخرين والتصق بهم • ولكنهم ولا شـك سيجعلونه ينكص على عقبيه والا سيشلون حركته • كانت هـذه هى المشكلة الوحيـدة ، ولكنها تافهة وغير مؤثرة ، أما فيمـا عدا ذلك ، فكل شيء يسـير على ما يرام •

وحتى مستقبل كيتى الذى كان يؤرق بالهم منذ عدة سنوات ، بدأ يتطور على نحو مدهش • كانت ستتزوج خطيبها بعد شهرين أو ثلاثة أشهر فى تورينو ، وسوف تصبح بذلك سيدة مرموقة وبالغة الثراء • وكانت سعيدة بذلك •••

وفى النهاية ، ما الذى كان بالامكان ان يتمناه نيقوس أكثر من ذلك ؟ لماذا يعذب نفسه اذن هكذا ؟ ما الذى يحدث له ؟

بحث عن سبب ذلك كثيرا ، فلم يجد •

اكان هو المستقبل البعيد الذى يؤرقه وتطورات الحرب ؟ كلا ، منذ شهور ما عادت تشغله هذه المسألة ولا لحظة واحدة • هذا وقد أكد لـه أول أمس أفضل الضباط بلواء فورلى وبأدلة لا تقبل الجدل ان المحـور سوف يكسب الحرب قبل الخريف • لم يبق على ذلك سوى صيف واحد على الاكثر •

كلا ، كلا ، ان نتيجة الحرب لا تشغل باله على الاطلاق • بل أنه ما كان يفكر فيها •

اذن ، بماذا يعلل قلقه ؟ كان طوال حياته ينتظر الفرصة الكبيرة • وقد جاءت ، بل وجاءت أكبر وأفضل من كل الفرص التى حلم بها •

رئيسـا لحركة وطنية ، وغدا رئيس وزراء ، قوى النفوذ ، كانت المسألة تسير على ما يرام • والتوقعات فى صالحه •

لماذا اذن هذا العياء ، وهذه الهمة المثبطة ؟

كان ساخطا لعدم اكتشافه السبب ، هو الذى كان يجد على الدوام الاسباب عندما كان يأخذ على عاتقه تحليل المواقف · ان ذكاءه لم يتخل عنه على أى حال ! ··· لابد ان ثمة شيئا يسبب هذا الاحباط · ولـكن ما هو ؟ لاول مرة خيل له ان عقله ما عاد يعمل ·

بين الشرود والانتباه عكف على مراجعة الاحداث والاشخاص الذين ظهروا فى حياته خلال الشهرين أو الثلاثة أشهر الأخيرة · وفجـــأة ، انصرفت افكاره الى اصدقائه القدامى من أفراد الجمـــاعة الصغيرة التى أصبحوا الآن خصومه · بدا له فى الضباب المضطرب الذى يلتف به أنه أخذ يميز رويدا رويدا بصيصا من نور ·

كان أصدقاؤه القدامى ، كل مرة يراهم فيها بالمصادفة فى الشارع أو تابعهم فى أنشطتهم ، على الدوام متحدين ، واثقين من أنفســهم ، اقوياء ، ولا تنقصهم البهجة ·

أول أمس ، أول أمس على وجه التحــديد ، اختبأ خلف نافذة ليرى كيف سيمضى موكب الاحتفال بعيد ٢٥ مارس القومى ·

باستثناء القداس بالكنيسة حظرت جميع مظاهر العيد الاخرى ·

أمام الكنيسة تجمع جمهور غفير · وبعد ان فرغت مراسم الصلاة تراجع كل الناس مفسحين الطريق لتمر الرياسات · ظهر العمدة الجديد ، ومن حوله الجماعة الصغيرة ، وقد تألقوا جميعا ·

وفى مكان الشريف الى يمين العمدة بدأ هذا الكريه كوليتيس ولأول مرة لم يكن يرتدى ملابســه الريفية · بل كان فى ملابســـه السالفة ، وبعبارة اخرى كان أكثر اناقة من أى رجل فى لا ريسا بل وفى اثينـــا ذاتها · ولا شك انها ملابس باريسية كان قد تركها فى اثينا وارسلت اليه خصيصا كى يتباهى بها فى هذه المناسبة · ذلك أنه ما كان يعثر الآن فى دكاكين لا ريسا ولا فى دكاكين اثينا على حلة من الجبردين وقبعة ركوفية مثل هذه التى يرتديها كوليتيس ·

حتى الانطبـاع الذى على وجهـــه كان مختلفا · لم يكن قلقـــا ، ولا ضجرا ، بل كان مرحا ، قويا واثقا من نفسه · وما عادت هيئته كما كانت من قبل · لم يعد متكباه متهدلين بل كان صدره متبسطا وشامخا · ولم يكن رأسه منكسا ، بل كان شامخا · وفخورا ·

كانت دلائل الفرح بادية عليهم جميعا هذا اليوم · وبهذا المظهـــر المعتز بنفسه نزل هذا الجمع فى اتجاه الميدان ·

ورد الى خاطره انطباع ابداه روبوتيكا هذا الصباح ، حتى هـذا الرجل الجلف استخلص تلك الملاحظة ٠

هؤلاء الناس لم تكن بطونهم ممتلئة ، وقضيتهم لم تكن تسير على ما يرام ٠ لم تكن رماح المنتصرين في صفهم ٠ وبالنسبة لهم ، كمـا بالنسبة للحمر الذين يتحركون في الخفاء ، كانت رؤية الغد قاتمة ، بل وقاتمة جـدا ٠ ومع ذلك فمـا كانوا يبدون مثبطى الهمم ولا متعبين ، مكتئبى المزاج ٠ كيف يفسر ذلك ؟

ولا كانوا هم فتية جسورين وكان هـو جبـانا خرعا ٠ كان يعرفهم جيدا ٠ فمن المضحك اذن أن يأخذ الأمر على هذا المحمل ٠

اذن ، ما الخطب ؟

لابد ان فى الأمر شيئا آخر غير ذلك ٠ ولا شك أن الخطب كله يكمن في هذا الشيء الآخر وكان هـذا الشيء الآخر ان أولئك جميعـا يجاهدون في صـف الحقيقة ٠ وكانت تجمعهم فضـلا عن ذلك نعمـة الصداقة أما هو فلم تكن لديه لا الصداقة ولا الحقيقة ٠ ولم تكن بيارقه سوى الكذب والكراهية بل وما هو أسوأ من ذلك أيضا ٠ لم تكن تلك البيارق ترفرف فوق رأسه فحسب ، بل وفـوق رؤوس رفاق الاتحاد جميعـا ٠

هذا الصباح ، فى العربة ، عندما استخدم الدهاء والمغالطة كى يعرف ما الذى يدور بخلد روبوتيكا عن روما فعلا ، تبين أنه ليس هناك سوى الكذب ٠ وعندما استخدم المراوغة ليستفيد من الموقف ويمسك بفاسيلاكى فى قبضته ، قاومه هذا الأخير بكراهية عاتية ، وقد نسى فى التو الصداقة والحفلات ٠

هنا ، كذب وكراهية ، اذن ، حتى بين اقرب الاعوان ٠ وهنـاك حقيقة وصداقة ، حتى فى أحلك ساعات التعذيب والاضطهاد ومهما ادلهمت سحب الشقاء ، وكان هذا ما يجلب الى الآخرين الفرحة والقوة ٠

وهكذا أضاءت الظلمات التى كانت تعتم على الدوام نظراته الثاقبة ٠ ولكن الذى أضيء كان تيها من الفوضى ٠٠٠

دق بقبضته على المنضدة ، وصاح حانقا :

ـ وحق الرب ، يجب ان تطفيء من بريقهم !

نهض وراح يذرع غرفة الاستقبال ٠ وعلى شفتيه ارتسمت الإبتسامة اللاذعة التى كانت مألوفة عنـه ٠

قال لنفسه « فليذهب كل شيء الى الشيطان ! حقيقة وصداقة ، كذب وكراهية ! بلاهات ! خزعبلات العقل ! أوشكت أن أتخبط بدوري وأخضع لأفكار العامة وأصاغر الناس ! » .

كلا . لم تكن الحقيقة والكذب وغير ذلك من السخافات هو الذى ثبط همته . هراء كل هذا ! ان الكذب يسود الحياة كلها ، لا يوجد رجل الا ويكذب مرات عديدة كل يوم . ان الذى يعذبه حقا ان كل النـــاس قاطعوه ، وفقد بذلك كل علاقاته .

قال لنفسه « يا لهؤلاء المسوخ البشعة ، يا لهؤلاء المسوح البشعة . انهم يسممون الناس جميعا ضدنا ... ليس هناك سوى كاستيليون الذى يرى صوابا . لابد أن يقبض عليهم ويرحلوا الى ايطاليا . على الأقل ، فليلقى القبض عليهم الآن » .

بابتسامة لاذعة ، ورافعا صوته بالحديث الى نفسه ، تمتم :

ـ الى الامام ، يا نيقوس ! انت ذكى وقوى وطموح . تقدم بخطى واثقة نحو هدفك الكبير . تحمل قليلا حفلات فاسيلاكى الماجنة ، فلن يكون ذلك طويلا ، ولا تتوقف عند الصغائر .

توقف فجأة عن سيره جيئة وذهابا .

ـ الروح ! الضمير ! ليس لكما وجود ! اين انتما ؟ منـــذا الذى امسك بكما بين يديه قط ؟ اذن ، اصمتا ! انتما مجرد افكار ابتكرهـــا بورجوازيون صغار ورعون . ولكن العلم قد فضح حقيقتيكما . لستما سوى صـــدمة كهربائية مغناطيسية لخلايانا التى هى مادة ملموسة . اما انتمـــا فلستما شيئا ؟

ثم شد قامته الى اقصى حد . ورفع راسه ، وصاح بأعلى صوته مثل مجنـــون :

ـ نيقوس مانوسيس ، رئيس الوزراء المقبل ، دكتاتور الغد القوى ، امسك مقاليد الحكم بلا خوف ، وامض الى الامام !

١١

واحد من أعز اصدقاء الأخ الذى لا ينسى ، بقى الى جـــواره . أنه بيجاسوس . أرادت الصدف ان يحتفظ به عنده ، فى فتيليونا .

ذات يوم من أيام الاحتلال الأولى استدعاه ناظر المدرسة الزراعية وقال له :

ـ لدى أسباب تجعلني اعتقد ان الايطاليين سوف يستولون على ما في اصطبلنا . أما اذا وجدت جيادنا بين ايدى الافراد فمن المحتمل الا يروتها، بالاضافة الى أنه سيكون صعبا عليهم الاستيلاء عليها منهم ، تفاديا للوقع السيء الذى قد يحدثه تصرفهم هذا . لذلك فقد فكرت ان اعهد بها الى أشخاص سيعنون بها وسيعيدونها الينا عندما يحين الأوان . اعددت كل شيء مع العاملين بالمدرسة كي يقولوا له اذا ما سئلوا أنه أثناء احدى الاغارات سرقت افضل جيادنا . وان افضلها جميعا هو بيجاسوس . وكان فقيدنا العزيز ستورناريس يخصه بحب زائد . لذلك ارجوك خذ بيجاسوس عنـــدك .

ترك المدرسة وبصحبته الجواد الرمادى الأنوف .

وصار بيجاسوس مفخرة فتيليونا ، والمفضل لدى سكانها جميعا . أما بالنسبة لنيكيتا فقد أصبح شغفه الاكبر ، ورفيقه الوحيد اذا ما خرج الى السهل الكبير أو راح يزور القديس ايليا .

لم يكن نيكيتا فارسا مرموقا . كانت الفروسية التى مارسها عندما كان يدعى لدى بعض الاصدقاء الاثرياء فى فرنســـا فروسية باهتة ، وضحلة : جياد رزينة ، مروضـــة ، جـــد متقدمة فى السن فى كثير من الأحيان ، وسيمة مستأنسة ، تسير وتجرى فى الاصطبل أو فى المماشى المخصصة لركوبها ، كما لو كانت تؤدى وظيفة حددت تفاصيلها بعناية .

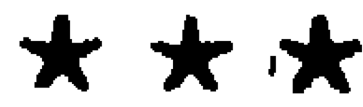
ولم يكن لتلك الفروسية أى وجه شبه بركوب بيجاسوس ، ولا يمكن اجراء أى مقارنة بين هذا وذاك .

كان هذا الجواد البالغ من العمر ست سنوات يحتفظ فى اوردته برياح انجلترا الباردة ، وبالخماسين الحارقة لبلاد العرب التى ورثها عن اسلافه . وفى اعصابه واوتاره تجرى كل حيوية اليونان حيث ولد وترعرع .

عندما تتخذ الأهبة لامتطائه كانت فرحته تتعاظم فتند منه صيحات، يحوم ، ويتوقف ليتودد اليك ويلعب معك .

وما ان تستقر على سرجه ، تحس بانه ينتظر منك ان تستثيره : ليسرع ، أو يقفز ، أو يشب على ساقيه الخلفيتين ، ولكن كل ذلك فى حدود نظام مرعى ، حتى لو تركت اللجام على عنقه . حيوان ذكى ، يفهم ماذا يراد منه ، حيوان راسخ السيقان ، لا يكبو أبدا .

من اجل هذه الاسباب ، كان امتطاؤه متعة ، وكان يروق لنيكيتا كثير الخروج على صهوته :



أمسك بيجاسوس الآن من لجامه ، وراح الجـــواد يخطر الى جواره راقصا ٠

وصلا الى كوخ ريامو ، فنادى نيكيتا على فروسو ٠ ظهرت عنـــد النافذة ٠ بدا له أن وجهها وقد علته الحمرة عندما رأته ٠ لعلها اضطربت عندما ناداها وقت ان بدء الليل يزحف بعتمته على الوجود ٠

قـــالت :

ــ بصحبة بيجاسوس فى هذه الساعة ؟ اين تذهبان ؟

تلفت نيكيتا حوله ٠ فابتدرته سائلة بصوت حاد :

ــ ما الخطب ؟ تكلم بحرية ٠ كل شيء ساكن من حولنـــا ٠ وحتى فى البيت لا يوجد أحد ٠

اجابها قائلا :

ــ لا أعرف ما الخطب ٠ مر على أحد الرهبان من دير القديس ايليا٠ أرسل الأب موديستوس رهبانه الثلاثة فى طلب الزاد ، لأن مخزونهم منه اضمحل ، وكثير من الفقراء يمرون بالدير ٠ طلب مني ان اذهب الى الدير هذا المساء حتما لقضاء الليلة هناك ٠ هل هو بحاجة الى صحبة ؟ هـــل يتمسك بعدم البقاء بمفرده ؟ هل دبر لقاء وأبعد الرهبان عن الدير عمدا ؟ لا أدرى ٠ على كل حال ، يجب أن أذهب ٠

ــ بالطبع ، يجب أن تذهب ٠

ــ لو حدث شيء ، وجاءوا يسألون ، قولى لهم ان الحبوب وتبن الحيوان ٠ على وشك النفاد ، وانى ذهبت اشترى بعض الكلأ ٠ فاذا سألوا لمـــاذا لم أعد ، فادعى انك تجهلين السبب ٠ وربما فاجأنى الليل ، وآثرت النوم حيث ذهبت ٠

ــ الافضل ان تشترى علفا ، فعلى كل الاحوال نحن فى حاجة اليه ٠

ــ سأشترى : وغدا أو بعد غد سأعود ، وأريد ان تقولى ذات الشيء

لن عندنا · وذلك للسبب الذى لا يعرفه سوى أنا وانت · ان اتصالاتنا بالراهب العجوز تقتضى بعض الحيطة ·

★ ★ ★

لم يستدعه الأب موديستوس لأى من الأسباب التى تصورها ·
قال لـــــه :

ـ يا بنى ، ليس لدى الرهبان أية فكرة عن وجود القبو ، وعندى الكثير من الاسلحة أودعتها فى مخبـــأ مؤقت · ويجب ان تنزل بها الى تحت · وان نرتبها هناك ، فالقبو يتسع لها كلها · ثمة كمية هائلة · وهناك ذخائر أيضا ·

ـ واذا جاء أحـــد ؟

ـ الباب الخارجى متين ، والسور عال · سأطلق الكلب فى الفناء · وبذلك اذا مر أحد ، حتى من بعيد ، فسوف نعرف ·

ـ لا يعرف الرهبان شيئا عن القبو ، لكنهم يعرفون ان ثمة أسلحـة مخبأة فى الدير · أليس كذلك ؟

ـ أجـــــل ·

ـ ولكنهم سيسألون اذن ماذا تم فيها ، وكيف اختفت ···

ـ اعرف وما كنت أريد ذلك ، وان كنت اثق فيهم جميعا · وليس من المستبعد أن يربطوا بين مجيئك هنا هذه الليلة التى هم غائبون فيها عن الدير ، وبين اختفاء الاسلحة ، ولكن ماذا بامستطاعتى ان افعل ؟ امس ، لم يكف رجلان غريبان عن التحويم على التل طوال النهار · عمـــا كانا يبحثان ؟ ربما عن لا شىء ، ولكن الأفضل أن ناخذ حذرنا · ثمـة خطـر يهدد الدير ، ويهددنا نحن ، ويهدد الاسلحة أيضا · وهى لن تكون بمأمن الا فى القبو · ولست قادرا يا نيكيتا ، أن أنقلها بنفسى · ولا أن أنزل واصعد الدرجات العالية والعديد من الممرات ·

ابتسم نيكيتا · لاحظ ذلك رئيس الرهبان وداخله القلق ، وربمـا داخله بعض الاستنكار أيضا ·

ـ ما الخطب ، يا بنى ؟ الست متفقا معى ؟

ـ بالعكس ، يا ابتى ، لقد فكرت بكل حصافة · وسأنقل لك منـذ

الليلة ما شئت • أما الذى جعلنى ابتسم ، فهو أنك تجمع اسلحة ، بينما تذكرت انك قلت لى فى زيارتى الأخيرة ، أنه سوف نحتاج اليها ســـاعة البعث المقدسة • وبعبارة اخرى ، فانك تتأهب للقتال ، وأنت رجـــل دين ومحبة • وفى ظروف اخرى كنت ابتسم بل وضحكت أيضا ، وذلك وأنا اسمعهم يقولون ان قساوسة الدين ذاته ، فى بلاد الاعداء يباركون اسلحته باسم الرب نفسه • لم آكن آنذاك أو من بأديان ولا بآلهـــة • ولكننى أمام الموت على الجبهة الالبانية آمنت • الا أننى حتى الآن وقد آمنت بشىء يتجاوز الوجود الارضى ، يبدو لى كل هـــذا شـديد الغرابة • ان ما تفعله ، اريده أنا بكل قوتى ونفسى • ولكن ان تفعله أنت الذى اعتبرك بمثابة قديس ، فهذا يبدو لى غريبا •

استمع اليه العجوز بهدوء وانتباه ، ثم قال له :

ـ انت على حق • بالنسبة لى ، أنا رجل الدين المدرك لصفتى هذه فان واقعة جمع الأسلحة ومباركتها يطرح مشكلة • سأشرح لك الأمر ، ولكن ليس الآن • يجب علينا أولا أن تودع الاسلحة فى مخبئها •

انهمكا فى العمل ساعات طوال • اشتغلا حتى منتصف الليل •

كان العجوز قد جمع كمية من الأسلحة كبيرة الى حد لا يخطر على بال • وأغلبها أخذه من جنود، العام السابق، أثناء الانسحاب ، فى ابريل ومايو ١٩٤١ • قدر هائل من البنادق والأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة ، وبعض الرشاشات ، صناديق بأكملها سليمة ، مليئـة بشـتى أصناف الذخيرة ، وبعضها يحتوى على قنابل يدوية • كل هـذا مشـحم وبحالة ممتازة •

ويمكن أن يقال ان الأب موديستوس قد وزن بانتباه غنائمه ، ذلك انها عندما رصت فى القبو بتنسيق محكم استوعبها القبو وامتلأ بها •

وعندما جلب كل شىء ووضع فى مكانه ، جاءت اصعب اللحظات • وبمشقة فائقة زحزحا بواسطة رافعتين متينتين العتبة الكبيرة المستطيلة التى نحتت على هيئة صخرة مغروسة فى الارض ، ووضعاها على نحـــو اغلق بعمق مدخل القبو • ثم عملا على اخفاء كل أثر لمـا قاما به • وبعد ذلك ، صعدا لاهثين الى الدير حيث تمددا على أريكتين من أرائك غـرفة الاستقبال •

واثناء تناولهما شيئا من الطعام تكلم العجوز :

ـ تواتر القول على أن أسبابا تاريخية ربطت الكنيسة الارثوذكسية

بالهيلينية برباط لا ينفصم عراه • وفى هذا القول قدر كبير من الحقيقة • وأعرف ان كثيرين منا يحسون بذات القدر انهم قساوسة ومواطنون يونانيون ، بل ويحسون أيضا بأن يونانيتهم أسبق على كونهم قساوسة • وأنا بدورى أكن للأمة حبا كبيرا ، ولكن فى كل مرة وجدت نفسى قد انغمست فى مسألة نضالية لم تكن عاطفتى قط هى التى تقودنى • صليت ، وترددت ، واستفسرت • ولم أتبع طريقا بغير أن أتلقى أولا رسالة من السماء تؤكد لى ان قوى الخير يجب أن تصرع قوى الشر • ان الحرب شىء بشع ، فظيع ، بقتلاها وكوارثها • ولكن انتصار الشر أيضا شىء أشد سوءا وأشنع هولا • وليس بمستبعد أن يتردى بعض القساوسة فى الخطأ فيباركون قوى الشر • أعرف ذلك ، وأتعذب بسببه • انهم يتركون التيار يجرفهم ، ولا يتقصون الصواب ، ولا يعذبون ضمائرهم بغية الوصول الى الحقيقة ، فيتخذونها هاديا لهم ، ويقفون لو اقتضى الأمر فى وجه أمتهم ذاتها • لم أجد نفسى على الدوام متفقا مع أمتى • ولم أصل على الدوام لتأييد ما تختطه • ومع ذلك ففى كل مرة كان عليها أن تجاهد ، وجدت ضميرى يؤيدها ، وذلك لأننا لم نخض الا حروبا عادلة •

ـ هل انت متأكد يا أبتى انك لم تنجرف بدورك فى تيار العاطفة ؟

اجاب بحزم :

ـ تمام التأكد ، لاننى قبل كل شىء ، سمعت على عتبة كنيستى صوت الرب يوجهنى • وباستثناء الحرب الألبانية التى دافعنا فيها عن ديارنا ، قل لى أى حروب أخرى خضناها ، يا بنى ؟ حرب الفكرة الكبيرة ؟ انطفأت الفكرة الكبيرة الآن ••• واقتلعت جذورها • والظروف السابقة التى كانت تسمح بوجودها تلاشت •••

توقف لحظة • ثم مضى يقول بتؤدة ، وبصوت أكثر اشتعالا :

ـ ان اللحظات الكبرى فى تاريخ اليونان ، يا نيكيتا كوليتيس ، ثلاثة : ١٨٢١، والفكرة الكبيرة ، وحرب ألبانيا •

تحمس نيكيتا ، كما لو كانت قد هبت ريح رطبة ومسحت بشرته من حر الصيف اللافح •

صاح الراهب العجوز يقول :

ـ وحرب البانيا أراها مثل منارة فى مسيرة اليونانيين ، الى الامام • انها تشبه حرب الاستقلال عام ١٨٢١ •

– يا أبتى · هل تراها جد هامة هذه الحرب على الجبهة الالبانية ؟

وربما كى يسمع من الراهب العجوز تعزيزا لما فى فكره ، أو ربما تواضعا من جانبه امتلأ نيكيتا انفعالا وأردف يقول :

– يا أبتى · ربما تكون حرب ١٩٤٠ من الساعات الكبيرة ، ولكن دون أى شبه بحرب ١٨٢١ · ان الأهداف ، والتضحيات ، والمدة ، مختلفة ·

– ومع ذلك فهما يتشابهان كثيرا · وآسف ألا يسمع اليكسى هذا الكلام ، وهو الذى أعطى حياته من أجل تلك الساعة الكبيرة من تاريخ اليونان ·

« فكر جيدا · فى ذلك العهد ، بعد نابليون ، قام الحلف المقدس ، أو بعبارة أخرى اتحاد أقوياء العالم ، الذين كانوا يقررون مصير أوروبا · وقد تفاهموا جميعا مع تركيا بالغة القوة على ألا يعرف ابن الأرض اليونانية أية حرية · وعندئذ أعلن ابن الأرض اليونانية ، الضعيف ، حافى القدمين الذى يكاد يموت جوعا – أعلن التمرد ، واستبسل قدر امكانه ، وفى النهاية استمال الى صفة الأقوياء والضعفاء ، وحمل الامبراطورية العثمانية التى لا تقهر على أن تجثو على ركبتيها وتعترف باستقلاله » ·

« وفى عام ١٩٤٠ ، أى منذ عامين ، وان كان بالامكان ان نقول أمس، عادت تتحكم من جديد فى مصائر أوروبا دولتان قويتان اما الدول الأخرى جميعا ، فقد أحنت الجباه ، مثبطة الهمة ، بلا قوة ·· ما عاد أحد يقاوم ··· على انه من وراء الجبال والبحار ، فى مكان بعيد ، مضى الانجليز وحدهم يحاربون ببساطة ، ولكنهم فى هذه اللحظة بدورهم يبدون على وشك ان يلفظوا أنفاسهم ، لأنهم معزولون ، يقفون بمفردهم ، بمفردهم تماما ، ومن الجو يهاجمونهم بالحديد والنار · وهنا ، فى هذه اللحظة ذاتها ، قال هذا الشعب ، شعب ١٨٢١ نفسه ، الشعب اليونانى ، الصغير الجائع الحافى ، الذى لم تتحسن أحواله كثيرا عما كانت عليه من قبل ، قال « لا » لأولئك الكبار الذين أخضعوا الآخرين جميعا ، وأحالوهم الى عبيد · ظل الشعب اليونانى ينتصر عليهم طوال ستة أشهر ، انها منارة يانيكيتا كوليتيس ، هذه الحرب على الجبهة الالبانية منارة كبيرة ، شبيهة بمنارة عام ١٨٢١ ، وكما ان أيام ١٨٢١ تلك أعطت روحنا القومية أجنحة حلقت بها قرنا بأسره فان أيام ١٩٤٠ هذه أيضا ستضىء لنا الطريق أمدا طويلا ·

راح نيكيتا ينهل الكلام الذى ينسكب من هاتين الشفتين العجوزين، وينصت اليها مسحورا • ودون أن يفكر فيما يفعل ، كما لو كان هذا الذى يفعله شيئا طبيعيا جدا فى هذه اللحظة ، انزلق من على الأريكة الى الأرض حيث ركع أمام رجل الدين وقبل يده •

أخذ العجوز رأس الرجل الشاب بين راحتيه وأودع على جبينه قبلة حافلة بالرقة •

مسح عينيه ونهض ، قائلا :

ـ فلنترك الآن كل هذا • فى هذه الساعات الصعبة التى نمر بها يجب ان نكون أقوياء • اذ يجب ان نجتازها كى نبدأ العمل من أجل فكرة كبيرة جديدة •

سأل نيكيتا دهشا :

ـ كيف سوف يكون ذلك ممكنا ؟

ـ لا أريد أن أتحدث عن الفكرة القومية الكبيرة السابقة • ولكن عن فكرى أخرى أتحدث • عندما سنتحرر سنحاول أن نبعث فكرة كبيرة ، فكرة الروح والفكر • وسوف تتحقق هذه الفكرة ذات يوم فى اليونان ، يابنى • أعرف ذلك • أعرف ذلك جيدا • فلتذهب لتنام ، الآن ، ففى الغد ، يحسن أن ترحل مبكرا •

* * *

أيقظه عند الفجر ، وقال له :

ـ يجب ان ترحل قبل طلوع الشمس • ولكن قبل ذلك أريد أن أتحدث اليك عن أمر ما •

ـ قلت لك أمس ، يـا بنى ، اننى فى كل المواقف الصعبة التى واجهتنى لم أخطت طريقا الا على هدى من نبع الضياء الأكبر • وثمة حالة خالفت فيها قواعد الكنيسة الصارمة وسببت ألما كبيرا لشخص أحبه حبا لا نهاية له ، ألما من الجسامة ربما هو الذى دفعه الى عدم التوقى لنفسه وقاده الى الموت • هذه هى الحالة التى أريد ان أخبرك عنها •

أحس نيكيتا بالضيق • لابد ان الأمر شديد الوطأة على قلب رئيس الرهبان • لماذا اختاره هو ليعترف له بذلك ؟ لماذا يتضع ويتضـاءل أو بالأقل يظهر الندم أمامه ؟ هذا ما لم يكن يريده •

ـ يا أبتى ، لا تقل لى شيئا . سوف يسبب لك ذلك ألما كبيرا ولا أريدك ان تخبرنى بشىء .

استطرد الأب موديستوس يقول بهدوء :

ـ كلا ، كلا ، يابنى . انى لا أبوح لك بالأمر كى أتخفف من عبء . ليس ثمة ثقل يرزح على قلبى ، لأن كل ما فعلت فعلته مهديا فيه من نبع الضياء الأكبر . وعندما تهدى هذه الضياء طريقك فلا يستطيع شىء على الاطلاق حتى أسوأ الأوجاع ، أن يخلق بداخلك عبئا أو ندما .

صمت ، **ألقى على نيكيتا نظرة نفاذة ، واستطرد يقل بعاطفة :**

ـ أريدك أن تعرف الأمر لسببين : **أولا :** لأن ذلك يتعلق بابنى المفضل الذى رحل الملقاء ربه . **وثانيا :** لأنك تعيش الآن على مقربة شديدة من الشخص الآخر ويجب ان تكون على علم . يجب ذلك .

ثم حكى بالتفصيل لنيكيتا المحادثة التى جرت بينه وبين اليكسى فى ١٥ أغسطس ١٩٤٠ ، ، عندما لم يتركه يتزوج فروسو .



راح جسد نيكيتا كله يوجعه بعد الجهد الذى بذله . أحس بالتعب ، لأنه فقد عادة السهر الى أوقات متأخرة فضلا عن انه لم ينم جيدا تلك الليلة . وكان يجب عليه ، رغم كل شىء ، ان يذهب بعد الظهر الى العيادة، تقرر هذا الاجتماع منذ عدة أيام ، وكان عليهم اليوم ان يناقشوا موضوعات أساسية . لن يتحدثوا هذه المرة عن مساعيهم المخفقة ، ولا عن بعض الأمور الصغيرة عديمة الجدوى التى بامكانهم ان يفعلوها . بل سيناقشون مرة أخرى ردهم على اعلان الاتحاد رسميا وكان هذا موضوعا بالغ الأهمية . فقد كان ذلك الاعلان يشكل تأزما جديدا وجيه للموقف فقد مضت الأمور تتطور من سىء الى أسوأ ، منذ اليوم الذى قابلوا فيه الجنرال الايطالى .

ظلت كلمتهم لا تنشر عدة أيام ، وفجأة ظهرت فى عديد من الصحف فى مكان بارز وبحروف عريضة ولكن الكلمة حرفت الى حد كبير. كانت تقول « ان كل الجنسيات التى تعيش فى المناطق التى تحت امرة الجنرال ستتمتع بحمايته . » وأشياء أخرى مماثلة ، لا تخدم قضيتهم بل وتضعف منها أيضا . وقد أرسل النص المحرف الى الصحف من طرف

الايطاليين أنفسهم ، فى منتصف الليل ، مصحوبا بأوامرهم المشددة بنشرة فورا ودون تغيير أى كلمة منه ·

حاولوا الاحتجاج ، ولكن ما من أحد قبل ان يقابلهم ·

وبعد بضعة أيام ، تلقى ثلاثة منهم الأمر بأن يمثلوا أمام المكتب الثانى بوحدة الجنرال فولى · وقد تولى اللفتنانت ـ كولونيل بازى عرض المسألة عليهم بفظاظة وان تظاهر بالأدب · وقد راح يثبت أنظاره بالأخص على نيكيتا : قال لهم ان عليهم ان يبحثوا عن الأسلحة وتسليمها واذ انجحوا فى ذلك أفضل من الاتحاد ، فسنيضيق من صلاحياته · اما اذا لم يسلموا أسلحة فان مصيرهم سيتحدد تبعا لردود أفعالهم من موضوعات أخرى »·

ـ أجابوه بأنهم لا يخالطون أحدا يحوز أسلحة ، ومن ثم ليس لديهم ما يسلمونه · ومنذ ذلك الحين ، أصبح موقف الايطاليين قبلهم أكثر تشددا ·

اختفى جوليو فيانيللى دون ان يودع أحدا ، ودون ان يسمع عنه أى شىء · وقد تزايدت الحملات على القرى ، واتخذت طابعا أكثر قسوة كما تزايد اللجوء الى تعليق المواطنين بالاشجار سواء من أيديهم أو من أرجلهم، وكثيرا ما أشعل تحتهم أكداس من التبن حتى يغطيهم الدخـــان ويخنق أنفاسهم · وتعاظم الارهاب فى السهل كله · وسواء بدافع الخوف أو من وطأة الضغط والتنكيل ، قيد الكثيرون أسماءهم للانضمام الى الاتحاد كى ينجوا بجلدهم ·

كان العمدة الجديد يظهر توددا نحو الجماعة المعارضة ، ولكنه كانت تنقصه القوة ، وشنت عليه السلطات الايطالية حملة خفية حتى أضحى مجرد ظل لا حول له ولا فعالية ·

على ان الأمر الوحيد الذى تعثرت فيه جهود الاتحـاد كان صناعة الجبن · مضى رجال الاتحاد والجنود الايطاليون يجوبون المراعى ، مهددين، بل ولم يسلم مربى الاغنام من سياطهم ، ولكن اللبن المتحصل منهم كان ضئيلا الى الحد الذى لم يكن بالامكان ان يكفى لصنع الجبن · كما لم يكن المال متوافرا لعمل شىء · ومن ثم لم يحرز المشروع تقدما ·

ولكن اذا كان الوضع فى مسألة الجبن ظل فى صالح الجماعة الصغيرة وذلك على حساب بؤس مربى الأغنام ، الا ان الأوضاع بصفة عامة راحت تسير الى أسوأ · تدهورت الروح المعنوية · ولم يكن لدى الجماعة الصغيرة

ما تقـاوم به ذلك التـدهور • وكما لو لم يكن كل ذلك يكفي ، وقعت الطامة الجديدة وهي اعلان قيام الاتحاد •

وقد كانت التكئة لذلك الاعلان ثلاث مقالات جريئة ظهرت باحدى صحف فولوس ، تناولت فكرة الاتحاد بلاذع القول (١) •

وقد اكتسحت النفوس بعد نشر هذه المقالات موجة من الوطنيـه الا أن كاتب المقال ما لبث أن ألقى به في السـجن ووقعت على الصحيفة عقوبة الغلق المؤقت • ثم طوى النسيان كل شيء •

ولكن بعد خمسة وأربعين يوما اذاع الاتحاد بيانا ، كان بمثابة الافصاح الرسمي الأول عن الخيانة وأعلن متزعمو الحركة الانفصالية ان الفالاك من دم لاتيني خالص • ووجهوا الاتهامات الى اليونان ، وقالوا ان قوم الفالاك « لن يكفوا عن ان يرنوا بانظارهم نحو أمهم روما ، والى أخوتهم عبر الادرياتيك والدانوب » • وان « أجنحة نسور روما ستغطى العالم من جديد » وان اليونانيين يجب ان يثوبوا الى رشدهم وان يتعاونوا معهم، وذلك بالاضافة الى أشياء أخرى كثيرة •

كان الاعلان موقعا عليه من ديامانديس بصفته الرئيس الأعلى لشعب الفالاك بالبلقان ، ومن شخصيات أخرى عديدة ، عن شعب الفالاك بالبلاد المجاورة لليونان واحدا عن كل بلد ، وما يقرب من أربعين عن شعب الفالاك باليونان • وقد وقع هؤلاء باسمائهم منطوقة بالايطالية ، وأوضحوا قرين أسمائهم وظائفهم ومهنهم مترجمة الى الايطالية •

الافوكاتو : نيقوتوليا مانوسى

الدكتورى : كوستا ناشـا

البروفيسورى : جوليو كالوبانى

• • • • • • : • • • • • • •

• • • • • • : • • • • • • •

ووقع اثنان من كولونيلات الجيش اليونانى بلقب « كولونيللو » وأحد المقدمين فى ذلك الجيش بلقب « ماجورى » •

كلا ! لايمكن ذلك ! من المستحيل ان يكونوا قد وقعوا • بكل تأكيد وضع ديامانديس ومانوسيس على البيان أسماء اناس غائبين أو يتملكهم الخوف ولن يجرأوا على التكذيب •

---

(١) مقالات تاكى ايكونوماكيس بصحيفة « ثيماليا » الصادرة فى « فولوس » بتاريخ ١٥ و ١٨ و ١٩ فبراير سنة ١٩٤٢ •

وقد كان هذا صحيحا · وكل من كانوا يوجدون فى لاريسا كانوا يقولون سرا انهم لا يعرفون من أمر توقيعهم شيئا ··· ولكن الضرر كان قد وقع ·

تزايد سخط الأهالى ، ولكن تزايد أيضا هلعهم · كى يجرأوا على نشر نص مثل هذا ، لك ان تتصور أى مأمن هم فيه ، وأى قوة يمتلكونها !

كان يجب على جماعتهم الصغيرة ان تفعل شيئا · لم يكن بامكانهم ان يظلوا غير مكترثين ازاء مثـل هذا البيان ، فان الروح المعنوية كانت تتدهور بكل جلاء · ثم كان هناك ما هو أكثر جسامة من معنويات السكان· فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يعلن فيهـا رسميا كثير من المثقفين وأصحاب المهن تنكرهم لليونان ، وان الفالاك لاتينيون ، وكان بالامكان ان يرتب ذلك نتائج جسيمة فى المستقبل بالنسبة للوضع الدولى للفالاك ··· كان عليهم اذن واجب ، باعتبارهم رجالا مثقفين ووطنيين ان ينشروا اعلانا بالولاء يضعف من اعلان الآخرين ، بل ويحيله الى عدم · ذلك ان اعلان الآخرين قد صدر فى حماية السلاح وتحت وطأته ، بينما ان اعلانهم هم سيصدر والسلاح موجه الى صدورهم ·

بعد ظهر هذا اليوم ، التقوا جميعا فى العيادة ·

جلب نيكيتا معه مشروع اعلان كان قد أعده يرد فيه على كل نقطة ادعاها الاتحاد ، ويفضح الخيانة ، ويعلن ولاءهم لليونان بصراحة · وقد اختتم الاعلان بقوله « اننا ولدنا يونانيين ، وسنموت يونانيين » ·

أجمعوا على ضرورة أن يعبروا عن اخلاصهم بشكل قاطع · ووافقوا على النص الذى دبجه نيكيتا · ومع ذلك فقد تفرقوا فى المساء دون ان يقرروا ماذا سيفعلون على وجه التحديد ·

ـ ان يقدموا اعلانهم الى مكتب القائد ؟ سوف يكون لذلك مجرد قيمة تاريخية ، ولكن ما من أحد سيعلم بما فعلوه ·

ـ ان يتقدموا باعلانهم الى الصحف ! ـ هذه لن تنشره ·

ـ يوزعونه بأنفسهم على شكل منشورات !

ـ كيف يطبعونه ؟ كيف يوزعونه ؟ سوف يلقون القبض عليهم جميعا وعندئذ سوف تفقد الحركة زعماءها · ومن ثم يتغلغل الذعر الى قلوب الناس ·

ـ أن يودعوه لدى العمدة والمحافظ من أجل أن يبقى للتاريخ ·

ـ أن ينظموا مظاهرة ؟ كان الفالاك قلة فى لاريسا ‥ ثم كم سيأتى منهم للاشتراك فيها ؟

لم يتوصلوا الى اتفـاق ، فقرروا ان يعودوا للاجتماع مرة أخرى لاتخاذ قرار • ولكن فى هذا الاجتماع الثانى ترددت الافكار ذاتها ، واثيرت الاعتراضات ذاتها أيضا •

بعد برهة قال خادزيبيروس :

ـ لن نصل الى أى حل من الحلول ، اذن فالمسألة خطيرة • اما ان يفعل كل منا ما يرتأيه ، واما ان نوسع من دائرتنا • الى الآن ، كنا على حق ان تصرفنا وحدنا ، نحن الذين من أصل فالاكى ولكن علينا الآن ان نتوجه الى آخرين • هذا فضلا عن ان التصدى للخيانة يهم الأهالى جميعا ، من الفالاك كانوا أو لم يكونوا • فلنر ماذا يعتقد سائر محاميى لاريسا• وسائر أطبائها ، وسائر ملاك الأراضى • وبعد ذلك ، سوف نقرر •

وافقوا • وأضاف واحد منهم :

ـ أنا لا أرى ان الرد على الخيـانة أمر جد عاجل ، ولا ضرورى • فلنتركهم يقولون ماشاءوا • اما نحن فلن نتراجع • أو بعبارة أخرى ان موقفنا الرافض خير رد عليهم •

ثم تكلم ثاناسيس فاسوليس ، وهو أحد مربى الأغنام المتعلمين ذوى النفوذ ، ويتمتع بحب الجميع واحترامهم ، **وقال :**

ـ ان الأهم فى هذه اللحظة على ما يبدو لى ان نهتم بصناعة الجبن• أضناهم التعب بحثا عن التمويل • وهم يوجهون تهديداتهم للبنك الزراعى وبنوك أخرى • وقد علمت انهم متفائلون • اذا توصلوا الى معونة مالية ، فانهم سيتمكنون من ان يفعلوا شيئا ذا بال • وعندئذ سيتمتعون بحظوة كبيرة لدى صغار القوم ، وسيكسبون مالا وفيرا • وهذا ما يجب ان نصدهم عنه ، قبل كل شيء ، لأن تأثير ذلك أبعد مدى من الكلمات التى لاتستهدف سوى ارضاء رغبتنا فى الانتقام ، ولا تحقق غير دبلوماسية لا نفهم شيئا فيها ‥ اما النجاح فى تمويل مشروع الجبن فهو فعل يصل الى عقول وجيوب مربى الأغنام كلهم ، ولهذا فسوف يكون له تأثيره الكبير •

ولما كان يحب الدعابة ، فقد أضاف مقلدا الفالاك فى كلامهم :

ـ وختاما ، فبلغة أمنا روما أقول لكم هذا : القروش مسألة خطيرة • ولا يحتاج هذا الى اعلان •

وقد تفرقوا ذلك المساء أيضا دون ان يصلوا الى قرار •

كان الليل قد أرخى سدوله عندما عاد كوليتينس الى فتيليونا · وقد دهش اذ وجد بكوخ ريامو الدكتور فائيدس بانتظاره ·

نحيل شاحب ، بنظارته الكبيرة على وجهه الصغير نافر العظام · تدثر بمعطفه الثقيل · واثار منظره الاشفاق · وربما كان ذلك راجعا الى الضوء الهزيل المنبعث من مصباح الغاز ، ولكنه بدا مرتعبا ، تعسا ، متألما · طلب الطبيب أن يتركا وحدهما · وقال له :

ـ رأيتك تمر أمام عيادتى · اذا سألونا شيئا ، سوف نقول انك دخلت عندى برهة لكى تخبرنى بأن فروسو انتابتها أوجاع عنيفة فى البطن · ومن الطبيعى ان تكون قد كلمتنى فى ذلك باعتبارى طبيبا لامراض النساء ، ولك بى سابق معرفة ولو طفيفة · وجئت أعودها بعربة يملكها رجل أثق فيه ·

صمت ، وابتسم بحياء · كان واضحا انه لم يكن يعرف من أين يبدأ، رثى نيكيتا لحاله · كان قد سمع عن علاقات نيقوس مانوسيس بزوجته· هل حدث شيء واحتاج اليه بهذا الشأن ؟

تحدث اليه بلهجة ودود :

ـ اننى رهن اشارتك · سوف أكون سعيدا ان أقدم اليك أى خدمة·

اجاب فائيدس بلهجة تمت عن الضيق ، وشابها كثير من التردد

ـ كلا ، ياسيد كوليتيس ، لست بحاجة الى شيء · أشكرك · اردت ان أعرض عليك ·· ان أقول لك ·· انك تكافح كفاحا رائعا · أعرف انك ، كيف أعبر لك ، انك أكثرهم ايجابية · ليس لك هنا أقارب ولا أصدقاء مقربون · أرى ان الأمور تسوء · هذا الاعلان الفظيع ·· ·· فى نظرى ·· يعنى انهم سيغيرون خططهم ·· وهم مجرمون ركبوا رأسهم وبلا ضمير ·

توقف عن الكلام ، ثم تردد ان يكمله ·

راقبه نيكيتا جيدا · بدأ يتحول اشفاقه الى استياء ، اذ داخله الشك · هل جاء كى يوصيه ، وهو أكثرهم ايجابية ، أن يخفف من

غلوائه ويلزم الحكمة ؟ هل كان يتصرف عن خوف ، أم أن زوجته هي التي أرسلته ؟

أصبح الصمت ثقيلا ، فقال نيكيتا بلهجة باردة :

ـ انهم على ما تقول • أعرف ذلك • وأعتقد مثلك انهم قد يكونون على وشك تغيير مخططهم • ولكن ماذا تريدنا ان نفعل ؟

ـ أوه ، لا شيء • لا شيء • أصمدوا وقاوموا •• استمروا أنتم أيضا في نضالكم بمزيد من القوة •• أريد ان أقول •• كلا ، لا أستطيع ، انا ، أن أعطي نصائح • تصرفوا كما تقدرون •

بدا عليه انه يبذل محاولة ضخمة ، وواصل يقول :

ـ هاك ما كنت أريد ان أقوله • نحن على صلة أسرية وثيقة مع نيقوس مانوسبيس • لقد انقطعت علاقاتنا تماما ، ولكن الناس يجهلون ذلك • وهم يعرفون اننا أصدقاء • وفضلا عن ذلك ، فانني رجل ضعيف وسقيم ولا شأن لي بأي شيء خارج عمله • لن يشتبه في أحد ، ولن يحقق معي أبدا • لذلك •• أريد أن اقول •• لو احتجت يوما ان تخبيء شيئا أو ان تختبيء انت نفسك ، فان بيتي هو أكثر الاماكن أمانا • وسوف يكون تحت أمرك •

لم يفتح نيكيتا فمه بكلمة • فأضاف الطبيب قائل :

ـ وعيادتي أيضا ، ولكن كثيرين يدخلون اليها ويخرجون • انه بيتي الذي يجب ان يعتبر الملجأ الأكثر آمانا لك في لاريسا •

أحس نكيتا بعينيه تغرورقان •

ولما كان يبكي بصعوبة ، فقد ضايقه ذلك • وفي هذا الجو القلق على ضوء ذبالة المصباح الضئيلة المرتعشة ، وفي ليل العبودية الثقيل الذي يخيم على كل شيء من حولهما ، اكتسى الطبيب بمظهر آخر •

تلاشت دمامته ، وهيئته السقيمة • ولم يبق من قسماته سوى عينين جد غريبتين ، مفعمتين بالخوف والشجاعة ، مليئتين بالتواضع والاعتزاز بالنفس ، وتشعان نارا •

نهض نيكيتا • ونهض الآخر في أثره • شد نيكيتا على يده وتمتم يقول له :

ـ دكتور ••• دكتور •••

اراد ان يشكره ، لكن الكلمات تلعثمت في فمه •

وفجأة أخذه بين ذراعيه ، وقبله • عانقه الطبيب بدوره • وظل

الرجلان متعانقين بينما سالت الدموع على خديهما دون ان ينبسا بكلمة ٠

أمام الحوذى الذى كان ينتظره بعربته ، **قال الطبيب :**

ـ أحسنت صـــنعا بان استدعيتنى ، ولكن اطمئن ، ليس الأمر بذى بال ٠

ـ انها بمثابة أختى ٠ وقد أقلقتنى آلامها العنيفة ٠

ـ الأمر بسيط ٠ يحدث هذا للنساء ٠

ثم اردف يقول بصوت داخله التغيير :

ـ كثيرا ، يا سيدى كوليتيس ، ما يثير ألم قوى فى الكيان رد فعل شاف ٠ أرجو ألا تكون قد جربت ذلك ٠ ولكن الأمر كما قلت لك ٠ ولا تنسى ارشاداتى ٠

ظل نيكيتا ساكنــــا ، متابعا بعينيه العربة التى راحت تختفى فى الليل الأسود ٠

ربتت على وجهه نسمة ريح ربيعية ٠

ودون وعى منه ، كما لو كان يبحث ليرى من أين أتت اليــه هذه اللمسة النضرة العاطرة ٠ نقب بنظرته فى أرجاء الليل : رأى ظلمة كبيرة لا نهاية لها ٠

ومن بعيد ، ناحية جبل الأوليمب لمح نجما يتلألأ فى الظلمات الكثيفة بغير قرار ٠ خيل اليه ان ظلمة الدنيـــا كلهــا تريد ان تحجب النجمة الصغيرة اللامعة ، ولا تستطيع لأنها كانت تصر على ان تضىء ، وتبعث فى الليل البهيم شعاعا جميلا ٠

١٢

كما هو الحال دائما ، تواجد فى ذلك اليوم أيضا كثير من الناس بمقر الاتحاد ، ٦ شارع اثناسيس دياكوس ٠

ولكن فى ذلك الصباح ، لم يكن يبدر من هؤلاء الناس الصاخبين سوى قليل من الجلبة ٠ كان الجميع يتحدثون بصوت خفيض ، وكثيرون كانوا يخرجون يذرعون الرصيف لتدخين ســيجارة ٠ ويعودون ٠ كان

جنرال الاتحاد قد أخبرهم بان يغلقوا أفواههم لأن الموضوع الذى سيناقش على قدر كبير من الأهمية ٠

بدأ الاجتمـــاع منذ هنيهـــة ٠ وقـــد كان دياماندیس ومانوسيس وروبوتيكا ، وهم أكثر أعضاء المجلس نشاطا ، قد اجتمعوا من قبل مع بعض أعضاء الاتحاد ذوى الهمة ، من ممثلى الدوائر الاقليمية ٠

قال دياماندیس :

ـ كل شىء يسير على ما يرام ٠ بل يســـير على خير ما يرام ٠ ان الاغلبية أصبحت تدين بالولاء ٠ والباقون فى طريقهـــم الى التخـلى عن عنادهم ٠ لم أكن أتوقع ان يهضموا الاعلان بهذه السهولة ٠

سأله أحد الحاضرين :

ـ هل هضموه حقا ؟

ـ الشىء الوحيد الذى فعلوه انهم طلبوا من كل الموقعين عليه ان يكذبوا التوقيع ٠ وبكل بساطة أدلى اليكم بملاحظة عابرة : ما من شخص، باستثناء واحد لا يقيم هنا جرأ على التكذيب ٠ وانى أسأل : هل يمكن أن يرقى ذلك الى مرتبة رد الفعل المعتبر لضربة محكمة مثل ضربتنا ، وقد مر على نشر الاعلان خمسة عشر بل عشرون يوما ؟ ان هؤلاء القوم أدعياء يتظاهرون بانهم أسود ، ولا يجيبون بشىء ٠

علق مانوسيس قائلا :

ـ فلننتظر قليلا ٠ فمن الجائز ان يجيبوا هذه الأيام ٠

تحدث أحد الرجال من تيرنافو فقال :

ـ كان الاعـــلان موفقـــا ، وكان له وقع طيب ٠ الجمت السنتهم جميعا ٠ ولكن هناك شيئا يجب ان تعرفوه : لو ردوا عليه علانية وبأنفة ، فان ردهم سوف سيكون له وقع أبلغ مدى من الاعلان ذاته ٠ فسيبين بجلاء انه على الرغم من عنه الاجراء فقد تجاسروا على رفع رؤوسهم ٠

قال دياماندیس بلهجة الواثق مما يقول :

ـ لا تقلق ٠ اتخذنا احتياطاتنـــا ٠ لا يمكنهم ان ينشروا كلمة فى أى صحيفة بل ولا يمكنهم حتى ان يطبعوا منشـــورا ٠ لأننـــا ، دون ان يعلموا ، نسيطر على كافة المطابع فى كل المدن ٠ كما اننا نمتلك أسلحة أخرى سرية ، من الأفضل عدم التحدث عنها ٠

انبرى أحد الحاضرين يقول :

ـ لا نريد ان نعرفها • افعل ما تشاء أيها الرئيس •

وقال آخر :

ـ حسنا ، حسنا ، أيها الرئيس الكلبيز ، انك على حق • كل شيء يسير على ما يرام •

ولكن أحد الموجودين ، بدا ساخطا ، وارتسمت عليه سيماء النكد ، والتحرش ، كان له في الموضوع رأى مخالف ، **وسأل :**

ـ مهلا ، مهلا ، هل سنتكلم بصراحة أم سنمضى فى سرد الاكاذيب؟

التفتوا جميعا نحوه • كانوا يعرفونه جادا وحازما • سأله دياماندیس ببرود :

ـ من الذى يسرد الأكاذيب ؟

ـ لا أعرف من ، ولكننى أعرف ان الأمور لا تسير على ما يرام • ان الناس لا تريدنا • واذا كانوا يولونا الخضوع فلأنهم خائفون • ان الوسيلة الوحيدة التى فى متناولنا كى نسيطر على الأمور حقا ، لم يطرأ عليها أى تقدم على الاطلاق • أعنى ان صناعة الجبن قد أخفقت ، والناس فى المقاهى والمطاعم تسلخنا بألسنتها الحادة •

اجاب نيقوس مانوسيس بلهجة ساخرة :

ـ لقد وضعنا موضــع التنفيذ قضــية ضخمة تولى جيش باسره رعايتها من أجلنا ، وانت تريد ان تضع كل شيء فى سطل من اللبن •

قال الآخر غاضبا :

ـ أصغ الى قليلا ، يا نيقوس • لا أعرف شيئا عن المشاريع الكبيرة • الاعلان وما شاكله من ركامات الوثائق التى لا قيمة لها ، أمور تروق لكم أنتم • المثقفون • اما عامة الشعب فلا يتعلقون بمثل هذه الأشياء • صفر زائد صفر بالنسبة لهم يساوى صفرا • ان الذى يعنى أصــاغر الناس اليوم هو سطل اللبن • لقد اذعنا فى القرى كلها منذ شــهور ان اللبن سنشتريه نحن • وماذا حققنا بهذا الصدد حتى الآن ؟ اننا نتلقى السخريات فى كل مكان • يقولون اننا نعطى الأقوياء ما لدينا من ألبان ووصفونا بالغباء لأننا لا نتقاضى شيئا لقاء ما نعطيهم • والآخرون ، يمضون مختالين فرحين بما يوجه الينا من تعليقات لاذعة • لقد ضاعت هيبتنا •

تصدى له دياماندیس قائلا :

ـ ستبيع الجبن وستنقدون مستحقاتكم •

أجابه الرجل الغاضب :

ـ والى ذلك الحين ، فلننتظر ، ولنشرب ماء ٠

شعر ديامانديس بحرج موقفه ، فقال متضايقا :

ـ انك على حق ، انها لحظة صعبة ٠ لهذا السبب على الأخص دعوتكم الى هذا الاجتماع ٠ ماذا تريدوننى ان أفعل ؟

ـ دبروا نقودا ، نذرا يسيرا على الأقل ٠ ادفعوا شـــهرا أو حتى أسبوعين مقدما ، وسوف أكون راضيا ٠ أى امارة واتحاد نحن ما دمنا لا نستطيع ان ندبر بضع درخمات ؟ أين قوتنـــا ونفوذنا ما دام البنك الزراعى وغيره من البنوك تناوئنا ٠ وحتى بنك فاسيلى الذى هو معنا ؟

قال مانوسيس بجفاء :

ـ ان البنك ليس ملكه ٠ لقــد اقترح على الادارة المركزية أن تمنح تجارنا مبلغا سخيا ٠ وهناك أمل فى ان توافق ٠ لكن يجب ان أقول ان الآخرين عرفوا بالأمر ، فذهب كوليتيس لمقابلته وسأله بلهجة صارمة عما اذا كان قد أخبر الادارة بان المبالغ المطلوبة ستخصص لصناع الجبن التابعين للاتحاد ٠ وعما اذا كان قد أوضح للادارة حقيقة هذا الاتحاد ؛ وأجابه فاسيلى بأن الأمر يتعلق بصفقة تجارية طيبة ، وان هذا هو الشيء الوحيد الذى يعنى البنك ٠ ولكن كوليتيس وجــه اليــه قارس القول ، ولا تنسوا ان محافظ البنك عمه ، ومن أدرانى ما لم يكن قد بعث اليه يحـذره ؟

تساءل ديامانديس :

ـ وكيف يحذره ؟ من المستحيل ان يرسل برقية أو خطـــابا ٠ ولن يكون من السهل ان يبعث اليه برسول ٠

تنحنح فاسيلاكى روبوتيكا بصوت أجش ، وتململ فى كرسيه مبينا انه يريد ان يتكلم ٠

بحذائه اللامع ، وملابسه الجديدة ، ونظرة النسر التى تتألق فى وجهه الخشن ، برز بين الآخرين على نحو ملفت للانظار ٠

وقـــال :

ـ كل شيء على ما يرام ، كل شيء على خير ما يرام ٠ أرى ذلك أينما سنحت لى الفرصة بالمرور ٠ ولكن أينما مررت أرى أيضا ان مسألة الجبن تسير الى اسوأ ٠ بينما هي التي يمكن ان تدعم مركزنا ٠ والمؤسف انه

لو لم نفعل شيئا سريعا فان المسألة ستفلت من بين أيدنا • وسرعان ما سنكون فى أبريل • بعد شهر على الأكثر ، ستخرج نصف القطعان الى الجبال • اما ماشية الوادى فسيتناقص عطاؤها من اللبن • وخلال شهرين أو ثلاثة أشهر لن تدر لبنا على الاطلاق • ومن ثم سيطير العصفور من قبضتنا • وما لم نمسك به ، انتهى الأمر •

قال مانوسيس ببزود :

ـ اذن ، انت أيها القائد ، أمسك به ، انه انت الذى تمسك بالسيف، وعليك انت ان تجبر الرعاة باعطائنا لبنهم •

جرح كبرياء « جنرال » الاتحاد • **وقال :**

ـ أن ما على الا أمسك به ، أمسك به • اما اذا اقتضى الأمر مالا فهو يخرج من قبضتى • والآن هل نستطيع بسبب حفنة قليلة من النقود ؟ يجب ان يعطينا فاسيلى هذا المال •

ـ دون موافقة مجلس الادارة ؟

ـ عن أى موافقة تتحدث الآن ؟ وهل نحتاج الى أحد ؟ أننا الاتحاد الرومانى • ألسنا كذلك ؟

صار رئيس الاتحاد صارما وساخرا :

ـ أتعرف متى ذهب كوليتيس لمقابلة أخى فاسيلاكى ؟

ـ لا أعرف • ولا يعنينى ذلك •

ـ بل انه يعنيك ، ويجب ان تكون عارفا به • كان خارجا من البنك عندما التقى بك فى الميدان ذلك اليوم الذى شتمك وبصق على وجهك •

دق رئيس العصابة القديم الأرض بقدمه • وهب صائحا :

ـ انه لم يشتمنى ! ولم يبصق على وجهى !

فى اللحظة ذاتها ، **تساءل آخرون :**

ـ لقد تناقلت الاشاعات ذلك • ماذا حدث ؟

ـ هل بصق على وجهك ، يافاسيلاكى ؟

ـ ألم يحدث ذلك فى الطريق العام ؟

ـ ألم تصرعه ؟

دق ديامانديس مكتبه بقبضة يده ، وقال :

اسكتوا جميعا ، فى النهاية . قل لنا بكلمــات قليلة ما حدث ! انا بدوری سمعت كلاما عن واقعة كهذه ، ولكننى لم آكن أعرف انها حدثت فی الطريق العام ، وانه بصق على وجهك .

ثارت ثائرة روبوتيكا :

ـ انه لم يبصق على وجهه ! انه لم يبصق !

ـ أسمع يا فاسيلاكى ، اننا نريد مساعدتك . اننا لا ندينك . قل لنا بهدوء ما حدث . قله لنا حتى نرى ما الذى يجدر بنا ان نفعل .

أخذ روبوتيكا ، وقد استبد به الضيق ، ركبتيه بين ذراعيه . سعل مرتين أو ثلاث مرات .

ثم قال ، وقد نكس نظراته الى الأرض :

ـ كنت أتبادل الحديث مع رولاس فى الميدان . عند الركن ، على مقربة من البنك . **جاء الينـا أحـد الفلاحين وقطع حديثنا قائلا :** « يا سيد رولاس ، انتظر منذ أمد طويل ردا . هل ستعطينى ذلك التبن أم لا ؟ » . سخطت وقلت له « اغرب عن وجهى ، يا هذا ! » لم أصدق أذنى عندما سمعته يقول « اننى أتحدث الى السيد . وانى أربأ بنفسى أن أتحدث اليك أنت ، أيها الوغد ! » .

ـ تأججت الدنيا فى عينى جحيما . ورفعت عصاى كى أنهال بها عليه ضربا . أمسك رولاس بذراعى فى الهواء وفى الوقت ذاته سمعته يقول : « انصرف يا سيد كوليتيس ، انصرف . أرجوك . » نظرت اليه ، وانتابتنى الدهشة . كان صورة طبق الأصل من جده . ورث عنه قسماته كلها . خفضت عصاى .

صمت روبوتيكا دون أن يجرؤ على رفع عينيه .

سأله دياماندیس :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟ قل لنا الحقيقة كلها ، يا فاسيلاكى . انك جنرالنا . ويجب أن نعرف كى نقرر ماذا سنقول أو نفعل . انك تتحدث الى اخوتك .

صوب الى دياماندیس نظرة زائغة . ثم صوب الى مانوسيس نظرة أشد وطأة . ثم ثبت أنظاره الى الأرض واستطرد يقول :

ـ رق قلبى له ، وابتسمت . مددت يدى اليه قائلا « اذن انت حفيد الجد الكبير ؟ » نظر الى بكراهية وقال « اسحب يدك . لا أريد أن أوسخ نفسى » .

سأله ديامانديس :

ـ هل كان هناك جمهور فى ذلك المكان ؟ هل رأوك تسحب يدك ؟

ـ وهل أعرف ما اذا كان هناك جمهور أم لا ؟ ربما كان هناك أحد المارة . ولكننى رددت اليه بعملة من صنف عملته وقلت له « هذه اليد ، كان جدك سيصافحها ، وهو الذى كان له ضعف قوتك . » فأجاب « اليوم ، سوف كان جدى يقطع يدك . فى تلك الأيام الخوالى ، كان سيصافحها لأنك كنت رجلا آخر » .

تدخل روبوتيكا من جديد :

سأله الرئيس باصرار ورفق :

ـ لا بد انه أضاف شيئا آخر أيضا . ما هو ؟

ـ أضاف هذه العبارة « فى تلك الأيام لم تكن خائنا » . انتابنى الغضب وصحت « اننى على الدوام لم أتغير » وأشرت بعصـــاى ناحية تريكالا وصحت بأعلى صوتى حتى يسمعنى الناس جميعا « لقد تطلعت على الدوام نحو أمنا روما . لقد نظرنا على الدوام نحو أمنا روما ، نحن الفالاك الأصلاء » ومن جديد نظر الى بحقد وصاح بدوره « انت وسائر الفالاك الذين على شاكلتك نحو المال على الدام تتطلعون » ثم بصق على الأرض ، وانصرف . انه على الأرض بصق . ولم يبصق على وجهى .

تعالت الهمهمات على أثر كلماته الأخيرة . وانفجر جميع الموجودين فى الكلام تقريبا فى وقت واحد :

ـ ولم تقتله ، يافاسيلاكى ؟

ـ لقد سخر منا الجمهور ايما سخرية !

ـ وماذا يعنى انه لم يبصق على وجهك ؟ الأمر سيان !

ـ وهل تقبل أن تتلقى اهانة مثل هذه !

ـ يا له من شجاع جنرالنا هذا !

ـ لقد أكل الناس وجوهنا بسخرياتهم ، أيها العجوز !

ـ ان اهانة مثل هذه تنسى الناس عشر اعلانات بأسرها !

أما ديامانديس ومانوسيس فقد لزما الصمت دون الآخرين . راحا يراقبان بشىء من القلق كل ما يجرى أمامهما . وانزعجا حقـــا عندما تأجج روبوتيكا غضبا .

راحت عيناه تقدحان شررا . وأتى بحركات ضاربة . نهض عنوة ،

ودق الأرض بقدمه في عنف · وانخرط في ايماءات متشنجة ومضى يكيل الكلمات يمنة ويسرة ، ويطلق صرخات شرسة ومتخبطة :

ولم يكف عن تطويح ذراعيه بقصد التأثير فيمن حوله ، واطلاق صرخات ونظرات ملتهبة · وكان من الجلي أنه يسعى بهذه الوسيلة الى فرض السكوت على الحاضرين ·

ومن كان يراه على هذا الحال ، غير عارف بما حدث ، كان سيعتقد انه انما يرى مروضا يصارع وحوشه ·

قال دياماندیس ، وهو جالس ، الى مانوسيس :

ــ انه ممثل بارع ، هذا القذر ·

تمتم مانوسيس قائلا :

ــ بهلوان ماهر · لكنه يتأجج غضبا وقد ينقلب الأمر الى ما لا تحمد عقباه ·

أما الآخرون فقد ظلوا ساكنين أمام زعيم العصابة المنفعل · وما ان استتب الصمت ، **قال لهم بلهجة تهديدية :**

ــ انه خطئي · ما كان يجدر بی أن أتكلم وأقول لكم أشياء ما كان أحدكم يعرفها · أنا جعلتكم موضع السخرية اذن !ان ولكن بغيري هل كانت ستقوم لكم قائمة ؟ من الذى شيد جيشا يبث الرعب في أرجاء السهل كله ، هيه ؟ من الذى عثر على آلاف الأسلحة ، مما جعل الايطاليين يتوددون الينا ؟ سألقنكم الحياة ، أنا ! انكم تنادوننی جنرالا حقا · سآخذ فتيانی وأقيم اتحادا خاصا بی ·

رأى دياماندیس ومانوسيس يتبادلان نظرات قلقة ، ولاحظ أيضا أن هذا التهديد لم يرق للآخرين على الاطلاق · وجنح الى التراجع ·

ــ سوف نرى أى الاتحادين ستتوافر له القوة · وأيهما سيسانده الايطاليون ويعضدونه ! اتحادى أنا الذى أجعلكم موضع السخرية . ام اتحادكم أنتم ذوو الياقة المنشاة والذى يبيعكم هواء أجوف ·

أندفع دياماندیس يمسك به · حوطه بذراعيه ، وتملقه ملاطفا ، وأكد له ان استنكارهم موجه الى كوليتيس وليس اليه هو ، ولكن روبوتيكا لم يكن ليهدأ بسهولة · **وصاح :**

ــ انني أحييكم منسحبا · انكم تستغلونني ، أنتم يا من لا تجدون مالا من أجل الجبن · هيا ، اذن · هيا · أنا بأسلحتی ، وعليكم أنتم بالمال !

ثم استدار نحو نيقوس وقال :

ـ وانت ، هيه ؟ انت يا من تلعب دور الرئيس · يجب أن تجبر اخاك كي يعطينا مالا · ليس هناك مبرر كي يبرم صفقة زواج رابحة على أكتافنا ، في حين اننا نعطى لبننا بلا مقـــابل . ونتلقى سخريات الآخرين ·

قال أحد الحاضرين :

ـ انه محق في هذا · ان فاسيلى ملزم باعطائنا مالا ·

وقال آخر :

ـ وفي النهاية ، انه سيقرضنا اياه ، ليس الا · اننا نريد مجرد قرض ·

ـ كما لو كان ينتزعه من جيبه !

ـ لا بد أن تتدخل بحزم ، أيها الرئيس · اجبره ·

هدأ روبوتيكا · حول موجة الاستياء التي كانت موجهة ضده ، وجعلها تتجه صـوب الجـانب الذى يريده · فكر قائلا لنفسه « لماذا يتحامل هذا الرجل على · كنا صديقين · عربدنا سويا أكثر من مرة · لماذا اذن ينصب لى الفخاخ منذ بعض الوقت ؟ »

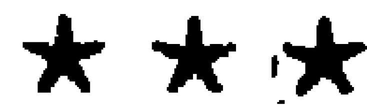
وفجأة ومض عقله بالاجابة : « انه الرئيس . ولكنه منى يخاف · أن قـــوتى كبيرة ، ولم ألتفت الى ذلك · اننى أجعـــله يرتعش · هذا ما به » ·

استرد شجاعته ، وأراد من جديد أن يتحدث ، لاذلاله ، وأن يقول انه سوف ينسحب لو لم يدبر المال خلال أسبوع ·

ولكن لما كان الآخرون يتصايحون فقد أجرى حسابا سريعا وذكيا · كانت لديه القوة ، وقوة لا يستهان بها ، ومع ذلك فليست له أى مصلحة للدخول في صـــدام مع صـاحبى النفوذ هذين ، اللذين بامكانهما أن يتفاوضا مع كبار الايطاليين · أما هو فلن يستطيع التحدث الا الى بعض مساعدى الضباط · وبين الحين والحين كان يحظى بمقابلة ضابط ، ولم يكن ضابطا عالى المقام · ان بامكانهما أن ينصبا له أحبولة ، أو أن ينزلا درجته ، بل وان يعزلاه ويعينا قائدا غيره · وسيجد ان الكثير من الفتيان على استعداد لان يصبحوا جنرالات للاتحاد · وبكل تأكيد لن يصعب عليهما أن يجدا من يصلح لذلك ·

طلب الكلمة · صمت الآخرون جميعا · وبصوت هادىء أعلن :

ـ قال لى نيقوس ذات يوم عبارة زاخرة بالمعانى • ان أمامنا ساعات صعبة • وسواء أردنا أو لم نرد لن نستطيع أن نتشاحن الآن • لقد أسأتم الى بلا سبب ، فغضبت • لكننى أنسى كل اساءة حتى نستطيع أن نرقب صعودنا المنحدر الوعر • ولـكن فى هـذا الصعود أولى القمم الشاقة هى المال اللازم للجبن • اذن ، فلندع الكلمات جانبا • وليكرس الرئيسان جهودهما لتدبير ذلك المال • فليذهبا لمقابلة فاسيلى ، ثم فليذهبا الى القيادة ليقولا انه لابد أن يعطينا البنك الزراعى هذا المال أو فليعطه لنا الايطاليون •



أثناء سيرهما فى الطريق وحدهما ، قال ديامانديس لنيقوس :

ـ هل رأيت كيف يمكن لأكثر الناس بداوة أن ينضج سياسيا ؟ لم أكن أتوقع هذا الكلام التوفيقى والمتعقل من جانب فاسيلى • يبدو أنه بداخل العسكرى الجلف يوجد الرجل السياسى أيضا •

وعندما لم يتلق أى اجابة ، سأل :

ـ ألست من هذا الرأى ؟

وأثنـاء سيرهما فى اتجـــاه البنك أجاب نيقوس وهو غارق فى أفكاره :

ـ لست من هذا الرأى • لما كان بدائيا ومتوحشا على ما هو عليه، تقوده فحسب غريزة الذئب والثعلب ، فلا يوجد بداخله مكان للرجـل السياسى • لقد تصرف على هذا النحو لغاية ما •

توقف ديامانديس • وضـع يديه وراء ظهره • ثبت أنظـاره فى عينيه ، وقال معلقا :

ـ لو كان قد تحدث لغرض فى نفســه ونجح فى اخفاء الحقيقة اذن فهو رجل سياسة أكثر مما توقعته •

قال نيقوس مانوسيس بلهجة جادة مجتهدا ان يخفى سخريته :

ـ انك تتفلسف فى السياسة ، وانت تتكلم هكذا •

أردف الآخر يقول قلقا :

ـ لا أعرف ماذا أفعل ، ولكنى أعرف انه لو كان لا يعتقد فيما قال ، فذلك يعنى انه يعد شيئا ما ٠

ـ ربما ٠

ـ ما الذى يعده مثلا ؟

ـ لا أستطيع أن أفهم ٠ لا أجد اجابة ٠

مضيا بضع خطوات ٠ توقف ديامانديس من جديد وقال بذات لهجته السابقة :

ـ لا بد لنا أن نفهم ونكتشف نوايا هذا الرجل ٠ ربما كان خطرا ٠

ـ انه بالقوة التى فى حوزته خطر فعلا ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا شىء سوى ما قلت ٠

ـ كلا ، لديك فكرة فى أغوار عقلك ٠ أولا قلت أنا انه ربما كان خطرا فقلت انت انه خطر فعلا ، وثانيا اذا كنت تعتقد انه خطر ، بل ويصل بك الحد الى أن تجاهر بذلك ٠ فلا بد ان ثمة فكرة تراودك ٠

ـ كلا ٠ انها مجرد ملاحظة بسيطة ٠

أمسك بذراعه ، وقال له منزعجا :

ـ نيقوس ، وحق السموات ٠ ماذا تخفى عنى ؟

شعر مانوسيس بفرحة خفية ٠ لقد سبق أن ورطه ديامانديس بتهديده له بماضيه ، وكذبه عن المستقبل ٠ فليشعر بالخوف قليلا الآن بدوره وليتعذب وهو الذى يتظاهر بالشجاعة ٠ ألقى اليه نظرة باردة ٠ وقال له بابتسامة غامضة :

ـ لا أخفى عنك شيئا ٠

ـ نيقوس ، أتوسل اليك ٠ انك تعرف شيئا ٠ لا بد ان هذا الرجل المتوحش يعد لضربة ما ٠ ما الذى يعده ؟ مع من ؟ ماذا تعرف ؟

ـ لا شىء ٠

ـ ماذا تسول لك الظنون ؟ ماذا تعتقد انه يطبخ ؟

ـ كيف تريدنى أن أعرف ماذا يطبخ ذئب ؟

ـ وماذا نفعل ؟ يجب أن نفعل شيئا ٠

قال مانوسيس ببرود :

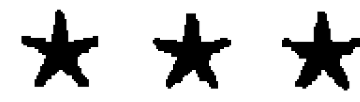
ـ فلنذهب نستجدى بعض المال ، لأن امارتك لا تملك شروى نقير • نقير •

واصلا طريقهما صـــامتين ، وقد استغرق كل منهما فى أفكاره الخاصة •

مثلت فى مخيلة نيقوس مانوسيس من جديد الأفكار التى سبق ان جاءته فى عزلة غرفته بعد احدى الولائم عند فاسيلاكى روبوتيكا ، منذ شــهر مضى : انهم محاطون بالكراهية ، والشـــك ، والخوف ، والأكاذيب • أما الآخرون فكانوا ينعمون •••

قال بصوت عال :

ـ فليذهب كل شيء الى الشيطان ! يجب علينا الآن أن نعثر على المال • هذا لا غنى عنه • ثم ان نبدو صارمين مع الجميع • صارمين جدا • وسوف ننتصر •



تحــدثا الى البنك ، وفى المــكتب الثـــانى كانت القيــادات كلهــا بانتظارهما : بازى ، والمدير ، وبينيولى ، ونائبه ، والقـــائم بأعمـــال الدعاية ، وكاستيليون الصارم •

عرضا مشكلتهم وخطورتها وأوضحا الضرورة الملحة للعثور على حل عاجل • وقد أبانا عن كل ذلك فى قلق •

أصغوا اليهما بتعاطف واهتمـــام • ولكن الاثنين الأولين أبديا تشاؤمهما من ايجاد حل •

ماذا بامكانهما أن يفعلا ؟ لقد حاولا الضغط على البنك الزراعى ، وبلغ بهما الأمر ان اشتركا فى مختلف المناقشات التى جرت مع كبــار ممثليه الذين حضروا خصيصا من أثينا ، فانتحل البنك على الدوام شتى الأعذار • بل وكتبا الى القيادة العليا للجيش طالبين الضغط على كل من بيده بالحكومة التى تحركها سلطات الاحتلال أو البنوك فى هذا المقــام نفوذ كى يقدموا العون • كل هذا صنعوه ، فماذا كان بالامكان فعله أكثر من ذلك ؟ لم يكن من حقهم أن يصدروا الأوامر •

ولكن الايطاليين قالوا لهم فى لحظة من لحظات المناقشة :

ـ ولماذا كل هذه الصعوبات ما دام بين أيديكم بنك يخصكم ؟

وشرحا الأمر قائلين ان أكبر المساهمين فى البنك هو أحد أعمام نيكيتا كوليتيس ، وقصا كل ما حدث فى زيارة نيكيتا للبنك · وكى يدللا على مبلغ تعصبه ضدهم سردا ايضا ما حدث لروبوتيكا ، مصورين الامور بما هو فى صف زميلهما ·

طلب كاستيليون الكلمة · ثم قال :

ـ يجب أن نهتم بهذا السيد ونتصرف معه بأسرع وقت · ولكن بالنسبة للمال اللازم ، أعتقد ياسيدى الكولونيل ، انه يجب علينا أن ندبره · ان الاتحاد الرومانى ابننا . بل وابننا الحبيب الغالى · وانها لهيبته التى تتعرض للخطر الآن · ويجب أن نجد المال ·

سأل بازى :

ـ انى أوافقك ، ولكن كيف ؟

ـ فليرسل الجيش الى أثينا أمرا موجها الى البنك المركزى أو الى البنك الزراعى · وعند الاقتضاء ليس علينا الا أن نعطى نحن أنفسنا الأوامر الى أى بنك فرعى هنا ·

ـ ولكننا لا نملك هذا الحق ، يا ضابطى العزيز · ليس من حقنا ذلك · اننا جيش احتلال جاء من بلد متحضر ، ونحترم بعض القواعد العامة · ان ايطاليا تهتم بسمعتها ·

ـ لو سمحتم لى ، ان ايطاليا التى تتدفق حيوية اليوم تهتم قبل كل شىء بتحقيق مشاريعها · وهنا ، يتعثر واحد من مشاريعها الكبيرة منذ خطواته الأولى · بسبب مبلغ لا يساوى شيئا على الاطلاق · هل سنترك الوطن اذن يضيع احتراما منا لبعض الشكليات التى لا قيمة لها ؟ لو تأذنون لى ، أود أن أطرح سؤالا : لنفرض ان الدوتشى أحيط علما بالمسألة ، هل سيترك هيبتنا تتبدد أو تتناقص ؟ ألن يصدر أوامره الى هؤلاء السكان الخاضعين لنا والذين يعارضوننا ؟ انه سوف يدق أعناقهم !

رفع بازى ذراعيه فى حركة تنم عن الموافقة ·

ـ آه ! الدوتشى بطاقاته وسلطاته قادر على كل شىء · انى أوافقك على ذلك ·

استطرد كاستيليون يقول ببرود :

ـ اذا كنا نعتقد ان هذا ما كان سيتخذه الدوتشي ، فلنتصرف اذن على هدى من ذلك · ولكن ثمة فكرة أخرى تراودني · اذا لم يكن أحد منا يجسر على أن يتصرف في اليونان كما يجب ، فلماذا لا يحاط الدوتشي نفسه علما بالمسألة ؟ ربما أرسل المال من روما ، وان كان في نظري من غير المنطقي أن نوزع ليراتنا الثمينة في حين بامكاننا أن ندبر هنا بضع درخمات بخسة ·

علق بينيولي على ذلك قائلا :

ـ سوف يكون لهذه الفكرة نتائجها ، ولا شك · ولكن أولا هل يستحق موضوع مثل هذا أن يشغل اهتمام الدوتشي ؟ وثانيا ، كيف يمكن أن نصعد المسألة اليه ؟

قال كاسيليون ببرود أيضا :

ـ على زعيمنا الكبير أن يشغل نفسه بكل ما يخدم المصائر التاريخية لايطاليا · أما بالنسبة لمعرفة كيف التوصل لتصعيد المسألة اليه ···

فكر لحظة ثم استطرد يقول :

ـ من المؤسف ان الوقت سيكون جد متأخر عندما أسافر من أجل زواجي ·

وبلهجة أكثر حيوية قال :

ـ اذا حازت الفكرة على موافقتكم ، فبامكاني أن أكتب الى أبي كي يحدثه عنها ·

وافقوا على ذلك · وتأهب الضيفان للانصراف · فاستبقاهما كاستيليون قائلا :

ـ ابقيا قليلا · يجب أن نتحدث بشأن ذلك الاقطاعي المتعصب ، السيد كوليتيس ·

صوره زعيما الاتحاد أسوأ تصوير ، ولطخا صورته بأبشع الألوان· وقال نيقوس مانوسيس :

ـ لا يجب أن أخفي عليك · انه ولد في نفوس أتباع الاتحاد سخطا بالغا ، ولن يدهشني أن يصاب بين ليلة وأخرى بأذى كبير ·

قال بازي بلهجة صارمة :

ـ هذا ، لن أسمح به أبدا · عليكم أن تحظروا ذلك ·

سارع مانوسيس يقول :

ــ ولكن وحق السموات ، لا يتعلق الأمر بشيء تريده ٠ اننا نخشى ان يقدم عليه رجالنا على غير علم منا ٠

استطرد الكولونيل الايطالى باللهجة الصارمة ذاتها :

ــ يجب أن تتحاشوا ذلك ٠ سوف أضطر الى اجراء تحقيق وتوقيع العقاب ٠ كما ان ذلك سيسبب لنا ولكم متاعب ٠ ان السيد كوليتيس يحظى بهيبة كبيرة ٠

ابتسم نيقوس ٠

ــ انه يعرف خمسة عشر شخصا أو على الأكثر عشرين ٠ ان اسم أسرته فحسب هو الذى يتمتع بالحظوة ٠

ــ لا يغير ذلك من الأمر شيئا ٠ هناك وسائل أخرى لاستئصال شوكته ٠ وسوف أستأمنكم على سر ٠ وانى لا أبوح بذلك الا اليكما كى تتأهبا لمساعدتنا ٠ لدينا معلومات مؤكدة بأن ثمة منظمات سرية مختلفة فى طريقها الى أن تتألف فى اليونان ٠ ويبدو ان احدى هذه المنظمات تسعى لاستمالة الضباط ومساعدى الضباط اليها ، بينما ثمة منظمة أخرى يذكى الحزب الشيوعى نشاطها وسوف نحبط الموضوع كله فى مرقده ٠ سنلجأ الى عمليات اعتقال ٠ وعندئذ لا تثريب علينا لو اعتقلنا المعارضين لكم ٠ اعطيانا بعض الأسماء فحسب ٠

خيم صمت قصـــير ، ثم تكلم مانوسيس ٠ أضاف الى موضوع المنظمات بعض المعلومات من نسج خياله كى يبدو مطلعا على مجريات الأمور ومهما ٠ وأشار الى ما اتخذاه محاولين كشف سرها ٠

ثم أردف يقول :

ــ لكننا لم نصل مع ذلك الى شيء ، وذلك للسرية المتناهية التى تتستر بها هذه المنظمات ، كما يبدو ان أعضاءها يتبعون أسلوبا متقنا فى التجسس ٠ ولهذا فان القبض على المشبوهين وحده هو الذى سيمكننا من القضاء عليها ٠ وفى كل الأحوال ، فلا بد ان كوليتيس عضو فى هذه المنظمة أو تلك ، فليس بالامكان أن يكون المرء متطرفا أكثر منه ٠ كما ان داره خارج المدينة أفضل مكان لعقد الاجتمـــاعات سرا ، واخفاء الأسلحة ٠ أعتقد انه يجب القبض عليه فى أسرع وقت ٠

وجه بازى كلامه الى بينيولى ، وسأل :

ـ هل أجرى أى تفتيش لدار هـذا الرجل ، ســـــواء بمعرفتنا أو بمعرفة الاتحاد ؟

ـ لم يجر أى تفتيش لداره بعد ٠

ـ اذن ، امتنعوا عن اجراء أى تفتيش أو تعقب ، ذلك ان المنطقة التى يسكنها جد منعزلة ٠ بحيث سيتنبه الى ما نريد وسيأخذ للأمر حذره ٠ ولكن ما ان يقبض عليه ، فتشوا المكان تفتيشا دقيقا ٠ واذا وجدتم أى شىء مهما صغر ، فسوف لا ترسلونه مع الآخرين الى ايطاليا، بل ستقدمونه فورا الى المجلس العسكرى ٠

التفت الى ديامانديس ومانوسيس ٠

ـ وفقا لما أدليتما به ، فقد حارب على الجبهة الألبانية ، وعلى خطوط النار الاولى ، ومنح وسام التقدير العسكرى ٠ ماذا تعرفون عن أفعاله فى الحرب ؟

كان نيقوس مانوسيس هو الذى أجاب هذه المرة أيضا ٠ قال ان نيكيتا لم يستدع للتجنيد فقد كان مريضا ، ولكنه على الرغم من ذلك تقدم متطوعا ، وحارب منذ الأيام الاولى فى الصفوف الأمامية ٠

ـ هل تعرفان فى أى قطاع بالجبهة ؟

ـ ليس على وجه التحديد ، ولكننى أعرف فحسب انه فى اليوم الأول لهجومكم فى مارس صمد وحده مدافعا بمدفع رشاش ثقيـل عن أحـد المواقع المفتـاحية ، هو الموقع ٧٣١ عنـد النتـوء على سفح تل موناستيرو ٠

وما ان سمع ضابطا القيادة العليا اسم التل الذى كان أكثر مواقع الجبهة الألبانية تخضبا بالدماء ، التفتا الى كاستيليون ٠

وفى اللحظة ذاتها نهض هذا الأخير بغتة وظل واقفا مادا ذراعيه مطبقا قبضتيه ٠ واكتسى وجهه بصرامة مدهشـــــة ٠ وصـارت نظرته الشرسة متوحشة ٠ تكلم ، وكلمـا أمعن فى الكلام اضـطربت الكلمات وتعثرت بين شدقيه ٠

قال :

ـ كلا ، لم تكن هناك المدافع الرشاشة فحسب ، بل كانت هناك بنادق رشاشة وبنادق عادية باعداد مذهلة ٠٠٠ وكان من المستحيل اسكاتها ! ومع ذلك ، ففى صبيحة اليوم الأول أسقطنا على الكيلو متر

الواحد مائة ألف قذيفة (١) • هذا ما قاله لى الجنرال جامبارا نفسه • وقد كانت بطولة جنودنا تفوق التصديق ••• وحماسهم أمرا خرافيا ••• كان الدوتشى قد تفقد صفوفنا فى اليوم السابق • وفى تلك اللحظة كان شاهد عيان يتابع المعركة ••• وبالرغم من كل ذلك لم تفلح قواتنا قط ، وتوقفت عند الأمتار الأولى للمنحدر وامتلأ الاخدود عند سفح التل بجثث القتلى من أبناء ايطاليا • مسجاة هناك ممددة الى الأبد ••• وفى اليوم السابع للمعركة على ذلك المنحدر الوعر المغطى بالصخور المدببة ، لم يعد يرى من أحجار التل قدر ما يرى من الجثث المتراكمة على سطحه • أواه ، ياله من منظر مريع ! انى استعيد ذلك المشهد البشع ! استعيده بذكراتى !

نظر اليه الجميع نظرات مذهولة عطوف • وقال له بازى :

ـ اهدأ أيها الضابط ! فانك على كل حال كنت الوحيد الذى رشح منذ اليوم الأول للحصول على وسام بأمر من الدوتشى شخصيا •

خر كاستيليون فى كرسيه منهدا ، كما لو كان قد نال منه التعب، أو كما لو كان قد داخله بعض الراحة بعد ما قاله • على انه ما لبث ان عاد الى الكلام بهدوء انقلب الى انفعال بعد ذلك •

قـــال :

ـ أجل ، كنت بصحبة جامبـارا • وفى أخريات المســاء تناول الدوتشى بعض الطعام ، وحيدا مستغرقا فى التفكير عندما اقترب منه قائد الطيران فرانشيسكو بريكولو ليخبره بأن التقارير كلها طيبة •

قال له موسولينى مكتئبا دون أن ينظر اليه « فشل الهجوم • لقد كنت فى سلاح المشاة ، وأعرف ان الهجوم الذى لا يبلغ أهدافـه فى الساعات الثلاث أو الأربع الأولى لا يمكن أن ينجح » (٢) • وقد كنت أنا على مقربة منه • وسمعته • ودون أدنى تفكير تقدمت اليه • **ووقفت امامه وقفة انتباه وقلت :**

ـ بعد لحظات ، سيبدأ سلاح المدفعية فى التهيئة لهجمة أخـرى • معى فرقة القيادة ، لو سمحتم أصدروا أمركم الى وسيمكننى أن أقوم بالهجوم • وسأبلغ قمة التل • انى أعدكم بذلك ، أيهـا الدوتشى !

---

(١) هذا صحيح ومستمد من وثائق ايطالية •

(٢) هذه المعلومة مستقاة من وثائق ايطالية •

« وقمنا بالهجوم ··· ووصلنا الى منتصف السفح ··· الى منتصفه فحسب ··· وكان هذا كثيرا ···

« ومن كل الفرقة كنت الوحيد الذى لم تصبنى رصاصة يونانية · أما جنود ، اخوتى ، فقد كانوا من حولى غارقين فى دمائهم ·· جميعا ! »·

نهض من جديد ، وصاح غير قادر على تمالك نفسه :

ـ كيف كانوا يطلقون علينا النيران ؟ ··· كيف ؟ ··· كان التل بأسره غارقا تحت وابل من قذائفنا · لم يعد سوى حفنة من التراب ، ونحن هناك بداخله ندك جحورهم بعنف وجسارة ! ·· كيف كانوا يطلقون علينا النيران ؟ من كان أولئك الذين يصوبون فوهاتهم الينا ؟ لا بد ان الجرحى كانوا ينهضون ويطلقون ، والرجال الذين تمزقت أشلاؤهم قبل ان يلفظوا أنفاسهم · بل وربما الموتى أيضا ··· أيضا ، الموتى ، لا شك فى ذلك ، كانوا يطلقون علينا النيران ! ···

لم يكن بالامكان ان يقال ما اذا كانت القطرات التى تسيل على وجهه دموعا أو عرقا ·

كما لم يكن بالامكان القطع بما اذا كان عن خجل أو عن غضب انه استدار فجأة وخرج بخطوات سريعة وهو يدق بكعبيه الأرض بشدة ·

١٣

كان ينتظرهم فى فتيليونا على مضض · فقد كان هذا الاجتماع لا يروق له ·

أول الأمر ، نظر الى الاقتراح بنوع من الاهتمام ، لكنه ما لبث أن أدرك أن الأمر لم يكن على ما بدا له فى البداية ·

كان هذا الاجتماع يخفى شيئا ، ومن بعض الدلائل نفر منه ·

فى مطلع شهر ابريل ، أثناء شرائه لبعض أدوات الحقل من متجر افغوستوس كالاريس قال له هذا الأخير :

ـ بالنسبة لك يا من حاربت على الجبهة وتتزعم الآن اتجاها معارضا للحركة الانفصالية هناك منظمة سرية يجب ان تنتمى الى عضويتها ·

أى منظمة سرية ؟

ـ منظمة من منظمات التحرير ·

ضحــك ·

ـ بلا دعم ، معزولين عن سائر الدنيـا ، كيف يمكننـا أن نحرر الوطن ؟ ماذا بامكاننا ان نفعل ؟ الآن ، ونحن نموت جوعا ، يبدو لى ان واجبنا هو ان نزرع أقصى ما باستطاعتنا زراعته من الأرض ، حتى يجد الجوعى ما يقتاتون به ·

لم يكن قد قال الحقيقة كلها ·

من أثينا بعث عمه اليه يخبره دون ان يذكر التفاصيل بأن يكون على أهبة الاستعداد لمساعدة منظمة من العسكريين · أعطاه توجيهـات وطلب منه ان يجمع فى أكبر سرية ممكنة ، أسلحة ومؤنا ، كى يهبرا ثائرين فى وجه المحتل ما ان ينزل الحلفاء جيوشهم على سواحل اليونان ·

لكنه أوصاه بأن يتوخى السرية التامة وان يتفادى كل تصرف متسرع وغير مجد ، وذلك لتفادى وقوع محن جديدة بالأهالى ، ويكفيهم انهم الآن على شفا الهلاك جوعا ·

ومع ذلك الح عليه افغوستوس كالاريس قائلا :

ـ زراعة الأرض واجب ، ولكن الحرب مستمرة ويجب علينا أيضا ان نسهم فيها ·

ـ وكيف نسهم فيها ؟

ـ هناك وسيلة ·

ـ ما هى ؟

ـ هل يعنيك ان تعرف ؟

ـ بالطبع يعنينى ·

ـ سوف أستأمنك على سر كبير · هل تعدنى بشرفك الا تبوح به . مهما حدث ؟

وهكذا جـاء الى فتيليونا فى اليوم التالى كالاريس بصحبة شخص مجهول انتحل لنفسه اسم كيسافيتيس ·

لم يرق لنيكيتا هذا الرجل ، ولكنه أصغى اليه باهتمام ·

قال له الرجل ان ثمة منظمة على مستوى اليونان كلها · انشئت باسم الجبهة الوطنية للتحرير · مركزها الرئيسى فى أثينا ، ولكن كل منطقة ، وكل مدينة ، بل وكل قرية سوف يكون لها رياستها المحلية · وسنضم

أعضاء · وهدف المنظمة ان ترفع الروح المعنوية ، وتمد يد العون الى الوطنيين ، وتنظم جماعات للجهاد وجيشا سيسدد هجماته الى المحتلين ، ويجرى عمليات تخريب آينما أمكن ذلك ·

علق كوليتيس على هذا الكلام قائلا :

ـ أهداف جسيمة وصعبة البلوغ · كيف يمكنكم ان تتحاشوا ان يعلم الألمان والايطاليون بأمركم ؟

تناقشوا ردحا من الوقت ، وقدما له بعض المعلومات ·

وفى لحظة معينة قال كيسافيتيس :

ـ ونعتبر الرياسة المحلية لمنظمتنا الوطنية انضمامك اليها أمرا مجديا · وقد أرسلت اليك لتقبل · وستشغل فى المنظمة منصبا هاما ·

بدا على نيكيتا بعض التردد ، ثم طلب ان يدرس نظامهم الأساسى ·

أبدى الآخر دهشته · لم يكن يعرف ما اذا كان لمثل هذا النظام وجود · كما لم يسمع كالاريس بدوره من قبل شيئا بهذا الخصوص · لقد طلب منهما بعض الأصدقاء الانضمام ، فانضما ما دام الأمر يتعلق بالنضال من أجل الحرية ·

أصر نيكيتا على طلبه ، فلا يمكن الا يكون لمنظمة على مستوى اليونان كلها حددت لنفسها أهدافا على هذا القدر من الأهمية نظام أساسى ، واذا لم يضمن له دراسته فلا احتمال لانضمامه ·

ومن ثم قال له كيسافيتيس بلهجة ازدادت فتورا :

ـ سأنقل رغبتك هذه الى رؤسائى · سوف يبدو لهم هذا الشرط الذى تطرحه غريبا ، فلم يطلب هذا الطلب قبلك أحد ممن توجهنا اليهم نسألهم الانضمام · ولكننا سوف نرى · ربما قبلوا لأنهم يعولون عليك كثيرا ·

وبعد ان تفحصه طويلا ، استطرد يقول :

ـ يعولون عليك كثيرا من أجل السلاح وأماكن الاختباء ·

أحس نيكيتا بالبرودة تسرى فى ظهره ، وفكر فى موديستوس والدير · ومع ذلك فقد ابتسم :

ـ لو كانوا يعولون على انضمامى لأنهم يتوقعون منى أشياء مثل هذه ، فانهم يخطئون · ولكن اذا كانت فتيليونا مكانا طيبا للاختباء ، ربما أمكن التفاهم على هذا ، أما عن السلاح فليس لدى قطعة واحدة منه تحت تصرفى ·

قال ذلك ضاحكا ، ولكن الآخر أضاف بلهجة حادة :

ـ لو أصبحت واحدا من أعضائنا الأمناء ، فانني أعتقد انك ستعثر لنا على كثير من الأسلحة والمخابىء ٠

لم ترق له هذه الاقتراحات ٠ ولدت فيه الشكوك ٠ وقد ازدادت لديه هذه الشكوك عندما جاءت فروسو لمقابلته بعد انصراف الرجلين وقد استبد بها القلق ٠

ـ فيما كان يريد انك ؟ هل تعرفهما ؟ ٠

اما هى فقد كانت تعرفهما ٠ كان كيسافيتيس أحد المتطرفين من رفاق نوتيس ، ولكن أدنى منه درجة ٠

ـ خذ حذرك ، أتوسل اليك ٠ ربما كان لهم مثل أعلى ، وقد تكون لايديولوجيتهم بعض الجمال ، ولكنهم رجال قساة ، ولا يتراجعون أمام أى اعتبار ٠ يضحون بكل شيء من أجل بلوغ هدفهم ٠

أدهشه الانفعال الذى تتحدث به ٠ أكان ذلك من مرارة حبهـا الأول الذى ضاع ، أم كان ٠٠٠

لم يرد ان يستطرد فى الاستقصاء أبعد من ذلك ٠

ولكنهما تساءلا معا عن أمر آخر هو تلك التاميحات المستترة بشأن السلاح والمخابىء ٠ ورأيا ان من المناسب ابلاغ موديستوس بالأمر ٠

وكى لا يثير فيهما الظنون لو رأياه يبادر بالتوجه الى الدير ، قررا أن تذهب فروسو ٠ ستحمل معها قنينة صغيرة من الزيت بحجـة ملء قناديل القديس ايليا ايفاء لنذر قطعته على نفسها ٠

ثم عادت فروسو تحمل أخبارا مثيرة للقلق ٠

ذهب لمقابلة رئيس الرهبان رجل مجهول بصحبة محام تربطـه بموديستوس معرفة قديمة ٠ وطلب منه ذلك المجهول أن يمده بأسلحة من أجل منظمة ثورية ٠ تظاهر موديستوس بأنه لا يعرف شيئا ، ولكن الرجل المجهول ألح وأصر ، بل ولوح له مهددا ، اذ قال له ان يفكر جيدا قبل ان يفوت الأوان ٠

قال رجل الدين العجوز للمرأة الشابة :

ـ ان ما هو خطير هو انهم ربما سمعوا عن الأسلحة من الجنود الذين سلمونى اياها ٠ أما عن مخبئها فمن المستحيل ان يعرفوا عنه شيئا ، ولكن من الممكن ان تساورهم الظنون فى وجوده ٠٠٠

وأضاف شيئا مزعجا للغاية فقد قال :

ــ يعتقد أحد الرهبان انه تعرف على هذا الرجل · ويقول ان واحدا من الرجلين هو من أولئك الذين يروحون ويجيئون محومين بلا انقطاع حول الدير ، بينما يؤكد ان الآخر الذى كان بصحبته هو نوتيس·

بدأت المسألة تتخذ مظاهر سيئة · وعلى مضض أخذ نيكيتا النظام التأسيسى للمنظمة الوطنية للتحرير الذى ناوله اياه كالاريس ذات يوم فى متجره ·

وفى ذلك الصباح كان بانتظارهم فى الساعة التى حددوها · كان بانتظار أفغوستوس ، وكيسيافيتيس وواحد من القيادة العليا لاحدى المدن الكبرى جاء خصيصا لهذه المقابلة » ·

كان هذا الأخير ذا سحنة غريبة · وجه جاف · نافر العظام ، طاغى الجبهة ، وعينان وذقن تنبىء كلها عن العناد · كان من الصعب أن يقال من أول وهلة ما اذا كان جذابا أو منفرا · كان بالامكان اعتباره رجلا وسيما ملفتا للأنظار لأنه كان يبدو ذكيا ومفعما بالحيوية · ولكنه أيضا كان رجلا يبعث الرعب فى القلوب ، لأنه يبدو صعب المراس مثل الصلب ·

ما ان دخلوا الحجرة الوحيدة بالمنزل التى جرى اصلاحها بخلاف حجرة النوم ، وكان نيكيتا قد أعد هذه الحجرة الوحيدة على ان تكون غرفة طعام واستقبال معا · ــ ما ان دخلوا تلك الحجرة حتى أجال الرجل المجهول من حوله نظرة متفحصة · وقال :

ــ تحف بديعة ، ولوحات جميلة ·

علق نيكيتا على قوله :

ــ انها كل ما أمكن انقاذه من البيت القديم ·

لم يقل الغريب شيئا ، ولكنه نظر اليه باصرار كما لو كان يريد أن يقول ان ملابس الفلاحين التى يرتديها لا تتفق مع هذا الرياش الاقطاعى ·

وما ان جلسوا حتى قال الغريب :

ــ انك لا تعرفنى ، ولا حتى تعرف اسمى · أحضر اليك افغوستوس اول الأمر كيسافيتيس ، وها هو الآن يحضرنى أنا اليك ، لأننا نريد ان نستأجر جزءا من فتيليونا · نريد ان نزرع · طلبت منا ايجارا يساوى ٤٠٪ من المحصول · عرضنا عليك ٢٠٪ ووصلنا الى ٢٥٪ هذا ما سنقوله

مثلا اذا جاء الايطاليون يسألوننا ، أما ما عدا ذلك فهذا شأننا نحن . والآن بالنسبة لمقتضيات التحادث سوف يكون اسمى فوليوتيس . انك مدين لنا بورقة وباجابة :

أخرج نيكيتا ورقة من جيبه وأعطاها له . قال :

ـ مضمونها أعجبنى بصفة عامة . وهى مكتوبة بعناية . ولكن هناك بعض النقاط التى تدهشنى . وهناك نقطة على الأخص جعلت البرودة تسرى فى ظهرى .

ـ سيأتى النقد فى المقام الثانى . هل ستتبعنا ؟ .

ـ أعتقد اننى لن أفعل .

سأله فوليوتيس ساخرا :

ـ لست متأكدا مما اذا كنت قد فهمتك . هل تعنى « أعتقد » هذه « ربما » أم انها من أساليب اللغة الفرنسية وتعنى رفضا مهذبا ؟.

ـ انها لا تعنى « ربما » ، وانما تعنى اننى أرفض . واذا كانت « أعتقد » هذه تضايقك فاننى اسحبها وأكتفى بأن أقول « كلا » ، بكل بساطة « كلا » .

أسقط فى يد فوليوتيس ، وأشاح بوجهه .

هل هو يتعامل مع رجل غريب الأطوار ؟ أليس ارستقراطيا متنكرا ، كما قال له أحد الأصدقاء ممن يعرفون فتيليونا ؟

ـ الى اليوم لم ير أحد فى لاريسا نظامنا الأساسى . انك الوحيد الذى تعرفه ، وبالرغم من ذلك لا تريد ان تصبح عضوا بالمنظمة . ان هذا أمر غير طبيعى وخطير .

ـ انه أمر غير طبيعى حقا لأنه كان الأصح ان يعرف أعضاء منظمتكم جميعا نظامها الأساسى . أما انه خطير فليس ذلك صحيحا .

ـ فلنتجنب مناقشة هذا الأمر . اننى أسجل فحسب . أما الآن فلنر ما هو جوهرى : لماذا لا تتبعنا ؟ أبسبب النظام الأساسى ؟ أم لأسباب أخرى أيضا ؟ .

لم يسارع نيكيتا بالاجابة . وقد بدا هذا النحو من توجيه الأسئلة غير مستحب . وأيضا لم ترقه لهجة الرقيب التى اتخذها هذا الغريب . قال :

ـ معذرة • ولكن يبدو لى انك تسألنى كما لو كنت ملزما بأن اجيب ، أو كما لو كنت متهما •

أخرج نيكيتا ورقة من جيبه وأعطاها له • قال :

ـ حدث ان نجحت فى خلط بعض الحبوب المحمصة وهى تتضمن ١٠٪ من البن • هل تريدون ان أعد لكم قدحا ؟ •

رفضوا عرضه •

ـ ولكن مذاق قهوتى لذيذ • وانتم محظوظون أيضا اذ عندى سجائر أيضا •

قال فوليوتيس :

ـ اننا لم نحضر هنا كى نشرب القهوة وندخن السجائر •• لقد جئنا •••

توقف لأن ثمة رجلا عجوزا ظهر عند الباب • **صاح فيه نيكيتا :**

ـ تعال فيما بعد ، يا ريامو •

ـ الأمر عاجل •

ـ فيما بعد ، يا ريامو •

ـ حدث شيء لبيجاسوس •

أستأذنهم بكلمة مقتضبة ، وخرج مهرولا الى الحظيرة •

كان الجواد الرمادى واقفا ، وعند دخوله دق الأرض بساقه الأمامية اليمنى وراح يصهل صهيلا خافتا والى جواره وقفت فروسو ، وقد ارتسمت امارات الجزع على وجهها •

قـــال :

ـ هل جننت ؟ الجواد بأحسن حال •

قالت بصوت مرتعد :

ـ نيكيتا ، نيكيتا ، فى أى هوة ستلقى بنفسك ؟

ـ ماذا تريدين ان تقولى ؟

ـ رأيتهما يصلان • هل تعرف من عندك ؟

ـ كلا • أحدهما لا أعرفه على الاطلاق •

ذكرت فروسو اسما لم يكن يعنى بالنسبة له شيئا ، **ثم مضت تقول :**

ـ كان يرأس نوتيس • وربما كان الآن على رأس الحزب • انه على غاية من الذكاء ، لكنه وحش مفترس ؟.

ظل لحظة يفكر •

ـ شككت في الأمر • انه محنك قاس •

ـ الى أين ستلقى بنفسك ؟ الى أين ؟ لماذا ؟ •

رأى المعاناة في عينيها • وخيل اليه انه يرى المحبة أيضا • ارتبك • ورق صوته •

ـ لا تخشى شيئا • لن أترك نفسي تنقاد لهم •

انكبت على الكلام بسرعة ، لاهثة ، كما لو كان ثمة ما يقطع أنفاسها • ويتعجل الخروج باندفاع كي يتسع لها الوقت الضيق لتقول كل شيء •

قالت :

ـ حذار من الاتصال باناس مثل هؤلاء • انه في حد ذاته ترد من نوع ما • انك لا تعرف أي صنف من الناس هؤلاء • بالنسبة لهم لا وجود لصداقة أو حب أو انسانية • الا اذا كانت تتواءم مع هدفهم ، فليس لغير الهدف اعتبار وكل شيء بعد ذلك يتلاشى أمام الغاية ! •••• كل شيء يتلاشى حقا ، وليس ذلك مجرد تلاعب بالألفاظ ، كما لو كانوا قد أحلوا محل القلب والعقل قطعة من الرخام •

أخذ يديها بين يديه • كانتا دافئتين ومرتعشتين • أحس بضغطة حارة في راحة يده ، تحت أصابعه ، وسرى في كيانه احساس منسى •

ـ احترس لنفسك يا نيكيتا • احترس لنفسك • أصغ الى ما أقوله لك • لا تجعل هذه الزيارة تسبب لك الشقاء • أتوسل اليك ، احترس •

عندما عاد وجدهم جالسين في أماكنهم حول المائدة • **جلس بدوره وقال :**

ـ أرجو المعذرة • هذا الجواد هو جوادنا المفضل ، الذى نفخر به •

قال فوليوتيس وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ وكانت تفخر به المدرسة التي سرق منها أثناء غارة جوية وقعت عليها • انى أكمل حديثي : اننا لم نأت الى هنا لا من أجل الجياد ولا من أجل القهوة أو السجائر • جئنا نعالج مسألة على غاية من الأهمية • وبالنسبة لملاحظتك الأخيرة التى أدليت بها ، يمكنني ان أقول انك غير

ملزم بطبيعة الحال ان تجيب على أسئلتي · ولكنني أنا ما دمت أوجه خطابي الى وطني مثلك وأطلب منه أن يمنحنا عونه في أمر على قدر كبير من الجدوى ، يجب على أن أجتهد لاقناعه · ولذلك فاني أوجه أسئلة · هل ترفض المناقشة حتى بعد هذا الايضاح ؟ ·

رقت اللهجة ، وأصبح النحو الذى تعرض به المشكلة منطقيا · ولم يكن ثمة مبرر للامتناع عن المناقشة ·

ــ كلا ، بهذا النحو ، لا أرفضها ·

ــ ما هي النقطة التى صادفتها في نظامنا الأساسي التى جعلت البرودة تسرى في عظامك ؟ ربما أمكنني ان أشرحها لك ·

ــ تقولون انه عندما تتحرر البلاد ، فان الجيش الذى سوف تشكلونه الى ذلك الحين والذى سيكون قد حارب الاعداء ، ذلك الجيش سوف يتولى السلطة بغية حمايتها من الاستغلال ·

ــ هذا أمر طبيعي جدا · ما وجه الغرابة في ذلك ؟ ·

ــ ومن الذى سيكفل للسلطة ألا تتعرض للاستغلال من جانبكم ؟ ·

بدت الدهشة حقا على فوليوتيس · وقال :

ــ انني لا أفهم · سوف نكون نحن الشعب ·

ــ قد يحدث ان تتألف منظمات ثورية أخرى وتقول انها تمثل الشعب بدورها ·

ــ لا يمكن ان يحدث ذلك · نحن وحدنا الذين نتمتع بقاعدة جماهيرية عريضة ·

ــ ليس من المستبعد ان يدعى الآخرون ذلك أيضا ·

ــ أجل ، قد يدعون ذلك · ولكن فرقا بين الادعاء والحقيقة · الى منظمتنا انضمت كتل جماهيرية ضخمة ·

ــ على أى حال ، اذا تمسكت منظمات أخرى بادعاءاتكم ذاتها فسيصل الأمر الى قيام صراع بينكم وبينها ·

ــ ربما · ولكن يجب تفادى ذلك ·

ــ وفضلا عن ذلك فهناك القوى التى بالخارج وعلى رأسها الملك ·

ارتسمت ابتسامة باردة على شفتي فوليوتيس وقال :

ــ الملك ، ميتاكساس ، الدكتاتورية ·· فلنكف عن الحديث عن هذه الزمرة · ولكن فلنقل على أى حال كلمة موجزة عن القوى التى

بالخارج • هؤلاء القوم غادروا البلاد ، ولم يبقوا ليعيشوا مجاعة الوطن وعبوديته وثورته • فلماذا اذن سيكون لهم الحق فى ان يتقلدوا السلطة فى هذا الوطن الذى هجروه ، بينما سيكون فى هذا الوطن ذاته منظمة من الشعب كله ، وتضم آلاف الأعضاء ، جاهدت لتحريره ؟ •

— ان الوطن لن يتحرر وحده • بل سيتحقق خلاصه عبر الجهاد العام الذى تشارك فيه هذه اللحظة ذاتها القوى اليونانية بالخارج •

— دون معاناة للجوع ، ودون اشتراك فى معركة •

أحس نيكيتا بالحيرة لحظة :

— دون اشتراك فى معركة ! هناك سفن طوربيد ، وطائرات • وجيش بأسره يناضل ، ثم تقول ألا أحد يشترك فى معركة ؟ •

— اسمع يا كوليتيس • قبل كل شىء ، وهذا أهم ما فى الأمر ، ليس لهؤلاء القاعدة الشعبية التى لنا • ثم بعد ذلك ، انه جيش صغير جدا • ولا يتألف الا من جنود وضباط يشغلون وظائف • ومثل هؤلاء الموظفين لا يحاربون بل يوقعون معاهدات الصلح • لقد رأينا ذلك على الجبهة الألبانية •

لقد سمع هذه الخرافة من قبل ، وقرأها أكثر من مرة ، **وكان على الدوام ساخطا لما يقرأ ويسمع • سأله :**

— فى أى قطاع ، فى أى وحدة ، كنت على الجبهة الألبانية ؟ •

تلعثم الآخر لحظة ، ولكنه لم يتأخر فى ان يجيب بحماس :

— ان الدكتاتورية غير الشرعية لم تعطن الفرصة كى أحارب • لقد عدت من الخارج فى صيف عام ١٩٤٠ واعتقلت توا • كنت بالسجن آنذاك •

قال نيكيتا وقد دبت فى صوته حرارة جديدة :

— أما أنا فقد كنت على الجبهة • ومن وحدتى لم يبق فى النهاية ضابط واحد على قيد الحياة لا من الضباط العاملين ولا من ضباط الاحتياط • وكان مساعدو الضباط هم الذين انتقلت اليهم القيادة • اسمع يا فوليوتيس • رأيت على الجبهة منشورات تقول لنا ان نلقى بأسلحتنا وان نتصالح مع الايطاليين لأننا فى حماية روسيا التى كانت آنذاك على علاقات طيبة مع المحور • قرأت منشورات شائنة من هذا القبيل • ولكن أهم ما فى الأمر هو ما تعلق بالضباط العاملين •

— ومع ذلك فهم الذى هادنوا الايطاليين •

ـ لست على الاطلاق متفقا مع أولئك الذين هادنوا . ولكنهم ان كانوا قد فعلوا ذلك فهو ما كانت تطلبه بياناتكم من الجميع وفي أسرع وقت ، بينما كنا نحن المنتصرين . ولكن الضباط وقعوا الصلح بعد ان حاربوا وعندما حوصروا من كل الجهـــات . وقد حاربوا لأن الوطن طالب بذلك ولم يكن بناء على طلب أى شخص أجنبى . انى أوجه اليك انت السؤال : هل كنتم ستطالبوننا اليوم بأن ننهض من عثرتنـا ، ونحارب ، وان ندفع أفظع التضحيات ثمنا لذلك ، لو ظل اتفـاق ريبنتروب ـ مولوتوف ساريا ؟ هل كنتم ستتحالفون معنـا لو لم تكن روسيا الآن فى حرب مع المحور ؟ .

كان منفعلا ، ويتكلم باندفع وتأجج . تحاشى الغريب الهجوم ، وبدا عليه التراجع ، ولكنه ما لبث ان قال بحزم :

ـ بامكانى ان أقول لك الكثير ردا على أسئلتك ، ولكننى لم أحضر هنا كى نتشاجر على جزئيات من الماضى . اننى جئت كى نتفاهم عـلى خطوط المستقبل العريضة . نريدك ان تكون رفيقنا فى الكفاح . نحن نبذل جهودا ضخمة كى نضمك الينا . لقد أطلعت على وثيقة لا يعرفهـا سـوى قلة من الناس ، ومع ذلك فانك لا تتوقف الا عند مادة واحدة فحسب من هذه الوثيقة وهى فى جوهرها تحتاج الى شرح . ولا يبدو لى ذلك كافيا كى ترفض اليوم وغدا وبعد غد الكفاح مع كل الشعب من أجل تحرير الوطن المحتل من الغزاة المغتصبين . هل لديك سبب آخر يجعلك لا تريد ان تنضم الينا ؟

فكر نيكيتا برهة ثم أجاب :

ـ ربمـــا .

ـ هل تسمح لى ان أعرفه ، لو كان بامكانى ان أعطيـك اجابة مقنعة ؟ .

رق صوته ، وصار يتحدث بأدب . كان من الصعب على نيكيتا ان يبتر الحديث وينهيه . **وسأل :**

ـ ما مكانة الحزب الشيوعى فى الحركة الوطنية للتحرير ؟ .

قال فوليوتيس :

ـ كنت متأكدا من انك ستوجه سؤالا من هـذا القبيل . وانى أجيبك . انه المكان الذى يشغله أى رفيق فى الكفاح مع هذا الفارق : كى يتحقق هذا السعى الشعبى الضخم ، ويكتب له النجاح ، فقد صممنا

على ان ننحى جانبا ايديولوجيتنا · ان الكفاح ، ومساعدة الحلفاء ، من أجل التحرير فى المقام الأول · وثمة دلائل عديدة على صدق ما صممنا عليه · ان الذى يحتل المقام الأول الآن ويجب ان يكون مسعانا جميعا هو تحرير الوطن · وانك تلاحظ بنفسك الجهد الذى نبذله كى نضم الى حركة الجهاد وطنيين من أمثالك · علينا ان نحارب معركة مشتركة · يضع فيها ستالين وهو اشتراكى ثورى يده فى يد تشرشل الامبريالى ويد روزفلت البلوتوقراطى · ما الذى يمنعك انت من ان تتعاون معنا مؤقتنا ؟ ما الذى تنتظر بينما يتعلق الأمر بحرية الوطن ؟ ·

قال افغوستوس كالاريس متحمسا :

ـ انه على حق · يجب أن نتحد جميعا ، وعلى الأخص الشباب · يجب عليك ان تأتى معنا ، يا سيد كوليتيس · ليس هناك الآن سوى يونانيين ومعركة من أجل التحرير ·

لم يجب نيكيتا · ولم يكن يعرف ما الذى أثر فيه أكثر من غيره : **أهى شعلة الوطنية الطاهرة المقدسة المتأججة فى قلب الشاب ، أم انها الحجج الأيديولوجية الضارية المدعمة فى مجموعها بأسس قوية ؟ ·**

أحس بالحيرة ·

لكنه لم يجد من الوقت متسعا كى يتأمل شكوكه ، ذلك ان ثمة شيئا آخر جذب انتباهه ، فقد سمع فوليوتيس يقول لكالاريس :

ـ أيها الرفيق · ان تصورك للانضمام الى المنظمة صحيح · ولكن لى تحفظا على قولك · لا اعتراض للمنظمة على كون الشيوعية لا تلقى تأييدك · انه حقك · ولكن أنا ، أود ان أعرف لماذا لا تلقى الشيوعية تأييدك ·

تردد الآخر · وجد صعوبات فى الرد · انتهز فوليوتيس الفرصة كى يجيب بنفسه :

ـ هكذا · بلاترو ، ولا لسبب ·

قال الآخر بلهجة منفعلة وباندفاع ، كما لو كان مضطرا الى ذلك ، أو كما لو كان يطرح حججا لم يعد نفسه لها :

ـ انها تلغى الملكية · واذا لم يمتلك المرء شيئا ، ولم يهتم بتنمية ما يمتلك ، فمن غير الممكن ان يتحقق تقدم ، ولن يجرى تداول للأموال ·

أما فوليوتيس فلم يكن بحاجة لأن يحضر اجابته · فقد كانت حججه جاهزة · وتكلم بثقة :

ـ انك تحب ما هو أس لكل بلاء • ان الملكية الخاصة والرغبة فى تنميتها هما ما يجعلان الانسان شريرا ازاء رفاقه • ولن يصبح صالحا الا اذا الغيت الملكية •

أصر كالاريس قائلا :

ـ الملكية غريزة فى الانسان •

ـ ليس للملكية أى علاقة بالغريزة • لقد فرضها فى البداية عدد صغير من الأقوياء على عدد كبير من الضعفاء ، ولكن الشر تأصل ، وتفاقم ، وعم الدنيا كلها ، وأضحى سبب الخلافات والمحن كلها •

غير متأكد من رده ، وبغير اللهجة الواثقة التى تكلم بها الآخر ، اجتهد التاجر القروى الصغير ان يقاوم • **فقال :**

ـ وحتى بدون ملكية ، فان من ستكون له السلطة أو حتى سيشغل وظيفة ما سيحيا أفضل مائة مرة من الضعيف •

ـ كلا ، لأننا سنوجد الانسان الصالح •

ـ هل ستجعلون منه قديسا ؟ •

اجاب فوليوتيس بيقين :

ـ أجل ، سنجعل منه قديسا •

شارك نيكيتا فى النقاش وقال ببساطة :

ـ فى مجتمع من القديسيين ، ستعمل النظم الاجتماعية كلها على أكمل وجه • ولكن بالنسبة لمجتمع من البشر ، يجب علينا ان نعرف أى النظم أنسب لهم من الناحية العملية •

اجابه فوليوتيس بتهكم :

ـ انت ، بكل الاقطاعيات التى تملكها من الطبيعى الا نلقى تأييدك ، نحن الذين سنلغى الملكية الخاصة •

قال نيكيتا بصوت وقور :

ـ انك على خطأ • ان الذى يقززنى أكثر من أى شىء انكم تلغون حرية الفكر ، وحرية القول وحرية عمل ما نريد •

ــ اننا لا نلغيها ، كل ما هنالك ان الشعب من أجل خير الجميع يخضعها لبعض القواعد ٠

ــ من هو الشعب ؟ أو بعبارة أدق من الذى يمثل الشعب كى يكون له مثل هذه الحقوق ؟ ٠

ــ لا أحد يمثل الشعب ٠ ولكن التحفظ الذى أجريته جرفنا بعيدا عن الموضوع العاجل ٠ سمعت كيف عرض الرفيق كالاريس القضية ٠ فى الوقت الحاضر ، يجب أن نتخذ من أجل المعركة ٠ أما فيما بعد ، فيمكننا أن نعود الى خلافاتنا ٠ اذن ٠٠ هل ستأتى معنا ؟ ٠

ــ كلا ، لن آتى ٠

ــ لا أعتقد ان هذا ردك النهائى ٠ سوف نعود الى الحديث فى الأمر٠

أجاب نيكيتا بحزم :

ــ لن نعود الى الحديث فيه اطلاقا ٠ ان ردى هذا نهائى ٠

خيم الصمت من جديد ٠

ثم قال فوليوتيس :

ــ هل يمكنك ان تتصور المعركة دائرة ، وتقف انت ازاءها مكتوف اليدين ، ولا تمد الينا يد العون ؟ ٠

ــ قد أمد اليكم يد العون فى الساعة التى يهب فيها الشعب ، عندما تصبح ساعة انزال الحلفاء لقواتهم على شواطئنا قريبة ٠ سوف تكون للمعركة حينذاك معنى ٠ أما الآن فلن تعنى سوى ايقاع ضربات انتقامية على اناس مساكين مسالمين لا يعرفون كيف يصلون الى اطعام أطفالهم ٠٠

رد فوليوتيس بخشونة :

ــ هذا كلام خطير للغاية ٠ سيكون للمعركة على الدوام معنى لأنها ستوجه الى قوات الأعداء ، التى بغير ذلك ستحارب فى أماكن أخرى ٠ سوف تكون ثمة ضربات انتقامية توقع على الشعب ، ولكن فى المعارك زادت التضحيات أو قلت فليس لذلك اعتبار كبير ٠ وسوف تحارب من أجل قضية كبرى ٠ انك تحارب وتعرض نفسك لأخطار من أجل انتماء الفالاك القومى لليونان ٠ أو بعبارة أخرى من أجل قضية تافهة المعنى ، من أجل أن تهدم عقبة سوف تكتسحها أول هبة ريح ٠ اننا ندعوك للانضمام فى هذه المعركة من أجل كل ما هو جوهرى وثمين : من أجل حرية الوطن وشرفه ٠

ـ اننى عند رأيى • كل سيحارب على النحو الذى يقدره •

اكتسى صوت فوليوتيس نبرة أكثر برودا • وهوت عباراته الآن مثل طعنات الخناجر •

ـ انك ترتكب خطأ فادحا • فى المعارك ، ليس من أحد حرا ان يفعل ما يشاء أو ان يظل على الحياد • وعلى الأخص أولئك الذين بامكانهم ان يقدموا عونا فعالا ، ليسوا أحرارا ان يفعلوا ما يتراءى لهم • وانت تستطيع ان تعاوننا معاونة فعالة •

ـ لست متأكدا ما اذا كنت قد أحسنت الفهم • هل هذا تهديد توجهه الى ؟

ـ اننى أبصرك ببعض الحقائق • اذا جئت معنا ستكون ضمن الأوائل والأفاضل • واذا لم تجىء ، فاننا فى حل من ان نفعل أى شىء • ان خلو صفوفنا من رجل له مركزه وحيويته لن يحرمنا فحسب من عنصر أساسى ، بل سيقود آخرين الى طريق الرفض • ولن نسمح بذلك •

مال ميلا خفيفا نحو نيكيتا وقال له بذات النبرة القاطعة ، ولكن بسرعة أكبر :

ـ هناك شىء آخر • ما ان نخوض معركة أو معركتين فاننا متأكدين من اننا سنتلقى معدات عسكرية وفيرة من الخارج • ويهمنا ان نتحرك سريعا ، ولكننا اليوم لا نملك سوى أقل القليل من الأسلحة بل يمكن ان نقول اننا لا نمتلك منها شيئا • وانت تستطيع ان تساعدنا فى مسألة السلاح أيضا • وسوف يكون الأمر خيانة عظمى ألا تعطينا السلاح •

لم ترق له لهجة الحديث ، كما لم ترق له كلمة « خيانة » • لكنه تحامل على نفسه وضحك •

ـ قال لى كيسافيتيس شيئا من هذا القبيل اليوم السابق أيضا • يمكنكم ان تفتشوا فتيليونا كلها ولن تجدوا بندقية واحدة •

ـ من المحتمل هذا • ولكن هناك آخرين لديهم أسلحة رهن أمرك •

ـ لا أفهم •

ـ انك تفهمنى حق الفهم • والسبب الثانى لمجيئى الى لاريسا هو هذا : ان آخذ الأسلحة ، فنحن بحاجة اليها •

فكر نيكيتا ان من المناسب ان يتظاهر بالغضب • فقال :

ـ ما هذا ؟ انك تطلق اكذوبة ثم تقيم عليها مطالب وتهديدات ؟ •

انحنى فوليوتيس من جديد نحو نيكيتا ، وقال له بقســـوة لم تسبق منه ٠

ـ كوليتيس ، اننى لا أهزل ٠ الأســلحة لازمة لى ٠ ولازمة لى بسرعة ، وسأحصل عليها ٠

نهض نيكيتا ٠

ـ اعتقد اننا قلنا كل ما لدينا ٠

اتكأ فوليوتيس بيديه على طرفى المنضدة ونظر اليه باصرار ، وبما يكاد يكون حقدا :

ـ أجل ٠ قلت أنا كل ما كان لدى ان أقوله ٠ ولا الوم نفسى على شىء بعد ذلك ٠ اننى أنصحك بأن تمتطى جوادك الوسيم بيجاسوس او أى جواد آخر اذا كان هذا الأخير مريضا حقا ٠٠ ما ان ننصرف ٠ فـــورا ٠

نهض بحركة مباغتة ٠ ونهض الآخر فى أثره ٠

توقف فوليوتيس يتأمل باهتمام احدى اللوحات ٠ ثم وقف أمام لوحة اخرى أو لوحتين ٠ وقال :

ـ لوحات جميلة ٠ لا أطيق هذا الهوس الذى يقدم البعض على تصويره هذه الأيام ٠ اننى لا أقبل ما بعد الانطباعية ٠ هذه الأعمال الحديثة تصيبنى بالغثيان ٠

وجد نيكيتا ان هذا التعليق غريبا فى فم فوليوتيس ٠ فسأله :

ـ هل تهتم بالتصوير ؟ ٠

ـ قرأت أيضا قصائدك ٠ راق لى أغلبها ٠ كل ما يتعلق بالفن يهمنى ٠

قال له نيكيتا :

ـ من الغريب ان الأعمال التى تعجبك هى التى لها صلة بالفن الكلاسيكى ٠ تفضل الآراء الطليعية ، ولكن فن الطليعة يصيبك بالغثيان٠

ـ الفوضى تدعى أيضا انها طليعية ، ولكنها ليست كذلك ٠ انها نفى عقيم للنظام وبلا هدف ٠ فى الحياة لابد من نظام فى كل المجالات ٠ حتى الفن ذاته بحاجة الى نظام ، والا فانه لا يعبر عن شىء ، ولا يخدم الغرض منه ٠

سأله نيكيتا :

ـ وما الغرض من الفن ؟

نظر اليه فوليوتيس بابتسامة عريضة :

ـ انك تفتح الباب لمناقشة كبيرة ، وسوف نختلف فى هذا الصدد من جديد • فلنترك ذلك لمرة أخرى •

كان يتكلم الآن بابتهاج لم يعد بداخله أى خشونة • عاد يشير الى اللوحات وقال :

ـ انها أعمال فنية رائعة • اننى لم أر مثلها الا فى باريس • هذه هناك لوحة أصلية ألمانية ؟ •

ـ أجـــل •

ـ وهذه هناك لوحات لليمبيسى وسافيدس • انها ممتازة • انهما من عمالقة التصوير • حتى لو قيمنا أعمالهما بمعايير عالمية • ومع ذلك فهى غير معروفة الا لحفنة ضئيلة من الناس ! لا بد ان هذه الأعمال آلت اليك عن جدك •

وبلا مبالاة واضح تصنعها • مضى يقول :

ـ يا للخسارة ، لو احترقت هذه الأعمال ذات ليلة •

شعر نيكيتا بأن عليه ان يجيب بشيء ، ولكن الغضب الذى أثاره هــذا التهديد الســافر خنق الكلمــات فى حلقه • ولم يجد العبارة المناسبة • تظاهر بأنه لم يفهم ، واتجه الى الباب •

وقبل ان يغادر فوليوتيس الغرفة توقف وواجهه وأمسك به من سترته • وقال له بومضة من الطيبة فى عينيه :

ـ انك رجل تنتزع الاعجاب ، وفضلا عن ذلك فانت شجاع • لو انضممت الينا ، لالتقينا كثيرا ، ولصرنا صديقين حقا •

ابتسم له نيكيتا • وقال :

ـ هذا محتمل • ولكننى لن آتى معكم •

استعادت عينا فوليوتيس نظراتهما المعدنية الباردة • وقال :

ـ أعرفك ذلك • ولكن الأســلحة سأحصــل عليها • ومن أجل مصلحتكم جميعا ، أبذل قصارى جهدك سريعا كى أحصـــل عليها دون عنف • لا أحب اراقة الدماء •

لم يجب نيكيتا هذه المرة ، ولكنه نظر اليه بحزم نظرة ثبتها فى عينيه • كان الشىء الذى نفره أكثر من التهديد هو ظهوره بمظهر الواثق من قوته ومن ضعف الآخرين •

وبعد برهة صمت قصيرة ، مضى فوليوتيس يقول :

ـ منـذ الآن ، ياكوليتيس سـتكون الليـالى حبلى بالأحـداث • أعرف ذلك •

سأله نيكيتا بابتسامة ساخرة :

ـ وهل تعرف عما ستتمخض عنه هذه الليالى ؟ ومن يدريك انها لن تنتهى بالاجهاض ؟

دس فوليوتيس يديه فى جيبى سرواله ، ونظر اليه من أعلى إلى أسفل كما لو كان يقيس قامته ، وأجاب بلهجة مستفزة :

ـ ستتمخض عن ذكور أقوياء شديدى المراس •

لم يعد بامكان نيكيتا ان يحتمل •

كان على الدوام يقدر اللهجة الهادئة فى النقاش ، ويكره الصياح العنيف • ويعتبر الغضب سلاحا سوقيا ينم عن الضعف • ولكن هذا القول تجاوز ما كان بامكانه أن يحتمل • كان هـذا الرجل يعتقد انه سيخضع الناس بالارهاب ، وان على الآخرين أن ينصـاعوا لكلامه بمجرد أن يروا بأسه • وما كان بامكان نيكيتا أن يحتمل ذلك •

اقترب منه ، وقد تجهم وجهه وصاح فيه عن قرب :

ـ ما دمت تريد ان تفرض رأيك بالتهديد والعنف ، فمهما كانت مجازفتك فى المعركة التى تخوضهـا ، فليس لك مكان بين الرجال الأحرار • انى أنا الذى أقول لك ذلك •

كان الاثنان جسورين قويين عنيدين • اقترب وجهاهما كثيرا ، حتى أصبح كل منهما يحس بانفاس الآخر ويتلقى حرارته • ومع ذلك، فقد كانت تفصل بينهما مساحات شاسعة • ذلك انه كان يصد كل منهما عن الآخر شيء غير مادى ، ومتمرد بكل المقاييس البشرية •

رد عليه فوليوتيس ببرود :

ـ ما قلته يعتبر فى حد ذاته مبدأ · ولكننى أقول لك أيضـــا انه خاطىء وعقيم · ان الوسائل تزول ولا يبقى الا الأهداف المتوصل اليها · وانصرف دون انتظار لاجابة ·

★★★

نظر الى ساعته ، فرأى انها لم تكن سوى العاشرة · كان أول ما تحفز له ان يمتطى جواده ويذهب ليحذر رئيس الرهبان · كان لديه الوقت كى يرجع قبل الظهر ·

ومع ذلك ما كان يجب أن يذهب · كما انه لم يكن من الحكمـة ان يرسل فروسو الى هناك · فلو كانوا يراقبون المكان ، ورأوا أحدا منهما يمضى توا الى الدير ، فسوف يفهمون ··· سوف يكون فى ذلك تأكيد لظنونهم بشأن الأسلحة ··· سوف يقولون ما ان سمع نيكيتا التهديدات أرسل التنبيه · واستنادا الى هـذه الواقعة سيسارعون بالتحرك ·

سوف يذهب غدا ، بل ولن يذهب فى الصباح · بل فى ساعة الأصيل ، أو عند حلول الليل · وعلى كل الأحوال ، فلا بد من اخطار موديستوس بأى طريقة بأن ظنونه فى محلها ، وانه يجب أن يفكر فى كيفية التصرف مع الرهبان ، كى يتفادى اذا ما عذبوا ان يعترفوا بأنه كان ثمة أسلحة كثيرة ولكنها اختفت ·

وعندما حل الليل ، جاء من يخبره بالذهاب الى ريامو حيث ينتظره الطبيب الذى يريد ان يتحدث معه ·

ـ جئت من تلقاء نفسى ، دون سابق اخطار ، بعربة المرة السابقة بحجة الكشف على مريضتى · حدث اليوم شىء يجب ان تحاط به علما ·

نظر حوله متفحصا ، وخفض صوته · ثم ابتسم بتواضع · قال :

ـ سيبدو لك غريبا ، ولكن الحديث عن هذا الأمر ، بل وحتى اننى عرفت به ، يملأنى خوفا ·

قال نيكيتا :

ـ دكتور ، انت لا تخشى شيئا · والدليل على ذلك انك تجرؤ على المجىء لتخبرنى بكل ما يحدث ·

ــ ومع ذلك ، فانى خائف ، خائف جدا ، أسمع أى أمر فظيع هو .
ان أحد المنضمين الى الاتحاد رجل شهم فقير ، كثير الأولاد ، يعانى منذ سنوات من مرض زوجته . أنا الذى أعالجها ... ولا أتقاضى منه شيئا ذا بال ... بل فلنقل لا شىء ... وهو يدين لى بهذا الجميل ، كما يدين بالجميل للأب موديستوس أيضا . فقد أمده رئيس الرهبان بكثير من العون فيما مضى ، على صورة نقود ومؤن . ويستضيف فى الصيف أحد أولاده الصغار مريض بالغدة اللمفاوية . هذا الرجل جاء الى اليوم ...

عاد ينظر من حوله فى خوف ، وزاد صوته خفوتا .

ــ جاء هذا الصباح وقال لى : يعتقد الاتحاد أن فى حوزة رئيس الرهبان كثيرا من الأسلحة المخبأة . ويبحثون عن الطريقة التى يستولون بها عليها . استدعوا الرجل الذى جاء الى ، وهو يعرف الدير جيدا ، وسألوه عدة أسئلة وقالوا له أن يكون على أهبة الاستعداد لانهم سيحتاجون اليه بلا توان . جاء يطلب منى النصيحة ، لانه يريد أن يحمى الرجل المبارك . قلت له أن يؤكد لهم انه لا توجد أسلحة فى دير القديس ايليا . واذا صعد رفاقه الى هناك ، فليذهب معهم بدوره ليقدم عونه لرئيس الدير ان أمكن . كما انهم يقولون فى الاتحاد أيضا انك ولا شك ملم بموضوع أسلحة القديس ايليا . ولهذا جئت أنبهك .

لحظة الرحيل ، عاد الطبيب فأغلق الباب ولزم الصمت . ثبت أنظاره الى الأرض برهة . تردد . رفع عينيه . وعن قرب شديد ، بصوت هامس ، قال نيكيتا وقد ومضت عيناه :

ــ هل لى الحق .. هل يمكننى أن أسألك ؟ بخصوص الأسلحة .. هل الأمر صحيح ؟

تأمل نيكيتا بمودة هذا الوجه السقيم . رآه من جديد يضىء بنور غريب ، لكنه لم يجب .

استطرد الطبيب يقول بصوت مرتعد :

ــ أعرف ، أعرف ، انها أسرار فظيعة . لا يجب ان أسأل . وانه لأمر فظيع بالنسبة لى أن أتحدث عن أسلحة مخبأة . بل وان يتأكد لدى ظن مثل هذا ... كلا ، لا تقل لى شيئا ... سوف أكون أكثر خوفا لو اننى عرفت ان ... لا أريد ... لكنك تعرف سطوة الفضول ...

انه لشيء ضخم ، ورائع ، أن نرى ثورة ١٨٢١ تبعث من جديد ، ودون ارادتى أكون بدورى ضالعا فى كل هذا ··· رائع ·· مخيف ···

مرة أخرى ، أغرورقت عينا نيكيتا بالدموع · وكان هذا النقاب الذى يعتم رؤيته شيئا حلوا ولكنه كان يثيره فى الوقت ذاته : انه لم يبك فى لحظات أخرى أكثر مأساوية وشجنا ·

نظر اليه الطبيب مرتعدا ولكنه كان يقف منتصب القامة · لم يكن يريد أن يعرف · كان يفزع من ذلك · كان هذا واضحا ، ولكنه كان فى الوقت ذاته يريد أن يعرف من كل قلبه ·

ـ دكتور ، باستثناء رئيس الرهبان وانا لا أحد يعرف السر ، ولكن انت وحدك جدير بأن تعرفه · انت وحدك · ان ١٨٢١ تعود · تبعث الى الحياة بكل أمجادها وعذاباتها · لا تسألنى المزيد ، ولكن أعلم انك تساعدها على أن تحيا من جديد ·

عانقه الطبيب بحرارة · قبله وانصرف مسرعا ·

١٤

كان الأصيل يبلغ نهايته · ولكن الغسق لم يكن قد لاح بعد · امتطى نيكيتا صهوة بيجاسوس وتوجه بخطوات سريعة الى القديس ايليا ·

كان قد فكر طوال الليل وطوال النهار ، وتشاور مع فروسو ·

عدوان مختلفان ولكنهما على استعداد لفعل أى شيء · ويستهدفان أمرا واحدا · هذان العدوان يهددان القديس ايليا خطرا كبيرا ، ولا بد من التصرف · لم يكن نيكيتا وفروسو يخافان أن يكتشف المخبأ · سيحاول الأعداء كثيرا ولكنهم لن يعثروا عليه أبدا · واذا كانوا لن يتوصلوا الى وضع أيديهم عليه الا أن قاطنى الدير معرضون للخطر · وأكثرهم تعرضا لهذا الخطر هو رئيس الرهبان ·

فكر نيكيتا وفروسو فى حلول عديدة · وبقى الآن ان يشركا معهم الأب موديستوس فى اختيار أفضل هذه الحلول واتخاذ القرار ·

كان ذهن نيكيتا منصرفا الى ذلك وهو فى طريقه الى هناك ·

بضع لحظات عبر السهل المخضوضر ، كفت مع ذلك كى تنسيه هموم الاتحاد ، وزائرى ليلة البارحة وكل الأخطار المهددة ·

كان الوقت أواخر ابريل ، وكانت النسمات الرقيقة تضوع بأريج الزهور كلها · كل زاوية ، وكل شبر من الأرض اكتست زينة خضراء ،

وتحلت هنا بقلائد منمنمة من الزهور عديدة الألوان ، وخضبت هناك بلمسات من الأحمر الزاهي بفضل زهر الخشخاش متقد الأصباغ ·

وكانت الأغصان العطرة تتمايل وتتثنى بتؤدة كما لو كانت تحيي المنظر الباهر المحيط بها ، وتقول للطبيعة من حولها انها قد تحلت بأبهى ما تستطيع أن تقدمه ، وانها تتخاطر وتختال بما منح لها ·

كان السهل كله ذلك اليوم قد اكتسى حلة جديدة · لم يكن القمح ولا الشعير ولا الزروع الأخرى ، مجرد سيقان قصيرة كما كانت تبدو منذ شهور عديدة · بل استطالت واكتمل نموها · كل يوم راحت تسمق وتزداد كثافة حتى ما عادت الأرض ترى من تحتها · وعندما كانت تأتي نسمة هواء تربت عليها ملاطفة كانت تسري رعشة في هذه السيقان الباسقة وتتمايل فجأة كلها معا ، ويجتازها ما يشبه ظل فينتشر عليها ، ويسري بعيدا بعيدا ، حتى أغوار الأفق ، أو ربما الى نهاية الدنيا ·

أوقف بيجاسوس ، وتأمل المشهد دون أن يشبع منه ·

لم يكن ما يراه تمايلا وتحركا من جانب النبات فحسب ، بل كانت هناك أنفاس ابريل الدافئة تزود بخصب أكثر عمقا قوى خبيئة لا حصر لها · كانت القوى المباركة للأرض الحبلى ، تدفع الاختلاجات التي لا نهاية لها المعتملة في أحشائها ، الآن الى أعلى وقد اندفع البذار الى رقصة فتية ، رقصة الحبات التي ترى ضوء الشمس للمرة الأولى ، وترتجف تحت يده الذهبية الملاطفة ·

رأى نيكيتا السهل كله يرتعد وقد قبلته نسمة ربيعية أشد حيوية سرت أيضا في شعره فجعلته يتطاير · فتح قميصه كي يمكن للنسمة الدافئة ان تربت على صدره · وفدت هذه النسمة من جبل الاوليمب ، جبل الآلهة ، ومن الوادي الأخضر حيث يسكن البشر · أحس بها تخترق الزغب الذي يكسو صدره وتداعبه برفق وتعطره بأريجها ··· ثم أحس بها تصعد الى أبطيه · فتح فمه كي يسمح لها بالدخول الى أعماقه ··· يا لها من متعة !

كيف يمكن أن يحس المرء باحساس مثل هذا ، يحس بشيء يربطه ارتباطا كليا لا فكاك له مع كل ما يحيط به ، مع الكائنات الحية من حوله ، بل ومع الجمادات أيضا !

لا بد أن هذا ما يطلقون عليه من قبيل التبسيط والاجمال ، الوطنية ، وهي الارتباط بأرض الأجداد ···

لا بد انه كان يجب ادراك أن هذه الأرض تطعم وتقيم أود البشر،

كل البشر ، حتى أولئك الذين لا يحبونها ، أو لا يعيرونها أى اهتمام ، ويتصرفون ازاءها كما لو لم يكن لها وجود ...

أم ترى كان هذا بكل بساطة صوت الأرض ، الذى كان يتردد فى أعماقه على الدوام ، تارة بعنف أكبر وتارة بلطف أشد ، منذ تلك الساعة المباركة التى سمعه فيها أول مرة ؟

فكر قائلا لنفسه بحزن عميق « آه ! يا اليكسى ، يا أخى ! كم وددت أن تكون بجانبى الآن ، على صهوة جوادك أيضا ، كى نتشاور فى الأمور كلها ، ونلقى عليها الضوء ، كى أستطيع أن أفهم ! ... »

قطعت ذكرى الاخ المتوفى سحر هذه اللحظة . تذكر المعارك ، والويلات ، والعذابات وتذكر أيضا انه الآن وحيد وبلا نصير ، وعليه أن يواجه تهديدات ومخاطر .

ولم يكن الخطر الذى نشر تهديده منذ أول أمس بالامر الهين . كان الرجل المبارك فى خطر . كان عليه أن يذهب ليطلعه على الأنباء ، ويحيطه علما بكل الحلول التى تصورها ، ان يهرع اليه بغية أن يتناقش معه ليتخذا قرارا .

استحث بيجاسوس ، وتحدث اليه بلغته ، وراح يعدو به ويقفز وقد أخلى رأسه من كل تفكير .

وبينما راح يصعد المنحدر ... لاح له الدير من بعيد فى أبهى صورة ، ببنائه الصامد العريق ، وبرج أجراسه الخشبى ... ماذا كان هناك أمام البرج وفوق الباب ؟ ثمة شىء مدلى ، شىء مديد أبيض ...

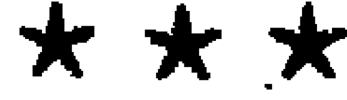
خيل اليه أن هناك ملاكا يقف بأعلى الباب . أجل انه ملاك . لم يكن نيكيتا يميز الجزئيات بعد ، ولكن ذلك الذى رآه ويشبه ملاكا أبيض كان يتدلى فى الهواء ، كما لو كان يريد أن يحمى الدير ، أو يرابط هناك منتظرا وصوله .

شىء غريب ! كان يرى الملاك !

توقف ، أغمض عينيه بشدة ، ثم عاد ينظر من جديد . رأى الهيأة المديدة البيضاء ساكنة لا حراك فيها ، معلقة فوق باب القديس ايليا .

لا بد أن بيجاسوس لمح بدوره وفهم شيئا ، فقد اضطربت حركاته وصهل صهيلا مبتسرا شاكيا . استحث بيجاسوس وقد تسمرت عيناه على الرؤية المقدسة . تقدم نحو الدير بسرعة ، وقد انبهرت أنفاسه .

عند العتبة الأخيرة المؤدية الى باب الفنـــاء ، توقف بيجاسوس فجأة ·



اتسعت حدقتا نيكيتا وجحظت عيناه ، كما لو كانتا لا تستوعبان المشهد الماثل أمامهما · انقبض قلبه وخيل اليه انه سوف يخر مغشيا عليه ·

الملاك ··· الملاك ··· رئيس الرهبان المبارك أصبح ملاكا ···
فوق باب الفناء علق جسد الأب موديستوس معدوم القوة ، ويكاد يكون عاري الجسد ·

خنقته العبرات ، زلزلت أعماقه · لم يكن بقادر أن يصرخ منفصحا عن ألمه ، ولا ان يذرف الدموع · فقد نضبت مآقيه · أحس بان جسده كله دب فيه الشلل ·

ما الجدوى من كل ما بامكانه أن يفعله بعد ذلك ! كل شيء أضحى عقيما ، ومبددا · ضاع الرجل الطيب ··· ومن يدري كم لقي من صنوف التعذيب !

ولكن ، كلا ، ما كان يجب أن يبقى مشلولا · لا بد من الانتقام ! الانتقام ! بهذا كان يصيح كل ما حوله · لا بد أن ينتقم له · كان ذلك واجبا !

تذكر بعض الأبيـــات لفالاوريتيس كان يعتبرها جميلة في طفولته وكانت تقول :

اضربوا ، أيها المحاربون العتاة !

انشروا الموت الى أقصى الأرض ، لقد شنقوا الحبر الجليل ·

انزلوا الضربات أيها المحاربون العتاة بالخـونة ، كمـا تنزلونهـا بالأعداء ·

لم يكف بيجاسوس عن القلق والتململ والصهيل صهيلا متوجعا· تقدم نيكيتا الى الباب · ثم قفز من على ظهر الجواد الى الأرض ·

هم أن ينزل جثمان القديس ليواريه التراب ، ولكنه فكر انه يجب أن يتركه حتى يجده على ما هو عليه رجال الشرطة الذين سيبلغهم الأمر ما ان ينزل الى فتيليونا ·

اقترب منه ورسم علامة الصليب ··· كان واضحا أن الجسد الهزيل بارد متوتر · لا بد أن المأساة جرت هذه الليلة ، ربما عند الفجر ·

تذكر كلام فوليوتيس ، البارحة صباحا :

« امتطِ جوادك · ما ان ننصرف · فورا »

تذكر كلام الطبيب البارحة مساء عن زبونه عضو الاتحاد : « قالوا له ان يكون على أهبة الاستعداد لانهم سيحتاجون اليه بلا توان · »

كان يجدر به أن يهتم من أجل ذلك ويأتي الى هنا البارحة منذ ساعات الصباح الأولى · أقلقته هذه الفكرة ·

ولكن كيف كان يمكن أن يتصور ··· كيف كان يمكن أن يدور بخلده ···

الآن وقد صار عن قرب شديد ، لاحظ ان وجه رئيس الرهبان مغطى بآثار ضربات ، وان ثمة دماء على جسده · كما كان ابهام أحد قدميه مهشما ·

فكر قائلا « الأسلحة ! الأسلحة ! »

جرى الى الكنيسة ·

وجدها رأسا على عقب ·

كل المقاعد مفكوكة ، والمنبر مقصى عن مكانه ، وكثير من أخشاب الأرضية منزوعة ·

كانت العتبة الكبيرة للمنصة التي يقف عليها المرتلون ، والصخرة في مكانيهما ولم تمسهما يد ··· أما العتبتان القصيتان والعتبة الأخرى فكانت مقتلعة من أماكنها ·

وفي داخل الهيكل ، كان المذبح مقلوبا ومقتلعا من عند الأرض ، والملاط مسقطا من على الحوائط بضربات معول · وبقيت جرداء ·

اتجه نحو الدير ·

في الفناء ، وداخل البناء ، في غرفة الضيافة والردهة ، في صوامع الرهبان ، رأى آثار دماء بكميات قليلة · قطرات منه هنا وهناك · وفي كل مكان آثار تخريب ، وأشياء محطمة ، ودككا ودواليب منقولة من مواضعها ، وأخشاب الأرضية انتزعت مساميرها ·

نادى الرهبان بأسمائهم · فلم تفد اليه أى اجابة · جال في أرجاء

الدير ، فوجد الخراب أينما حل ، ولكن دون أن يلتقى بكائن بشرى حيا أو ميتا • لابد أنهم أخذوهم معهم بغرض تعذيبهم كى يكشفوا لهم عن المخبأ •

غمره فجأة عرق بارد ، وتقطعت أنفاسه •

تذكر كلام طيف الأخ المتوفى فى تلك الليلة قارسة البرد ، فى ظلمات الاسطبل :

« خذ حذرك •• خذ حذرك •• أرى كوارث ••• »

كان كما لو كان قد سمعه البارحة فحسب ••• ها هى اذن الكوارث ••• أحس ملابسه قد التصقت ببشرته من فرط ذلك العرق البارد المتصبب من جسمه • شعر بالخوف • هل كانوا يعدون كمينا ؟ ألم يكن يتوقعون مجيئه •• ولذلك فهم يتربصون به ، كى يعرفوا السر منه ؟

بالخارج ، كان لا زال نور النهار واضحا ، أما داخل الدير ، فكان الغروب قد عتم كل الأرجاء • ما حدث حدث • ويجب أن يحتاط لنفسه • كان وحيدا بغير سلاح ••• خرج يجرى • رسم علامة الصليب أمام الكنيسة ، وأمام جسد موديستوس المعلق • امتطى جواده وانطلق يعدو هاربا •

ألقى نظرة فيما حوله • لاحظ ان المكان كان مقفرا • وما من نسمة • هدأ من سرعة بيجاسوس وأعاده الى خطواته الطبيعية •

قال لنفسه « انها لعنة • اللعنة ذاتها التى حطت على هذا المكان بعينه عديدا من المرات عبر القرون » •

لماذا شنقوا الأب موديستوس ؟ أهو انتقام ، أم عقاب ؟

لا هذا ولا ذاك كان له معنى ، ما داموا يفقدون أيضا بشنقه مفتاح السر • ولكن هل كانوا يعرفون أنهم بذلك يفقدونه حقا ؟ لماذا افترضوا أن رئيس الرهبان وحده هو الذى يعرف ؟

أجل ، انه يرى الأمور بمزيد من الوضوح الآن • لا بد انهم عذبوهم كى يحملوهم على الاعتراف • ولهذا رأى دماء فى كل الأنحاء • ولهذا أيضا حمل جسد العجوز كل تلك الكدمات • ما من أحد منهم تكلم ، لا شك فى ذلك • ومن ثم قرروا أن يقتلوا واحدا كى يخاف الآخرون ، ان يقتلوا ذلك الذى كان اعترافه أقل احتمالا من الآخرين • أما الآخرون فلا بد انهم ما زالوا يعذبونهم فى مكان ما • ثم بعد ذلك سوف يقتلونهم.

من يدرى أين ، كي لا يمضوا ويجاهروا بما مورس عليهم من تعذيب ورآوه ؟ وهكذا سيدفن سر آخر ، سر الليلة الماضية . في مكان مجهول مع جثث رهبان القديس ايليا المنكل بهم ٠

من الذى ارتكب هذه الأفعال اذن ؟ من الذى أمر بها ؟ فوليوتيس، الرجل المثقف ، أم روبوتيكا الجلف ؟ لا بد انه الأول ! قد يقتل القاتل من أجل مصلحة ، ولكنه قد يقتل أيضا وبيسر أكبر من أجل مثل أعلى ٠ لا بد انه فوليوتيس !

ولكن ما الذى يهمه أن يكون القاتل فوليوتيس أو روبوتيكا ؟ لقد وقع المكروه ٠ ولكن سيكون لذلك تقديره عند الانتقام ، لانه سوف ينتقم ، ويجب أن ينتقم ٠

تنبه الى أن بيجاسوس قد توقف عن السير ، نظر حوله ٠ على الحافة المسطحة قبل المنحدر الأخير حيث كان يتمهل ويتأمل منها فتيليونا والمدرسة ونهر البينة ولاريسا ٠ من هنا كان كل شيء يرى بوضوح ، الغابة الكبيرة هناك ، ومن قبلها الغابة الصغيرة ٠

فكر قائلا « يا أيها الوطن التعيس ٠ كم من مرة غزاك الأجانب وخربوك ، وكم من مرة سامك أهلك العـــذاب ٠ آه ، أيتها العبودية اللعينة ٠ يالك من وطن جميل وفقير ، يا من يحيطك البحر من كل جانب ، وتسبح فى ضياء الشمس ، ويغطيك الاوليمب بظلاله ، ولكن الضباع البشرية تنهش لحمك ! » ٠

تأهب لاستئناف مســـيرته ، عندما لمح عربة كبريوليه تتجه الى الغابة الصغيرة ٠ فى مثل هذه الساعة تسير وبين أحضان هذه العزلة ؟ بدا له ذلك غريبا وراح يتابع العربة بأنظاره ٠

تابعها ٠٠٠ ومرة أخرى أيضا اتسعت حدقتاه ، ومن جديد انقبض قلبه ، وأحس بالألم يجتاح جوانحه ٠٠٠

ولكن الألم كان من نوع آخر هذه المرة ٠

لم يكن ثمة شك ٠ كانت العربة الأنيقة عربة ذلك الضابط الايطالى المغرور ، وقد جلست فيها الى جانبه كيتى ٠ وسرعان ما اختفيا فى الغابة الصغيرة ٠٠٠

أرخى الغروب سـدوله ، وكانا وحدهمـا ٠٠٠ هما الاثنــان ٠٠٠ وحدهمـا فى الغـابة المقفرة ٠٠٠ هذه الغـابة التى كانت ملكه ٠٠٠ الى غابته ، وعلى أرضه ، مضى العدو المغرور على مرأى من كل أولئك الذين شاهدوه يمر ٠٠ ليختلى بيونانية ، وسوف ٠٠٠

لكز نيكيتا بكعبيه بيجاسوس فجأة ، ونزل به المنحدر قفزا ٠ كان يريد أن يذهب مباشرة الى الغابة ليلحق بهما ، بأسرع وقت ٠

لماذا ؟ ما الذى ينوى أن يفعله ؟ لم يكن يدرى ٠

عدو ، على أرضه ، أرضه هو ، مع بنت من بنات بلده ٠٠٠ سوف يلحق بهما ! هذا ما استحوذ على تفكيره فحسب ٠

فى لمح البصر وصل الى حافة الغابة ، وهدأ من سرعته المجنونة ٠ تحاشى الحيوان الذكى من تلقائه الأشجار ، منسابا بينها ، وسرعان ما رأى نيكيتا العاشقين راقدين على الأرض ، يتعانقان ٠

أحدق بهما قبل أن يسمعاه ٠

وضع قدمه على الأرض بقفزة واحدة ، وتقدم نحوهما غاضبا ٠ نهضا هما الاثنان ، وقد احمر وجهاهما واضطرب شعرهما ٠

وجه الى كيتى نظرة عامرة بالكراهية وصرخ فيها :

ـ أيتها العاهرة !

رنت فى السكون صفعتان ٠ ولم يكن بالامكان أن يقال أى الرجلين كان أسرع فى توجيه صفعته الى الآخر ٠ وفى الوقت ذاته أطلق الضابط الايطالى بعض الشتائم بالايطالية ٠

تراجع الايطالى قليلا ، وفك بحركة عنيفة الجراب الجلدى المثبت فى حزامه ، وأخرج مسدسه ٠

انقض نيكيتا عليه ٠ أمسك بالسلاح وطوح به بين الشجر

صرخ فى وجهه بالايطالية :

ـ هذه الأرض ملكى أنا ، ولا أسمح لأحد أن يحضر اليها عاهرا ٠٠

لم يكن لديه الوقت ليكمل عبارته ، فقد تلقى لكمة عنيفة فى وجهه من قبضة غريمه ٠ تراجع وقد اختل توازنه ٠ لم يتلق قط مثل هذه اللكمة الموجعة ٠ كان عليه أن يستند الى شجرة ، بينما وجه الآخر خطابه الى كيتى بالفرنسية :

ـ حبيبتى ، اهرعى الى العربة ٠ وانتظرينى بها لحظة ٠ لدى حساب قديم سأسويه مع هذا السيد ٠

ضمت يديها بحركة متوسلة ، وقالت :

ـ كلا ، كلا ! أرجوك ! فلنرحل !

قال لها معنفا أياها بخشونة :

« قلت لكى اركبى العربة » وتقدم الى نيكيتا ، وقد مد قبضتيه مثل الملاكمين ، متأهبا لمهاجمته ٠

باستثناء الفروسية ، لم يكن نيكيتا قد مارس أية رياضة فى حياته ٠ كان يجهل حتى قواعد الملاكمة ٠ وبالغريزة ، كى يتيح لنفسه حرية الحركة ابتعد عن الشجرة التى كان يرتكن اليها ٠

على وجه كاستيليون ارتسمت ابتسامة خبيثة ، **وقال :**

ـ تخاف ؟ أبطال اليونان يخافون ؟

تمالك نيكيتا نفسه فجأة ، وبكل قواه حاول أن يطول ذقن غريمه ٠ تفادى هذا الأخير الضربة برشاقة ونجح فى الوقت ذاته أن يسدد لكمتين مباشرتين الى وجهه ٠

لا بد أن كاستيليون كان يلبس خاتما فى أصبعه ، لأن نيكيتا أحس جلده يتمزق تحت العين ٠ وسال خيط من الدم الدافىء على وجنته ٠

من العربة جاء صوت كيتى متوسلا من جديد :

ـ أرجوك ! كفى ! فلنرحل !

ولكن الايطالى كان يريد أن ينتهز فرصة تفوقه ، **فصاح :**

ـ ربما لا تعرف اننا سبق أن تلاقينا عند النقطة ٧٣١ على تل موناستيرو ، ولكن حينذاك كان الجبل يحارب معكم ٠ أما الآن فنحن نتصارع رجلا لرجل ٠ ليس على وجهى دماء ، بينما وجهك أنت ٠٠ أهو حقا دم بطل ذلك الذى يسيل عليه ؟

كان نيكيتا يغلى غضبا ٠ ومع ذلك كان يعرف انه لا جدوى من الغضب ٠ فالآخر أقوى منه ، ويعرف كيف يسدد اللكمة وكيف يتفادى تلك التى توجه اليه ٠ كان عليه فى هذه المبارزة ان يستخدم وسيلة أخرى حتى لا يضحى محلا للسخرية ٠

ووجد الوسيلة ٠

أطبق قبضتيه ومدهما الى الامام بدوره ، ولكن عندما اقترب من الآخر قفز عليه ٠ لم يكن كاستيليون يتوقع هذه الضربة التى وجهها اليه خصمه بجسمه كله ، فترنح الى الوراء وسقط ٠ انقض نيكيتا عليه ، والصقه بالأرض ٠

تصاعد صوت كيتى :

ـ كلا ، يا نيكيتا ، أرجوك ! استحلفك بالله !

ثم اردفت تقول بالفرنسية :

ـ انجلو ! حبيبى ! فلننصرف !

صرخ فيها نيكيتا ، وهو يشدد قبضته على غريمه :

ـ اطبقى فمك ، ايتها العاهرة !

لم يكن يحب التغطرس فى الانتصار قط · وبحسب مفاهيمه ، يمكن للبطل أن يستفيد من انتصاره ولكن يجب أن يبدو شهما كريم بالنفس لحظة انتصاره · وبهذا فحسب يكون جديرا بالانتصار الذى يحققه · أما التبجح فى الانتصار فينتقص من قيمته ·

ولكن الآن ، كل هذا بدا مجرد كلام ، فان رد الفعل الغريزى للحظة التى كابدها اطفأت مفاهيم عمره كله ·

انه يسيطر الآن بدوره على عدوه الذى أهانه وحط من شأنه · وكان ثمة شىء لا يقاوم يطالب ان يتخذ هذا الانتقام مظهرا وحشيا ·

اطلق صرخة عالية ، وصفعه صفعة شديدة ، وقال له بالايطالية :

ـ دم بطل ، هيه ؟ من أين لك أنت أن تعرف دماء الأبطال ؟

ولكن كاستيليون برفسة قوية ، ألقى نيكيتا جانبا ، وراح الجسمان متشابكين يتدحرجان لحظة ، تارة يجثم احدهما على خصمه ، وتارة يجثم الآخر ، دون أن يستطيع ايهما أن يسيطر على الموقف · وفى النهاية ، دون أن يعرف سبب هذا التفوق ، تمكن نيكيتا من أن يجثم على صدر خصمه ! وراح يضربه ، ويضربه ، ثم أطلق من جديد صرخة شرسة ، واراد ان يمد انتصاره الى ما هو أبعد من ذلك · **فاستدار نحو السيارة وصاح :**

ـ ها هو بطلك مطروحا على الأرض ، يا عاهرة ! كتلة من اللحم بلا روح !

ولكن فى هذه اللحظة شحذ الايطالى قواه كلها ، وانفلت واقفا على قدميه · لم يعرف نيكيتا مبهور الانفاس من أين وكيف أمسك به الآخر ، وطرحه أرضا ·

أحس ألما شديدا ، وأدرك ان الدماء تسيل على وجهه · فهم انه من العسير عليه أن ينهض توا ·

نفض الايطالى الغبار عن ملابسه ، وقد امتلأ استعلاء وثقة بنفسه . التقط قبعته ، ورتب شعره . واخرج قفازيه .. نظر الى نيكيتا باحتقار .

وقــال :

ـ لا أعتقد انك تريد المزيد . كان بامكانى أن أقتلك . ولكننى لن أقدم على ذلك لأن الايطاليين لا يقتلون الحمقى الذين يتهجمون على النساء . انهم لا يقتلون سوى الابطال .

وازاء محاولة نيكيتا النهوض على قدميه . **قال له :**

ـ انصحك ان تظل ساكنا على الأرض كما كنت حتى الآن . فاذا نهضت سأسحقك ، ولن تستطيع ان تعود الى بيتك .

وجد نيكيتا فى المكان الذى كان قد سقط فيه غصنا سميكا هوى من شجرة دردار ضخمة . أمسك به بكلتى يديه ، وهب واقفا . صوب الى كاستيليون نظرة رهيبه ، وقال له :

ـ بالنظر الى ما وصلت اليه الأمور ، أحدنا لن يعود الى بيته . أحدنا يجب أن يموت الليلة .

صرخت كيتى ، ولكن نيكيتا ما عاد يسمع شيئا ، ولم يعد هو نفسه سوى صرخة تنادى بالانتقام . كانت اذناه تطنان من جراء الضربات التى كيلت له ، وروحه تولول بالكراهية والانتقام لما أصابه .

قال له كاستيليون :

ـ أنت مجنون .

ـ أحدنا سيموت ، هنا ، الليلة !

تقدم خطوة .

ـ أنت مجنون ، حقا !

ـ لا أريد أن أقتلك أعزل . أبحث لك عن حجر ، عن عصا ، عن أى شىء تريد ، اخرج سكينا . سأنتظرك .

كانت كيتى تطلق صرخات نفاذة .

تقدم نيكيتا خطوة أخرى ثم توقف . أما الآخر فلم يحرك ساكنا . كان قد فقد شيئا من خيلائه ولكنه كان يقف منتصب القامة ويثبت انظاره فى عينى غريمه .

ظل ساكنا حتى عندما صاح فيه نيكيتا قائلا :

ـ لن تفلت منى ! خذ ما تجده حتى تدافع عن نفسك ٠

أجابه الايطالى بأنفة :

ـ القى هذه القطعة من الخشب ، اذا كنت تريد أن نتصارع ٠

ـ ايها الجبان !

ثم صرخ قائلا :

ـ بسلاح متكافىء ٠٠ سنتصارع حتى الموت ٠ هل تسمعنى ؟

لم ينبس الأجنبى الأشقر بكلمة ٠ ولم يحرك ساكنا ٠ ظل يثبت انظاره فى عينى خصمه ٠

هذه المرة صاح نيكيتا بصوت أقل ارتفاعا ، ولكن لهجته كانت تقطر سما :

ـ قلت لك خذ لنفسك سلاحا ، بدورك ، فلم تشأ ٠٠ لن انتظر أكثر من ذلك ٠ يجب أن يموت أحدنا الليلة ٠

انحنى الأجنبى فجأة ، والتقط حجرا ضخما ٠

رفع نيكيتا الهراوة التى يمسك بها بكلتا يديه عاليا ، واتجه اليه بكل ما تولده العبودية من حقد ارتسم على وجهه ٠

ادرك الايطالى الذى تسمر فى مكانه نية القتل التى تعتمل فى صدر غريمه ٠ واستبان انه سوف يموت ميتة تافهة لا أمجاد فيها ٠ وستظل كيتى حبيبته فى هذا المكان المهجور وحدها مع هذا الرجل المجنون حقدا ورغبة فى الانتقام مما حاق به ٠ أما اذا لم يقتله هذا الرجل ، ونجح هو فى الاجهاز عليه ، فسوف يكون عليه أن يدلى بايضاحات ٠٠٠ وأى ايضاحات سيقدم ؟ ٠٠ سيكون قد ارتكب جريمة لا معنى لها ٠٠

راح اليونانى بخطى بطيئة وثقيلة يتقدم نحو غريمه ٠٠ واحد منهما سوف يقع مشجوج الرأس ٠٠

انحرف الايطالى فجأة جانبا ، وجرى نحو العربة ٠ قفز صاعدا اليها ، وهوى بسوطه على ظهر الجواد بشدة ، واندفع مبتعدا مع كيتى ٠

أحس نيكيتا برغبة فى أن يطلق صرخة مدوية ، منذا الذى يصدق انه تحرر من عبوديته ، وانه انتصر على عدوه الذى ولى الادبار اربا ٠

لكنه تماسك ، وسأل نفسه : هل انتصر حقا ؟ أجل ! لأن ليس معنى الانتصار أن تكون أقوى من خصمك وألا تخشاه · بل يعنى الانتصار ان تكون أقل منه قوة ، وان تتعذب وتشعر بالخوف ، ومع ذلك تصارعه ، وتجرأ على الوقوف فى وجه الموت ··

جلس · كان يشعر بالالم ، ورأسه تدور · وقد احتبس صوته · اسند ظهره الى جذع شجرة ·

لم يكن يفكر فى شىء · وليس ذلك من شدة الالم والاحساس بالدوار ، ولكن هذه الساعات الأخيرة كانت حبلى بكثير جدا من الكوارث ، التى لا يتسع لها عقل بشرى · ظلت رأسه خاوية ، ومضطربة · كما كان مضطربا بدوره الغروب الذى راح يزحف بسرعة على الغابة ·

خيل اليه فى لحظة انه العوبة فى ايدى هلوسات · ثم داعبت وجهه نسمة دافئة ·· كلا ، لم تكن هلوسات ، فقد كان بيجاسوس يحك خطمه بوجهه ، يصعده وينزله عدة مرات على خده الموجوع ·

شعر بالتحسن · نهض وامتطى صهوة جواده ، الذى حمله برفق وحذر الى فتيليونا ·

★★★

كان مظهره يوحى بان جراحه أكثر جسامة مما هى عليه فعلا · ملابسه الممزقة ، ووجهه الذى تسيل عليه الدماء ، وسيماء الالم البادية عليه ، وجسده المشدود ، كل ذلك كان يوحى بأن اصاباته خطيرة ·

وصل على هذا الحال الى فتيليونا ··

وما أن وصل ورآها ، حتى عرف انه لا يجب أن يساوره أى شك بشأن عواطفها نحوه ·

كل كلمة وكل حركة من فرونسو ، وكل عون وعناية هرعت تسديها اليه لم يكن بدافع الخدمة النفعية ، فقد كانت الحرارة التى اسديت بها تفصح بجلاء عن الحب الشديد ، وانها نابعة لا عن منطق أو واجب بل عن القلب ذاته ، عن كيانها المرتجف كله ·

متعبا متألما ، استسلم لها • افاده بعد كل ذلك العناء ان يستسلم هكذا •

أوقدت بمهارة النار في المدفأة ، لأن الليالي كانت باردة من جديد • وساعدته على خلع ثيابه • ثم عندما رقد غسلت وجهه ويديه ، وطهرت الجرح •

وربما كي لا يبعث الجزع الى قلبها في الليل البهيم ، أجابها على اول اسئلتها باجابة غير محددة :

ـ حدثت لى مصادمة •

وعندما طلبت المرأة الشابة بعد ذلك ايضاحا ، أجاب :

ـ سوف أشرح لك فيما بعد • غدا •

فكفت عن سؤاله •

أعدت له قدحا من مشروب مجدد للقوى ، وأصرت على أن تضع كمادات ساخنة على عينه المصابة •

لم يكن يرى ضرورة لهذه الكمادات ، ولكنه أذعن حتى لا يجافيها • وما لبث رويدا رويدا أن شعر بكثير من التحسن ، بل وبأنه أصبح على ما يرام تماما •

في ملابس نظيفة على ملاءات تضوع برائحة الصابون ، تمدد في سريره الأليف ينعم بالراحة ، في هذا الدفء الودود والضوء الحاني المرتجف الذى تبثه النيران في المدفأة • سابح في الجو المبارك الذى تصنعه امرأة تحب •

لم يشعر فحسب برغد العيش الذى نسيه منذ أمد بعيد ، بل وأيضا تبدد من ذهنه كل ذكرى لذلك اليوم الرهيب المنصرم • كان يحس بأنه جد منعم ••• كل شيء انمحى •• وما عاد لشيء وجود سوى دفء هذه اللحظة الحلوة •• ولا شيء غير ذلك •• كم كان هذا رائعا ••

سألها عما اذا كان أبوها قد ذهب لشراء الخراف ، واستفسر عن بعض الأمور الأخرى المتعلقة بفتيليونا •

ولكن هذه الانشغالات اليومية لم تعلق باهتمامه كثيرا في هذه الساعة التى حباها الله بروح تخصها هي دون غيرها من الساعات ، وافعمت بمزيج من اللهفة والأمل ، من العبودية والصمود ، من المسكنة والعظمة ، من الاضطهاد والحب •

كانت فروسو جالسة الى جواره على سريره · وبين لحظة ولحظة تغير الكمادات على عينه ·

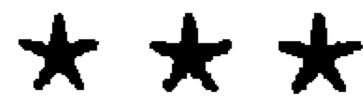
سال بعض الماء من احدى الكمادات على خده وانزلقت قطرتان أو ثلاث قطرات نحو شفتيه · ولما كانت لا زالت تمسك بقطعة القماش المبلولة فقد مسحت برفق قطرات الماء بكفها · اخترق كيانه احساس بعذوبة لا تقاوم وتسلل الى أعمق أعماقه ·

رفع يده ، وربت على خدها برفق ، برفق شديد · أضاءت فى عينيهما اشعة شمس مايو ، وبين جفونهما رفرفت الجنة التى نزلت الى الأرض من أجلهما ·· وهذه الجنة رأياها ·· واحسا بها تسرى فيهما · اختفى الوجود كله ، وما عاد للدنيا قائمة · لم يعد ثمة أحد غيرهما ، فى الجنة الحقيقية ، تحت شمس مايو ·

تشابكت أياديهما · لم ينطقا بكلمة ، وقد عرفا ان أكثر الكلمات ثراء سوف تعجز عن التعبير عن ثراء هذه الساعة ··

عاد يربت على خدها · ثم ترك يده تنزل برفق على عنقها ثم كتفها ثم صدرها الممتلىء الذى يختلج ·

تبادلا قبلة ··· ثم تبادلا قبلة أخرى · انزلقت داخل السرير ، وناما معا متعانقين ·



فى ساعة متأخرة من الليل ، أطلق صرخة ايقظتها · كان يصيح بشراسة :

اضربوا ، أيها القادة الكبار ! انه أنا الذى انتصر !

اجتهدت أن تهدىء من روعه · وأشعلت المدفأة من جديد · وأعطته مسكنا · وعندئذ وهو على شفا النعاس قص عليها كل شىء ·

استمعت اليه ، ممتلئة بالقلق ، والألم واليأس ، دون أن تنبس بكلمة · ولكن منوقت لآخر كانت تند منها صرخة ! ، فكانت تعض شفتيها ،وتغرس أظافرها فى لحمها ·

ثم تكلم نيكيتا ببطء أكثر ، وبصوت أكثر خفوتا ·· اختلطت

الكلمات .. واستحوذ النوم · رويدا رويدا على كيانه من جديد .. ومع ذلك ، فقد استيقظ مرة أخرى · أمسك بذراعها وقال لها بحمية :

ـ الآن ، يا فروسو ، ليس ثمة من يعرف مخبأ القديس ايليا الا أنا وأنت · اذا حدث لي مكروه ، اكشفي سره لمن تثقين فيه ، وذلك عند قيام الانتفاضة الشعبية ·

١٥

كانت الشمس تغمر الغرفة ، عندما سمعت على الباب دقات عنيفة · دخل ميتسوس ، ووقف مبهور الانفاس ·

ـ في أي حال أنت ؟ ماذا حدث لك ؟

أجابه بانه أصيب لوقوعه من على ظهر حصانه · وان الأمر لم يكن بذي بال ، ولكنه لما كان متعبا فقد نام متأخرا ·

سأل :

ـ أين فروسو ؟

ـ سافرت هذا الصباح ·

ـ كيف سافرت ؟

ـ احدى خالاتها مرضت ، فسافرت لترعاها ·

جلس في سريره ، مهموما ·

أوضح ميتسوس قائلا :

ـ الدكتور فائيديس هنا ويسأل عنك · انه في عجلة من أمره · ولهذا فانني دققت بابك ·

ـ قل له أن يدخل ·

في اللحظة التي اجتاز فيها ميتسوس العتبة من جديد توقف وانحنى يلتقط شيئا · قال :

ـ خطاب · لا شك انه ألقي من شق الباب ·

فتح نيكيتا الخطاب بحركة آلية وقرأ :

« لست نادمة · لست نادمة على الاطلاق · ولكنني راحلة ، لانك تحب امرأة أخرى · فروسو » ·

لم يتسع له الوقت كي يفكر ، فقد دخل الطبيب · بدا عليه الخوف اكثر من أي مرة قبل ذلك ·

ــ عدت بحجة أن أرى فروسو ، ولكنها ليست هنا • هذه المرة لن يكون لى عذر أبرر به حضورى • اذا حدث لأى سبب أن استجوبونى ، فقد ضعت •

كان يرتعش •

ــ لماذا ، يا دكتور ؟ بكل بساطة ، سوف تقول انك كنت تجهل أمر سفرها ، وجئت لتعود مريضتك • المبرر مقبول فى كل الأحوال •

خفف ذلك من اضطرابه قليلا •

قال له نيكيتا :

ــ اجلس ، واحك لى •

اشرق وجه الطبيب • بدا عليه انه صار رجلا آخر •

أسرع يقول موضحا :

ــ رجانى صديقى رابتيس أن أحضر ، ذلك ان ما من أحد يشك فى • كنت قد أرسلت رسالة الى عمك فى أثينا بخصوص تمويل عملية الجبن •

ــ أرسلت رسالتين لا واحدة • واحدة عن طريق المهندس جوليميس، والأخرى عن طريق صديق طفولتى فوتياذيس •

ــ حسنا ، علمت جماعتك اليوم أنباء هامة وتبعث اليك تهانيها • ليلة أول أمس • وصلت الى البنك برقيتان مرسلتان من عمك • الأولى تحظر أداء أى مبلغ الى صانعى الجبن ما لم يقدموا شهادة من البنك الزراعى والشرطة تفيد انهم أناس جادون وشرفاء ولا صلة لهم بالسوق السوداء • والثانية تخطر بنقل مانوسيس الى الميروس (١) •

نسى نيكيتا كل شىء • وصاح :

ــ أحسنت ، أيها العم سبيروس ! أحسنت !

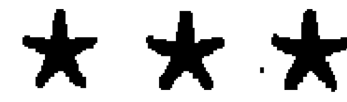
اردف الطبيب يقول منشرحا :

ــ كان مديرا لفرع لا ريسا عشر سنوات ، ثم يجد نفسه قد نقل الى بلدة صغيرة ! ويجب ان يتسلم عمله الجديد فى فرع الميروس خلال

---

(١) فى الواقع كانت البرقية موقعة من محافظ البنك الأهلى وكان اذ ذاك تسطنطين زافيتسيانوس

ثماني وأربعين ساعة ! ان جماعتنا تطير من الفرح • والمدينة كلها تتحدث عن هذا • ان اليونان لم تمت •• بل انها تكيل الضربات أيضا ! اليوم في المدينة الابتسامة تعلو شفاه الجميع • تخيل ذلك ! سافر دياماندیس ومانوسيس الى أثينا فى سيارة ايطالية • من الواضح انهما سيحاولان الغاء هذا النقل المهين • هذا رائع ! رائع ! لاريسا كلها فى عيد !



كان متعبا ، متألما ، قلقا ، ولكنه في الوقت ذاته كان سعيدا • آثر الا يذهب الى المدينة هذا اليوم • هذا فضلا عن أنه لم يكن يريد أن يراه أحد وقد غطى وجهه بالكدمات الزرقاء •

قام بجولة فى الضيعة ، وذهب لرؤية الخراف التى جلبها ريامو بعد الظهر ، وشغل طوال النهار بالبحث والتقصى اين اختفت فروسو • ثم نام مبكرا •

على أن النوم لم يطاوعه • ازدحمت أحداث الأيام الأخـــيرة فى مخيلته ، وجعله القلق يتقلب بلا انقطاع فى سريره •

عرف أنه سيعانى من الأرق طويلا • فأضاء المصباح من جديـــد وشبك يديه خلف رأسه •

كانت الليلة المقضاة مع فروسو •• حلوة للغاية ، وغريبة ، وغير متوقعة •• ولكن كيف وصلت الأمور الى ما وصلت اليه ؟

كانت تحبه منذ أمد طويل • تبين ذلك بوضوح الآن ، وهو يتأمل آلاف التفاصيل الصغيرة •

ولكن هو ؟

ظل رأسه خاويا لحظة •• يا له من تغير غريب حدث ! •• فيما مضى ، وعند الزيارة الأولى التى أدتها له أثناء مرضه ، منذ عام ونصف ، لم تكن بالنسبة له سوى « ابنة فلاح من فلاحيه » ثم بدأت تسترعى انتباهه • وبعد ذلك ، بعد الحرب وخراب فتيليونا صار مهتما بها ، يلاحظها ، ويبحث لديها عن السند والعون ، وأخذ يظن انها تحبه ، بل وفى بعض الأحيان كانت تقلقه ظنونه هذه •• ولكنه فى الوقت ذاته كان ينكر هذا الحب ، ويرفض أن يواجهه ••

بينما هو نفسه ‥ خيل له ‥

أضاء نور بداخله ، وجلجلت فى أعماقه فرحة مدوية !

كيف كان ذلك ممكنا ؟ وكيتى اذن ، وعذاب الشهور العديدة الذى عاناه بسببها ؟

هذا النور ، وهذه الفرحة بداخله ، كانتا على قدر كبير من البساطة والوضوح ، حتى انهما غمرا روحه كلها ! أما ما دفعه نحو كيتى فى عزلته ويأسه ، فكان ما تبقى فيه من ذاته القديمة ، الملوثة المنحلة ، تلك الذات التى شبت وترعرعت بين حوائط حجرية ، وسط ديكورات عديدة ، ولكنها خالية من المعنى والحرارة ‥

والى عزلتـه جاء لينضاف شىء شـهوانى أيقظه بقوة فجور كيتى التحريضى ٠

كل شىء حوله اكتسى لذلك بمظهر عكر الى حد كبير ، فلم يلاحظ ان ذاته التى تولد من جديد ، ذاته الحقيقية ، رجولته ، كانت تنادى المرأة الأخرى ، المرأة الحقة ، النضرة ، القوية ، التى لا تسىء استخدام الحياة فتجعل منها شيئا مزيفا ومنحرفا ، بل تراها على ما هى عليه حقا حلوة وخشنة ومليئة بالمعانى والالغاز ، حافلة بالحمية والشوق ٠ كان قد غاب عنه انه منذ اليوم الذى أحس فيه أن كيانه صار جزءا لا يتجزأ من الوادى الكبير صار وجوده ينادى الأخرى ، ينادى المرأة بوظيفتها الكاملة، الوظيفة التى تجعل منها عشيقة وأما ، فرحة وسندا ، التى تجعل منها هى ذاتها صوتا للأرض ٠

قال لنفسه « بكل جلاء ، لم اعتقد قط أن للأرض صوتا خاصـا بها ٠ ولكنها فى الحقيقة لها حيويتها الخاصة ، وادراكها الخاص ، ورسالتها ، التى يمكن أن تصدر من الانفاس المنبعثة من أحشائها المحروثة ٠ ومن نباتها وفاكهتها ، من الناس الذين عايشوها ويفهمونها ٠ أجل ! وفروسو ، فروسو حبيبتى هى ذاتها نداء من نداءات الأرض ٠ ودون أن أعى ذلك ، رحت أحبها رويدا رويدا ، بعمق ، وقوة ، الى اللحظة التى بلغت فيها الأمور الى ما بلغت اليه ، واتحدنا كما لو كانت ارادة الله هى التى ألفت بيننا » ٠

انقطع حبل تفكيره بتأثير ألم شديد مباغت ٠ تذكر موديستوس ٠ الأخ الحبيب اختفى ، العجوز الحبيب اندثر ‥

أحس بالغضب يتصاعد بداخله ، اعتدل فى سريره واستند الى مرفقه واشعل سيجارة ٠

حسنا ٠ الالم والحزن لفقد هذا الانسان الحبيب أمر يمكن فهمه ٠ ولكن ما معنى تعذيب العجوز والأجهاز عليه ؟

لو كان القتل ارتكب بواسطة روبوتيكا ــ وهو ما تعتبر احتمالاته ضئيلة ــ فان الأمر لا يعنى الشيء الكثير ٠ زعيم العصابة هذا الذى تنطوى صحيفته على عديد من أعمال التعذيب والقتل ، أضاف الى قائمته جريمة أخرى من أجل خيانة بدت أول الأمر جسيمة ، ولكنها على حد قول فوليوتيس بحق هى حدث ثانوى الأهمية لن يلبث أن يكتسحها أول هبة من ريح مناوئة ٠

ولكن اذا كانت الجريمة قد ارتكبت بأمر من فوليوتيس ، فهذا يعنى الكثير ، والكثير جدا مما يثير القلق ٠ لن يكون ذلك فعلا من فعل مجرم ولا ذئب ٠ بل سنكون أزاء أخوة يقتتلون ٠ أخــــوة هم رجال مخلصون ، وطنيون ، مكافحون ٠ لن نكون اذن امام جريمة بل امام محنة قومية ٠

كان على أهبة أن يجرى مقارنات بين هذه الأحداث واحــــداث عام ١٨٢١ ،حيث راح أسود ثورة ذلك العام يقتتلون بدورهم ، وان يتقصى عما وراء تلك الأحداث من صراعات ايديولوجية ، وصراعات بين دول كبرى حطت ثقيلة على كاهل اليونان الممزقة ٠

ولكنه لم يوغل فى أفكاره بعيدا ، وقال لنفسه « فلأترك هــــذه التقصيات لآخرين فى أزمان قادمة ٠ أما بالنسبة لى فى هذه اللحظــة فعلى أن أعرف ماذا أفعل ٠ بالنحو الذى تجرى عليه أمورنا ، ما عــاد يستقيم ما كان قد كتبه لى العم سبيروس ٠ لا يجب أن ننتظر ان يصبح نزول الحلفاء على شواطئنا وشيكا ٠ لقد هب الاعصار ، وليس ثمــــة ما يوقفه ٠ سوف ننقسم ونقتتل وسوف يضيع الكفاح هباء وربمــا ضاعت معه اليونان ذاتها ٠ أما علينا جميعا ، ودون أن يتخلف واحد منا ، ان ننضم الى المنظمة واما علينا نحن الذين على خلاف معها ان نتضافر وننظم صفوفنا دون توان ٠ لا بد انهم لا يعرفون فى أثينــــا ما حدث هنا ، وسوف يكون الوقت متأخرا جدا لو عرفوا بذلك بعــد بضعة شهور ٠ يجب أن أجد وسيلة كى أذهب الى هناك وابلغهم ٠ ا. ارعى حقولى هذا حسن ، ان أحارب الاتحاد هذا بدوره حسن جدا ، ٠ لكن الذى انطلق من عقاله الآن أخطر ألف مرة ٠ يجب أن أذهب الى هناك ٠

هدأ قليلا عندما توصل الى قرار صائب • نفخ فى زجاج المصباح ليطفئه ، ورقد لينام •

هوت الطرقات على نافذته ، وايقظته • أوقد عودا من الثقاب ، ونظر فى ساعته • كانت الواحدة والنصف ليلا • راح قلبه يدق •

قال لنفسه :

ـ لا شك انها فروسو • لم تحتمل البعاد ، وعادت •

ذهب الى النافذة ، وسأل بصوت مضطرب :

ـ من هناك ؟

سمع صوتا مألوفا لأحد مترجمى الايطاليين يقول :

ـ انه أنا ، تسيريوس ، يا سيد كوليتيس • افتح لنا • نحن بحاجة الى استفسار •

ـ فى هذا الوقت ؟

ـ أجل ، أجل • انه عاجل • وضرورى •

ألقى دثارا على جسمه ، وفتح • دخل المترجم ، وتبعه صف ضابط ايطالى ، يشرع مسدسه ، وجنديان يمسك كل منهما بندقية •

قالوا له :

ـ ارتد ملابسك • ستأتى الى المدينة فى تحقيق •

ـ الا أستطيع الحضور صباح غد ؟ جرحت أمس ، وأعانى بعض الالم •

ـ مستحيل ، الأمر عاجل • ثم انك ستعود سريعا • لهذا يكفى أن ترتدى ثيابك ، ولا تحضر شيئا معك •

ـ اخرجوا من فضلكم ، لحظة كى أغير ملابسى •

قال له صف الضابط بلهجة آمرة :

ـ ارتد ملابسك • هل تشعر بالخجل ؟ هيا ، بسرعة !

اعتقد انهم جاءوا يبحثون عنه لاجراء تحقيق ، وتساءل ما اذا كان سوف يكون التحقيق بصدد ما حدث فى القديس ايليا ، أو ما حدث فى الغابة الصغيرة • ولكنه فهم الآن ان التحقيق كان مجرد تعلة • وليس ثمة وسيلة الأن يرفض الذهاب معهم •

عند باب البيت كان ريامو بانتظاره . لاحت الدموع في عينيه ، وقال بصوت مرتعش :

ـ يا سيدى ، يا بنى ، الى أين يأخذونك ؟

ابتدره قائلا :

ـ تشجع . ماذا بامكانهم أن يفعلوا بى ؟ أنت ، أسهر على الضيعة . وأسهر بالأخص على فروســو . قل لها اننى طلبت منك هذا فى اللحظة الأخيرة .

انحنى ريامو وقبل يده ، مبللا أياها بدموعه . عانقه نيكيتا . ثم خرج .

ولكن ما أن وطئت أقدامهم العتبة الأولى من السلم حتى اجفلوا ، فقد مزق الهواء صهيل وحشى مجنون . وفد حادا متوجعا . كان يريد أن يعبر عن شيء قوى جدا وأن يسمع صوته بعيدا جدا . امتد الصهيل بلا حدود . كما لو كان الحصان لا يتوقف ليسترجع انفاسه ، كما لو كان خطمه المحموم يخرج بصهيله الهواء كله الذى استجمعه فى أعماقه الى الوادى الفسيح .

أضاء وجه نيكيتا . مد يديه واحتجز مرافقه ، وأصغى بنهم الى حصانه الحبيب . **وصاح بأعلى ما يمكنه من صوت :**

ـ بيجاسوس ! .. بيجاسوس ! .. تعال ! تعال ! ..

أقلق ذلك الايطاليين ، وتوجسوا خيفة . أمسك الجنديان القريبان منه بذراعيه ، وارغماه على نزول درجات السلم الحجرى الصغير . وفى اللحظة ذاتها جلجلت فى ارجاء الحديقة أوامر عسكرية ايطالية ، وتعالت قعقعة أسلحة .

عندما خرج من العتمة امكنه أن يتبين ماذا يجرى ، على ضوء النجوم . فى كل ممر من ممرات الحديقة لمح جنودا ايطاليين مدججين بالسلاح ، وآخرين أيضا على مبعدة منهم . لاحظ حركة تدب بينهم . وبسرعة راحت الأحراش تهتز على نحو غريب . لابد انهم اعتقــدوا ان صيحاته تنطوى على دلالات تستهدف اطلاق اشارة خطر ، مما حملهم على أن يكونوا على أهبة الاستعداد .

جعله ذلك يشعر بالرضاء .

توقف برهة وجال ببصره فيما حوله • وضحك بشدة ضحكة طويلة ، ثم صاح فيهم بعبارة مألوفة بالايطالية :

ـ كل هذه الاحتياطات شرف كبير لى •



فى الغد ، قرب الظهر ، بدت لاريسا كما لو كانت تخلو بيوتها من أهلها ، راحوا يتدفقون متجهين الى ميدان المحطة ، فقد جرت الشائعات بانهم سيشحنونهم فى قطار يسافر بهم توا الى ايطاليا •

وبعد ذلك ، روى اثنان من راكبى الدراجات انهما كانا يمران بعد الظهر بقليل امام المعتقل فى الطرق القصى الآخر من المدينة فشاهدا المقبوض عليهم من ابناء لاريسا على مقربة من باب المعتقل يهمون بركوب عربات نقل مع خمسين مواطنا آخرين • والاصفاد فى أيديهم جميعا •

ومن ناحية أخرى ، دخل قطار الى المحطة ، وقد اغلقت جميع نوافذه • قيل ان بداخله عددا من المعتقلين • ثلاثون على حد قول البعض ، وخمسون على حد قول آخرين • وهؤلاء المعتقلون قادمون من أثينا ومن مدن غيرها •

وكما لو كان النبأ بحاجة الى تأكيد اضافى ، تناهى الى الاسماع فى الساعة الواحدة والنصف ان الاسر اخطرت بأن ترسل الى المحطة أقرب أقرباء كل من المعتقلين • وكان المعتقلون من أهل لاريسا سيدخلون فرادى من الباب الأيسر الضيق الذى يؤدى الى القضبان ، وهناك سيودعون ذويهم •

ومن ثم هرع الجميع الى هناك ، الرجال والنساء والكهول بل وحتى الأطفال • كانو ايخرجون قلقين خشية أن يفوتهم الميعاد ، متلهفين الى التعبير عن تعاطفهم وتقديرهم بل وقبل كل شىء عن تضامنهم • انهم لم يقدموا تضحية • ولم يتعرضوا لمخاطر ويعيشون فى أمان ، فلا أقل من أن يظهروا انهم فى صف أولئك الذين عرضوا أنفسهم للاخطار ، وان المدينة تقول لهم أحسنتم •

سرعان ما امتلأ ميدان المحطة الكبير • وفاضت الجموع على الحدائق المجاورة والشوارع القريبة •

لكن انتظارهم طال . ولم يروا شيئا . دقت الساعة الثالثة ، ثم الرابعة . ثم الخامسة . ولم تظهر أى عربة نقل . لو لم يكن الاهالى ينتظرون هناك على اليسار فى حراسة ثلاثة أو أربعة من الايطاليين لتبادر الى الذهن أن ثمة خطأ فيما تناهى الى الناس من انباء . نحو الساعة السابعة . **تعالت أصوات تقول :**

ـ ها هم ! ها هم !

أفسحت الجموع الطريق لقافلة من عربات النقل وصلت الى المحطة . ولكن بدلا من أن ينزل منها المعتقلون ، نزل منها جنود باعداد كبيرة ، عمدوا الى اخلاء الميدان بلا سابق ترتيب . ثم اصطفوا على الأرصفة وقد شرعوا حراب بنادقهم .

أحس الذين تجمعوا هناك جميعا بالفخر .

ـ لا بد أنهم يخشون أن نخلصهم من بين أيديهم .

ـ لا بد انهم يخافون الحوادث .

ـ حسنا فعلنا اذ لم ننصرف .

ـ هكذا سيعرف الايطاليون اننا وطنيون .

وبعد قليل تعالت من جديد أصوات محركات . ظهرت عربات نقل اخرى . بعضها مكشوفة وغاصة بالجنود ممسكين ببنادقهم ، وبعضها مغطاة تحجب ما بداخلها . خرجت العربتان الثالثة والرابعة عن الصف ، وانحرفت نحو الجانب الأيسر من المحطة .

الجانب الأيسر ! ناحية الاقارب ! ليس ثمة شك . أنهم هم !

حبس جميع الحاضرين أنفاسهم . اشرأبت أعناقهم ورفعوا قاماتهم على اطراف أصابع أقدامهم . جحظت عيونهم كى يروا مواطنيهم ، ويرصدوا كل ايماءة من ايماءاتهم . ارهفوا آذانهم حتى يلتقطوا ولو كلمة لحظة الفراق الكبير .

بكت زوجات أولئك الذين سيرحلون ، وبكى أطفالهم . كانوا يعانقون الرجال ، ويقبلونهم ، ولا يقوون على الابتعاد عنهم .

صاح طفل صغير :

ـ بابا ! الى أين يأخذونك يا أبى الصغير ؟

صاح آخر :

ـ يا أبى الصغير • لماذا أوثقوك هكذا ، هؤلاء القذرون ؟

راح آخر خنقته العبرات يصيح بلا انقطاع :

ـ أبى ! •• الى ! •• أبى ! ••

راحت زوجة الدكتور فائيديس تقول له باكية :

ـ كل شيء •• كل شيء •• أقسم لك •• سينتهى على خير • لا تقلق ابدا •• حافظ على صحتك •• يا زوجى ، يا حبيبى ، يا غالى ! •••

لم يكن هناك سوى واحد لم يأت أحد لوداعه • وقف منعزلا عن الآخرين قليلا ، يتابع مشاهد الوداع الموجعة ويتفادى النظر الى الايطاليين الموجودين على مقربة من جماعات الأهل والأقارب • ولماذا ينظر اليهم ؟ ما من أحد من المعتقلين يريد أن يراهم • وكان أحد هؤلاء الايطاليين صهر مانوسيس المتعجرف ، وبعضهم ضباط الصف الذين استجوبوهم بوحشية فى المعتقل •

ثم ما لبث الايطاليون أن شرعوا يفرقون المتعانقين • فتزايد الصراخ، وتضاعف البكاء والدموع • وهذه المرة ، بكى بعض المعتقلين أيضا •

قال أحد ضباط الصف لآخر بالايطالية :

ـ انظر كيف يبكى اليونانيون ! أهؤلاء هم الرجال الذين انتصروا على الجبهة الالبانية ؟

انفجر الاثنان فى الضحك ، واستدارا نحو نيكيتا • وألقيا أليه نظرة ساخرة • نظر اليه كاستيليون بدوره • ولأول مرة ذلك اليوم تلاقت عيناه بعينى نيكيتا اللتين كانتا صارمتين باردتين •

أحس نيكيتا فجأة بانه يجب أن يفعل شيئا •

الى جانبه ، وجد ـ من يدرى لماذا ومنذ متى ـ حجر ضخم مدبب • صعد عليه • **وصاح بالايطالية :**

ـ انهم الرجال الذين هزموكم على الجبة الالبانية ••

وفجأة ، مباغتا حراسه مثل البرق ، رفع كفيه الى فمه ، **وصاح الى الجموع بكل ما فى رئتيه من قوة :**

ـ آيرا ! عاشت اليونان !

هم أن يصيح من جديد ، ولكن أحد ضباط الصف انقض عليه بعنف والقاه أرضا • ولكن النداء لقى صداه •

من قريب ، ومن بعيد ، تعالت صياحات وحشية :

ـ آيـرا !

ـ آيـرا !

ـ عاشت اليونان !

ـ عاشت !

واثناء ان كان راقدا على الارض ، مضى أحد ضباط الصـف يركله بقدمه · وانحنى الآخر وصـفعه صـفعتين · ولكن بدا على نيكيتا انه لا يشعر بشيء · كان يضحك · يضحك بشدة ، ضحكا عصبيا · لم يكن بالامكان أن يقال ما اذا كان يضحك بسبب فرحة داخلية ، أم يفتعل الضحك ، كي يغيظ الاعداء الذين يضيقون عليه الخناق ، ويحاصرون الجموع ·

وفجأة ، اندفع كاستيليون ناحيته · أمسك بأحد ضابطى الصف من ذراعه والآخر من كتفه وجذبما بقوة آمرا اياهما بالابتعاد ·

نهض نيكيتا ·

حدق كل من الرجلين فى عينى الآخر · لم يكن ثمة كراهية فى نظراتهما ، بل ثقة بالنفس ، وكبرياء ، وبهجة · الأول لأنه كان صاحب السيادة وأتى فعلا من افعال الشهامة ، وان دلت هذه الاعتقالات فعلى بأس وطنه وتفوقه وهو ماض الى تحقيق أمجـاده الكبيرة ، وأخيرا لأنه بعد غد ، على وجه التحـديد ، سـوف يسافر بدوره من هـذه المحطة ذاتها كى يتزوج فى وطنه بالمرأة التى يحبها · أما الآخر ، فلأنه كتب عليه أن يجد نفســه فى الاصفاد دون أن يرضخ أو ينثنى · يسـام الهوان فى اغلال العبودية ، ومع ذلك يأبى الا أن يبث بتصديه للاعداء الشجاعة فى قلوب مواطنيه · وفى النهاية لأنه الآن وهو يرسف فى القيود رسخ لديه مزيد من اليقين بأن وطنه وان كان مغلوبا على أمره الا انه يعرف كيف ينتصر ·

كانت عيناه تومضان · تذكر شخصا عزيزا ، وكلمة قالها له ، لا زال يتردد فى اذنيه صداها : « ان عظمة اليونان ، يا نيكيتا ، انما تقاس بعظمة الروح والفكر » ·

من المحطة ، صاح الايطاليون بالمعتقلين ان يركبوا وبالمتمهلين منهم أن يسرعوا ، وعلى الأخص صاحوا ولوحوا لواحد كان آخر من ظل خارج باب المحطة الحديدى ·

وأثناء ما كانوا ينظرون ناحيته ، استبدت بهم الدهشة ، ففي اللحظة التي مر فيها آخر اليونانيين موثق اليدين بالاغلال أمام قائدهم المغرور الذي اشترك في كثير من المعارك ، رفع هذا القائد يده ، كما لو كان ذلك رغما عنه ، وأدى للسجين التحية العسكرية !

★ ★ ★

في عربة الدرجة الثالثة ، كدس المسجونون حتى انه لم يكن بالامكان أن يتمدد أحد منهم أو يبسط ساقيه · وبمصادفة طيبة وجد نيكيتا نفسه بجوار الدكتور فاثيديس ·

أثناء ليلة من الليالي العديدة التي استغرقتها الرحلة · وفي لحظة كان الآخرون جميعا يغطون في النوم ، **مال الطبيب ناحية نيكيتا وهمس في اذنه قائلا :**

ـ اريدك أن تعدني بشرفك أن تجيب بمنتهى الصدق على السؤال الذي سأوجه اليك ·

نظر الدكتور الى من حوله بارتباك ثم انكب من جديد على أذن نيكيتا وسأله :

ـ ما السبب الذي جعلهم يعتقلونني في اعتقادك ؟ ما السبب ؟

نظر اليه نيكيتا في دهشة ، ورأى على وجهه ملامح القلق الشديد ·

استطرد فاثيديس يقول :

ـ انت والآخرون · حسنا ، السبب معروف · ولكن أنا ؟

قال نيكيتا :

ـ لا أفهمك ، يا دكتور ·

أردف الآخر يقول :

ـ لا أرى سببا لاعتقالي ، وارجوك ان تقول لي الحقيقة · وعلى وجه التحديد بخصوص اعتقالي · هل تعتقد أن ذلك يخفي سرا ما ؟

كان صوته يرتعش · وعند الكلمات الأخيرة ازداد ارتعاشا · تصور نيكيتا الظنون المخيفة التي تمزق الطبيب ، وما عاد الآن يساوره شك في هول هذه الظنون · كان فاثيديس يخشى أن يكون قد قبضوا عليه

كى يخلو المجال لنيقوس مانوسيس بل لم يكن مستبعدا أيضا ان تكـون زوجته ضالعة فى الأمر ٠

قال له نيكيتا بحزم :

ـ أجل ، هناك سر ٠ لا بد انهم كانوا يتعقبونك ٠ لا بد انهـم اعتقدوا انك تنقل رسائلى الى الجماعة فى المسائل الهامة ٠

نظر اليه الطبيب بلهجة يشوبها الشك :

ـ أى رسائل ؟ الآخرون كانوا يعارضون ، ومع ذلك لم يعتقـل الجميع ٠ انهم لم يعتقلوا الا النصف ٠ اذن لماذا أنا ؟

عاد نيكيتا يقول بذات اللهجة الحازمة :

ـ قد يكون ذلك راجعا الى انهم القوا علينا القبض على عجل ٠ لماذا افلت خادرزيبيروس الذى كان من أكثر المتطرفـين والايجـابيين فى الحركة ؟ ثم ان أغلبنا لم يرتكب شيئا ذا بال ٠

ـ ولكننى أنا لم ارتكب شيئا ، لم ارتكب شيئا على الاطلاق ! اذن ، أليس من المحتمل أن يكونوا قد ألقوا القبض على لسبب آخر ؟

كان كما لو انه على وشك البكاء ٠ ربما فكر ان امرأته فى هذه الليلة ذاتها ٠٠ أحس نيكيتا بقلبه منقبضا ٠

تظاهر بالحزم ، وقال له :

ـ سألتنى أول الأمر لو كان هناك سبب خاص للقبض عليك ٠ فاجبتك بالايجاب ٠ ولكنك لا تبدو مصدقا ، ولذلك ، فانك تضطرنى ان اكشف لك عن أحداث يجب أن تبقى سرا ، ما دام كفاحنا مستمرا ٠ يعتقد الايطاليون انك ضالع بدورك فى هذه الأحداث ٠ ان رئيس رهبان القديس ايليا وجد مشنوقا ٠٠٠

ذهل الطبيب لما سمع ، نظر حوله مرتعبا غير قادر ألا آن يتمتم سائلا « متى ؟ كيف ؟ » ٠

أضاف نيكيتا بعض المعلومات ، وقال له انه لا يعـرف مصير الرهبان ولكنه سيعرف حتما من الرسائل التى سيتلقاها من الوطن ٠

سأل فائيديس :

ـ أهم الانفصاليون الذين فعلوا ذلك ؟

تردد لحظة ، ولكنه سرعان ما طرد الأفكار التى راودته :

ـ بلا شك . ومن غيرهم ؟

ـ هل يمكنك أن تقول لى ... هل للأمر علاقة بالاسلحة المخبأة ؟ أبسبب ذلك وجدتك مصابا ذلك الصباح الذى ذهبت فيه اليك ؟

بعد أن لزم الصمت برهة ، قال له وقد زاد من لهجته الحازمة :

ـ أجل . والآن ، يا دكتور ، لك أن تتصور جسامة المسألة التى وجدت نفسك ضالعا فيها ، واعتبروك قد لعبت دورا هاما فيها . لقد جئت الى غداة اليوم ذاته الذى جرى فيه شنق رئيس الرهبان ، وأيضا غداة اليوم الذى جرحت فيه أنا . انهم يعتبروننا أنا وأنت ، قد أسهمنا على ذات المستوى فى هذه الحكاية .

ـ **انى أفهم الآن ...**

تغيرت سحنة الطبيب العليلة . تلاشت منها امارات القلق ، وحل محلها قدر من الحيوية .

ـ هذا ما جعلهم يلقون القبض على .. أنت على حق .. بكل تأكيد هذا ما جعلهم يقبضون على ... لم أكن أعرف .. الأمر على غاية من الوضوح .. ولكن .

توقف ، فكر مليا ، واغتم من جديد . **ثم قال :**

ـ ولكن هذا يعنى اننى كنت معرضا لخطر كبير .. كان الأفضل اذن أن قبضوا على ، والا لقدمت الى المجلس العسكرى . وسوف كنت سأشعر بالخوف الشديد .. وكيف .. كيف كان سيمكننى أن أثبت .

وفجأة ، عاد الهدوء الى قلب الطبيب ، ولمع الفخر فى عينيه ، عندما امسك بيد نيكيتا وقال له مؤكدا :

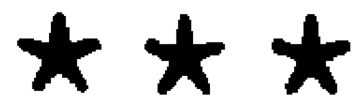
ـ كلا ، لا تصدق ما قلت ، يا سيد كوليتيس . كنت سأمثل أمام المجلس العسكرى بلا خوف . وكيف ينتابنى الخوف ؟ انها انتفاضة عام ١٨٢١ تبعث من جديد . هذا مدهش ! شىء لا يصدقه العقل ! كيف كان سينتابنى الخوف ؟ كنت سأجد نفسى أقف الى جانبكم .. الى جانب رجال شجعان .. مثلما فى عام ١٨٢١ .. وما كان سينتابنى أدنى خوف !

١٦

يا له من احساس غريب ذلك الذى يستحوذ عليـــك وأنت فى السجن !

العالم كله ـ العالم الخارجى ـ يبدو لك كما لو كان شيئا بعيدا جدا ، شيئا لم يكن له وجود تقريبا ، شيئا غير حقيقى رأيته فى الحلم ٠

تحس به وفى الوقت ذاته تدرك انه لا شىء ٠ تعرف ان الناس على الجانب الآخر من سور السجن يروحون ويغدون ، يذهبون الى حيث يشاءون ، يفعلون ما يروق لهم ، ينامون عندما يريدون ، ويأكلون ما طاب لهم ٠ تعرف كل ذلك ، ومع هذا يخيل اليك انه شىء غير معقول ٠ تلك الحياة هناك تبدو جد بعيدة ، وبمنأى عن متناول يد الجميع ٠ بينما أن أولئك الذين يحيون من حولك ، والنحو الذى ترونهم يعيشون عليه ، كل ذلك يعتبر حقيقة جد مختلفة عن العالم الخارجى ، فتشعر رغما عنك أن كل ما عدا هذا العالم الداخلى هو مجرد حلم خرافى ، من احلام الجنة ٠



وعندما أخرجوهم من السجن بعد شهرين فى مكان ما هناك بشمال ايطـاليا ، وقالوا انهم سيقتادون الى معسـكر اعتقال ، اعتقـدوا ان ذلك الاحساس الذى داخلهم فى السجـــن سيزول عنهم ٠ هناك ، سيتحركون قليلا ، وسيقل بعض من عذاب الجوع ، أو ربما لن يناموا على البلاط ، بغطائين هزيلين فحسب ٠

بالتأكيد ، تغيرت الأشياء هناك ، وسط معتقلين آخرين أجانب ، فقد خيل اليهم ان حدة الجوع قد خفت قليلا ، وان الرقاد على الاسرة الخشبية أفضل من البلاط البارد ٠

ومع ذلك ، فان احساسهم بحقيقتهم الخاصة ، وبلا واقعية مدينة الاحلام البعيدة ، لم تتلاش ٠ كل ما حدث ببساطة انهم وسعوا من الرقعة التى تدور عليها حياتهم ٠ تركوا أسوار السـجن الحجرية الضخمة الى الاسلاك الحديدية الشائكة المحيطة بالمعتقل ٠ والآن ، ما عـــادت المدن اللا واقعية واللامعقولة فيما وراء أسوار الفناء ، بل كانت فيما وراء شباك

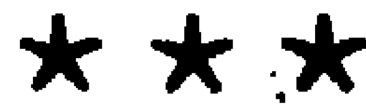
الاسلاك الحديدية ، وبخلاف ذلك ، فان حياة المعتقل ظلت هى الحقيقة الوحيدة ، الحقيقة التى يحيونها ، والتى كان يجب أن يحيوها دون امكان فعل شيء آخر ٠

يوما ما ، سوف يخرجون من هذا الأسر ٠٠ يوما ما سيعودون الى المدن الخرافية ٠٠ أجل ، ربما ٠٠ ولكن ذلك اليوم متى سيكون ؟ بعد ثلاث سنوات ، أم أربع ، أم خمس ؟ ثم انه اذا وضـــع فى الاعتبار ما انحدرت اليه حياتهم فى هذا الأسر فكم منهم سوف يموتون الى أن يحين ذلك اليوم ؟ وعندما سيخرجون ، كيف سيكون حال العالم ؟ وقبل كل شيء ماذ اسيكون حال هذا البلد الذى يوجدون فيه ؟ أى خراب ، وأى فوضى ، سوف تتركه الحرب فى بلد ستلحقه غدا الهزيمة والدمار ! ٠٠ كيف سيمكنهم اذن ان يفلتوا ، وان يهربوا من هذا البلد الذى ستستحوذ عليه الفوضى ! ٠٠

بكل تأكيد ، لو امكنهم ان يهربوا ،فان كل شيء ســيتغير ٠ ولكن كيف الهرب ؟ كيف الخروج من المعتقل ؟ واذا خرجوا فكيف ســيمكنهم أن يعيشوا فى بلد أجنبى ، ممزقى الثياب ، مفلسين ، وقد نحل جسدهم ونفرت عظامهم ؟

كلا ، كلا ! هــذا أســوأ ٠ ان الحقيقة بالنســبة لهم ، الحقيقة الوحيدة ، انما توجد منذ الآن داخل الأسلاك المليئة بالشوك ٠ أما كل ما عدا ذلك فهو بعيد ، لا يمكن التوصل اليه ، كما لو كان غير موجود٠

كان معسكر الاعتقال مقاما بين منشئات معدة لتجفيف مســتنقع كبير ، فى مكان فى أقصى شمال ايطاليا ٠



بالنهار ، كانت تعذبك حرارة عالية الرطوبة ، وخانقة الأنفاس ٠ وبالليل ، ترتعد أوصالك من البرد ٠

وعندما تهب النسمات من ناحية المستنقع الذى لم يكن قد جفف بأكمله بعد ، ترى فى الغروب سحبا صغيرة قاتمة وخفيضة تتجه مباشرة نحوك ٠ فاذا اقتربت منك تبينت انها أسراب من الناموس صعدت من برك فى موضع ما ٠ ويا للشقاء لو أدركتك هذه الأسراب قبل أن يتاح

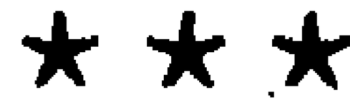
لك الوقت كى تنغلق فى العنابر الكبيرة ذات النوافذ المغطاة بالأسلاك الواقية ! هناك ، كان يجب أن تجد ملاذك وتهرب من هـذه السحب الحية وان تلازم مكانك حتى الصباح • ومن الأفضل أن يفترسك آلاف البق من أن يفترسك ملايين البعوض !

أما عن المرضى فحدث ولا حرج ! دب السقام فى أجساد المعتقلين الأكثر هزالا والأكبر سنا منذ الأسابيع الأولى • وراح غالبيتهم يبصقون دما • وعندما كان الآخرون يذهبون لزيارتهم فى المستشفى البدائى لبث الشجاعة فيهم ، كان أولئك الذين يذهبون يفقدون شجاعتهم ، ويعودون ممزقى القلوب •

كان مرأى المرضى يبعث الهلع وكان النظر الى الذين لازالوا يقفون على الأقدام ، أو النظر فى مرآة ، لا يبعث الخوف فحسب بل والاشمئزاز أيضا : فقد كان المعتقلون حليقى الـرؤوس ، نحيلى الابدان ، مهلهلى الثياب ، حفاة الأقدام ، فاذا انتعلوا أحذية فأحذية ثقيلة بدائية •

وبالاضافة إلى ما تقدم ، بل وربما أسوأ من كل ذلك ، كان الملل ينهش النفوس ، الملل الذى لا برء منه ! يوما العمل ؟ بما يشغل الوقت؟ كيف تقال أشياء قيلت آلاف المرات من قبل ؟

ومع ذلك ، كل يوم ، بعد الظهر ، كانت هناك بعض لحظات من الآمل : البريد • ذلك انه وان كان غير مسموح لهم بأن يكتبوا سوى خطاب واحد فى الأسبوع ، الا انه كان بالامكان أن يتلقوا أكثر من خطاب يرسل اليهم • بعد ظهر كل يوم ، كانوا يهرعون جميعا ، بلا استثناء ، آملين فى قلق أن ينادى اسمهم •



لم يتلق نيكيتا سوى خطاب واحد طوال هذا الوقت • ولكنه كان خطابا قيما فى الحقيقة • وصله من خادزيبيروس ، الذى كان يقول فيه كلمات غير صريحة ، ان كل شىء يسير على أفضل وجه منذ ترحيلهم ، فان هذا الاجراء الذى اتخذ ضدهم لم يلق الرعب فى القلوب قدرما بث الحماسة فى الصدور • وفى النهاية ، أخبره أن فروسولا أخذت على عاتقها راية كل الأصدقاء بلاريسا •

ومن ثم اعتبره تيكيتا خطابا هاما وجوهريا حقا ٠

ولكنه على أى حال لم يتلق الخطاب الذى ينتظره ، ذلك الذى كان بالامكان أن يغنى عن ألف خطاب غيره ٠ فهل يمكن أن يكون قد نسى الى هذا الحد ؟

ان أصدقاءه خارج اليونان لم يكونوا يعرفون أين هو ، ولا يتصور انهم يهتمون بأمره ٠ على أحسن الفروض ، ربما تذكره أحدهم ، وسأل صحبه « أين ألقت المقادير بكوليتيس ؟ » أو « أين يوجد نيكيتا الآن ؟ ٠ أو ربما يقول ضاحكا « كيف يعيش هذا الرجل الذى يصعب ارضاؤه فى تلك المصيدة الضيقة التى يسمونها اليونان ؟ » والى هنا سيتوقف اهتمام أولئك الناس الذين عاش معهم العديد من السنين ٠

أما العم سبيرو ، فلابد انه سيكتب له ٠ بل وسيسعى جاهدا ليرسل اليه نقودا ، ولكنه لابد انه لا يعرف بعد حتى عنوانه ٠

وأما من أثينا ، فلم يكن يتوقع أن يهتم به أحد أو أن يرسل له كلمة ٠

ومن لاريسا أيضا لم يكن بالامكان أن يتوقع خطابا ٠ الا من ذلك الشخص العزيز الذى يتوق اليه كثيرا ٠ أما غيرها فلابد انه قد مات أولئك الذين كان من المتوقع أن يكتبوا له ، كما ان الآخرين الذين كانوا سيكتبون اليه معه بالمعتقل ٠ وبغير هؤلاء ، لم تكن علاقته بأحد وطيدة . حتى يجرؤ فيكتب له ، لغير ما سبب خاص ٠

كان يمكن أن يقال بأن العالم كله قد أسقطه من عداد الأحياء ، وان أهل كل المدن التى يحلم بها من بعيد تعاهدوا على أن يوصد عليه باب مطبق وساحق ٠

وكم كان على استعداد أن يؤدى أى شىء كى يتلقى بدوره خطابا كل أسبوع على الأقل ٠

فى هذا الملل العطن الخانق ، فى هذه الحالة من التدهور الجسدى، كم كان على استعداد أن يعطى كى يكون له من وقت لآخر اتصال بالعالم الذى يحلم به وأن يتلقى كلمة تعنيه هو دون غيره ٠٠

فى ذلك اليوم ، بينما توجه الجميع الى توزيع الخطابات ، انفصل نيكيتا عن الآخرين .

حزن لأنه يظهر الغيرة والألم ، وهو يراهم مشرقى الأسارير يقرأون بنهم خطاباتهم .

انفصل عنهم ، وانتحى جانبا وجلس بجوار احدى الأشجار القليلة يحلم بالمستقبل . ظل هناك ، يحلم بأشجار الدردار الضخمة فى فتيليونا . وعندما سيعود الآخرون سيخبرونه لو كان يومة الموعود جاء ، ونادوا اسمه ضمن متلقى الرسائل ، وعندئذ سيجرى الى هناك .

ولكن الآخرين راحوا يمرون من أمامه . ولا أحد يقول له شيئا .

على أن الدكتور فاثيديس جاء وجلس الى جواره . ولما كان من الأصل شديد النحول . فان الاعتقال لم يغير من سيمائه كثيرا .

بدا عليه الضيق ، والرغبة فى أن يقول شيئا فسأله نيكيتا :
فسأله نيكيتا :

ـ هل تلقيت خطابا ، يا دكتور ؟

ـ تلقيت خطابين . واحدا من زوجتى العزيزة ، فولا الحبيبة . انها لعلمك تكتب لى كل يوم . والآخر من مساعدى بالعيادة .

لم يستفسر نيكيتا عما كتباه له . ما الذى يعنيه فيما كتبته زوجته أو كتبه مساعده .

نظر اليه الدكتور ، رغم ذلك . وبدا كما لو كان يهم بالكلام . كان مظهره مثيرا للشفقة ، وتخوفه من الحديث فى الوقت ذاته باعثا على الضحك .

وفى النهاية ، سأله نيكيتا مشجعا :

ـ هل حدث شىء ، يا دكتور ؟

فأجاب فاثيديس على الفور :

ـ أجل ، حدث شىء . كتب لى مساعدى بخصوص احدى المترددات على عيادتنا .. انها حامل .. وقد نصحها بأن تسقط الجنين ، ولكنها ترفض ذلك تماما !

كم كان الطبيب مثيرا للضجر بشواغله الصغيرة !

أجابه نيكيتا بعدم اكتراث :

ـ فلتحتفظ به ، اذن !

ـ حسنا ، ولكن بكل صنوف الحرمان التى تعانيها ٠٠

ـ لا تشغل بالك ، يا دكتور ٠٠ الأجدر أن تهتم بما نحن فيه من عذاب ٠٠٠

ـ لكنها غير متزوجة !

ضجرا ، غير مكترث ، وكما لو كان يلهو ايضا بعض الشيء ، ابتدره نيكيتا قائلا :

ـ حسنا ، فلتتخلص منه ، اذن !

تسربت الى صوت الطبيب نبرة يأس طفولى :

ـ ولكنها لا تريد ذلك ٠٠٠ لا تصغى الى ما يقال لها ٠٠٠ لا تريد ان تسمع شيئا بهذا الخصوص ٠

ـ اذن ، لماذا تصدع رأسك ؟ ومساعدك أيضا ، لماذا يحادثك في الامر ما دام لا يستطيع اقناعها بنفسه ؟

اكتست ملامح الطبيب بالامتعاض ، نظر اليه وهلة ثم أدار عينيه الى الناحية الاخرى ٠ ثم عاد ونظر اليه قلقا ٠ بدا كما لو كان يبذل جهدا خارقا ، ونجح فى ان يتمتم قائلا :

ـ أنت ٠٠ أنت وحدك الذى تستطيع اقناعها ٠

اجفل نيكيتا ، ثم عاد يعتدل فجاة وساله بحمية :

ـ أنا ؟ من هى

ـ ربما لا أحد غيرك ٠٠ انها ٠٠ كيف أخبرك ٠٠ انها فروسو ٠٠

ظل نيكيتا لحظة مذهولا ، ثم نهض بغتة ٠ يا له من احساس غريب ! لابد أن ساقيه كانتا جد خائرتين ، فقد خيل اليه ان الأرض ترتعد من تحته ٠ عندما دقها بقدميه ! أحس بالفرحة ، بالحياة ، بالسعادة !

صاح :

ـ فروسو حامل ، يا دكتور ؟

ـ أجل ، منذ اربعة أشهر ٠

ـ حذار يا دكتور ! حذار أن تفعل شيئا من هذا القبيل ! كلا ، حذار !

ـ لا تنزعج ! قلت لك ٠ انها لا تريد أن تفعل ذلك ، هى أيضا ٠

صاح فيه بنفس واحد :

ـ ومع ذلك ، فان مساعدك يصر ، ويطلب منك العون · يكتب اليك ! اسمع يا دكتور ، انني منذ وقت طويل لم أكتب خطابا باسمي· خذ دوري وأكتب الى مساعدك ، واذكر اسمي كراسل للخطاب · انهض ·

امسك بيده ، واقامه مثل ريشة ، وواصل القول بسرعة فائقة لاهث الأنفاس :

ـ أكتب خطابين ، خشية أن يضيع أحدهما · قل له اننا تزوجنا سرا · · كلا ، هذا ليس صحيحا · قل له اننا سوف نتزوج ما ان أعود · قل له على الأخص ان لا ينصحها بالاجهاض ، فلن أغفر له ذلك أبدا ، وسألاحقه طوال حياتي · على العكس ، فليعن بها ، عليه أن يزورها كل يوم ، ويتتبع حالتها ويوافينا بأخبار منتظمة · أما أنا فسأكتب فيما بعد خطابا مطولا · · · أما خطاباك فهما عاجلان · · انهما عاجلان جدا · ·

لم يسمعه الطبيب يتكلم بهذا الانفعال من قبل · فتمتم يقول له :

ـ سوف أكتب له · · سوف أكتب له · ·

ـ لا يكفي أن تكتب له · · أصدر اليه الأمر · · قل له ان يبذل كل ما في وسعه · سوف اعطيه نصف فتيليونا أتعابا له ·

ـ أجل ، أجل ، سأكتب له ·

ـ كلا ، لا يكفي أن تقول « سأكتب له » انهض ، يا دكتور ، اذهب حالا وأكتب له · أجر ! سوف نضع الخطابين في الصندوق الليلة ، ولكننا سنقرأهما قبل ذلك معا · اذهب ! سأنتظرك هنا · أجر ، من فضلك ، يا دكتور ، أجر !

كان وجه الطبيب النحيل يشع وميضا . وعيناه تبرقان · انهـا المرة الأولى التي يخاطب صديقه بلا كلفة :

ـ حسنا ، يا نيكيتا · اني ذاهب حالا ·

خطا خطوتين منصرفا ، ثم عاد ادراجه ، ونظر اليه نظرة مفعمة برقة بالغة · هم أن يقول شيئا ، ولكنه احجم ، وابتعد عدوا ·

يالها من فرحة تلك التى شعر بها نيكيتا ! يالها من فرحة غامرة ! طفل سيكبر بالقرب منه ، هو من صلبه . وسيكون امتدادا لوجوده · يا لها من سعادة ! ولكن هل ثمة فرحة من هذا القبيل على الأرض ؟ لماذا يتحدث عن مدن الأحلام البعيدة ! الحلم والفردوس هنا .. هنا ، فى جسده الذى علاه الهزال ·

لقد اكتمل بعثه الآن حقا · كان يتحدث من قبل عن انه بعث من جديد فى فتيليونا ! ولكن لم يكن ذلك سوى بداية · لقد هداه أخوه الذى لا ينسى انيكسى الى الطريق فحسب ، فتحه له ، ودفعه اليه ساعة موته · ولكنه الآن يصل الى منتهاه ، الآن يرى من بعيد النور الحق · الآن ، فروسو ··

ـ فروسو ، حبيبتى الغالية ، كيف أقول الى الى أى حد أحبك ، كيف أفصح لك عن حبى ، كيف أشرح لك اننى أصبحت رجلا آخر ·· ماذا أقول ! ·· أصبحت شيئا أكثر من رجل !

اسند ظهره الى الشجرة ·

كلا ، انه مخطىء · انه لا يستند الى الشجرة العليلة بالمستنقع الايطالى القديم ·

بعينيه المغرورقتين بالدموع رأى نفسه مستندا الى جذع ضخم لشجرة من أشجار الدردار ·

وعلى مبعدة قليلة سمقت أمامه شجرة الدردار العملاقة التى كانت أوراقها أغنى من أوراق أى شجرة أخرى فى فتيليونا ، لأنها قائمة فى شموخ عند الزاوية وتواجه بحرية كاملة السهل كله ، ونهر البيينة ، وجبل الأوليمب ، والشمس · كانت أكبر الأشجار وأجملها وتعلو عليها جميعا ·

كم كانت تحرك بتؤدة اغصانها ! لكنها لم تكن الحركة المعتادة ·· كان الدردار الضخم ملك الغابة يتوجه اليه هو ! ··· كما لو كانت أغصانه قد استحالت أذرع الوادى القوية تحييه ، تناديه ، وتوجه اليه بطريقتها الخاصة ، النداء الأبدى العميق للارض ·

والى جواره ، كان يراه بدوره بنظرته المغرورقة تلك ، كان يراه بوضوح غريب ، كان ابنه يقف الى جواره ·

كم كان سنه ؟

وماذا يعنى ذلك ؟ كان ابنه فحسب · هذا وحده كان المهم !
وذلك الطائر القادم من أغوار السـماء ، آكان اشـارة ، نداء ، رسالة ؟ أى طائر هذا ؟

ولكنه لم يكن مجرد طائر واحـد · خدعتـه عينـاه المنتشيتان بالدموع · كانت هناك طيور كثيرة · كان سربا بأسره · أجل ! ·· كانت طيورا مهاجرة ، كان رأس الحربة المثلثة التى يعرفها جيدا ·

استدار نحو ابنه وقال له :

ـ هل تراها ، يا صغيرى ؟ هل تراها ؟ فيما مضى كان أبوك ينكس راسه عندما يراها · أما الآن ·· الآن ، وانت بجانبه ، كيف ينكس رأسه ، ما دام قد صار بفضلك آكثر قوة أضحى قويا جدا ، كاد أن يصبح خالدا !

رأى أسراب الطيور تاتى من الاوليمب · وعند اقترابها منهما كانت تصرخ ·

أحاط ابنه بذراعه ، ولوح بذراعه الاخرى نحو السـماء بحركات رحيبة ، رفع عينيه الى الطيور ، وصاح بأقصى ما فى رئتيه من بأس :

ـ فليموتوا ! ··· فليموتوا ! مرحبا بمجيئكم ، وطابت رحلتكم ، يا قاهرى العواصف ، يا جبابرة السماء ! ··· اننا نحييكم ، نحن قاهرى البلايا ، جبابرة الوادى الكبير ، نحن نحييكم من هنا ، من جوار أشجار الدردار التى زرعها أجدادنا ، وقد انغرست جذورنا مثلها فى تربة اليونان ، نحييكم من هذا المكان المبارك الذى سمعت فيـه أول مـرة نداء الارض ·

(ميتسيفو ، يونية ١٩٦٣ ـ كيفيسيا ، مارس ١٩٦٤)

ملحوظة من المؤلف :

ان اسـماء جيوليـو فيانيللى ، ونيقوس رابتيس ، وثناسيس فاسوليس ، وتاكيس هادزيبيروس ، والكيفياديس ديامانديس ، وفاسيلى روبوتيكا ، هى اسماء حقيقية ، لأناس أصبحوا الآن فى عداد الاموات ٠

وقد مات الاثنان الأخيران كخائنين للوطن ٠

وبفضـل خطة دبرها هادزيبيروس عنـد بعض اقاربه المتصلين بالرومانيين نجح فى أن يدخل الى روعهم اليقين بأن ديامانديس قد تخلى عنهم فى سبيل الايطاليين ٠ ومن ثم استدرجوه فى صيف ١٩٤٢ الى بوخاريست « لتبادل وجهات النظر » ولكنهم لم يتركوه يرحل بعـد ذلك ٠ وعندما تغير النظام بعد الحرب حوكم وقضى عليه بالسجن مدى الحياة بوصفه فاشيا ٠ ثم مات فى السجن ٠

أما روبوتيكا فانه قرب نهاية الاحتلال وقع فى ايدى « المنظمـة الوطنية للتحرير » ٠ والى حمار احكموا وثاقه ، عاريا منفرج الساقين ورأسه متدليا نحو الذيل ٠ ومرروه على الجمـاهير فى الاقـاليم التى تعرضت للتعذيب بضربات سياطه ٠

وفيما يتعلق بموته ، لم يعثر على شـاهدى عيان ، وثمة روايتان متداولتان : طبقا للأولى فانه بعد أيام عديدة أثناء مرور الدابة على حافة جرف ، مالت بثقلها نحو الهاوية . فسقطت فيها حيث تهشت عظامهـا وعظام من ربط اليها ٠ وطبقا للرواية الثانية ، أعيد ربطه الى ذيل حصان راح يجرجره على الأرض مثل أسنان نورج ، من قرية الى أخرى ، حتى الموت ٠ ويقال ٠ « ان صرخاته المفجعة ترددت أصداؤها بين الجبال » ٠

كما أن جوليميس ودوتياديس وسـكورتيس ونيقوس مانوسيس زبينيولى وبازى وبازيبولينى وفوجيرو اسماء داخلها قليل من التحريف ٠

اما سائر الشخصيات الاخرى فهى من صنع الخيال ٠

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العــامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤٣٧٢

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٦٦٦ ـ ٦

هذا الكتاب

الوطنية إحساس عميق يجرى فى العروق ، هذا الإحساس قادر فى اللحظات المصيرية أن ينتشل الإنسان من الضياع والعزلة والهزيمة .

ومن خلال هذا الإطار ، تجرى احداث هذه الرواية التى كتبها الكاتب اليونانى الكبير ايقا نجلوس أقيروف ، وعرض فيها مشاهد حب وتضحية وانتهازية وخيانة وبطولة .. وقد نالت هذه الرواية تقدير الأوساط الأدبية فى اليونان وفى عديد من البلدان الأوربية .

٣٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب